الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي.

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين و الشريعة
والحضارة الإسلامية.
قسم: العقيدة ومقارنة الأديان.
شعبة: العقيدة.

رقم الإيداع:...../.....

الرقم التسلسلي:.....

دلائل التوحيد وتأثيره في الحياة في القرآن الكريم

-سورة الأنعام نموذجا-

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالبة:
دنيازاد سابغ

تحت إشراف الأستاذ الدكتور
صالح نعمان

لجنة المناقشة

الرئيس	أ.د.رمضان يخلف	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
المقرر	د.صالح نعمان	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د.عمار طسطاس	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د.حجيبة شيدخ	أستاذة محاضرة	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الجامعية: 2005-2006.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ. وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 1-3]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــداء

إلى من ربانى والدا، وعلمنى أستاذا،

وهذبنى مرشدا، وأخذ بيدى إلى سبيل

التوفيق فى جميع الأعمال.

-والدايّ، إخوتي، وأساتذتي.

دنيـــازاد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الذين منحوني من علمهم وفضلهم وتوجيههم ما بصرني بدروب الحياة، وأنار لي معالم الطريق، وأخص بالذكر:

-الدكتور: صالح نعمان، مشرفي الذي هو نعم المربي والمرشد، فجزاه الله خير الجزاء على ما يبذله من جهد مع طلبة العلم.

-أستاذي الدكتور: مولود سعادة، باعث الهمم الذي زودني بما لم أجده في صفحات الكتب.

-أستاذي الدكتور: رمضان يخلف الذي منحني من وقته وعلمه ما يسر لي سبيل البحث.

-كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى من كانت سندي وعوني في رحلة طلب العلم صونيا منصري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقـــــدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمـــد لله رب العالمين سابغ النعم على خلقه أجمعين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرســـلين محمـــد بـــن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد.

التعريف بالموضوع:

فـــإن التديـــن فطرة فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان عليها، فما من مجتمع أو أمة إلا ولها توجهـــا نحو التدين، إلا أن ظهور هذه الفطرة وتجليها اختلف من أمة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخـــر، فقـــد كشـــف عـــن هذا الميل الفطري ألوان الاعتقادات والتصورات التي أثبتتها الدراسات الاجتماعية في هذا المجال.

ونظـــرا لأهمية هذا الجانب في حياة الإنسان، وخطورته في الوقت نفسه، وضرورة توجيهه تعاقبـــت رسالات السماء من أجل توجيه الإنسانية وإعادتها إلى الفطرة، كلما طمست فطرتها وحلت البدع والضلالات، فكان جوهر دعوة الأنبياء ولبها هو التوحيد، والذي جمعت معناه كلمة "لا إله إلا الله"، وآخر هذه الرسالات السماوية وخاتمتها رسالة محمد ﷺ.

فالمـــتأمل فـــي الفـــترة التـــي نزل فيها القرآن الكريم يلحظ تجذر تلك الضلالات وانحراف الإنســـان إلـــى اتخـــاذ أشكال وصور من الشرك، ويلحظ تركيز القرآن الكريم على إبطالها وتغيير معـــتقدات الناس إلى الاعتقاد الصحيح، وذلك بأسلوب ومنهج فريد مكّن به لهذه الحقيقة -التوحيد- فـــي الـــنفوس، فحملـــتها إيمانا وعملا، وانعكس ذلك على مختلف جوانب النشاط الإنساني، فتحققت الحضارة التي لا زالت الإنسانية تشهد بتميزها.

الإشكالية:

ولقـــد أدرك علمـــاء المسلمين قديما أهمية التوحيد، فاعتنوا ببيانه وتبليغه والدفاع عنه كلما طـــرأت عليه الشكوك، ووردت إليه الطعون والشبهات وأصاب أهله الزيغ والانحراف، واستنبطوا

من القرآن الكريم الأدلة المتعددة وعرضوها بمناهجهم الخاصة، مستعينين بما ساد في عصرهم من علـــوم ومعـــارف وفلسفات، إلا أن نقل كثير من صور استدلالاتهم تلك لم تعد مقنعة لإنسان اليوم، فـــإلى جانـــب التطور العلمي التجريبي المعاصر والتسليم بنتائجه والاعتقاد بصدقها وأحقيتها، وإلى جانـــب الـــتخلف والـــتدهور الذي تعيشه الأمة الإسلامية، برزت جملة من التحديات صعّبت مهمة استعادة الأمة الإسلامية لمكانتها ودورها أمام سائر الأمم باعتبارها شاهدة على الناس، أهمها امتداد تأثير موجة الشرك والإلحاد التي سادت في الحضارة الغربية بسبب استغلال الفلسفات المادية لنتائج العلـــم، وأخذهـــا كمســـلمات لبـــثّ أفكارها وتصوراتها عن الوجود، فاغترت بها فئة من المسلمين واعـــتقدت أحقيتها، وولدت عند بعضها الشعور بالدونية تجاه ما تقدمه من أفكار ومفاهيم مصبوغة بصبغة العلم، وأصبحت لا تقتنع إلا بالمحسوس، كما شاب اعتقاد بعضهم شوائب أدت إلى غبش في تصورهم لحقيقة التوحيد، ففقدت عقيدتهم فعاليتها وإشعاعها، وأصبح الإنسان يسلك في حياته سلوكا مخالفـــا لما يعتقد، ولقد تعددت وجهات النظر في تشخيص الداء ومعرفة أسبابه لاقتراح المنهج الذي يمكن من العلاج وتجاوز التخلف، وأهمها وجهتي النظر الآتيتين:

وجهـــة النظر الأولى: وهي التي أرجعت السبب إلى عدم فهم المسلمين لحقيقة عقيدتهم مع عجـــز تـــراثهم الفكري عن القيام بدوره في بيان وإثبات تلك الحقائق الإيمانية، وعلى رأسها عقيدة التوحيد، لذا فإنه لعلاج هذا الوضع لابد من الانطلاق من قراءة جديدة للقرآن الكريم، ووضع مناهج جديـــدة تختلف عن المناهج التي انبنت عليها العلوم الإسلامية المعروفة في الفكر الإسلامي، اقتداء بالحضـــارة الغربية التي لا زالت تغير مناهجها كلما اكتشفت خمود فعالية المناهج التي اعتمدتها في مســـيرتها مـــن أجـــل التطور والحفاظ على مكانة الريادة والأسبقية، فكانت هذه النظرة نتيجة التأثر بالغرب.

ووجهـــة النظر الثانية: هي التي أرجعت السبب إلى الثوابت والقواعد الأساسية التي انطلقت مـــنها الأمة الإسلامية استجابة لحركتها في الواقع انطلاقا من قناعة ومسلمة بأن الأمم على اختلاف ثوابـــتها وأسســـها وقواعدهـــا قد تنتهي إلى وضع من التطور تصبح فيه لا تستجيب لحركة ثوابتها وأسســـها فـــي الواقـــع، فيفرض عليها الوضع إعادة النظر في هذا الواقع الجديد ومحاولة التجديد، ويحدث أن يمتد هذا العمل فيمس تلك الثوابت الأساسية انطلاقا من قناعتها بأنها أصبحت غير قادرة علـــى تطوير الحياة، وأن الواقع بما طرأ عليه من جديد تجاوز تلك الثوابت والأسس، وأصبح حجة علـــيها، والمقـــياس الـــذي يرجع إليه في تقييمها، ومنه تغيير مناهجها وأفكارها انطلاقا من رفض الأسس التي كانت قد انطلقت منها، ومن ثمة فهذه النظرة لا تعدو أن تكون نتيجة مظاهر الشرك في

المجتمع الإسلامي، مما أدى إلى انفصال السلوك عن الاعتقاد.

وبذلك يمكن القول أن وجهتي النظر هاتين لا تعدوان أن تكونا قد تأثرتا واغترتا بالحضارة الغربية ومناهجها، إذ لم تراعيا فيها عن قصد أو غير قصد الواقع الحقيقي للمسلمين وثقافتهم وطبيعة مبادئهم وأسسهم المستمدة من الأصول العقائدية الثابتة، وكذا طبيعة التراث الفكري الذي على الرغم من السلبيات التي اكتشفت فيه إلا أن الاستفادة مما تميز به لابد منه لأن إلغاءه بالكامل معناه التخلي عن أهم ما يضمن لهذه الأمة استمراريتها.

فهذا الوضع وهذه التحديات فرضت ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم والاستفادة من منهجه وأسلوبه لاستخراج الدلائل المثبتة لوحدانية الله تعالى، وبيان آثارها على حياة الفرد والمجتمع، إذ قدّم الأدلة الكافية على ذلك.

وسورة الأنعام تعدّ النموذج الأمثل الذي يمثل السور المكية في معالجتها العقيدة بموضوعاتها الأساسية: التوحيد، النبوة واليوم الآخر، بل تزيد عليها كونها تناولت التوحيد مرتبطا بالقضايا التشريعية، أي ربطت بين العقيدة والعمل، فبينت بذلك حقيقة التوحيد كاملة، وآثار هذا التوحيد على سلوك الفرد وعلى نفسيته، وعليه:

-كيف عالج القرآن الكريم -سورة الأنعام- قضية التوحيد؟ وما هي نواقضه؟

-ما هي دلائل التوحيد أو ما هو منهج القرآن الكريم في هذه السورة في الاستدلال على التوحيد ونقض مضاداته؟

-وما هي الدلائل التي وجه القرآن الكريم نظر الإنسان إليها لإثبات وحدانية الله تعالى في هذه السورة -سورة الأنعام-؟ وكيف كانت طبيعتها؟

-وما الهدف من عناية القرآن الكريم بالتوحيد؟

-وما ثمرة الإيمان بالتوحيد وتحقيقه في حياة الإنسان؟

-ما هي آثار الشرك والإلحاد على حياة الإنسان؟

وبناء على هذه الإشكالية، حددت الموضوع بالصياغة الآتية:

"دلائل التوحيد وتأثيره في الحياة في القرآن الكريم -سورة الأنعام نموذجا-"

أهمية الموضوع:

ولا شك أن البحث في أصول الدين من أهم ما تحتاج إليه الإنسانية في عصرنا الحالي، ناهيك إذا تعلق الأمر بأهم أصول الإيمان الذي جاءت جميع الرسل لتقريره وهو التوحيد. لذلك فإن الدراسة تستمد أهميتها من كونها تتناول جوهر العقيدة الإسلامية، وأول باب من أبواب القرآن الكريم وأعلى مقاصده، وتقدم أدلة إثباته انطلاقا من القرآن الكريم الذي اعتنى عناية كبيرة بهذه الحقيقة، لما لها من قيمة كبرى وتأثير في حياة الإنسان، وذلك بمنهج استدلالي فريد تميز بقدرته على مخاطبة الإنسان بكل ملكاته، وبالتالي مخاطبة كل مستويات البشرية، وفي كل زمان ومكان، وهذا ما نحتاج إليه لمخاطبة العقلية المعاصرة التي لا تقتنع إلا بالأدلة العلمية العملية، كما تتعزز أهميته بشكل أكبر من خلال السورة المختارة "الأنعام" التي تعدّ أهم السور التي اشتملت على مباحث العقيدة الإسلامية، إذ جلّت حقيقة التوحيد بذكر أفعاله وسننه تعالى في الخلق، وآياته في الآفاق والأنفس، وتأثير العقائد في الأعمال، ودفعت الشبه عنها وأبطلت عقائد أهل الشرك وخرافاتهم، ولا أدل على هذه الخصوصية من نزولها دفعة واحدة وتشييع سبعين ألفا من الملائكة لها كما ثبت في الأحاديث. فقد روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح»، وقال: «نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة»[1].

كما تتجلى أهمية دراسة التوحيد على مستوى الواقع في بيانها لثمرة الإيمان به، والتي تدفع إلى تحمله اعتقادا وسلوكا بقناعة راسخة يثبت صاحبها أمام الشبهات والتحديات، ويساهم في تطوير الحياة نحو الأفضل، ويرد كثيرا من شبهات المنكرين.

الأسباب والدوافع:

ولقد كان اختياري لهذا الموضوع لأسباب ودوافع أجملها فيما يأتي:

-ضعف الإيمان والتباس تصور التوحيد بالشرك، وما تبعه من انفصال بين التصديق والعمل عند المسلمين أدى إلى قصور الرؤية لغاية الحياة ولحقيقة ثنائية الوجود المتمثلة في العلاقات الوجودية الثلاث: الإنسان والله، الإنسان والإنسان، الإنسان والكون.

---

(1)-جلال الدين السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج3، ص2.

-الابـتعاد عن منهج القرآن الكريم في الاستدلال على الحقائق العقدية وبيان حقيقتها، تأثرا ببعض صور الاستدلالات الكلامية الضعيفة، والأدلة التجريدية البعيدة عن واقع الناس.

-خصوصـية سـورة الأنعام في اشتمالها لكثير من مباحث العقيدة الإسلامية ومعالجتها لها على سبيل التفصيل، إذ تناولت التوحيد وبينت حقيقته كاملة.

-نقص الدراسات لسورة الأنعام دراسة موضوعية عقدية.

-الهـزيمة الداخلـية عـند بعـض المسلمين بسبب ما تروجه بعض الفلسفات التي استغلت التطور العلمي المعاصر من أن العلم هو المهيمن والقرآن هو التابع.

-أهمـية البحـث في آفاق الكون والنفس لإثبات الحقيقة التي لفت إليها القرآن الكريم أنظار البشرية.

-الترويج للأفكار المنحرفة -شرك وإلحاد- المضادة للدين عبر جميع الوسائل الإعلامية.

-الحاجـة إلـى الرد على الشبه المثارة حول العقيدة الإسلامية أنها دين روحي لا علاقة له بالحياة الاجتماعية.

-حاجة الإنسان اليوم إلى من يحرره من القيود التي تكبل عقله وتغطي فطرته.

-عجـز الإنسـان عن الوصول إلى الإجابة عن الأسئلة الكبرى عن الله والكون والإنسان، وهـو مـا سـبب له العجـز عـن إدراك قيمته وحقيقته وغياب النظرة الحقيقية لقيمة فعله وأثره، ومسؤوليته عن هذا العمل.

أهداف البحث:

أما الأهداف المرجوة من هذا البحث، فهي:

-بيان حقيقة التوحيد والكشف عن دلائله الواردة في سورة الأنعام.

-الكشف عن الهدف الذي من أجله وجه القرآن الكريم عنايته بالتوحيد بتقديم تلك الدلائل.

-الكشف عن الهدف الذي من أجله وجه القرآن الكريم نظر الإنسان لتلك الدلائل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-بيان ثمرة الإيمان بهذا التوحيد وتحقيقه في حياة الإنسان.

-بسط حقيقة التوحيد في القرآن الكريم وتأثيرات هذا التصور الإيمانية والنفسية والعلمية في الحياة.

-بيان أهمية ودور القرآن الكريم في الكشف عن الحلول للتساؤلات المطروحة في المجال العقدي، ومن ذلك يستفيد الباحث من منهجه في هذا المجال.

-الفهم الصحيح لحقيقة التوحيد وتحقيق القناعة الراسخة به، ووصله بالإرادة ليتحقق العمل بمقتضيات الدين وأغراضه في الحياة العملية والتعامل مع الكون تعاملا رشيدا يحقق الغاية من وجود الإنسان.

-تأكيد أهمية توظيف نتائج العلوم المعاصرة في إثبات وجود الله ووحدانيته، وتجديد الخطاب العقدي الدعوي.

-المساهمة في تقديم وعرض عقيدة التوحيد بأسلوب يتلاءم وطبيعة العصر الحاضر بمنهج القرآن الكريم، ذلك أن المؤلفات القديمة والمصادر تتسم في أغلبها بصعوبة أسلوب علم الكلام الجاف كان مناسبا لعصر مضى وبعده عن اهتمامات العصر والمستوى الفكري للناشئة.

-الاستفادة من التراث الفكري في تحقيق ما سبق ذكره.

الدراسات السابقة:

فيما يتعلق بالدراسات السابقة التي تناولت الموضوع بالطريقة التي حددتها، وفي حدود بحثي واطلاعي لم أجد إلا ما كان منها يمسّ بعض جوانب الموضوع وبيانها كالآتي:

أولا: من حيث المنهج

1-رسالة ماجستير بعنوان "بعض معالم المجتمع الإسلامي من سورة الأحزاب" للطالب "عبد الوهاب لطف زيد الديلمي"، والتي نوقشت عام 1398هـ الموافق لـ1978م بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

2-رسالة ماجستير بعنوان "الآداب الاجتماعية في سورة النور" للطالبة "صونيا وافق"

نوقشـــت عـــام 1996م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة-الجزائر، معهد أصول الدين.

ثانيا: من حيث الموضوع

-كـــتاب "دلائـــل التوحـــيد انطلاقا من القرآن والكون -شرح لآيات دلائل التوحيد والقدرة والبعث في القرآن-" ألفه عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1420 هـــ-1992م بيّن فيه صاحبه دعوة القرآن الكريم إلى النظر في أسرار الكون والاستدلال به على الله ﷻ، ومـــنهجه فـــي ذكر دلائل التوحيد، مع بيانه لطرق العلماء في الاستدلال على وحدانية الله تعالى، وكان محور الدراسة استقراء الآيات المتعلقة بدلائل التوحيد، ثم شرحها شرحا مختصرا.

ثالثا: من حيث المنهج والموضوع

الرســـالة التي بعنوان "مباحث العقيدة في سورة الزمر" للطالب "ناصر بن علي عايض حسن الشـــيخ"، نوقشت بتاريخ 1406/07/21هـــ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، شعبة العقيدة، وقد تـــم طبعها. تعتبر هذه الرسالة محاولة في بيان دلالة السورة على المباحث العقدية لإثباتها، والمطلع على هذه الدراسة يلحظ اشتمالها على المباحث الكلامية السابقة، مثل إثبات كون القرآن الكريم كلام الله مـــنزل غـــير مخلوق، وإثبات صفة اليدين لله تعالى، وصفة علوّه واستوائه وغيرها، ويبين آراء المتكلمين والفلاسفة في ذلك.

وهـــي كلهـــا دراسات ركزت على الجانب النظري التقريري للعقيدة الإسلامية ومقتضياتها، ولم تدرس الجانب العملي أو البعد الواقعي لعقيدة التوحيد، كما سأبينه في هذا البحث.

مراحل البحث:

وسعيا للإجابة عن الإشكالية وتحقيقا للأهداف السابقة، قسمت الموضوع كالآتي:

فبعد المقدمة وضعت مدخلا لثلاث فصول، وكل فصل قسمته إلى مبحثين.

فجعلـــت الفصـــل الأول بعنوان "حقيقة التوحيد وحمل الإنسان لها من خلال سورة الأنعام"، وضمنته مبحثين، عنوان المبحث الأول "حقيقة التوحيد ومقتضياته من خلال سورة الأنعام"، المطلب الأول بـــــ"مقتضـــيات التوحـــيد المتعلقة بالتصور"، والمطلب الثاني بـــ"مقتضيات التوحيد المتعلقة

بالسلوك"، وعنوان المبحث الثاني "حمل الإنسان لأمانة التوحيد"، المطلب الأول منه بعنوان "نماذج الالتزام بالتوحيد كما تبينها سورة الأنعام"، والمطلب الثاني "حقيقة الانحراف عن التوحيد" والمطلب الثالث "أسباب الانحراف عن التوحيد"، وذلك انطلاقا مما جاء في سورة الأنعام من بيان لحقيقة التوحيد بأنه لا تكتمل حقيقته إلا بتحقيق مقتضياته، وضرورة وأهمية الالتزام به، ومن بيان لحقيقة الانحراف عنه وخطر هذا الانحراف، والانتهاء من خلال ذلك إلى حل لبعض المسائل المطروحة، كمسألة ما إذا كان القرآن الكريم جاء لمعالجة قضية وجود الله مع معالجة قضية التوحيد، أم أن مسألة وجود الله لم تكن من قضاياه الأساسية، لعدم طرح هذه المسألة في الواقع الإنساني في شبه الجزيرة العربية خلال فترة النزول، للانتهاء إلى تقرير مسألة مهمة وهي أن القرآن الكريم جاء لعلاج الانحراف عن التوحيد –الكفر، الشرك، والإلحاد– والعودة بالإنسانية إلى الاستقامة على دين التوحيد، وإن لم تظهر مسألة وجود الله بصفة جلية، فإن علاجه لمسألة الانحراف عن التوحيد يجعلنا ندرجه ضمن مقاصده.

وكذا أهمية توضيح كل ذلك عن طريق النماذج –نماذج الالتزام، ونماذج الانحراف– التي نقل لنا القرآن الكريم قصصها، لما في ذلك من دور كبير في تجلية الحقائق انطلاقا من صدق وقوعها، وكذا أهمية كشف أسباب هذا الانحراف ليسهل تجنبها، وبذلك تجنب الخطر الناتج عنها، ولتتأكد حقيقة فطرية التوحيد، فهي من المسائل المهمة التي تتطلبها الإجابة عن التساؤلات المطروحة الآن في الفكر الإنساني للوصول إلى الإجابة المقنعة لحيرته الوجودية، وهو ما يستلزم الانطلاق من بيان حقيقة التاريخ الإنساني كما نقله القرآن الكريم، لتفنيد المقولات التي تريد أن تفرض نفسها وتثبت بأن الإنسان في تطوره التاريخي انطلق من بدائية تفتقر إلى القيم الإنسانية، ثم انتقل في الارتقاء والتطور إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن، ويستمر في تطوره إلى أن يبلغ مرحلة التوحيد، وهو آخر ما تصل إليه الإنسانية، وهي مقولة خطيرة ينتج عنها تساؤلات تمس بذات الله سبحانه وتعالى، وتقدح في كمال صفاته، كنفي العدل عنه ﷻ لمحاسبته ﷻ الناس الذين كانوا في طور الشرك، وهو أمر مقدور عليه، بمثل ما يحاسب عليه الناس الذين انتهوا في آخر أطوار الإنسانية إلى التوحيد، خاصة وأن القرآن الكريم قرر بأن الشرك يحبط الأعمال ويوجب العقاب وهو ما ينافي العدل، ولذلك فإن توضيح هذه القضية وبيانها يعين على فهم وكذا حل إشكالات معرفية وقع فيها الإنسان خلال بنائه المعرفي وبعيدا عن الأخذ بالوحي.

وجعلت الفصل الثاني بعنوان "دلائل وحدانية الله تعالى من خلال سورة الأنعام"، وضمنته مبحثين، عنوان المبحث الأول "دلائل الآفاق على وحدانية الله تعالى"، المطلب الأول منه عنوانه

"مفهـــوم الآفـــاق"، والمطلـــب الثاني "دلائل الخلق"، والمطلب الثالث "دلائل النظام والتسخير"، والمطلب الـــرابع "دلائـــل الجمال الكوني". والمبحث الثاني: "دلائل الأنفس على وحدانية الله تعالى" المطلب الأول منه بعنوان "مفهوم الأنفس"، والمطلب الثاني "دلائل الخلق" والمطلب الثالث "دليل الضعف والحاجة".

وذلـــك لتوضـــيح حقـــيقة أن هذا التوحيد لم يكن من الأمور النظرية التي تجتمع في إثباتها الأدلة الواقعية، وإنما هو حقيقة واقعية أثبتتها الأدلة الواقعية، فقد انتشرت في هذا العصر موجة من الشـــرك والإلحاد، نتيجة الاغترار بنتائج التطور العلمي والفكري، ومنه توجيه شبهات مغرضة ضد الديـــن بصـــفة عامـــة والإسلام بصفة خاصة، والانتهاء إلى القول بأن الدين مقابل للعلم، وأن العلم كشـــف وأكد خرافة الدين، فكان عرض هذه الدلائل وبيانها من أيسر السبل وأوضحها في بيان هذه الحقـــائق، إذ لا يشـــترط في معرفته تعالى الطريق العقلي الطويل، والخطوات الطويلة التي تتطلبها صـــناعة المنطق، إذ قد يختصرها الإنسان في لحظة من لحظات الصفاء العقلي والفطري، وقد ثبت عجز طريق المنطق الطويل عن إقناع إنسان اليوم، ثم إن فكرة الخلق التي نتناولها كدليل من دلائل وحدانيـــته تعالى احتلت مركز الصدارة في الفكر الديني بشكل عام، والدين الإسلامي بشكل خاص، فالتســـليم بصـــحة الدين كله يتوقف على التسليم بصحتها، ولذلك سنعمد إلى بيان حقيقتها واستدلال القـــرآن الكـــريم بهـــا، وقد أكثر عرضها والحديث عنها في العديد من الآيات، وبيّن من خلال هذا العـــرض حقـــيقة الخلـــق وكيفيته، ذلك كله لأن فهم فكرة التوحيد –وهو ركن الزاوية في الإسلام– يـــتوقف على فهم فكرة الخلق، ثم بيان ما يتبعها وينبثق من أهميتها من بيان لبعض الحقائق المتعلقة بها والكاشفة عن وحدانيته تعالى كالنظام والتسخير وكذا الجمال.

وإلـــى جانـــب أهمـــية بيان حقيقة الخلق، فإن التركيز على الأبعاد التكوينية للإنسان وذلك بإفـــراده في مبحث مستقل له أهمية قصوى في كشف وتوضيح ما يشترك فيه مع الكائنات الأخرى، وكـــذا ما يميزه عنها، وهو ما يعين على تحديد الموقع الحقيقي الذي يشغله الإنسان في هذا الكون. ومـــنه تحديـــد وضـــبط علاقة الإنسان بالكون وعلاقته بأخيه الإنسان، وربطه من خلالها بالخالق ســـبحانه وتعـــالى، ومن خلالها التأصيل لهذه العلاقة واستجلاء مسألتين هامتين: الأولى إبراز قيمة الإنســـان مقارنة مع بقية الكائنات، والثانية إبراز أهمية الدور المنوط بالإنسان في هذه الحياة، ومن خلالها تتأكد واقعية الحلول التي يقدمها القرآن الكريم وأهميتها للإنسانية في كل عصر، ومنه أهمية التوحيد الذي هو من أعلى مقاصد القرآن الكريم.

أمـــا الفصـــل الثالـــث فكـــان بعنوان "تأثير التوحيد في الحياة" ضمنته مبحثين أيضا: جعلت المبحـــث الأول بعـــنوان "تأثـــير التوحيد في الحياة الفردية والاجتماعية"، المطلب الأول منه "تأثير

التوحـــيد في الحياة الفردية"، والمطلب الثاني "تأثير التوحيد في حياة الأسرة"، والمطلب الثالث "تأثير التوحـــيد فـــي حـــياة المجـــتمع"، وجعلت المبحث الثاني بعنوان "تأثير التوحيد في التعامل الكوني الاقتصـــادي"، المطلـــب الأول مـــنه بعـــنوان "التعامل الكوني" والمطلب الثاني "توجيه الاقتصاد"، والمطلب الثالث "عوامل الاستمرارية ودوام التمكين".

وذلـــك لمـــا ورد في السورة من بيان لتأثير كل من التوحيد والشرك على نفسية الفرد، وما يحدثـــه التوحـــيد الكامل إذا أخذ به الإنسان من تأثيرات تعود على المجتمع الإنساني بثمار طيبة لا تـــتحقق إذا أتـــى بما ينقضه، مقابل ما يحدثه الإخلال ونقضه من تأثيرات تشقى بسببها الإنسانية في الأولى والآخرة، كل ذلك له أهمية جليلة في تحقيق القناعة الراسخة بالدين الإسلامي –دين التوحيد– ودفـــع الإنســـان نحو مباشرة مهمته الأساسية في الوجود وهي الخلافة في الأرض عبادة وعمارة، فـــيكون حينها سالكا لسبيل السعادة في الدارين، إذ يتبين من خلاله استجابة الشريعة لحاجات الأفراد والجماعـــات والأمـــم علـــى تنوعها وعلى اختلاف أزمنتها وأماكنها، فهذا التنوع والاختلاف مع ما تتطلـــبه الفطرة الإنسانية من الاجتماع، يتطلب معرفة الإنسان نفسه وخالقه ودوره ومجالات حركته وضـــوابط فعلـــه، وكـــيف يصل إلى القواعد التي تنظم حياته الفردية والاجتماعية، ويحقق التناسق والانسجام بين الأفراد، وبين المجتمعات والأمم والشعوب، انطلاقا من مبدأ التعارف والتآلف.

وأركز على ثلاثة مباحث أساسية في توضيح هذه الحقائق وتقريرها، على أن التركيز عليها لا يعنـــي إلغـــاء أهمـــية باقي المجالات، كمجال السياسة والحكم، واعتبارا لأهميته فإني سأعمد إلى إجمـــال الإشارة إليه، لبيان ضرورته لأي اجتماع إنساني، لأن التفصيل فيه لا يسعه المقام، فمبحث الاجـــتماع يتضـــح من خلاله ضرورة ضبط علاقات الناس والتأسيس لها، ومبحث التعامل الكوني تـــتقرر مـــن خلاله امتداد علاقات الإنسان لتشمل باقي المخلوقات الأخرى، وتتأكد ضرورة وأهمية توجـــيهها وضبطها لما لها من أثر في حياة الإنسان، ثم مبحث الاقتصاد، والذي يعتبر حلقة الوصل بيـــن هاذين المجالين، وهو حلقة مهمة وضرورية لها أثرها الكبير في سلامة أو فساد العلاقات في كـــلا المجاليـــن، وهـــو ما يؤكد ضرورة توجيهه وضبطه لتستقيم جميع علاقات الإنسان الإنسانية والكونـــية، وهو ما يستلزم التفصيل في عرض المفاهيم المختلفة للكشف عن تطورها وعن اختلافها تبعا لاختلاف المذهب النابع منه ذلك المفهوم، ومنه تتضح حقيقة تميز الاقتصاد الإسلامي عن غيره مـــن الاقتصـــاديات الوضـــعية، وأهمـــية المذهب الاقتصادي الإسلامي لحل المشكلات الاقتصادية المعاصـــرة مـــن جهة، ومن جهة أخرى أهمية الكشف وتقرير أهمية التوحيد ودوره في توجيه هذا المجال، ليكون الحلقة المكملة للمجالات الأخرى وعدم فصله عنها.

وأختم هذه الدراسة بحول الله تعالى بخاتمة أضمنها نتائج البحث.

المنهج

وطبيعة هذه الدراسة تقتضي اتباع المنهج الاستقرائي بالانطلاق من البحث في جزئيات المسألة بدءا من الآيات القرآنية وأقوال المفسرين والعلماء فيها، ثم الانتقال إلى الربط والتركيب للوصول إلى الحقائق الأساسية حول الموضوع، وهو ما يفيد في معرفة الجزئيات إلى جانب معرفة الكليات، وكذا المنهج المقارن بالمقارنة أحيانا بين آراء وأقوال العلماء حول بعض المسائل للخروج بالمفهوم المناسب، وكذا نقد بعض الآراء والشبهات وإبطالها، هذا وإن البحث لا يخلو من الاستنباط لبعض المفاهيم والمعاني التي تحتملها بعض الآيات.

ولما كانت هذه الدراسة مرتبطة بالقرآن الكريم، ومحاولة من خلالها الإجابة عن مختلف الإشكالات من وجهة نظر قرآنية، فإنها ستكتسي حلة التفسير الموضوعي بنوعيه، الأول الذي يقوم على تناول موضوع سورة معينة، والثاني الذي يقوم على تجميع آيات القرآن الكريم حول موضوع معين، ولم ألجأ إلى تجميع الآيات إلا حين أجد الحاجة ملحة، وهذا حرصا على أن تكون الانطلاقة دائما من سورة الأنعام والدوران في فلكها ومعانيها، فإذا أجملت السورة الإشارة إلى حقيقة ما وكان هذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل، فإنني آخذ بالمنهج القرآني بالتفصيل من خلال الآيات التي تناولت تفصيل المسألة في سور أخرى، وهذا حتى تكتمل الصورة للقارئ وتتضح الرؤية، وحتى يتضح من خلاله منهج القرآن الكريم في بيان الحقائق ويكشف عن سر التكرار المعجز الذي تميز به هذا الكتاب الكريم.

المصادر والمراجع:

وقد اعتمدت في إنجاز هذا البحث جملة من المصادر والمراجع:

فأما عن أهم المصادر، فهي كتب التفسير خاصة: "تفسيرجامع البيان عن تأويل آي القرآن" للطبري، و"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، و"التفسير الكبير" لفخر الدين الرازي، وقد كانت استفادتي منها لا تخص تفسيرا معينا، وإنما تكون بعد معرفة آراء المفسرين في الآية المعينة والمقارنة بينها، ثم أخذ الرأي المناسب للاستشهاد به وتوضيح مدلول الآية تجنبا لحشو الموضوع بآراء تثقل البحث وتخرج به عن الحجم المطلوب، وفي الغالب فإن الآراء حول الآية تتكرر عند المفسرين، فأعمد إلى الرجوع إلى أقدمها كتفسير الطبري، إن لم توجد إضافات مفيدة على المسألة تخص الموضوع لمن جاء بعده، وإلى أحدثها إن

كانـــت فـــيها إضافات مهمة تعين على التوضيح والبيان، وأحيانا فإنه في المسألة الواحدة وفي الآية الواحـــدة أعمـــد إلـــى الـــرجوع بعد الاطلاع على آراء المفسرين المختلفة إلى تفسير قديم كتفسير الطـــبري وإن لـــم أجد ما يخدم الموضوع فيه أستعين بغيره كتفسير القرطبي وكذا تفسير البقاعي، فأثبت المعنى الأصلي إلى جانب تفسير أو تفسيرين من التفاسير الحديثة، كتفسير "التحرير والتنوير" لابـــن عاشـــور، و"تفســـير المـــنار" لمحمـــد رشـــيد رضا"، فأثبت ما أضافه هؤلاء لإثراء المسألة وتوضيحها.

هذا وأني لم أستغن عن إيراد الاختلافات من التفاسير المختلفة أو من التفسير الواحد كتفسير الطبري عندما تستدعي ضرورة التوضيح ذلك.

وكـــذا كتـــب علوم القرآن ككتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، وكتب "أسباب النزول ككـــتاب "أسباب النزول" للواحدي، هذا وأني أرجع في معرفة أسباب النزول إلى كتب التفسير التي تذكرها وتهتم ببيانها، وكتب السيرة ككتاب "السيرة النبوية" لابن هشام.

أمـــا المـــراجع فقد كانت مختلفة ومتنوعة، منها الكتب التي تعنى بالإعجاز العلمي، ككتاب "المـــنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم"، و"الإنسان في الكون بين القرآن والعلم" لعبد العلـــيم عبد الرحمن خضر، وكتاب "السماء في القرآن الكريم" لزغلول راغب محمد النجار، وكتاب "الفـــيزياء ووجود الخالق" لجعفر شيخ إدريس، وكتب علم النفس ككتاب "القرآن وعلم النفس" لمحمد عـــثمان نجاتـــي، وكـــتاب "القـــرآن وعلم النفس" لعبد العلي الجسماني، والكتب التي تعنى بالنظام الاجتماعي ككتاب "أصول النظام الاجتماعي" لابن عاشور... وغيرها.

وإيمانا مني بأن القرآن الكريم جاء مخاطبا للناس كافة بكل مستوياتهم، وأن كنوزه وأسراره لهـــا شروط ومفاتح، لا تنفتح إلا لمن امتلكها، فالقرآن الكريم لا يعطي كنوزه إلا لقارئيه المتدبرين، والقارئ الذي يستطيع أن يأخذ من القرآن الكريم بعض كنوزه هو ذلك الذي ينطلق من قراءته باسم الله ليكون بعد ذلك التدبر والتأمل والفهم والفقه، وكذا الأثر واللغة، وسائل يستخدمها لفهمه، لذا فإني أحاول أن أستجمع هذه الشروط وأن أبذل الوسع لذلك مع التضرع لله تعالى بأن يسهل لي أسبابها.

مدخل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: القرآن المكي[1]

عـرف الواقع الإنساني في شبه الجزيرة العربية في الفترة التي سبقت نزول الوحي انتشار الشـرك بكـل صوره ومظاهره، إذ أصبح الطابع المميز لعقيدة العرب آنذاك، وبسبب هذا التصور انتشرت الخرافة والجمود الفكري، والتقليد، وغياب المقاييس المنهجية للحكم والتقويم، وشاعت بدع كثـيرة في العقيدة أصبحت مع مرور الوقت موجهة لمواقفهم واتجاهاتهم، فأصبح اختلاف الأعراق والألـوان والأنسـاب أسـس يتمايز بحسبها الناس، وانعكست هذه النظرة للتمايز الاجتماعي على العلاقات الاجتماعية، كانت من أهم مظاهرها:

-عصبية قبلية ضيقة أدت إلى الإسراف في العداء والحروب[2].

-تمايـز اجتماعـي على أساس الثروة أدى إلى الحرص عليها، مما سبب الظلم إما باحتقار مـن لا يملـك، أو اتـباع الأسـاليب غـير المشروعة لتحصيلها، فظهر الربا والسرقة والاتجار بالمحرمات، واتسعت بسبب ذلك الهوة بين الفقراء والأغنياء، وحرص الأغنياء على المكانة ورفض تسوية العبيد، إذ يعتبرونهم من ممتلكاتهم.

-تمايـز اجتماعـي علـى أساس الأصل، واحتقار الثروة عند البعض والتي كانت غالبا ما تُحصّـل بالكسب اليدوي، واعتبارها من حظوظ الوضيع، أدت إلى سوء العلاقات الاجتماعية، حيث يُرفض ذو الأصل الذابل مع غناه حين يتقدم للزواج من البيوتات العريقة، وهذا يعني تغليب محكات أخرى غير الثروة[3].

---

(1)-قد يتبادر إلى الذهن أن هذا المبحث سيتم تناوله وفق المألوف في علوم القرآن، كبيان المكي منه والمدني، وبيان تقسيماته إلى مكي ومدني وغيرها، وإنما انطلاقا منه وبناء عليه للكشف عن طبيعة القرآن المكي وموضوعه العام.

(2)-محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، دت، ج1، ص179.

-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1416هـ-1996م، ص287، 331.

(3)-عبد الجبار حميد عبيد السبهاني: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلامي، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 1424هـ-2003م، ص190، 198-199.

-فطبيعة هذا الواقع المعقد القائم على الصراع بين الأسر والزعامات[1]، وتفرد الكبراء في السـن، وأصـحاب المكانـة الاجتماعية العالية، والنفوذ والوجاهة بقيادة المجتمع صعّب من مهمة الرسـول ﷺ في أداء ما أمر به، فبالرغم من مكانته ﷺ في قومه، وما عُرف عنه من سمو الخلق واسـتقامة السيرة قبل البعثة، فإن التقاليد والأعراف والعصبية القبلية تدخلت لفرض مقاييسها، فحين رأوا أن دعوتـه مناقضـة بصفة جذرية لأصول ومرتكزات اعتقادهم وتفكيرهم، قابلوها بالرفض والإنكار، والمواجهة العنيفة[2].

هـذا الوضـع تطلب منهجا ملائما للانتقال بالإنسان من الظلمات وعدم التعقل، إلى تحقيق الانسجام والتوافق والتناغم مع فطرته وفطرة الوجود من حوله.

فكـان التغيـير مرحلـيا، إذ جاء القرآن المكي يعالجه على فترات متفرقة، متقاربة أحيانا، ومتباعدة أحيانا أخرى، على حسب ما يستدعيه الوضع والواقع، وملابسات الوقائع، والأسباب التي تتنزل الآية أو الآيتان أو السورة لمعالجتها[3].

والمـتدبر فـي القرآن المكي يلحظ التركيز على إيقاض الفطر وإحياء العقول، والدعوة إلى التفكـير السليم فيما عُرض عليه من آيات القرآن الكريم، وفيما حوله من آيات الخلق، وترك التسليم بغـير علم والانسياق وراء التقليد ليصل به إلى معرفة الله تعالى والإيمان به وتوحيده حق التوحيد، وليرتقـي به إلى أن يكون الإنسان الرسالي المتحقق بصفات الكمال الإنساني، والمرتفع عن أخلاق القبيلة والعصبية الممقوتة التي تضيق الفكر والنظر.

ولهـذا اعـتمد القـرآن المكي على التنبيه إلى آيات الآفاق والأنفس، واستثارة ما يكمن في الـنفوس مـن خشية وإنابة، للكشف عن عظمة الله سبحانه وتعالى وجلاء الفطرة التي غطت عليها

---

[1]-يذكر ابن هشام قصة اجتماع النفر الثلاثة من زعماء قريش وهم: أبو سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بن زهر. بعد أن استمعوا إلى النبي ﷺ وهو يصلي ليلا، وسألوا أبا جهل عن رأيه فيما سمع، فقال: «تنازعنا نحن وبنوا عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاكينا على الركب، وكنا كفرس رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه». السيرة النبوية، تعليق وضبط: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ط، دت، ج1، ص337-338.

[2]-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص288-289.

[3]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج7، ص122.

ظلمات الجاهلية[1].

فعالج هذا الوضع بالتوجيه إلى القراءة، قراءة تحمل معنى جديد لا يكتمل بمجرد النطق بالكلمات والمفردات، وإنما بأعمق من ذلك وأوسع وأشمل -قراءة في الوحي وقراءة في الخلق- استهدف بها إحداث تحول شامل وعميق في حياة البشرية تنتقل عبره الإنسانية من الظلمات إلى النور[2].

وبهذا المنهج جاءت سورة الأنعام -نموذج الدراسة- كاملة لتحقيق هذا الهدف.

ويمكن تلخيص أهداف المرحلة المكية في النقاط الآتية:

-بناء المنظومة الفكرية بتكوين وحدة عقدية متمثلة في عبادة إله واحد تستمد منه التصورات والمفاهيم عن الكون والإنسان والحياة.

-إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية المرتكزة على تقرير حرية الإنسان وكرامته.

-وضع المبادئ والأسس لقيام الدولة التي تجسد الوحدة السياسية وتعمل على ربط شبكة العلاقات الاجتماعية[3].

ثانيا: سورة الأنعام

هي من السور المكية الطوال، والسادسة من حيث ترتيب المصحف الشريف، تأتي بعد سورة المائدة وقبل سورة الأعراف، عدد آياتها -حسب مصحف ورش- مائة وسبعة وستون آية (167)، سميت بسورة الأنعام «لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان ورد لفظ الأنعام في

---

(1)-محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ، ص179.

-محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1416هـ-1995م، ص91.

(2)-محمد عابد الرشدان: "حول النظام المعرفي في القرآن الكريم"، مجلة إسلامية المعرفة، تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س3، ع10، خريف 1418هـ-1997م، ص26-27.

(3)-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص314.

-نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، الدار السعودية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ-1997م، ص122.

-عبد الجبار حمد عبيد السبهاني: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي، ص205.

غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾[1] إلى قوله: ﴿أم كنتم شهداء﴾[2] لم يرد في غيرها»[3]. إذ تكرر فيها لفظ الأنعام ست مرات، نزلت ليلا بمكة جملة واحدة -برواية الطبراني عن ابن عباس-[4] بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات[5]، أي في بداية الفترة الجهرية -بعد السنوات الأولى من الرسالة في السنة الخامسة أو السادسة- على الترجيح[6].

وبالنظر في الأسباب التي أوردها العلماء عن نزول هذه السورة[7] نجد ذكرا لأسباب كثيرة لآيات مختلفة من السورة ناسب كل سبب أو كل حدث آية معينة، وبما أن السورة نزلت جملة واحدة يمكن القول بأنها جمعت الرد على كل تلك الحوادث على تباعدها أو تقاربها بعد حدوثها.

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: «واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناكد ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها، لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة، فيكون نزول تلك الآيات مسببا على تلك الحوادث، وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات، على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها، فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه»[8].

ولما اختتم سبحانه وتعالى السورة التي قبلها -سورة المائدة- بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 142.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 144.

(3)-جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، لبنان، دط، 1973م، ج1، ص55.

(4)-أبو الفضل شهاب الدين سيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، مج4، ج7، ص72.

-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص122.

وقد أورد كلا منهما اختلافات في بعض الروايات في أن بعض آياتها نزل بالمدينة، فمنها أنها آية واحدة، ومنها بأنها آيتان، ومنها بأنها ثلاث آيات، ومنها أنها ست آيات، ورجح ابن عاشور كونها كلها مكية.

(5)-محمد الطاهر بن عاشور: المرجع نفسه، ج7، ص123.

(6)-سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط26، 1418هـ-1997م، ج7، ص1020.

(7)-أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1411 هـ-1991م، ص122-128، وسيأتي ذكر لبعض أسباب النزول خلال الفصول القادمة.

(8)-محمد الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج7، ص123.

وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. جاءت هذه السورة لتفصيل ذلك، كما جاءت شرحا لمـــا تضمنته تلك السورة من الإجمال، بالتفصيل والبسط والإتمام[2]، فمقصودها «الاستدلال على ما دعـــا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد بأنه الحاوي لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام والقدرة على البعث وغيره، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام، لأن الإذن فيها [...] مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق، وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها دينا، لأنـــه لـــم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه، لأنه المتوحد بالإلهية، لا شريك له، وحصر المحرمات في المطاعم التي هي جلها في هذا الدين وغيره، فدل على إحاطة علمه»[3].

وامتازت هذه السورة بخاصتين شاعتا فيها هما: كثرة التقريرات والتلقينات لاستنقاض العقل العربـــي ممـــا تـــردى فيه [4]، خاصة وأن المرحلة التي نزلت فيها تعتبر «مرحلة طرح التساؤلات الكـــبرى حـــول الواقـــع والمصـــير، والماضـــي والحاضر، والعلم والخرافة، والحرية والعبودية، والـــتمايزات الطبقـــية، والمســـاواة والظلـــم الاجتماعي والعدالة وإدارة الحوار حولها من كل فئات المجتمع دون تمييز أو استثناء، لكسر طوق التقاليد المجحفة التي كانت تطحن كرامة الإنسان وتكبّل نفســـه وعقلـــه، وتحـــرمه من نعمة نقد ذاته وواقعه، وماضيه وإبصار مستقبله على ضوء حقائق الوجود، والإمكانات المتاحة، والطموحات المشروعة»[5].

ولذلـــك قال عنها العلماء أن عليها مبنى أصول الدين لاشتمالها على التوحيد والعدل والنبوة والمعـــاد، وإبطـــال مذاهب الملحدين وافتراءاتهم المختلفة كتعللهم بأن الله لقنهم عقيدة الشرك، ببيان حقيقة مشيئة الله ﷻ[6].

ومـــن أجل هذا الهدف فصل الله سبحانه وتعالى من خلالها بيان حقيقته ونبه إلى دلائله في الآفاق والأنفس وآثار الالتزام به في حياة الإنسان، وكذا آثار الإخلال بمقتضياته والانحراف عنه.

وفي الفصل الآتي تفصيل لما ورد في السورة من بيان لحقيقته ومدى التزام الإنسان به.

---

(1)-سورة المائدة، الآية 120.

(2)-الألوسي: روح المعاني، مج4، ج7، ص73.

(3)-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط، دت، ج2، ص578.

(4)-محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص91.

(5)-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، ص325.

(6)-برهان الدين البقاعي: المرجع السابق، ج2، ص579.

-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص124.

الفصل الأول:

حقيقة التوحيد وحمل الإنسان لها من خلال سورة الأنعام

التمهيد

المبحث الأول: حقيقة التوحيد ومقتضياته من خلال سورة الأنعام

المبحث الثاني: حمل الإنسان لأمانة التوحيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التمهيد:

يعتبر التوحيد القضية الأساسية التي يقوم عليها التصور الصحيح لحقيقة الألوهية، ويقوم عليها الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ذلك ان الانحراف في تصورها يعتبر هدما للاعتقاد الصحيح، يستحق صاحبه الوصف بالكفر، ولأجله تعاقبت الرسالات السماوية بغرض تصحيح الانحراف الطارئ على هذا التصور. فقد كانت مشكلة الإنسان في تصوراته الدينية عموما –منذ القديم–تتمثل في عجزه أو انحرافه عن التصور الصحيح لهذه الحقيقة، وكان الإسلام آخر هذه الرسالات، وقد ركز تركيزا شديدا على بيانها والتذكير بها حتى عرف بأنه دين التوحيد، وغدت هذه الصفة هي الطابع الذي طبع الدين كله عقيدة وشريعة.

وعلى هذا يأتي بيان حقيقة التوحيد ببيان مقتضياته ونواقضه إجابة عن تساؤل قد ينشأ بدافع فطري في الإنسان من أجل الاطمئنان إلى الاعتقاد الذي يقيه شر الانحرافات الإعتقادية والسلوكية، وتصحيحا لبعض الانحرافات التي شابت هذا التصور عند بعض المنتسبين لهذا الدين – الإسلام–.

جمعية الإمام عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: حقيقة التوحيد ومقتضياته من خلال سورة الأنعام

إن الإجابة عن هذا التساؤل يدفع إلى الحديث عن قضية هامة تتعلق بحقيقة التوحيد وهي قضية الإيمان أو الاعتقاد بوجود إله ربا وخالقا، إذ يتبادر عند البعض في ظل الاعتقادات السائدة التي تحاول انكار وجود قوة غيبية خالقة متصرفة في هذا الكون، أن مجرد الإيمان بوجود إله خالق لهذا الكون يكفي ليحقق صاحبه الاعتقاد الصحيح، فالإيمان بوجود الله تعالى هو أساس العقيدة كلها، إذ عليه مبنى الدين كله، وكل مسائله هي فرع عن هذا الإيمان، إلا أنه لا يكفي لسلامة اعتقاد صاحبه. فبالنظر إلى الواقع الإنساني السائد خلال فترة نزول القرآن الكريم نجد أن قضية وجود الله تعالى لم تكن مطروحة بصفة ملفتة للانتباه، ذلك أن معظم العرب كانوا يقرّون بالله ربا وخالقا ورغم ذلك عدّ القرآن اعتقادهم فاسدا، والمتتبع للقرآن الكريم يجد آيات تنقل بعضا من اعترافاتهم بالله خالقا ومدبرا منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[2]، وقوله عز وجل أيضا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

كما تنقل بعضا من افتراءاتهم حول هذه الحقيقة منها قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ. مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا

---

[1]-سورة الزمر، الآية: 38.

[2]-سورة المؤمنون، الآيات:84-89.

[3]-سورة العنكبوت، الآية: 63.

[4]-سورة ص، الآيات: 4-7.

[5]-سورة الزمر، الآية: 3.

تَخْرُصُونَ﴾[1]، افتراءا على الله بأنه أمرهم بالشرك، لذا كان نزول القرآن الكريم يتتابع من أجل تصحيح تصورهم لهذه الحقيقة.

إن المفهوم الذي جاء به القرآن الكريم للوحدانية يفسر سر تركيزه الشديد على بيانه، إذ جعله ذا أبعاد كثيرة تمس كل حياة الإنسان التصويرية والسلوكية، فهو مفهوم مركب الصورة يتطلب إيمانا مخصوصا حدده القرآن الكريم قد يعجز العقل البشري عن الوصول إليه دون هداية من الوحي، أو قد يطرأ عليه من الانحرافات بسبب تأثير التقليد والهوى والابتعاد عن هداية الوحي مما يوقع في ضروب الشرك الخفي الذي يقترب أحيانا من أن يكون شركا جليا، وهذا ما يؤدي إلى فساد في سائر الأوضاع ، لا يزول إلا بتصحيح هذا التصور، عكس الإيمان بوجود الله تعالى الذي ينبني عليه هذا التصور فهو إيمان بسيط الصورة، لا يتوارد عليه إلا النفي أو الإثبات بصورة فاصلة، ولذلك فإن موقف الإنسان من هذا الإيمان إما إقرار بالوجود الإلهي، وإما كفران به، ولا واسطة بينهما إلا الشك[2]، كما أن إدراك هذا الوجود ميسور على الإنسان، يصل إليه بالتأمل البسيط في نفسه وفي الكون من حوله ليعلم أن لها خالقا مسيرا.

وإذا رجعنا إلى سورة الأنعام -أنموذج الدراسة- فإننا نجدها تحدد حقيقة هذا التوحيد، فالتوحيد كتصور عام جمع في لفظة "لا إله إلا الله"، وهذه اللفظة مكونة من معنيين، أحدهما نفيا والآخر إثباتا، وتنتهي دلالتها إلى نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وإثباتها له ﷻ.

وإذا رجعنا إلى معاني كلمة "إله" فإنها لا تخرج عن معنى السيطرة والسلطة؛فالاعتقاد في الإله ينصرف إلى الاعتقاد بأنه يملك السيطرة والسلطة كما يملك الضر والنفع، ومن ثم يتوجه إليه بالعبادة والتعظيم[3]، فلا يستحق العبادة إلا من كان إلاها يقول محمد الطاهر ابن عاشور : «والله هو اسم الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد. وأصل هذا الاسم الاله بالتعريف وهو تعريف إله الذي هو اسم جنس للمعبود مشتق من أله بفتح اللام، بمعنى عبد، أو من أله بكسر اللام بمعنى تحير أو سكن أو فزع أو ولع مما يرجع إلى معنى هو ملزوم للخضوع والتعظيم...»[4].

وعلى هذا جاءت آيات من هذه السورة لتصحح هذا التصور، بأنه لا يستحق الوصف

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 148.

[2]-عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص113.

[3]-ابن منظور: لسان العرب ، دار المعارف، القاهرة، 1119، ج1، [أ-ج]، ص87-88.

[4]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص162.

بالألوهية إلا الله سبحانه وتعالى فهو وحده الذي يملك الضر والنفع ويملك السيطرة والقهر كما يملك حق العبادة فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1]. فقد كان رؤساء مكة يقولون بأنه لا يرون أحدا يصدق محمدا ﷺ، بما يقول من أمر الرسالة وأنهم سألوا عنه اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس له عندهم ذكر ولا صفة وطلبوا منه أن يريهم ما يشهد له بأنه رسول الله [2]، وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].فأثبت الألوهية لله تعالى وحده ونفاها عن غيره.

وعلى هذا فإن المسلم الذي يشهد بأن "لا إله إلا الله" يكون قد التزم بمفهوم للتوحيد يشمل اعتقاده وسلوكه «وبالتالي فإنه لا يخل تصرف من تصرفات المسلم بالفكر والسلوك من وجوب أن يكون مبنيا على معنى من معانيها، ومحكوما بواحد من مقتضياتها»[4].

ومن خلال المطلبين الآتيين يتضح مفهوم هذه الشهادة التي يلتزم بها المسلم الموحد وذلك ببيان مقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور ومقتضياته المتعلقة بالسلوك.

المطلب الأول: مقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور

وهي ما يعتقده الإنسان ويؤمن به وتصدق به نفسه، ويطمئن إليه قلبه، ويكون عنده يقينا لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك[5].

---

[1]-سورة الأنعام، الآيات: 14-19.

[2]-أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، ص122.

[3]-سورة الأنعام، الآيات: 100-102.

[4]-عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص118.

[5]-عمر سليمان الأشقر: العقيدة في الله، دار النفائس، الأردن، ط15، 1423هـ-2004م، ص11.

ويمكن تفصيله كالآتي:

أولا: توحيد الله في ذاته

والمقصود هو معرفة الله تعالى موصوفا بصفاته التي بينها في القرآن الكريم أو على لسان رسوله محمد ﷺ دون معرفة ذاته، لعجز الإنسان عن إدراكها لأنها فوق مستوى الإدراك البشري لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]. فلعظمته تعالى جل ان يحيط به شيء من أبصار المخلوقين، وعلى هذا فإننا نعرف ذاته بما وصف به نفسه من صفات الكمال، فنعرف أن الكمال الأعلى داخل في مفهوم حقيقتها، وهذا المفهوم الذي حملته هذه الآية يدل على انفراد الله تعالى به وانتفائه عن الأصنام وكل ما يتخذ إلها من دون الله لأنها مدركة بالأبصار ويستطيع الإنسان تصورها فانتفت عنها صفة الإلهية[2].

ولذلك فإن توحيد ذاته تعالى يقتضي نفي أي شريك يشاركه فيها بأي معنى من المعاني، سواء على سبيل الندية والمماثلة أو على سبيل الوساطة كما هو شرك العرب، أو باعتقاد الهين اثنين وبأصلين: النور والظلمة، كما اعتقد ذلك المجوس[3]، أو باعتقاد أن الله ثلاثة كما هي عقيدة النصارى[4]، وغيرها من الاعتقادات الباطلة التي تنافي هذا التوحيد.

فالله سبحانه وتعالى واحد لا يتعدد وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[6].

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[7].

فقوله "هو الله" "هو الذي" "هو الله" يدل على المعبود الواحد المستحق وحده للعبادة لأن أصل

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 103.

(2)-محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بروت-لبنان، دط، دت، ج7، ص 292.

(3)-ولهذا سموا بالثنوية.

(4)-عبد المجيد النجار: الإيمان بالله واثره في الحياة، ص119.

(5)-سورة الأنعام، الآية: 1.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 2.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 3.

دلالـــة هذا الاسم هو هذا المعنى ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله تعالى فأطلقوا عليها اسم "آلهة" التي هي جمع "اله"[1]، يقول الطاهر بن عاشور: «فكان أصل وضعه [اسم الله] دالا على انفراده بالألوهية إذ لا إله غيره فلذلك صار علما عليه»[2].

وأيضـــا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

وقوله أيضا نفيا لأن يكون معه ولد يكون إلها مثله أو يشاركه بأي صفة من صفات الشركة التـــي تقتضيها الأبوة والبنوة مما هو من صفات المخلوقين: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4]. فـــنفى أكبر سبب من أسباب التعدد وهو التكاثر بطريق التوالد، وهو المعنى الذي بينه في سورة الأنبـــياء بقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي، وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[5]. وفي سورة المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[6].

وقـــد وصـــف الله تعالى نفسه في هذه السورة -سورة الأنعام- بما يحقق هذا التوحيد وهي صفات تجمع معاني التنزيه والتعظيم ليثبت الكمال له عز وجل.

---

[1]-أحمـــد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1417هـــ-1996م، ص16.

[2]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص163.

[3]-سورة الأنعام، الآية:19.

[4]-سورة الأنعام، الآية:101-103.

[5]-سورة الأنبياء، الآيات:24-27.

[6]-سورة المؤمنون، الآية:91.

ثانيا: توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته

ومعـــناه تفـــرد الله تعالى بالاتصاف بالصفات التي بها عرّفنا على وحدانية ذاته تعالى، التي تثبت الكمال له وحده تعالى وتنزهه عن كل صفات النقص دون أن يشاركه في هذا غيره.

وضابط هذه المعرفة أن يكون قوامها ما أخبر الله به عن نفسه أو أخبر به رسوله ﷺ دون تحريف أو تعطيل أو تمثيل، فإنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وأنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]، ولقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[3]، ولا تخضـــع هذه المعرفة ولا تفوض إلى البشر لعجزهم عن الوصول إليها، فلا يأمن أن يدخل فيها ما يمس بمفهوم هذا التوحيد كما فعل المشركون إذ قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[4]، فقد افتروا الكذب على الله فنسبوا له الولد والشـــريك والوســـطاء[5]، ثم تعللوا بمشيئة الله تعالى لهم الشرك فأبطل الله تعالى زعمهم بهذه الآية وبقـــوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[6]، ولذلك وصفهم الله تعالى بأنهم جعلوا دينهم عرضة للعبث واللهو فجمعوا كل ما أملـــته عليـــهم أهواؤهـــم واتخذوها دينا فقال: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[7].

وهـــذا الضابط حدده الله تعالى في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا

---

[1]-تمـــام الآيـــة:﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، سورة الشورى: الآية:11

[2]-سورة الأنعام، الآية: 103.

[3]-سورة طه، الآية:110.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 21.

[5]-محمد الطاهر بن عاشور: ج7، ص172.

-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص343.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 148.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 70.

وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، إذ تضمنت المعاني الآتية:

-تقريـــر وحدانـــية الله تعـــالى ونفي ان يشاركه أحد من خلقه في صفة من صفاته وإبطال أقوال المشركين فيها.

-إبطال ما ادّعاه المشركون من تأويل أو تعطيل أو تشبيه.

-إبطال القول بأن تعدد الأسماء هو تعدد للمسمى.

-تعـــدد أسمائه وصفاته يؤكد وحدانية ذاته تعالى وانتفائها عن غيره وهي طريق لمعرفة الله تعالى حق المعرفة.

-وجوب التزام المسلم بما أخبره تعالى عن نفسه فنصفه بما وصف به نفسه وندعوه بالأسماء التي سمّى بها نفسه.

-معرفة أسمائه وصفاته تعالى مصدره ما أخبر به الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بطريق الوحي (قرآن سنة).

-عجـــز الإنســـان عن إدراك كيفية هذه الصفات لأنها متعلقة بذاته تعالى وهي فوق إدراك البشر، فيؤمن بها من غير تأويل أو تعطيل أو تشبيه[2].

وتـــتجلى معظم هذه الصفات في أسمائه تعالى التي أخبرنا الله تعالى بها في كتابه، وكل اسم مـــن أسمائه تعالى يرجع أو يدل على صفة أو صفات له سبحانه، وكل اسم منها مشتق من مصدره، كالعلـــيم والقديـــر والسميع والبصير، ونحوها فالعليم مشتق من العلم، وهو يدل على صفة "العلم" لله تعالى، وكذلك بقية الأسماء[3].

ويمكن بيان الأسماء والصفات الواردة في السورة كالآتي:

"الله": وهو الاسم الجامع لمعاني جميع الأسماء والصفات ولذلك فهو أعظم أسمائه الحسنى، ومـــن خـــواص هذا الاسم أنه لم يسمّ به غير الخالق جل وعلا، وكما أشرنا سابقا فإنه يدل على أهم صـــفة مـــن صـــفات التوحيد وهي وجوده تعالى وتفرده بالوحدانية بكل معانيها، وقد وردت هـــذه

---

(1)-سورة الأعراف، الآية: 180.

(2)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج9، ص185.

(3)-عدنـــان محمد زرزور: في الفكر والثقافة الإسلامية المدخل والأساس العقدي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1411هـــ-1991م، ص119-120.

اللفظة في ثمان و خمسين آية (58) من هذه السورة، استفتحت بها السورة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[1] لبيان استحقاقه تعالى لجميع المحامد واتصافه بجميع صفات الكمال.[2]

اسم الله "**الحق**": ومعناه أنه تعالى المتحقق الثابت الوجود الذي لا شك فيه، والذي لا يتغير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[3]، أي تقبض أرواحهم إلى الله سيدهم الحق»، يقول ابن عاشور في بيان معنى قوله "مولاهم الحق": «"مولاهم الحق" بالجر صفة لـ "مولاهم"، لما في مولاهم من معنى مالكهم، أي مالكهم الحق الذي لا يشوب ملكه باطل يوهن ملكه، وأصل الحق أنه الأمر الثابت فإن كل ملك غير ملك الخالقية فهو مشوب باستقلال مملوكه عنه استقلالا متفاوتا، وذلك يوهن الملك ويضعف حقيقته»[4]. قال تعالى في سورة يونس: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[5].

اسم الله "**الخالق**" مأخوذ من الخلق وهو التقدير والإيجاد، ويستعمل بمعنى الإبداع الذي يعني إيجاد الشيء من لا شيء واختراع الشيء دفعة، والخلق والإبداع والاختراع والصنع والإيجاد والإحداث والفعل والتكوين والجعل ألفاظ متقاربة المعاني، والفطر يشبه أن يكون الإحداث دفعة واحدة فهو الابتداع والاختراع[6].

قال تعالى مستفتحا سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[7]، فوصف تعالى نفسه في هذه الآية بصفتين هما: خلق السموات والأرض وخلق

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 1.

(2)-أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر، دم، دت، ج7، ص218

(3)-سورة الأنعام، الآيتان: 61-62.

(4)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير والتحرير والتنوير، ج7، ص279.

(5)-سورة يونس، الآية: 32.

(6)-أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي: الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م، ص29.

- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني: التعريفات، ترجمة: عبد المنعم الحنفي، دار الرشد، القاهرة، دط، دت، ص18.

(7)-سورة الأنعام، الآيتان:1-2.

الإنسان من طين، وجعل الظلمات والنور، أي هو خالقهم لا غيره.

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] فبين سبحانه أنه أخرجهما من العدم إلى الوجود لحكم عظيمة دالة على وجوده وصفاته الكاملة، فلم يخلقها باطلا ولا عبثا[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].

ليثبت تفرده سبحانه بالألوهية، لأن جميع ما سواه مخلوق له سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات عاجزة والعجز من صفاتها، وليلفت إلى أن هذه المخلوقات دالة على خالقها سبحانه وتعالى.

كما قال تعالى أيضا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]. فأجرى هذا الوصف –فاطر– على اسم الجلالة ليستدل على عدم جدارة غيره لأن يتخذ وليا، فقرر وجوب إفراده بالعبادة، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكا لجميع ما احتوته السموات والأرض[5].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 73.

[2]–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص530.

[3]–سورة الأنعام، الآيتان: 100-102.

[4]–سورة الأنعام، الآية: 14.

[5]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص156-158.

وَيَـنْعِهِ إِنَّ فِـي ذَلِكُـمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّـهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2].

فبيّـن تعـالى وحدانيته بذكر ما يدل عليها وهي صفاته تعالى، فهو فالق الإصباح –وجاعل اللـيل سكنا، وجعل النجوم، وإنشاء الإنسان من نفس واحدة، وإنشاء الجنات، وإخراج النبات بالماء الـذي ينزلـه من السماء، كلها تحمل معنى صفة الخلق الإيجاد والتكوين العام والتي هي من معاني اسم الله "الخالق" ومنه اسم الله "البديع" واسمه "المبدئ".

اسـم الله "**العليم**": أي ذو العلم الكامل، والعلم صفة لله تعالى فالله تعالى عليم ولا تخفى عليه خافية ولا يغرب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، فعلمه شامل لجميع المعلومات، محيط بها، سابق على وجودها[3].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[4]، والمعنى أنه تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات المعروف المعترف له بها في السموات والأرض، فهـو المعـروف بالإلهـية المـتوحد بها فيهما[5]، والمراد إثبات أن علمه تعالى محيط، يعلم الخفي والجلي[6].

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[7]، فبين أنه الرب المالك لكل شـيء المتصـرف بالفعل والتدبير في كل شيء حتى دقائق الأشياء والأمور وخفاياها، وأن تصرفه هذا عن علم محيط لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا دبيب نملة[8].

---

[1]–سورة الأنعام، الآيات95: –99.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 141–142.

[3]–عـبد الـرحمان حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط8، 1418هـ–1997م، ص149.

[4]–سورة الأنعام، الآية: 4.

[5]–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص299.

[6]–برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص288.

[7]–سورة الأنعام، الآية: 13

[8]–محمد رشيد رضا: تفسير المنار ، ج7، ص330.

وأنه يعلم أعمال عباده ومحاسبهم عليها يوم القيامة، وهو المعنى الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

فهو عليم بأعمال الظالمين لم يجعل أمر عقابهم إليه ﷺ،بل الأمر لله تعالى يعذبهم متى شاء وكيف شاء[2]. ثم أعقب هذه الآية مبينا سعة علمه واختصاصه بما هو أعم من ذلك فقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وروى البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:«مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[4].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[5]، وقال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[6]، وقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[7]، وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[8]، فالذي تفرد بالخلق والإبداع والملك لما خلق وليوم القيامة والحشر تفرد بعلمها ولا يعزب عن علمه شيء منها.

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 58.

(2)-محمد رشيد رضا: المرجع السابق ، ج7، ص455.

-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص269-270.

(3)-سورة الأنعام، الآية59-60.

(4)-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: أشراط الساعة، صحيح البخاري، دار الفكر، دم، دط، 1401هـ-1981م، مج1، ج1، ص165.

-وأحمد في مسنده، دار الفكر، دم، دط، دت، مج1، ص319.

(5)-سورة الأنعام، الآية: 73.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 80.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 96.

(8)-سورة الأنعام، الآية: 101.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يصحح تصور المشركين لهذه الحقيقة –حقيقة التوحيد– إذ كانوا يعتقدون في علم المخلوقات للغيب بقوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

اسم الله "**القادر**": إشارة إلى قدرته تعالى، فهو يتصف بالقدرة، واعتقادنا أو إيمانا بذلك منعاه أننا ندرك أن الخالق العظيم الذي خلق وأبدع وفطر هذه المخلوقات متصف بهذه الصفة ولا يمكن لمن لا يتصف بها أن يفعل ذلك، ولذلك فإن الله تعالى متفرد بهذه الصفة ولا تشبه قدرته تعالى قدراتنا، لأن قدرته تعالى كاملة، إذ هي من صفات الألوهية، أما قدراتنا فهي ناقصة محدودة إذ هي من صفات المخلوقات[2]. ومنها أيضا اسمه تعالى: "المقتدر".

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[3]. فذكرهم بقدرته على تعذيبهم إثر تذكيرهم بقدرته على تنجيتهم[4]، إذ قال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[5]، وتفرده بذلك ﷻ، فنفى مشاركة غيره فيها كما كان يعتقد مشركوا العرب وأثبت تخصصه بها سبحانه وتعالى.

وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]، وهذا الخطاب موجه للنبي ﷺ، ليثبته به وليدفع أذى المشركين عنه بتيئيسهم منه من أن يستزلوه، فبعد أن أثبت أنه الخالق لجميع المخلوقات، أثبت أن من له كمال التصرف فيها هو الله وأنه القادر على كل شيء وأبطل زعم المشركين الذين ادعوا شركة المخلوقات في النفع والضر مع الله تعالى.

وبذلك أثبت استحقاقه تعالى للعبادة فهو الذي يملك الضر والنفع وأبطل استحقاق غيره لها إذ

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 50.

[2]–عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص141.

[3]–سورة الأنعام، الآية: 65.

[4]–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص490.

[5]–سورة الأنعام، الآيتان: 63-64.

[6]–سورة الأنعام، الآية: 17.

لا يملكـــون شيئا من ذلك، وتحدى المشركين بأنهم لا يستطيعون إضراره ﷺ[1]. وهذا ما قرره الله تعـــالى بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2]. فأثبت كمال القدرة له سبحانه.

اســـم الله "**العزيـــز**"، ومعناه ذو العزة الكاملة، أي الغالب والقاهر الذي لا يغلب لكمال قوته وقدرته[3]. وهو من الأسماء التي تدل على صفة القدرة.

قـــال تعـــالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[4]، فذكر بدلائل وحدانيته ونبّه إلى أن القصد معرفة الله تعالى بذاته وصفاته، فالله الذي له جمـــيع صفات الكمال، قادر على كل ما يريد، فهو الخالق والفاطر والفالق للحب والنوى وللإصباح وجـــاعل اللـــيل سكنا والشمس والقمر ذوي حسبان وعلمين عليه فبسيرهما يعلم الحساب وبه تنظيم مصـــالح الناس، ولا تملك المخلوقات شيئا من ذلك، إذ لا تستطيع تغيير شيء من هذا التقدير العظيم للأشياء بوضعها على ذلك القدر المعلوم[5].

وفـــي معانـــي هـــذه الصـــفة –القدرة– وهذا الاسم –العزيز– اسم الله "القهار" فهو الغالب والقاهر.

اســـم الله "**القهـــار**": مأخوذ من القهر وهو الغلبة ومعناه أن الله تعالى ينفذ مشيئته في خلقه بالقهر والسلطان[6].

قـــال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[7] وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[8]. فأثبت لنفسه كمال

---

[1]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص162–163.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 73.

[3]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص143.

[4]–سورة الأنعام، الاية: 96.

[5]–برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص679–670.

–محمد الطاهر بن عاشور: ج7، ص392.

[6]–عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص181.

[7]–سورة الأنعام، الآية: 18.

[8]–سورة الأنعام، الآية: 61.

السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور، وبها أبطل استحقاق الأصنام للعبادة، إذ أبطل أن يكون غير الله قاهرا على أحد، أو خبيرا أو عالما[1].

اسم الله "مالك الملك" ومعناه المتصرف بالأمر والنهي، الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، لا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والقدرة والعزة والغنى[2]، وهو من الأسماء التي تدل على صفة "القدرة".

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[3]، وقال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[4].

اسم الله "السميع" ومعناه أنه تعالى كاشف لكل موجود بصفة السمع وهو من الأسماء التي تعود إلى صفة "العلم".

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[5]، فبين أنه المالك لكل ما ذكر المتصرف فيه بقدرته، المحيط سمعه بكل ما يسمع مهما كان خفيا، فأبطل ادعاء من يتخذون من دونه أولياء يبلغونه دعوات الداعين[6]، وفي هذا إثبات لعموم علمه وتفرده بكل صفات الكمال -القدرة والملك والسمع والعلم-.

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[7]، أي المطلع على الأقوال والعليم بما في الضمائر «وهذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتبديل كلماته، فالسميع: العالم بأصوات المخلوقات، والتي منها ما توحي به شياطين الإنس والجن، وبعضهم إلى بعض، فلا

---

(1)-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص336.

(2)-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص144.

(3)-سورة الأنعام، الآية: 73.

(4)-سورة الأنعام، الآيتان:12-13.

(5)-سورة الأنعام، الاية:13.

(6)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص329.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 115.

يفوته منها شيء، والعالم أيضا بمن يريد أن يبدل كلمات الله»[1].

اسم الله "**الخبير**": بمعنى العليم، ومعناه العليم ببواطن الأشياء، لا يخفى عليه شيء وقد بينا معنى هذه الصفة –العلم– بتفسير الآيات التي وردت فيها الأسماء التي تدل عليها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2]، وقال ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[3]، وقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4].

اسم الله "**الحكيم**": معناه المتقن، وهو من أحكم بأن حاطه من الخلل وأصل مادة "حكم" في كلام العرب للمنع من الفساد والحكمة [بكسر الحاء] ضبط العلم وكماله، فالحكيم بمعنى المتقن للأمور كلها وبمعنى ذي الحكمة، وهي بمعنى إيجاد منه سبحانه وتعالى وتدبير بأكمل ما تستعد له ذات المدبَر [بفتح الباء]، والإطلاع على حقائق الأمور[5]. ومن ذلك نرى جميع أفعاله سبحانه وتعالى موافقة للحكمة، ولئن خفيت عنا الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى فمرد ذلك إلى قصور نظرنا وضيق أفق تفكيرنا، وهذا راجع إلى قصور في ذواتنا المخلوقة[6].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[7]، فأثبت تفرده بالقهر والغلبة في الخلق والإيجاد لما يريد وتصريف الأمور كيف يشاء، فهو الحكيم والخبير الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، لا يخلق شيئا عبثا ولا يملك أحد غيره ﷻ تغيير شيء من ذلك. لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[8]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ

---

[1]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ، ج8، ص22.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 18.

[3]–سورة الأنعام، الآية: 13.

[4]–سورة الأنعام، الآية: 103.

[5]–محمد الطاهر بن عاشور: المرجع السابق ، ج1، ص415–416.

[6]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة افسلامية وأسسها، ص177.

[7]–سورة الأنعام، الآية:18.

[8]–سورة الأنعام، الآية:83.

يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[1]. فأثبت الوحدانية له تعالى بإثبات كمال صفاته سبحانه وتعالى ونفى أن تكون أفعاله عبثا وإنما قوله الحق وأمره الحق، فهو المالك لا يجاد المخلوقات والمالك لا فنائنا في يوم قدره وأعده للعباد يجزي فيه كل نفس بما تسعى لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3]، فهو الحكيم العليم يجزيهم في هذا اليوم على قدر أعمالهم إذ هو العادل لا يظلم أحدا، ومنه اسمه تعالى "**العدل**".

ومن الآيات التي تدل على كمال صفاته تعالى وعلى وحدانيته بملكه لهذا اليوم -يوم الحشر-وعى تمام حكمته تعالى في جعل هذا اليوم وملكه له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[4]. وقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[5]، وعلى ما ورد في تفسير هذه الآية فإن كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من الدواب والطيور هي مثلنا محشورة إلى الله تعالى وأن مقتضى حشرها مثلنا معناه خفيّ الحكمة فالله هو الحكيم المالك لهذا اليوم يحكم فيه بما يشاء[6].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[8].وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

---

[1]-سورة الأنعام، الاية:73.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 128.

[3]-سورة الأنعام، الاية:139.

[4]-سورة الأنعام، الاية:22.

[5]-سورة الأنعام، الآية:38.

[6]-هذا معنى ما أورده ابن عاشور في تفسير هذه الآية، ج7، ص213-214.

[7]-سورة الأنعام، الاية:51.

[8]-سورة الأنعام، الآية:60.

[9]-سورة الأنعام، الآية:72.

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

اسم الله "**الواحد**" أي المنفرد بكل صفات الكمال.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3]، فنفى الشرك عنه سبحانه وتعالى وأقر وحدانيته عز وجل. وهذا ما يحمله قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

اسم الله "**الرزاق**": ومعناه الذي خلق الأرزاق، وجعل في الأحياء الباعث على اكتسابها، وخلق فيهم أسباب التمتع بها. والرزق يشمل المأكول والمشروب والملبوس، وكل ما ينفع به الحيوان، فلا رزاق إلا الله تعالى[5]. ولم يرد هذا الإسم في سورة الأنعام وإنما ورد ما يدل عليه فجاء في معناه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[6].فأثبت لنفسه تعالى الوحدانية فهو الله الذي لا يحتاج إلى غيره وغيره محتاج إليه، وأبطل ادّعاء من اتخذوا من دونه أولياء –بأنهم محتاجون إلى الطعام الذي لا حياة لهم بدونه فأشركوهم مع الله واتخذوا أولياء من دونه لاعتقادهم أن لهم يد في ذلك– ببيان أنه تعالى الخالق لكل شيء وبيده الرزق وهو مذلل أسبابه لهم، فهم عاجزون عن كل ذلك لا حياة لهم بدونه[7]. وفي معنى هذا الاسم اسم الله "**الباسط**" و"**القابض**" للرزق بغرض الابتلاء.

اسم الله "**الغني**": وهوا لذي لا يحتاج إلى غيره، وغيره محتاج إليه[8]. ومنه اسمه تعالى

---

(1)–سورة الأنعام، الآية: 36.

(2)–سورة الأنعام، الآية:108

(3)–سورة الأنعام، الآية: 19.

(4)–سورة الأنعام، الآية: 101.

(5)–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية أسسها، ص185.

(6)–سورة الأنعام، الآية: 14.

(7)– محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص331.

(8)–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص85.

"المغني" ومعناه أنه سبحانه الممد بالغنى من شاء من عباده على وفق حكمته، ومن عرف أن الله هو المغني استغنى بالافتقار إليه عمن سواه[1]. فهو الذي يغني من يشاء بتوسيع الرزق وتيسير أسبابه ويفقر من يشاء بتقتير الرزق وتضييق أسبابه.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[2]. فأثبت لنفسه هذا الوصف وتفرده به وبأنه ذو الرحمة أي أنه صاحب الرحمة وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه –الرحمة– والمقصود من الوصف بذي الرحمة هو التمهيد لمعنى الإمهال الذي في قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم﴾.فلا يقولن أحد لماذا لم يذهب هؤلاء المكذبين، أي أنه لرحمته أمهلهم إعذارا لهم [3]، ومنه اسم الله "**الرحيم**"

اسم الله "**الرحيم**": ومعناه المنعم بدقائق النعم وصغارها [4].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]، وقال أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[7]. فأثبت لنفسه صفة "الرحمة" والمعنى أنه وعد بها فضلا منه وكرما، فأمهل الناس ليوم القيامة علهم ينتفعون بالآيات فيعودوا لرشدهم، وهذا إلفات منه سبحانه وتعالى للمعرضين عن الإيمان للإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجّل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم الإنابة والتوبة[8]، ومنه اسم الله "الحليم" أي الذي لا يعجّل العذاب امهالا للعباد.

---

[1]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص186.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 133.

[3]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص86.

[4]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق ، ص191.

[5]–سورة الأنعام، الآية: 54.

[6]–سورة الأنعام، الآية: 165.

[7]–سورة الأنعام، الآية: 12.

[8]– وهبة الزحلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت–لبنان، دط، دت. ج7، ص153.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾[1].

اسم الله "**الغفور**": ومعناه أنه تعالى كثير المغفرة، وهي أنه تعالى يستر ذنوب من يشاء من عباده ويتجاوز عنها، ويصرف عن المذنب العذاب الذي استحقه، بعد توبته واستغفاره، فضلا منه وكرما[2]. ومنه اسم الله "**الغفار**" و"**العفو**"، و"**التواب**".

اسم الله "**النافع**" و"**الضار**": ومعناهما متقابلان، والضر هو الحال الذي يؤلم الإنسان، ويقابله النفع وهو من الخير[3]، وهما مما يجري في الخلق كالصحة والمرض والعطاء والحرمان، والنقص والزيادة في الأموال والأنفس والثمرات، وهما مما لا يدخل في مجال تكليف المكلفين، إذ هو بفعل الله وقضائه وقدره يوقعه بعباده بحكمة منه ﷻ للابتلاء أو التربية أو الجزاء[4].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]، والمعنى يحمله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[6].

اسم الله "**الهادي**": من الهداية وهي الدلالة والإرشاد ومعناه: المرشد لخلقه عن طريق خلق الاستعدادات الفطرية وهبة الغرائز إلى الغايات التي أعدت لها، والمرشد لعباده إلى الصراط السوي بإقامة الأدلة الكونية أو بالأدلة المبلغة على ألسنة رسله عليهم السلام[7].

قال تعالى بعد أن ذكر حجة إبراهيم عليه السلام على قومه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 15-16.

[2]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص200، وقد سبق ذكر الآيات الوارد فيها هذا الاسم.

[3]-محمد الطاهر بن عاشور الميداني: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص163.

[4]-عبد الرحمن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص206.

[5]-سورة الأنعام، الآية: 17.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 40-41.

[7]-عبد الرحمن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص179-197.

الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وبعد أن ذكر الرسل عليهم السلام قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

وهذا ما أشار إليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5].

اسم "المحيي" و"المميت": ومعنى المحيي: خالق الحياة وواهبها لمن يشاء حياته، ومعنى المميت: خالق الموت ونازع الحياة ممن كان قد وهبه إياها[6].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[7]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[8]. والتوفي حقيقة الإماتة، فهو حقيقة في قبض الشيء مستوفى، وإطلاقه على النوم مجاز، لتشبيه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل والمراد أنه يتيمكم بالليل ثم يبعثكم في النهار، وساق هذا الدليل لتقريب كيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتم التقريب[9]، فأثبت لنفسه تفرده بذلك وأنه هو الذي يحدد أجل كل واحد منا، فجعل لها آجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها ثم يكون الرجوع إليه

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 84.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 87-88.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 90.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 39.

[5]-سورة الأنعام، الآية: 97.

[6]-عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص181.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 60.

[8]-سورة الأنعام، الآية: 61.

[9]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص276.

وحـــده حيـــن تنقضي هذه الآجال ليبعثنا من أجل حسابنا وتنكيرنا بأعمالنا ومحاسبتنا عليها[1]. فهو وحـــده القـــادر على أن يهب الحياة وهو وحده القادر على أن يسلبها متى شاء، ولا يستطيع أحد أن يغير شيء من ذلك كما أثبت لنفسه إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم.

وقال أيضا:﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّـهُ فَأَنَّـى تُؤْفَكُـونَ﴾[2]، فأثبت لنفسه الوحدانية بإثبات كمال قدرته على الإحياء بعد الموت وعلى إماتـــة الحي وتفرده سبحانه وتعالى بذلك. إذ له كمال التصرف والتدبير في الكون بالإحياء والإماتة وتقدير الأمور.

اســـم الله "**الحفـــيظ**": ومعـــناه أنـــه تعالى هو الحافظ للمخلوقات، والصائن لها من الزوال والاخـــتلال فـــي نظامها وتركيبها مدة بقائها، بحسب مشيئته سبحانه وتعالى [3]، ومنها حفظه تعالى لعباده.

وهذا الاسم أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَـاءَ أَحَدَكُـمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[4]، فهو تعالى الذي يرسل الملائكة الحفظة بالليل والـــنهار يحفظون بدن الإنسان، ويحصون أعماله[5] كاملة غير مبدلة بنقص أو زيادة ليحاسبنا عليها يـــوم القيامة فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. وفي هذه الآية بيان لتمام رعاية الله وعنايته وفضله ورحمته بكل ما يدب على الأرض.

اسم الله "**الحسيب**": ومعناه: المحاسب على كل صغيرة وكبيرة وهو بمعنى الكافي فمن توكل على الله فهو حسبه ولا يوجد كاف في الحقيقة إلا الله [6].

قـــال تعالى في معنى أنه المحاسب: ﴿وَهُـــوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

---

(1)–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص480.

(2)–سورة الأنعام، الآية: 95.

(3)–عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الاسلامية وأسسها، ص182.

(4)–سورة الأنعام، الآية: 61.

(5)–وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج7، ص231.

(6)–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص150-195.

الْحَاسِبِينَ﴾[1]، فبين تعالى بأنه يحصي أعمالنا ثم يوفينا إياها في أسرع وقت، إذ فسر قوله "أسرع الحاسبين" بأنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، لأنه لا يشغله شأن عن شأن[2]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

اسم الله "**المحصي**" ومعناه المحيط بكل موجود جملة وتفصيلا، فلا يخفى عليه شيء، وهذا يرجع إلى كمال علمه تعالى وعمومه، وهو من الإحصاء وهو الإحاطة بحساب الأشياء وما من شأنه التعداد. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[4]. فبين سبحانه وتعالى سعة علمه وكماله وعظيم قدرته إذ ورد أن إحدى معاني "الكتاب" هو "المكتوب"، وهو المكنى عنه بالقلم[5]، هو اللوح المحفوظ [6] الذي كتب فيه القلم -بعد أن خلقه الله وأمره بذلك- ما كان وما سيكون من مقادير الخلق إلى يوم القيامة، وفي هذا بيان لعلمه تعالى المحيط بجميع مخلوقاته وأنها كلها داخلة في تدبيره ورزقه لا يهمل أحد منها ولا يخلق شيء منها عبثا وفي هذا إثبات وبيان لوحدانيته تعالى ببيان كمال صفاته وتنزهها على أن يشبه فيها أحد من المخلوقين، وهذا المعنى يحمله قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[7].

وقد بينا المعنى عند ذكر اسم الله "**الحسيب**" ويدخل في معنى هذين الإسمين اسم الله "**الرقيب**"،

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:61-62

[2]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص487.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 165.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 38.

[5]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص217.

[6]-وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج7، ص194.

-محمد رشيد رضا: المرجع السابق، ج7، ص394. يقول صاحب تفسير المنار: «وقالوا أنه اللوح المحفوظ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى مقادير الخلق ما كان منها وما يكون بحسب النظام المعبر عنه بالسنن الإلهية»، ج7، ص394.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 59-61.

والـــذي يعنـــي بأنه تعالى المراقب للأشياء وهو عليم بها [1]، قال تعالى في ذكر هذا الاسم: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾[2].

اســـم الله "**الشـــهيد**": شـــهد الشيء اطلع عليه وعاينه فهو "شاهد"، والجمع"أشاهد" و"شهود" و"شـــهيد" و"شهداء"، وأشهده الشيء، ويشهد على الرجل بكذا وشهد له به، والشاهد يرى ما لا يرى الغائـــب أي الحاضر يعلم ما لا يعلمه الغائب وشهد بكذا يتعدى بالباء لأنه بمعنى أخبر به ولهذا يقال "الشهادة" الإخبار بما قد شوهد [3].

ومعنى اسمه تعالى"الشهيد" أي ذو الشهادة التامة لكل شيء يمكن مشاهدته والشهادة نوع من العلـــم مـــع الحضور، فهو عليم بالأشياء علم شهود وحضور [4]، «وشهادة الله تعالى بالوحدانية هي إيجاد ما يدل على وحدانيته في العالم وفي نفوسنا» [5].

قـــال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[6].فأثبت لنفسه كمال العلم المحيط بالأشياء ولذلك فإن شهادته أكبر شهادة وأتمهـــا وأعد لها وأجلها وأصحها وأصدقها فهو المتفرد بكمال صفاته سبحانه وتعالى وأخبر بأنه أيّد نبيه ﷺ بها شهادة تدل على صدق الرسول ﷺ ردا على المشركين الذين لم يعتبروا بدلائل صدقه ﷺوتعنتوا فقالوا له ﷺ من يشهد لك بأنك صادق وأنك رسول الله [7].

ولهذا فإن هذه الآية تحمل إثبات وتقرير وحدانية الله تعالى وشهادته بذلك لرسوله ﷺ بإيجاد ما يدل عليها بإنزال الكتاب وتفصيل الدلائل.

اســـم الله "**الولي**": ومعناه المتكفل بأمور المخلوقات كلها، والناصر لأوليائه على أعدائه، فهو

---

(1)-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص151.

(2)-سورة الأحزاب، الآية: 52.

(3)-أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص169.

(4)-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص150.

(5)-أبـــو قاســـم الحســـين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ضبط ومراجعة: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط1، 1418هـــ-1998م، ص273.

(6)-سورة الأنعام،الآية: 19.

(7)-وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج7، ص157.

يتولاهم بتأييده ونصره وفي هذا المعنى اسم الله "**الوالي**"، ومعناه أنه تعالى هو المالك للأشياء، والمتصرف فيها بحسب مشيئته، وهو المتصرف بتدبير أمورنا ويدافع عن عباده وينصرهم إذا استنصروه مؤمنين به مدافعين عن دينه [1].قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]. فأمر نبيه بأن يبيّن بأن المتصف بصفات الكمال هو القادر على النصرة للضعفاء ومن استجار به واستنصره، وعلى هذا فهو سبحانه وتعالى أحق بأن يتخذ وليا وحده، فهو الضار والنافع وهو وحده القادر على دفع الضرر، ومن اتخذ غيره وليا فقد خاب وخسر.

قال تعالى عن المؤمنين الذين انتفعوا بآياته وتذكروا فأمنوا والتزموا: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

اسم الله "**الوكيل**" ومعناه القائم بأمور عباده، وبتحصيل ما يحتاجون إليه، من توكل عليه كفاه، ومن استغنى به أغناه عمن سواه[4].

قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [5]. فهو المنفرد بكل صفات الكمال، ويتكفل بالأشياء كلها من الخلق والرزق والإنعام وكل ما يطلب المرء حفظه له، يدبر الأمور كلها، ويرزقه ويكلؤه بالليل والنهار، ولا حافظ إلا الله ولا رازق إلا هو [6].

اسم الله "**المجيب**": ومعناه أنه تعالى يلبي دعوة الداعي إذا دعاه.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[7]. فبين سبحانه وتعالى أنه لا يقدر على الإنجاء من الكربات والشدائد وأنه لا يكشف الضر إلا الله سبحانه وتعالى

---

[1]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص194.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 14.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 126-127.

[4]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق ، ص195.

[5]-سورة الأنعام، الآية: 102

[6]-وهبة الزحلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج7، ص315.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 63-64.

ولأنه تعالى متفرد بكمال الرحمة والفضل والإحسان، فإنه يمتن على عباده بإنجائهم من هذه الشدائد بإجابة دعوتهم ويكشف ضرهم بذلك.

اسم الله "**اللطيف**": ومعناه أنه تعالى يلطف بعباده من حيث لا يشعرون، ويلطف بهم فيما تجري به المقادير[1].

قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]. فنزه سبحانه وتعالى نفسه عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته بقوله ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وبهذه الصفات "اللطيف الخبير" وبيّن كونه "يدرك الأبصار" وأنه "اللطيف" بعباده المحسن الرفيق بهم "الخبير" بكيفية إلحاق هذا اللطف بهم وبمواقعه وبمستحقيه الخبير بجميع خلقه وعباده[3]، فهو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها لـه من خلقه، ولا يتصف بهذا إلا من اجتمعت له صفات الكمال، وأنه تعالى للطفه جعل أحكام دينه يسرا[4]

اسم الله "**الوهاب**": ومعناه أنه تعالى يعطي لعباده دون عوض، فلا ينتظر منهم ذلك، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، فهو تعالى المالك لكل ما خلق[5]، وهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء.

قال تعالى مخبرا عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[6]، أي وهب لإبراهيم بآية منه إسحاق بعد أن كبر سنه ويئس امرأته سارة، على عقمها جزاء إيمانه وإحسانه وكمال إسلامه لربه وإخلاصه ومن وراء إسحاق ولده يعقوب [7].

اسم الله "**الرافع**": ومعناه أنه تعالى يكرم عباده المؤمنين ويعلي مكانتهم بين الناس.

---

(1)-أنظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص192.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 103.

(3)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص417-418.

(4)-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص654.

(5)-عبد الرحمن حبنكة الميداني: المرجع السابق ، ص188.

(6)-سورة الأنعام،الآية: 84.

(7)-محمد رشيد رضا: المرجع السابق، ج7، ص585.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فأثبت لنفسه تفرده بهذه الصفات "رفع درجات من يشاء"، و "حكيم" و"عليم" وانه لا أحد يملك شيئا من ذلك فلا يملك أن يرتفع من أراد الله خفض درجته ولا يملك أحد خفض درجة أحد إن أراد الله إعلاءه وفي هذا بيان لتفرده تعالى بكل صفات الكمال.

وعلى معنى القراءتين- قراءة نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر بإضافة "درجات" إلى "من" وقراءة الباقين بتنوين "درجات"[2]- فالعلم النظري درجة، والحكمة العلمية درجة والحكمة العملية درجة، وفصل الخطاب، وقوة العارضة في الحجاج درجة، والسيادة والحكم بالحق درجة، والنبوة والرسالة درجة أعلى من كل تلك الدرجات، وكل ذلك متفاوت بفضل الله فضّل بعض أهله على بعض فهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء بإعداده الكسبي وبتوفيق من يشاء للكسبي منها، ويختص من يشاء بالوهبي منها[3]، فهو "**الوهاب**" الجامع لكل صفات الكمال يرفع درجات كل أولئك كما يشاء، وقد اختص أنبياءه بأعلى الدرجات وأفضلها ولذا قال عنهم: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4].

وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]. وذلك لحكمته تعالى لابتلاء الإنسان في الحياة الدنيا وإمهاله ليوم يحاسبهم فيه حسابا دقيقا وسريعا ويغفر ويرحم من يشاء.

ومن هذا اسم الله "**الخافض**" فهو الذي يخفض أهل الكفر والمعصية بما ينالهم من شقاء بسبب معاصيهم وكفرهم.

وفي معناهما اسم الله "**المعز**" و"**المذل**" وكذا اسم الله "**المانع**" في أحد معانيه إذ أن من صور المنع منه تعالى الحرمان من بعض الخيرات، بقضاء منه سبحانه وقدره للابتلاء، ومنه دعاء

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 83.

[2]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص335-336.

[3]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص583.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 86-87.

[5]-سورة الأنعام، الآية: 165.

الرسول ﷺ : «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[1].

أمـــا المعـــنى الآخـــر لهذا الاسم العظيم فهو حفظ الأشياء وحجزها وحفظها من المهلكات والخلل والفساد لبقاء نظامها واستمرارها في أداء وظيفتها الوجودية [2].

اســـم الله "المنـــتقم": ومعـــناه المعاقب للعصاة والمعاندين والمذنبين، الذين لم يستغفروا من ذنوبهم وأصروا على العناد والمكر والمحاربة لدينه ولرسله وأوليائه.

وهـــذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[3]. فلما بالغ اليهود في الإعراض والصد وقتل الأنبياء والمخالفة لأوامر الله عاقبهم على فعلهم هذا فشدد عليهم في شأن الحلال والحرام فحرم عليهم ما ذكرته الآية[4].

والله تعـــالى هو المنفرد بهذه الصفة، وله سبحانه كمال الصفات يعذب من يشاء وينتقم ممن يشاء ولا يملك أحد رد شيء من ذلك.

وقـــال ﷻ: ﴿...فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾[5].وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[6]، فبين سبحانه وتعالى أنه ينتقم من الظالمين فيهلكهم بقدرته وعظمته بما يشاء أن يهلكهم به ومتى شاء ولا يملك أحد دفع ذلك عنهم أو تخفيفه أو تغييره وهذا ما أشار الله تعالى بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا

---

[1]-رواه البخاري في كتاب الآذان، باب: ذكر بعد الصلاة، صحيح البخاري، مج1، ج1، ص205.

-ومسلم في كتاب المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415هـ-1994م، مج4، ج4، ص90.

[2]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص206.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 146.

[4]-أنظر معنى هذه الآية: وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج8ص84، وتفصيله: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص147.

[5]-سورة الأنعام، الآية: 157.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 6.

فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[1].

اسم الله "**الحكم**" ومعناه الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه، لأنه يضع الأحكام في مواضعها، بحكمته وعلمه[2].

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[3]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]. وفيها إثبات لكمال صفاته تعالى وتفرده بها عز وجل. فقد أمر بها نبيه ﷺ بأن يرد بها على المشركين –الذين أرادوا التحاكم إلى غيره والذين لم يقدروا الله حق قدره فرفضوا آياته ودلائل صدقه– وأن يبين لهم بأنه لا يتخذ غير الله حكما بينه وبينهم حين أرادوا التحاكم إلى غيره، فهو وحده المنفرد بصفات الكمال، وهو الحكم الذي لا رادّ لحكمه لأنه الحق والصواب وقد فصّل لهم الآيات والدلائل على وحدانيته تعالى وصدق رسوله ﷺ والقرآن الكريم الذي يتلوه عليهم أعظم دليل وحجّة على ذلك، وقد فصّل لهم كل ذلك وورد صدقه –قبل أن ينزل– في الكتب السابقة وأهل الكتب على علم بذلك. وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[7].

اسم الله "**الباعث**" من البعث: وهو إثارة الساكن وتغيير حاله، فالله تعالى هو باعث الرسل

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 45

[2]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص198.

[3]–سورة الأنعام، الآية: 114.

[4]–سورة الأنعام، الآية: 19.

[5]–سورة الأنعام، الآية: 14.

[6]–سورة الأنعام، الآية: 71.

[7]–سورة الأنعام، الآية: 57.

بالأحكام والشرائع، وباعث الموتى إلى الحياة، وباعث النائمين إلى اليقظة[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، وفي هذا المعنى قال عز وجل مستدلا على من أنكر يوم البعث، مقررا وحدانيته وكمال صفاته وأنه القادر على ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[4]، بمعنى قضى لكم أجلين: أجلا تعرفون مدته بموت صاحبه، وأجل معين المدة في علم الله وهو ما بين موت كل واحد إلى يوم البعث [5].

قال الطبري:«معناه: ثم قضى أجل الحياة الدنيا، وأجل مسمى عنده، وهو أجل البعث عنده»[6].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[7]. وفي معنى أنه تعالى باعث للرسل عليهم السلام بالكتب والشرائع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ. وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[8]. فهو تعالى الباعث للرسل والمرسل لهم ومنزل الكتب عليهم والمنفرد بذلك، يختار من يشاء من عباده فيختصهم بالوحي، ولا يملك أحد شيئا من ذلك ولا يمكن لأحد أن يدعي

---

[1]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص180.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 36.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 60.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 2.

[5]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص131.

[6]-الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج7، ص147.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 12.

[8]-سورة الأنعام، الآية: 91-93.

اصطفاءه بالوحي أو أنه يملك إنزال مثلما ما أنزل الله، وقد ثبت إعجاز القرآن الكريم بما يدل على أنه من الله، وثبت عجز المخلوقين عن الإتيان بمثله، وفي هذا بيان وتقرير لوحدانية الله، ورد على من أنكر أن يكون الله قد أنزل الكتاب.

وفـــي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[2].

وفي معنى أنه تعالى: "**الباعث**" للموتى اسم الله "**المعيد**": من الإعادة وهي إرجاع الشيء إلى ما كان عليه فالله هو المعيد للموتى متى شاء ذلك[3].

وهكـــذا فـــإن القرآن الكريم أضفى على حقيقة ذاته تعالى من صفات الكمال ما يميزها عن ســـائر المخلوقات ويجعلها في متناول إدراك الإنسان، وبهذا ميز القرآن الكريم المعنى الحقيقي للفظ الجلالة "الله" وحدده للإنسان.

والإيمـــان بوحدانـــية الله تعالى في أسمائه وصفاته على النحو الذي تم بيانه يقتضي الإيمان بتوحيد الله تعالى في العبادة.

ثالثا: توحيد الله تعالى في العبادة

ومعناه الاعتقاد بأن الله تعالى المنفرد بصفات الكمال هو المستحق للعبادة بالخضوع والتذلل إلـــيه والإئـــتمار بأوامره والانتهاء عند نواهيه، ولا أحد غيره يملك ذلك أو يشاركه في شيء منها، وذلك مبني على ما تحمله الأسماء والصفات –التي تم بيانها– من معان، لأن الإيمان بأن الله تعالى هـــو الله وهـــو الـــرب الكامل الصفات الذي له منتهي التدبير والحكمة والعلم والذي خلق كل شيء وملكه، يقتضي الإيمان بأنه المستحق وحده للعبادة وبأن عبادته تكون على وفق ما شرع على لسان رســـوله ﷺ، لأنـــه تعالى المنفرد بصفات الكمال فلا يخلق الخلق عبثا فهو الحكيم وهو العليم الذي يعلم ما يصلح عباده، فأنزل لهم الكتاب مفصلا لهم فيه ما يحقق صلاحهم في الدنيا والآخرة، ولعلمه

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 114.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 124.

[3]–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص180.

بعظم هذا الأمر اصطفى بشرا، فأنزله عليهم ليبلغوه إلى الناس.

وهـذا التصـور هو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّـهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1]. فالمؤمن بوحدانية الله تعالى فـي صفاته يؤمن بأنه لا يستحق العبادة إلا الله تعالى، وقد قرر وحدانيته تعالى بتقرير الصفات التي توجـب عدم عبادة غيره وأمر بإفراده بالعبادة، وهو المعنى الذي يحمله قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2]، فهؤلاء الذين ءامنوا بوحدانية الله وأسماء الله وصفاته تعالى فآمنوا بالآخـرة وأمـنوا بكـتابه وآمـنوا بأنه المستحق وحده للعبادة فعبدوه وحافظوا على العبادة –ومنها الصلاة–.

وقولـه ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّـهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[3].فأثبت كمال صفاته تعالى وتفرده بالتصرف وتدبير الأمور وتقديـرها كيف شاء ومتى شاء، فهو العليم الحكيم له الحكم يحكم بين عباده ويدبر الأمور على وفق ما تقتضيه مصالحهم فأنزل إليهم الكتاب بالحق مفصلا ينظم شؤون حياتهم ويحفظها من الفساد، إليه تعـود السـلطة والحكم والأمر والتشريع ولا يملك أحد من البشر أن ينفرد بذلك أو يدخل شيئا مما يخل بهذا التصور العام لحقيقة الألوهية.

وقولـه ﷻ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[4]. إذ حملت التصور الصحيح للتوحيد –تصورا وسلوكا– فقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، هو بيان لمقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور، فالمنفرد بكمال الصفات هو المسـتحق وحـده للعبادة، وقوله "فاعبدوه" هو بيان منه سبحانه وتعالى لمقتضيات التوحيد المتعلقة بالسـلوك وهـو عـبادته تعالى وحده على وفق ما أمر به. وفي هذا البيان قطع لعذر من توهم أن الإيمان بمقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور كاف وحده دون مقتضياته المتعلقة بالسلوك.

وعلـى هـذا فإن المؤمن بوحدانية الله تعالى لا بد أن يعتقد بأن الله تعالى له منتهى التشريع

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 56

[2]–سورة الأنعام، الآية:92.

[3]–سورة الأنعام، الآية:57.

[4]–سورة الأنعام، الآية:102.

والحاكمية لحياة الناس، وبيان منهاجها فيما ينبغي أن تكون عليه، تصورا لحقيقة الوجود، وسلوكا في نطاق العبادة والتشريع، لا يخضع في ذلك لأحكام البشر.

ويمكن تلخيص هذا التصور لمقتضيات التوحيد على وفق ما تم بيانه كالآتي:

-الله تعالى له كل صفات الكمال فهو واحد في ذاته واحد في أسمائه وصفاته.

-الله تعالى مستحق للعبادة لا يشاركه فيها غيره وهو غني عنها.

-الله تعالى له مطلق السلطة والتصرف في العالم وفي المخلوقات وله منتهى التدبير والحكمة، والإنسان مخلوق من هذا العالم يخضع لقضاء الله وقدره.

-الله تعالى هو الحاكم والمشرع لعباده فهو العليم بمصالحهم.

والإيمان بكل ذلك يقتضي:

-الإيمان بأن الملائكة خلقهم الله بحكمة وتدبير يُؤدون وظائفهم التي خلقهم لأجلها وأنهم مخلوقات لا تملك شيئا من التدبير أو الانفراد بالتصرف في أجزاء الكون وإنما خاضعة لإرادة الله تتصرف على وفق ما أمر.

الأنبياء والرسل بشر اصطفاهم الله تعالى لتبليغ رسالته إلى الناس لتحقيق صلاحهم في العاجل والآجل، لا يملكون إلا اتباع ما يوحي إليهم.

-الرسالة أو "الكتاب" حق أنزله الله تعالى مؤيد بالبيانات والحجج على صدقه، معجز في ذاته لا يلحقه تحريف أو تبديل، فلا يملك أحد تغييره بالزيادة أو النقصان.

-الجن مخلوقات الله تعالى خلقهم على نحو ما بينه في الوحي -قرآن وسنة- لا يملكون الخروج عن السنن التي وضعها الله تعالى بتدبيره وحكمته ولا يعلمون شيئا من الغيب لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

-اليوم الآخر حق جعله الله تعالى للجزاء على العمل الصالح والعقاب بالنار على الكفر والظلم والعصيان.

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:100.

وبذلك تنتهي إلى أن أركان الإيمان التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1]، وبينها الرسول ﷺ حيث قال جوابا عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان:«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2]، مبنية على هذا التصور لحقيقة مقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور كما بينها القرآن الكريم.

ولأهمية الإيمان بهذه الأركان فصّل الوحي –قرآنا وسنة– بيان حقيقتها، وضرورة استجماع المسلم الإيمان بها كاملة ومجتمعة على النحو المبين في القرآن والسنة، لأن الإنحراف في تصور حقيقتها معناه انحراف في تصور حقيقة التوحيد الذي عليه مبني دين الإسلام.

المطلب الثاني: مقتضيات التوحيد المتعلقة بالسلوك

إن الإيمان بالتوحيد كما بيناه سابقا إذا بقي في حدود التصور الذهني لا يكفي وحده كي يكون المعتقد محققا للتوحيد، أو مؤمنا به إيمانا كاملا حقيقيا، فلا بد لمن حقق هذا الإيمان أن يتبعه بالامتثال بالعبادة كما بينها الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله ﷺ ،وذلك لأن شأن العقيدة –أي عقيدة– أنها باعثة على العمل، ومفضية إليه، ومرتبطة به ارتباطا وثيقا يجعل من سلوك الإنسان في واقع حياته صورة منعكسة عن عقيدته[3]، فإذا كان سلوك من شهد بشهادة التوحيد مخالفا لما يقتضيه من السلوك فمعنى ذلك أن اعتقاده لم يصل إلى حد اليقين الثابت، أو أن تصوره لهذه الحقيقة لم يبلغ درجة الكمال، أو أن شهادته بها زائفة ظاهرية حل محلها اعتقادات أخرى بلغت حد اليقين بعثت به إلى ذلك السلوك المخالف.

ونظرا للصلة الوثيقة لهذا المقتضى بالتصور ودخوله في حقيقة التوحيد، جاءت آيات قرآنية مبينة لهذه الأهمية إذ لم يكتف ببيان كونها مما يدخل في كمال التصور بل أمرت بضبط السلوك الإنساني بها وتحقيقها في واقع الحياة فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

---

[1]–سورة البقرة، الآية:285.

[2]–رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان وعلم الساعة، رقم الباب: 37، صحيح البخاري، ص26-27.

[3]–محمد عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، منشورات المكتبية العصرية، صيدا، بيروت، ط، 1980، ص51، في بيانه الأنواع العقائد وصلتها بالأخلاق.

فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]. وقوله أيضا في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، وقوله تعالى عما أوحاه لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[3]. فلم يختص بهذا الأمر أمة من الأمم وإنما تشمل جميع البشر بما فيهم الأنبياء -عليهم السلام- فلا يتصور أحد بأن الإيمان وحده كاف، وأن العمل شأن آخر لا علاقة له بهذا التصور.

وعليه ما هي حقيقة هذه العبادة وكيف ضبطها القرآن الكريم لكي تحقق كمال التوحيد؟

إذا رجعنا إلى معاني كلمة "عبادة" نجد أنها تأتي بمعنى:

1-الطاعة مع إظهار الخضوع والتذلل، وهذا المعنى مأخوذ من كلمة "عبد" فإذا أطلق هذا اللفظ انصرف الذهن لهذا المعنى، وهو -لفظ عبد- على وجوه عبد بالملكية فهو مملوك خلاف الحر، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وشراءه، وجمعه "عبيد" وقيل "عبدا"، وعبد بالإيجاد وهو الذي ليس إلا لله سبحانه وتعالى، وعبد بالعبادة والخدمة وهو إما أن يكون بإخلاص العبادة والخدمة له، وإما لغيره، وعلى هذا الوجه يسمى فاعلها "العابد" وجمعه "عباد" و"العبد" أبلغ من "العابد"، و"العبيد" إذا أضيف إلى الله أعم من "العباد"[4].

2-كما وردت بمعنى الملازمة وعدم المفارقة فيقال "عبد به".

3-وبمعنى الحبس، فيقال ما عبدك عني؟ بمعنى ما حبسك عني؟

4-وبمعنى التأله إذا ورد بالإضافة إلى من كان له حق إظهار الخضوع والتذلل، فيقال مثلا عبد الله أي تأله له، والتعبد: التنسك، و"المُعَبَّد" هو المكرم المعظم[5].

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:102.

[2]-سورة النحل، الآية:36.

[3]-سورة الأنعام، الآية:11-12.

[4]-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص323.

-ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص2776-2777.

[5]-ابن منظور: المرجع نفسه، ج4، ص2778.

وإذا أمعنا النظر في هذه المعاني الواردة لكلمة "العبادة" التي يقوم بها الإنسان نجد أنها تكون لمن له السلطة والغلبة وحق الإطاعة، فمن كان كذلك كان له حق الطاعة مع إظهار الخضوع والتذلل، وأنها لا تصرف إلا من طرف من اعتقد في نفسه أنه عبدٌ لمن له حقّ السلطة عليه. فالعبد المملوك من طرف سيده مثلا لا يقوم بأداء حق سيده إلا إذا استقر في اعتقاده أنه مملوك لهذا السيد وأن المالك بهذه الصفة لا بد له من طاعة وخضوع وتذلل منه ولم يكتسب هذا الاعتقاد إلا حين علم أن هذا هو الأصل المتعارف عليه في شأن المالك والمملوك، وفي خلال سلوكه بالطاعة والامتثال فإنه يحاول أن يأتمر بأوامره وينتهي عند نواهيه لكي يكون طائعا له ويحقق رضاه، وأنه لو امتنع عن طاعته أو خلط طاعته بالامتناع أحيانا والامتثال أخرى كان وفق هذا الأصل عاص متمرد، ولو اعتقد غير هذا كأن يعتقد بأنه حر أو أن مالكه الحقيقي وسيده ليس هذا جاء سلوكه موافقا لذلك كأن يحاول مثلا أن يتعرف على مالكه الحقيقي أو أن يحاول الإفلات من العبودية ليكون حرا كما اعتقد ولاعتقد أن كل ذلك السلوك ليس عصيانا لسيده أو تمردا عليه بل هو من واجباته للإفلات ممن استعبده بغير حق وكل ذلك كان باعثة ما استقر في ذهنه من اعتقاد واستيقن به، ولو أجبره سيده وهو يعتقد أنه ليس بسيده لم يكن في حقيقته عبدا لهذا السيد وإنما كونه عبدا لا عاصيا ولا متمردا جاء من كونه امتثل لأوامر هذا السيد. فالحكم جاء على ما ظهر من سلوكه لا على ما استقر في ذهنه من اعتقاد ولأنه لم يسلك ما يوافقه لنحكم عليه من خلاله، وبذلك فإن طاعته له قسرية لا اختيارية.

كما أن من اعتقد في سيده حق التأله جاء سلوكه موافقا لما اعتقد.

يقول أبو الأعلى المودودي في هذا المعنى: «وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتما يتبعه تصور الإطاعة. ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم لسيده طاعة وتذللا، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه ويتفنن في إبداء الشكر على آلائه وفي أداء شعار العبدية له»[1].

هذه طبيعة المعرفة الجازمة أو الاعتقاد الجازم لا بد ان يتبعه إذ عان قلبي وانقياد إرادي يتمثل في الخضوع لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم، ولهذا عرّف علماء الأخلاق السلوك بأنه

---

[1]-أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب كاظم سباق، دار القلم، الكويت، ط9، 1405 هـ-1984م، ص97.

عبارة عن مجموعة من الأعمال الإرادية التي يقوم بها الإنسان متجهة نحو غاية معينة مقصودة[1]، فهو ترجمة عن فكر الإنسان المنطلق مما استقر عنده من اعتقاد وتصور وعن إرادة الإنسان وحريته في اتخاذ هذا النمط من السلوك، ونلمس هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]، قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فالإكراه هنا هو الإكراه على الكفر فقد يجبر الإنسان عليه لكن إذا كان يقينه بعقيدته راسخ وثابت "وقلبه مطمئن بالإيمان" فإنه لا يغيره. وأن ما غيره هو سلوكه إيهاما بأنه ترك عقيدته لينجو من عقاب تيقن بأنه الهلاك، ويكون هنا سلوكه الموافق للكفر أو الدال على الكفر لا معنى له على الحقيقة لأنه لو ترك وشأنه بعد ذلك لعاد إلى سلوك الإيمان بالته، وهذا الإيهام في حد ذاته من أجل الحفاظ على العقيدة التي استيقن بها في حقيقته هو من دوافع اليقين بهذه العقيدة، وعلى هذا فهو لا ينسب إلى العقيدة الثانية المكره عليها.

هذه هي القيمة الحقيقية لليقين بالعقيدة فإنه يدفع بصاحبه إلى الحفاظ عليها.

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى بيانا لقيمته وارتباطه بالسلوك وأن الإيمان يستلزمه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]، ويقول: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4]، ويقول: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[5]، فقوله "إن كنتم مؤمنين" "إن كانوا مؤمنين" بيان بأن الإيمان يستلزم ذلك السلوك- طاعته وخشيته وطاعة رسوله ﷺ-إذ لو كانوا مؤمنين حقا لأتوا بما يوافق إيمانهم من طاعة والتزام. ولهذا نفى حقيقة الإيمان عمن شهد به ثم تولى بعد ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[6]. إذ لو استقر الإيمان حقا في صدورهم واستيقنوه لما تولوا واعرضوا. ثم أخبر عن المؤمن الحقيقي الذي آمن حق الإيمان فقال في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

---

[1]-محمد عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، ص252.

[2]-سورة النحل، الآية:106.

[3]-سورة الأنفال، الآية:1.

[4]-سورة التوبة، الآية:13.

[5]-سورة التوبة، الآية62.

[6]-سورة النور، الآية:47.

وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]، فهؤلاء آمنوا حق الإيمان فأتوا بما يستلزمه إيمانهم، وهذا ما أشارت إليه بداية سورة المؤمنون، ولهذا بين الله سبحانه وتعالى بأنه لا إكراه في الدين وأنه لا يجبر أحد من الناس على تغيير عقيدته فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]،وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]. إذ أن اليقين بعقيدة ما مع الإكراه على غيرها يدفع بصاحبه إلى إيهام المكره بما يحب، وهو أحد أسباب ما سماه القرآن الكريم بـ "النفاق".

ولهذا نجد القرآن الكريم يصحح الإعتقاد في الألوهية وتصور الناس للتوحيد ويثبت لهم هذا التصور ثم يعرفهم بمفهوم العبادة الواجبة، ويحددها لهم حتى لا تنحرف سلوكاتهم عما حدده لهم من ضوابط، لأن اليقين بالعقيدة وحده دون معرفة لضوابط السلوك الذي تقتضيه قد يدفع بصاحبه إلى اتخاذ أشكال من العبادات تخالف حقيقة ما اعتقد دون وعي وعلم بهذه المخالفة فيكون كمن انحرف تصوره واعتقد التعظيم لغير الله أو أشرك مع الله غيره فسعى بالسلوك على وفق ما اعتقده.

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[4].

استفتحها بما تستلزمه وحدانيته تعالى وهو "الحمد" والثناء الجميل والذكر الحسن له لما له من كمال الصفات وفضل الإنعام على عباده، فأقر لنفسه وأثبت بقوله "الحمد لله" استحقاقه لجميع المحامد وأبطل ما كان في زعم المشركين من استحقاق الآلهة لذلك[5]، وأشار بذلك إلى أصل العبادة –وهو الحمد والشكر– الذي يقتضي العبادة.

وفيها دعوة لعباده للثناء عليه، بما هو أهله، وذكْرِه بما ثبت له من صفات الكمال لأنه المتفضل عليهم بكل أنواع النعم، وتجنب كفرها باشراك غيره معه في هذه العبادة –الحمد– وفي

---

[1]–سورة الأنفال، الآية:2-4.

[2]–سورة البقرة، الآية:256.

[3]–سورة يونس، الآية:99.

[4]–سورة الأنعام، الآية:1.

[5]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص125-126.

–الألوسي: روح المعاني، مج4، ج4، ص74-76.

الحديث قوله ﷺ :«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1]. لأنه سبحانه وتعالى العليم بما يستحقه من الثناء، وعليه فإن أساس هذا التوحيد هو الإيمان بأنه المستحق لجميع صفات الكمال ما علمناها وما لم نعلمها وأنه المستحق لجميع المحامد ما علمناها وما لم نعلمها فكان الإيمان مستلزما لجنسه من العمل، توحيد في الصفات وتوحيد في العبادة. ولهذا قيل بأن "الحمد" أصل العبادة وإشارة لها، وأن مقتضاه هو العبادة.

ومنه فإن عبادته تعالى تكون على وفق ما شرع لأنه العليم بما يستحقه منها، وهذا يتطلب اتباع ما جاء به من التشريع وترك مخالفته، لأن الخروج عن طاعته واتباع الأهواء يؤدي إلى الضلال والفساد، قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2].فنهى عن اتباع من يشرع بغير علم وبين أن التشريع مصدره الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ(118)وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[3]. وأمر باتباع ما جاء من الوحي فقال: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].لأنه الحق والطريق المستقيم الذي فيه كمال التشريع يقول تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[5]. ويقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[6].

وعلى هذا فإن افتتاحها بالثناء على الله هو «كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، وذلك

---

(1)-رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، د.م، د.ط، 1403هـ-1983م، مج4، ج4، ص203.

-والترمذي في كتاب الدعوات، باب: 78، رقم الحديث: 3562، سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م، مج5، ج5، ص187، وقال حسن صحيح.

(2)-سورة الأنعام، الآية:116.

(3)-سورة الأنعام، الآية:118-119.

(4)-سورة الأنعام، الآية:106.

(5)-سورة الأنعام، الآية:126.

(6)-سورة الأنعام، الآية:104.

بتضـــمين الثـــناء ما هو محصّل غرض السورة ليتوسل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلا»[1]. وفيه إشـــارة إلى جملة ما يعتمد عليه الإنسان من المعارف الحقيقية التي يقوم عليها تصوره والتي تجيب عـــن التساؤلات الوجودية الكبرى «نظام الكون العام وهو ما تشير إليه الآية الأولى، ونظام الإنسان بحســـب وجـــوده، وهو الذي تشتمل عليه الآية الثانية، ونظام العمل الإنساني وهو الذي تومئ إليه الآية الثالثة»[2]، فكان الله سبحانه مستحقا للثناء بما يستحقه لكونه منشئ لكل ذلك.

وممـــا تســـتلزمه العبودية: 1-اتخاذ الله سبحانه وتعالى وليا نستنصره وندعوه ونتوكل عليه ونســـلم له أمورنـــا كلهـــا عظيمها وصغيرها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

2-اللجـــوء إليه وحده سبحانه بالدعاء والتضرع والرضا بقضائه وقدره والاطمئنان إلى أنه مجيب الدعاء وكاشف الضر، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[4]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

وحقـــيقة اللجوء إلى الله تعالى لا يملك التخلي عنها إنسان فمهما غطت الغشاوات على قلبه فإنـــه لابـــد مـــن التسليم له لحظة الكرب والشدة بدعائه والتضرع إليه إلا أن المكابرة والعناد تدفع بصاحبها إلى الهلاك الذي لا ينفع معه توبة أو رجوع. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[6]. وقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا

---

(1)-محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط1، 1411هـ-1991م، ج7، ص7.

(2)-المرجع نفسه، ج7، ص7.

(3)-سورة الأنعام، الآية:15.

(4)-سورة الأنعام، الآية:17-18.

(5)-سورة الأنعام، الآية:43.

(6)-سورة الأنعام، الآية:63-64.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. وفي هذه الآية تقرر أصل مهم من أصول العبادة وحقيقة من حقائقها وهو الخوف والرجاء، ذلك لأنه الباعث على العبادة والدعاء فلما اعتقد المشركون الضر والنفع في الآلهة دفعهم ذلك إلى خوف ضرها ورجاء نفعها فصرفوا لها العبادة والدعاء. ولذا قرر في الآية بأنه لا يستحقها إلا الله وأمر بصرفها له وحده سبحانه وتعالى، فسر برهان الدين البقاعي الدعاء في الآية بأنه دعاء عبادة [2]. ووهبة الزحيلي بأنه العبادة[3]، ذلك أن المشركين طلبوا من المؤمنين ترك عبادة الله واتباع سبيل المشركين[4].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[5].

3-خوفه تعالى ورجاءه وحده: وهو -كما سبقت الإشارة إليه- أصل من أصول العبادة وحقيقة من حقائقها يفعلها الإنسان طمعا في مغفرته ورضاه، وخوفا من غضبه وعقابه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾[6]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[7]، ذلك أن خوفهم من الحساب يوم الحشر باعث على التزام دينه تعالى والسماع لما يتلى عليهم والاعتبار به وتدبره.

وقال عن محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه ورده عليهم: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[8].

فقررت أن الخوف لا يكون إلا من الله تعالى ولا يكون إلا حين عصيانه وعدم عبادته أو

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:71.

[2]-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسبالآيات والسور، ج2، ص654.

[3]-وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والتشريعة والمنهج، ج7، ص253-254.

[4]- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص522.

[5]-سورة الأنعام، الآية:56.

[6]-سورة الأنعام، الآية:15-16.

[7]-سورة الأنعام، الآية:51.

[8]-سورة الأنعام، الآية:80-81.

عدم إخلاص العبادة له، ومنه:

4-إخلاص العبادة له وحده بالخضوع والخشوع ولذا قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]، أي أنهم لم يخلطوا إيمانهم وعملهم بما يسئ لحقيقته وينقص من كمالها أو يعارضها والإخلاص في العبادة ينفي هذا الظلم[2].

5-الابتعاد عن الإثم وهو تجنب كل ما نهى الله عنه قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾[3]. «وظاهر الإثم ما يراه الناس، وباطنه ما لا يطلع عليه الناس ويقع في السر، وقد استوعب هذا الأمر ترك جميع المعاصي»[4].

6-تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله وهذا ما بينته الآيات: 146، 152-154 من السورة، فبين في الآية 146 جميع ما حرمه على عباده من الطعام[5].

فقال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وبين في الآيات الثلاث: 152-154 أصول المحرمات ومجامعها في الأعمال والأقوال وما يقابلها من أصول الفضائل والبر[6].

فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:82.

[2]-فسر النبي الظلم بالشرك: رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، صحيح مسلم بشرح النووي، مج1، ج1، ص420.

-والترمذي في كتاب التفسير، باب: التفسير، رقم الحديث: 5062، مج4، ج4، ص227-228.

[3]-سورة الأنعام، الآية:120.

[4]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص39.

[5]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص183.

[6]-المرجع نفسه، ص183.

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]. فبين الأصول العامة للشريعة الإلهية[2]، وهي تحريم أو ترك الشرك بالله، وعقوق الوالدين واقتراف الفواحش، وقتل النفس بغير حق ويدخل فيه قتل الأولاد خشية إملاق واقتراب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وعدم إيفاء الكيل والميزان بالقسط، والظلم في القول، وعدم الوفاء بعهد الله، واتباع غير سبيل الله المؤدي إلى الاختلاف في الدين، لأن اتباع سبيله هو العاصم من كل ظلم في العقائد وفي الأعمال، ولذا قال في آية أخرى من السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

وكما وصف دينه بأنه الصراط المستقيم وصفه بأنه الدين القيم فقال ﷻ: ﴿ وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[4]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5].

وهذا يستلزم أو يقتضي ترك الكذب على الله بالتشريع على غير ما يوافق شريعته كتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[6]، ومنه:

7-الحكم بما أنزل الله: لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[7]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[8]، فقد جاء بتفصيل كل شيء ببيان أصول العقائد والأعمال وأصول الفضائل مما يحتاج إليه الإنسان في حياته ويضمن سلامة سيره في هذه الحياة الدنيا ولذا أعقبها بقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[9]. أي أنه أنزله تبيان لكل شيء

---

(1)-سورة الأنعام، الآية:151-153.

(2)-محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج7، ص385.

(3)-سورة الأنعام، الآية:159.

(4)-سورة الأنعام، الآية:126.

(5)-سورة الأنعام، الآية:161.

(6)-سورة الأنعام، الآية:21.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 57.

(8)-سورة الأنعام، الآية:114.

(9)-سورة الأنعام، الآية:115.

يضمن لمن عمل به حق العمل النجاة والسعادة دنيا وآخرة، ومن أعرض عنه فقد ظلم نفسه لأن الله لا يظلم أحدا، فقد ساق جميع الدلائل على صدقه وأحقية اتباعه. ومنه:

8-اتقـاء وتجنـب أسـباب ما يؤدي إلى الظلم والإثم ولذلك ختم بعض الآيات بقوله "لعلكم تتقون" كما هو وارد في الوصايا وهي من أصول العبادة ولا تقل شأنا عن الإخلاص، ولذلك جعلها مـن أوصاف المؤمنين بقوله في سورة البقرة: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فالمتقون هم الذين اتقـوا ما يسيء إلى توحيدهم، فعملوا بما آمنوا به وصدقوا إيمانهم بالعمل فكانوا من المفلحين ومن الفائزيـن يوم القيامة، وكما وصفهم بذلك وصفهم بأنهم "المحسنون" الذين أحسنوا العمل فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[2]. واجتناب الكبائر اتقاؤها واتقاء الله مراقبته في جميع الأعمال ظاهرها وباطنها.

9-إقامة الصلاة والمحافظة عليها: إن اهتمام القرآن الكريم بها والاعتناء بشأنها ظاهر في كثـير مـن آيـته وهي من العبادات التي ذكرها النبي ﷺ، في قوله جوابا عن سؤال جبريل عليه السلام عن معنى الإسلام: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"[3]. وهي من أركانه لقوله ﷺ، «بنـي الإسـلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت»[4].فلا يتم معنى الإسلام إلا بها، وهي من الأعمال الظاهرة

---

[1]-سورة البقرة، الآيات 1-5.

[2]-سورة النجم: الآيتان 31-32.

[3]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم بالباب: 37، رقـم الحديـث: 50، صحيح البخاري، مراجعة وضبط: محمد علي القطب، هشام البخاري، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط، 1424هـ-2003م، ص26-27.

-ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان، رقم الباب: 1، رقم الحديث: 8/2م، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص31-32.

[4]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانهكم، رقم الباب: 2، رقم الحديث: 3، ص19.

-ومسلم في كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس"، رقم الباب: 7، رقم الحديث: 16/22م[2] ص36-37.

بفعلها يصير الإنسان مسلما[1].

وتتميز الصلاة عن سائر العبادات كونها جامعة لأصول العبادة ومعانيها من الخوف والرجاء بالدعاء والثناء والإخلاص والخشوع والذكر لله تعالى، فمن أقامها وحافظ عليها أقام الدين، ذلك لأن إقامتها والحفاظ عليها يتطلب الانتباه واليقظة والحرص والصبر عليها والتزامها، ومن استجمع هذه الصفات سهل عليه أداء سائر العبادات ولهذا حثّ الله سبحانه وتعالى على الاستعانة بها فقال في سورة البقرة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3]. فجمع تفاصيل الأعمال الدينية في قوله "واتقوه"، وذكر من بينها الصلاة تعظيما لأمرها واعتناءا بشأنها[4]. وقد أورد محمد الطاهر بن عاشور تفسيرا لقوله تعالى "ويقيمون الصلاة"[5]. يوضّح معاني الصفات –السابقة الذكر– التي يتجلى بها المصلي تنقله لزيادة الإيضاح" «الإقامة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عُدّيَ إليه بالهمزة الدالة على الجعل، والإقامة جعلها قائمة [...] واصل القيام في اللغة هو الانتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع، وإنما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يأتي من قعود، فيقوم الخطيب ويقوم العامل ويقوم الصانع ويقوم الماشي، فكان للقيام لوازم عرفية مأخوذة من عوارضه اللازمة ولذلك أطلق مجازا على النشاط في قولهم قام بالأمر، ومن أشهر استعمال هذا المجاز قولهم قامت السوق وقامت الحرب، وقالوا في ضده ركدت ونامت، ويفيد في كل ما يتعلق به معنى مناسبا لنشاطه المجازي وهو من قبيل المجاز المرسل وشاع فيها حتى ساوى الحقيقة فصارت كالحقائق ولذلك صح بناء المجاز الثاني والاستعارة عليها، فإقامة الصلاة استعارة شبهت المواظبة على الصلوات والعناية بها يجعل الشيء قائما، وأحسب أن تعليق الفعل بالصلاة من مصطلحات القرآن»[6].

---

(1)–ابن تيمية: الإيمان الأوسط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت–لبنان، ط1، 1425هـ–2004م، ص91.

(2)–سورة الأنعام، الآية:45.

(3)–سورة الأنعام، الآية:71–72.

(4)–محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير الميزان، ج7، ص150.

–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص306.

(5)–سورة البقرة، الآية:2.

(6)–محمد الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج1، ص231.

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1]. فذكرت أن من أهم صفات المؤمنين أنهم يحافظون على صلاتهم، فهؤلاء صدقوا وآمنوا بما جاءهم من الحق وأيقنوا به فالتزموا بأوامره ونواهيه، ومن أهمها الحفاظ على الصلاة بأدائها كاملة في أوقاتها المخصوصة فجعل عملهم دلالة على إيمانهم باليوم الآخر وبالكتاب وخص ذكر هذين الركنين لأن من شأن من أمن بهما أن يكون قد آمن بمنزله سبحانه وتعالى.

10-إيتاء الزكاة: وهي من أركان الإسلام ولا نقل شأنا عن الصلاة وردت الإشارة إليها في سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]. فقوله: "كلوا من ثمرة" إشارة إلى إباحة الطيبات من الرزق وقوله: "وأتوا حقه يوم حصاده" إشارة إلى زكاته التي بينتها كثير من الآيات وفصلت بيانها الأحاديث النبوية الشريفة.

هذا وقد بينت السورة أن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال مخصوصة كالصلاة والصيام والزكاة مثلا، ولكنها تشمل حياة الإنسان كلها التصورية والسلوكية، بحركاتها وسكناتها، ظاهرها وباطنها، فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[3].

إن كون العبادة التي تحقق كمال التوحيد تتناول حياة الإنسان كلها لا يعني أنها تكليف بما لا يطاق، وإنما هي نية وإخلاص من الإنسان وتوجه صحيح برجاء وخوف ومحبة، وتذلل وخشوع يجعل الأعمال العادية عبادات ينال بها الإنسان الثواب، تحول العادة إلى عبادة. وهذا ما أشار إليه قوله ﷺ :«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:92.

[2]-سورة الأنعام، الآية:141.

[3]-سورة الأنعام، الآيتان: 161-163.

إلـــيه»[1]. وهو الإحسان الذي بينه الرسول ﷺ بقوله:«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك»[2]، وقوله تعالى في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[3].

ممـــا تقدم نستخلص مفهوم العبادة كما بينتها الآيات القرآنية وهي: أنها توجه وقصد إرادي مـــن الإنســـان يلـــتزم فيه بكيفيتها وهيئاتها وضوابطها التي حددها الله سبحانه وتعالى بنية خالصة يستصحب خلالها الإنسان الخشوع والتذلل مع الخوف والرجاء.

وقـــد عرفها ابن تيمية بقوله: "العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمـــال، الباطـــنة والظاهرة: فالصلاة، والزكاة، والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبـــر الوالديـــن، وصـــلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفـــار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين، وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعـــاء والذكـــر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخـــلاص الديـــن له والصـــبر لحكمـــه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله[4].

ويحـــدد الـــتعريف بعدها بقوله: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله -تعالى- بغاية المحبة له»[5].

ويعرفها محمد حسين الطباطبائي بقوله: «هي اتصال بالمملوكية والتذلل من العابد بالمعبود إنمـــا تكـــون عبادة إذا اتصلت وارتبطت بالمعبود -حتى يتم به معنى اللام في قولنا: العبادة له ولا يكـــون ذلك إلا بشعور من المعبود وعلم منه بذلك فإذا لم يتحقق هناك علم لم تتحقق عبادة حقيقية، وإنما هي صورة عبادة»[6]. إشارة منه إلى القصد والإخلاص واستحضار القلب.

---

[1]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، صحيح البخاري، مج1، ج1، ص20.

-ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم الحديث: 1907/4820، صحيح مسلم، ص965.

[2]-رواه البخاري ومسلم، (سبق تخريجه).

[3]-سورة البينة، الآية:5

[4]-ابن تيمية: العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار المغني، ط4، 1425هـ-2004، ص17.

[5]-المرجع نفسه، ص22.

[6]-محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج10، ص42.

ويعرفها محمد عقله فيجعل لها مفهومين فيقول: «للعبادة في الإسلام مفهومان: خاص وعام [فالعبادة] بالمعنى الخاص هي: مجموعة الشعائر والصور المحددة التي شرعها الإسلام بقصد العبادة المحضة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وإظهار الخضوع له، والصدع بأمره [...] وهي بهذا المعنى تمثل العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه وتعالى، أنشأ الله حقيقتها لتكون الصلة المباشرة بين الإنسان وربه، وهي الحد الأدنى المفروض للعبادة، وبها يعرف المسلم المتبع لدينه من غيره [...] أما العبادة بالمعنى العام فهي: كل ما يصدر عن الإنسان المسلم من أقوال وأفعال وأحاسيس، وكل ما يوجد منه من علم أو عمل أو استعداد فيه خير ومصلحة شرعية، إذا نوى بها صاحبها وجه ربه وطاعته ورضاه والتقرب إليه، وكانت متطابقة مع إرادته ومشيئته»[1]. ثم يحدد العلاقة بين المفهومين بقوله:«مع أن للعبادة مفهومين خاص وعام، إلا أن هناك تلازما بينهما في الطبيعة والوظيفة والغاية فالعبادات المخصوصة غرضها التهيئة للعبادة الكبرى، فكأن هذه العبادات المفروضة ليست إلا بمثابة التربية للعبادة الكبرى المنشودة. فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه، يؤدي العبادة الكبرى على الوجه المطلوب، ولأجل هذه العلاقة اعتبرت العبادات الصغرى هي عين الفريضة في الإسلام، واعتبرت أركان الدين التي لا يقوم بناؤه بغيرها، ولا يستقيم أمر الحياة الإسلامية بغير المحافظة عليها شكلا ومضمونا»[2].

اهتم القرآن الكريم بالعبادة وجعلها من شروط الفوز والفلاح ومن أوصاف المؤمنين المفلحين وبين قيمتها وأهميتها في تحقيق كمال التوحيد فقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4] فجعل إصلاح النفس بإصلاح العمل شرط للأمن من العذاب وشرط للمغفرة وتكفير الذنوب وصرف العذاب عن التائب من عمل السيئات. كما جعل ترك العمل بما أمر الله موجب للضلال واستحقاق العذاب فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[5].

وبين أنه على قدر ما يلتزم الإنسان بالعبادة ويحافظ على أدائها يكون الجزاء والثواب برفع

---

(1)-محمد عقلة: نظام الإسلام، العبادة والعقوبة، دم، ط1، 1406هـ-1986م، ص38-39.

(2)-المرجع نفسه، ص22.

(3)-سورة الأنعام، الآية:48.

(4)-سورة الأنعام، الآية:54.

(5)-سورة الأنعام، الآية:135.

الدرجـات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]. كما قال تعالى في سورة المؤمـنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، وفي سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، وفي سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[4]، وغيرها من الآيات التي تربط الإيمان بالعمل.

ومـنه فـإن القرآن الكريم يبين أن حقيقة التوحيد لا يمكن أن توجد وأن معناه لا يثبت ولا يـتقرر إلا إذا أخـذ مكانـه فـي قلـب الإنسان وعقله، وسلطانه على نفسه وجوارحه- فالجانب التصـوري أو العقدي من التوحيد هو الجانب النظري الذي يجب على المؤمن الإيمان به أولا إيمانا يقينـيا مبنيا على التصديق الجازم مع الشعور بالرضا والقبول وإقبال النفس عليه والاطمئنان إليه. أمـا الجانب السلوكي منه فهو ما شرعه الله-سبحانه وتعالى- ووضع أصوله ليستضيء بها الإنسان في حياته لضبط علاقاته، كعلاقته بربه وعلاقته بالناس وعلاقته بالكون من حوله.

هـذه الحقيقة التي جاء بيانها في الوحي الإلهي -كتابا وسنة- توجه بها إلى الإنسان ليكون سـلوكه تـرجمة لتصوره لها فما مدى تحمله لهذه الأمانة؟ وهل التزم تلك الحقيقة أم انحرف عنها؟ وإذا كان كذلك فما هي حقيقة هذا الانحراف وما هي أسبابه؟

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:132.

[2]-سورة المؤمنون، الآية:1-11.

[3]-سورة العصر، الآية:1-3.

[4]-سورة التين، الآية:4-6.

المبحث الثاني: حمل الإنسان لأمانة التوحيد

إننا إذا تدبرنا القرآن الكريم نجده يعرض صورا من تحمل الإنسان لحقيقة التوحيد تدل على الالـتزام بها، كما يعرض صورا أخرى تدل على انحرافات تصورية وسلوكية نبحثها في المطالب الآتية من أجل الإجابة على التساؤل المطروح.

المطلب الأول: نماذج الالتزام بالتوحيد كما تبينها سورة الأنعام

تَعْـرِضُ سورة الأنعام صورة من صور الالتزام بالتوحيد وتحمُّله يُعدّ مثالا وحقيقة شهد بها التاريخ ونقلها الوحي وعرضها أحسن عرض يزيل كل ما يمكن أن يسيء لأصحابها ويغطي حقيقة التزامهم وسعيهم لنشرها ونقلها لغيرهم كاملة كما حملوها.

تمثل هذا النموذج في صفوة الخلق وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام ومن سار على دربهم واهتدى بهديهم من الذرية والآباء والإخوان.

ذكرت السورة هذا النموذج وعرضته بترتيب متميز يدفع إلى التساؤل عن السر الذي يكمن وراءه مما دفع بالمفسرين إلى محاولة الكشف عنه ففسروها تفسيرات ذات منطلق اجتهادي لاستكناه مضامين الآيات التي ذكرتها[1].

بـــدأت بذكـــر إبراهـــيم عليه السلام في محاورة له مع أبيه من أجل بيان حقيقة التوحيد والتقدير وتقريـــرها، وإبراهـــيم علـــيه السلام إليه يعود نسب العرب المشركين الذين قصدهم القرآن حينها بالدعوة، والذين كانوا يدّعون أنهم على دينه[2].

ذكر إبراهيم عليه السلام ثلاث مرات في السورة، اثنان منها في محاجته لقومه والثالثة في تقرير ديـــن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ إذ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

---

(1)-أنظر مثلا: محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص576-577.

-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص644-667.

-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص347-348.

(2)-عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، دم، دط، دت، مج2، ج7، ص219.

(3)-سورة الأنعام، الآية:161.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

تعرض هذه الآيات حقيقة الدين الذي حمله إبراهيم عليه السلام وآمن به وصدقه وسعى لنشره والدعوة إليه وبيان حججه ودلائله، بدأت بذكر كلامه مع أبيه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.إذ «أنكر عليه شيئين: أحدهما جعله الصور آلهة مع أنها ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية، وثانيهما تعدد الآلهة»[2]. وبيّن له حقيقة ما وقع فيه وقومه من الانحراف عن الطريق الحق ببيان دلائل بطلان ما كانوا يعبدون وصدق ما أتى به من اليقين، معلنا براءته من دينهم والتزامه بما عرف من الحق.

لم يكتف إبراهيم عليه السلام بمجرد الإيمان وإنما رفض معبودات المشركين وقرر ألا يعبد غير الله تعالى، فسعى إلى إعلان براءته من أن يشرك مع الله شيئا في العبادة، فأعلن بأن خوفه ورجاءه لله تعالى وحده وأنه آمنٌ مما خوفوه به من الضر الذي سيلحقه من آلهتهم إن لم يعبدها، وأنه راض بالدين الذي اختاره، ومطمئن إليه، لا يزيل طمأنينة تهديد ولا وعيد هؤلاء البشر، ولهذا صرف إليه كل طاقاته الفكرية والنفسية والوجدانية، فحمله أحسن حمل وبلغه أحسن تبليغ وحاج من أجله بأحسن الحجج وأبلغها فجزاه الله جزاء المحسنين ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

ومثل هذه الآيات وردت آيات في سور أخرى نقلت حقائق ما كان عليه إبراهيم عليه السلام نذكر منها ما ورد في سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:74-83.

[2]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص313.

[3]-سورة الأنعام، الآية:84

تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ،أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1]. إنه الإيمان الكامل بالتوحيد وسعي كامل من أجل تقريره وإثباته، ثم تذلل وخشوع وخوف وتسليم لله تعالى في كل الأمور، ودعاء بإخلاص ونية وتطهير القلب من كل ما يسيء إلى هذه العبادة تجلى في شخصية إبراهيم عليه السلام.

هذا وقد تجلت هذه الهداية في آبائه وذرياتهم وإخوانه فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]. فهؤلاء كلهم كانوا من الصالحين والمحسنين الذين فضلهم الله عن العالمين بما التزموه من العبودية الكاملة لله وحده، ولو أنهم لم يحملوه حق حمله وانحرفوا في حياتهم عن هذا السبيل لأبطل الله أعمالهم ونفذت فيهم سنة الله تعالى في إهلاك الظالمين واستخلاف المصلحين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[3].

هذا نموذج بشري كامل صدق عمله إيمانه وهو الذي يأمر الله تعالى نبيه والمؤمنين من بعده أن يقتفوا أثرهم ويهتدوا بهديهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[4].وقال عز وجل أيضا في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ

---

[1]-سورة الشعراء، الآية:69-89.

[2]-سورة الأنعام، الآية:83-87.

[3]-سورة الأنعام، الآية:88-89.

[4]-سورة الأنعام، الآية:90.

لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

نموذج آخر وهو شخصية الرسول ﷺ ، وهو المخاطب بالقرآن الكريم والمأمور بأن يجلي حقيقة هذا الدين –دين التوحيد– وأن يترجم حقائقه التصورية في السلوك الذي يقتضيه، فكان مثالا ونموذجا حيا شهد به القرآن وسيرته الشريفة وشهد به التاريخ، والسورة في حقيقتها شهادة لهذا النموذج إذ نقلت جهاده وسعيه وحرصه الشديد من أجل تبليغ هذا الدين وصبغ الحياة بصبغته، ومن خلاله تجلت حقيقة الرسالة وطبيعته البشرية، نكتفي بذكر بعض الآيات من أجل الاستشهاد هذا لأن هذا البحث في حقيقته يهدف إلى بيان هذا الأصل الشريف.

وأول آية نستشهد بها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾[2]. والآيات في حقيقتها نقل لمشاعر النبي ﷺ، وحرصه الشديد من أجل تبليغ ما عرف من الحق، وأن يلتزم به كل من سمعه منه حتى الكبراء من المشركين، إذ جاءت هذه السورة من أجل رفع الحزن بسبب عدم إيمان المشركين بتقرير التوحيد وإبطال الشرك فكان قوله تعالى: "قل" في هذه الآية وغيرها بيان لمهمة الرسول ﷺ وهو التبليغ وأنه ليس عليه من الأمر شيء فلو شاء الله لهداهم أجمعين، وكانت بذلك بيان لما هو عليه من الالتزام بما أُمر به.

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ. وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[3]. وهي تسلية له ﷺ كشفت عن حرصه الشديد من أجل تحقيق ما يهدف إليه –وهو إيمان كل من سمع دعوته–.

---

[1]–سورة الممتحنة، الآية:4-6.

[2]–سورة الأنعام، الآية:14-16.

[3]–سورة الأنعام، الآية:33-35.

وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ. قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]. فبينت كمال العبودية التي التزم بها الرسول ﷺ وأمر الله له أن يعلنها أمام المشركين.

كما قال أيضا: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[2]. وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3]. وقال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

إن تدبر هذه الآيات يكشف عن حقيقة التزام الرسول ﷺ، وسعيه لتغيير الواقع الإنساني المنحرف، وصبغه بصبغة التوحيد الذي حمله والتزم به.

والنموذج الثالث هو نموذج من آمن برسالة محمد ﷺ وصدق بها، وهؤلاء هم الفئة الأولى من الصحابة الذين كان لهم أعظم أثر في نشر الرسالة وتمثيلها أحسن تمثيل لما اتصفوا به من مزايا اكتسبوها من التزامهم بالهدى الإلهي الذي حملوه من الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[5]. وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:56-58.

[2]-سورة الأنعام، الآية:114.

[3]-سورة الأنعام، الآية:161-164

[4]-سورة الأنعام، الآية:50.

[5]-سورة الأنعام، الآية:51-52.

مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[3].

فهـؤلاء المؤمنون لما كان حالهم مع ما جاءهم من القرآن التصديق والمسارعة في التطبيق أمـر الله نبيه ﷺ بأن ينذرهم ويلازمهم بالدعوة واسماعهم ما ينزل من الوحي، لأنهم مستجيبون له منـتفعون بالذكرى والإنذار. ومدحهم من خلالها بسبب ما كانوا يعملونه بباعث الإيمان والإذعان لمـا جـاء بـه رسوله ﷺ ، من أعمال الصلاح المزكية لأنفسهم، والإصلاح بالدعوة والجهاد في سبيله[4].

فكانـت هـذه الآيـات كاشفة لحقائقهم العامة وخصائصهم الأساسية، التي تميزوا بها وهي مطابقـة سـلوكهم لمـا اعتقدوه. وقد روي أن هؤلاء كانوا يلازمون الرسول ﷺ بالغداة والعشي يتعلمون منه القرآن والخير وما ينفعهم ويذكرهم بالجنة والنار والموت والبعث وكانوا من الضعفاء، وكـان مـنهم: صهيب، وعمار بن ياسر، والمقداد بن بلال، وخباب بن الأرث وابن مسعود، فأراد أشراف قريش وسادتها أن يجلسوا إلى رسول الله ﷺ فأمروه أن يطرد هؤلاء الضعفاء ليجلسوا إليه فهـمّ ان يفعـل، فكانت هذه السورة آمرة له ﷺ ، بأن لا يستمع لهم وأن يلتزم هؤلاء المؤمنون فهم أحق بالدعوة والهداية والتذكير بأنهم قوم يذّكرون وينتفعون بما يسمعون[5].

المطلب الثاني: حقيقة الانحراف عن التوحيد

بـتدبرنا للقرآن الكريم نجد أنه يعرض صورا مختلفة لانحرافات الإنسان عن التوحيد، وهو ما يساعدنا على تبيين حقيقته التي يمكن بيانها وفق تقسيمين:

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:54.

[2]-سورة الأنعام، الآية:126-127.

[3]-سورة الأنعام، الآية:92.

[4]-أنظر معاني هذه الآيات: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص256-257-372، ج8، ص62-63.

-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص430-431، 433، 446، 448، 621، 622، ج8، ص62-64.

[5]-الواحدي: أسباب النزول، ص124-125.

أولا: انحرافات الإنسان التصورية:

1-أهم مصطلحات الانحراف في القرآن الكريم

مـــن المصطلحات الأساسية للانحراف في القرآن الكريم نجد: الكفر والشرك والإلحاد، التي نحاول بيان حقيقة كل منها لتتضح حقيقة الانحراف الذي قصده القرآن الكريم وحذر منه:

-الكفر:

المعـــنى اللغوي للكفر: الكفر في اللغة ستر الشيء وتغطيته، ويقال للّيل المظلم كافر لستره بظلمته كل شيء كما يقال للزارع لستره البذور في الأرض [1].

المعـــنى الاصـــطلاحي للكفـــر: وفـــي الاصطلاح يطلق على معنى ستر النعمة وترك أداء شـــكرها، ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمة الله تعالى على جاحدها أطلق عليه اسم "الكفر" وغلب استعماله في هذا المعنى، وعلى هذا فهو يطلق علـــى إنكار ما جاء به الرسول وأخبر به والامتناع عن اتباعه فهو بهذا المعنى مقابل للإيمان، لذلك كـــان إطلاقه على من جحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتهما [2]، «ويلحق بالكفر في إجراء أحكـــام الكفـــر كـــل قـــول أو فعل لا يجترئ عليه مؤمن مصدق بحيث يدل على قلة اكتراث فاعله بالإيمـــان وعلـــى إضـــماره الطعن في الدين وتوسله بذلك إلى نقض أصوله وإهانته بوجه لا يقبل الـــتأويل الظاهـــر وفـــي هذا النوع الأخير مجال لاجتهاد الفقهاء وفتاوى أساطين العلماء إثباتا ونفيا بحســـب مـــبلغ دلالـــة القول والفعل على طعن أو شك، ومن اعتبر الأعمال أو بعضها المعين في الإيمان اعتبر فقدها أو فقد بعضها المعين في الكفر» [3].

فالآيـــات القرآنـــية المشتملة على مشتقات مادة "ك ف ر" وهي عديدة تحمل معنى الجحود

---

[1]-ابن منظور: لسان العرب، ج5، [غ.ل]، ص3897.

[2]-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص436.

-ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م ج1، ص186.

-أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ضبط وتعليق: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، 1416هـ-1996م، ج1، ص200.

[3]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص248-249.

والإنكـــار والعناد، فكفر الجحود هو كفر ما يعرفه، فلا يكون إلا على علم من الجاحد به [1]، وكفر الإنكـــار فهو كفر ما لا يعرفه فهو من "نكر" "أنكرته" "إنكارا" خلاف عرفته [2]، وأما كفر العتاد فهو كفر ما يعرفه ويوقن به لكن يأباه ويخالفه حسدا وبغيا ككفر إبليس وأبا جهل وأمثالهم فهو من "عاند" "عـــنادا" مـــن باب قَاتَلَ إذا ركب الخلاف والعصيان "وعانده" "معاندة" عارضه و"المعاند" المعارض بالخلاف لا بالوفاق، و"عَنَدَ" عن القصد "عنودا" جار [3].

-الشرك

المعـــنى اللغـــوي للشرك: الشرك في اللغة من شاركه صار شريكه، ويقال اشتركا في كذا وشـــركه فـــي البيع والميراث أشْرَكَهُ شَرِكَةً، والاسم الشِّرْك، وأشرك بالله جعل له شريكا في ملكه، قال تعالى حكاية عن عبده لقمان انه قال بابنه: ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] أي لا تعدل به غيره فتجعله شريكا له [5].

المعـــنى الاصـــطلاحي للشـــرك: فلا يخرج معناه عن المعنى اللغوي وقد تعددت تعريفات العلمـــاء له إلا أنهـــا لا تخرج عن هذا المعنى العام المحدد في التعريف اللغوي نختار مجموعة من التعريفات لمجموعة من العلماء المشهورين، وما يمكن الإشارة إليه أن معاني هذه التعريفات فصلها التهانوي في موسوعته نكتفي بالإحالة إليه لطولها ولكونها لا تخرج عن المعاني التي سنوردها [6].

فهو كما أشار البيهقي إلى معناه هو إسناد الفعل في الكون لغير الله، أو أنّ لغير الله فعل في الكون مع الله بالخلق أو التدبير، أو مشابهة أحد من المخلوقين لله في صفة من صفاته أي رفعه إلى منزلة الألوهية أو تشبيه الله بمخلوقاته بإنزاله إلى مرتبة المخلوقات [7].

وكمـــا أشـــار إليه ابن تيمية: أن يقر بأن الله هو الخالق والرازق ويعبد غيره أو يشركه في العبادة فالإقرار بهذه الحقيقة وهي "الحقيقة الكونية" التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن

---

(1)-أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص52.

(2)-أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص321.

(3)-المرجع نفسه، ص223.

(4)-سورة لقمان، الآية: 13.

(5)-ابن منظور: لسان العرب، ج1، [أ.ج]، ص2248.

(6)-محمـــد علـــي الـــتهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق:علي دحروج، ترجمة: عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج1، [أ.ش]، ص1020-1025.

(7)-أبـــو بكـــر أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـــ-1990م، ج1، ص104-105.

والكافـــر، والبر والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار، فمن وقف عندها وعند شهودها ثـــم يعـــتقد بأنّ الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله لا تصرف إليه، وإنما لغيره كلها أو بعضها فقد أشرك، وكذا فإنّ من الشرك الاعتقاد بالقدر في الكفر والذنوب والمعاصي أي اعتقاد أن الله تعالى شاء لهم ذلك وأراد وأنه لو لم يرده لما حصل هذا الشرك كقولهم ﴿لَـوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾[1]، وكذا الاعتقاد بأن ما أحدث من البدع في الدين الذي فيه تحليل الحرام وتحريم الحلال والعبادة التي لم يشرعها الله "حقيقة دينية" وكذا الاعتقاد بـــأن الســـلوك لا يتقيد بأمر من الله تعالى وأن السلوك الحقيقي الذي لا يتقيد بأمر الله تعالى[2]، فكل هذه التصورات هي من الشرك.

ويشـــير بـــرهان الدين البقاعي إلى أنّ المشركين أصناف: عبدة الأصنام الذين أشركوا في العـــبودية لا في الخلق، ومنهم آزر الذي حاجه إبراهيم عليه السلام، وعبدة الكواكب وهم فريقان منهم من قـــال هي آلهة وجودها ذاتي أي لم يخلقها الله فهي مثله أزلية، ومنهم من قال بأن الله خلقها وفوض إلـــيها تدبير هذا العالم الأسفل، وهم الذين حاجهم إبراهيم الخليل بالأفول، ومنهم من قال: لهذا العالم إلهـــان: فاعل خير، وفاعل شر، وقالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله خالق الناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور، ويلقبون الزنادقة، فالمشركون هم من سمّوا شيئا مـــن دون الله إلها وعبدوه بالفعل من الأصنام أو عزير أو المسيح أو الظلمة أو النور أو غير ذلك، أو الرضـــى بالشـــرك، فـــإن الرضى بالشيء فعل له لا سيما إن انضم إليه تكذيب المحق والشهادة للمبطل بأن دينه خير[3].

وهـــو عـــند محمد رشيد رضا نوعان: أحدهما: توهم القدرة الذاتية لبعض المخلوقات وأنها ليســـت خاضـــعة لســـنن الله فـــي الأسباب والمسببات، وثانيهما: اعتقاد أن بعض المخلوقات ذات الخصوصـــية في مظاهر النفع والضر، أنها تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها، أو التماثيل والأصـــنام والقبور وغيرها مما يمثلها أو يذكر بها، فيتوسل ذو الحاجة بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعـــل لأجل حمله تعالى بتأثيرها عنده، على قبوله وإعطائه سؤله، وهذا التوسل توجه إلى غير الله مبنـــي علـــى اعـــتقاد عدم انفراد الرب بالاستقلال بقضاء الحاجات، وكونه يفعل بتأثير الوسيلة في

---

(1)-سورة الأنعام، الآية:148.

(2)-ابـــن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، دط، دت، ج10، ص156-169.

(3)-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص620-687.

إرادته[1].

أمـــا عند الراغب الأصفهاني فهو شرك كبير أو عظيم وشرك صغير، فالشرك العظيم هو إثـــبات شريك مع الله تعالى، يقال أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـــهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـــرَكَ بِـــهِ﴾[2]. ﴿وَمَـــنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[3]. وأما الشرك الصغير فهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق[4].

ومـــا يمكن الإشارة إليه في هذا الباب أن كلمة الشرك ومشتقاتها ومدلولاتها قد وردت كثيرا فـــي القـــرآن، فأكـــثر الآيات التي تضمنت تصحيح التصور عن الألوهية تحتوي موضوع الشرك ومعناه العام الذي لا يخرج عن معنى إشراك غير الله مع الله الذي لا شريك له.

-الإلحاد:

المعنى اللغوي للإلحاد:

وردت كلمـــة الإلحـــاد فـــي القـــرآن الكـــريم في ست آيات، وردت في ثلاث آيات بلفظ "يلحـــدون"[5] وبلفـــظ "بالحاد" في أية واحدة[6] وبلفظ "ملتحدا" في آيتين[7]، وكلها تنتهي معانيها إلى معنى واحد وهو الميل والانحراف.

فهـــي مـــن "لحد" واللَّحْدُ" و"اللُّحْدُ": الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، لأنه قد أمـــيل عن وَسَط إلى جانبه، وقيل الذي يُحفَرُ في عرضه، ولَحَدْتُ له وأَلْحَدْتُ لَهُ، ولَحَدَ إلى الشيء يَلْحَد والتَحَدَ: مَالَ ولَحَدَ في الدين يَلْحَدُ وأَلْحَدَ: مَالَ وعَدَلَ، وقيل لَحَدَ مَالَ وجَارَ.

والمُلْحِدُ العادل عن الحق المُدخِلَ فيه ما ليس منه، يقال أَلْحَدَ في الدين ولَحَدَ، أي حَادَ، عنه، وتـــردُ لفظـــةَ أَلْحَـــدَ أيضا بمعنى: مَارَى وجَادَلَ، وأَلْحَدَ الرَّجُلُ أي ظلمَ في الحَرَمِ، وأصله في قوله

---

(1)-محمد رشيد رضا: تفسر المنار، ج7، ص569.

(2)-سورة النساء، الآية:48.

(3)-سورة النساء، الآية:116.

(4)-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص263.

(5)-سورة الأعراف، الآية: 180. وسورة النحل، الآية: 103، وسورة فصلت، الآية: 40.

(6)-سورة الحج، الآية: 25.

(7)-سورة الكهف، الآية: 27. وسورة الجن، الآية: 22.

تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[1]، أي إلحادًا بظلم فأصله في اللغة هو الميل عن القصد[2].

المعنى الاصطلاحي للإلحاد: يعرفه الراغب الأصفهاني ببيان أنواعه فيقول: «الإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهن عراه ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]. وقوله: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[4]. والإلحاد في أسمائه على وجهين: أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به، والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به، والتحد إلى كذا مال إليه، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[5]، أي التجاء أو موضع التجاء»[6]، ومن أنكر الإيمان بالغيب فقد وقع عليه اسم الإلحاد[7].

ويعرفه ابن عاشور بقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[8]، فيقول: «ألحدَ مثل لَحَدَ، أي مال عن القويم فهو مما جاء من الأفعال مهموز بمعنى المجرد، كقولهم: أبان بمعنى بان، فمعنى "يلحدون" يميلون عن الحق لأنّ ذلك اختلاف معاذير، فهم يتركون الحق القويم من أنه كلام منزل من الله إلى أن يقولوا "يعلمه بشر"، فذلك ميل عن الحق وهو إلحاد»[9].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا...﴾[10]، بقوله: «والإلحاد حقيقته: الميل عن الاستقامة، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[11]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾[12]...إلخ، وتشمل الآيات القولية

---

[1]-سورة الحج، الآية:25.

[2]-ابن منظور: لسان العرب، ج4، [غ، ل]، ص4005.

[3]-سورة الحج، الآية:25.

[4]-سورة الأعراف، الآية:180.

[5]-سورة الكهف، الآية:27.

[6]-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص452.

[7]-المرجع نفسه، ص370.

[8]-سورة النحل، الآية:103.

[9]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج14، ص288.

[10]-سورة فصلت، الآية:41.

[11]-سورة فصلت، الآية:8.

[12]-سورة فصلت، الآية:37.

المستقدمة في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[2]، فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلت عليه، والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها والطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها[3].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]. بقوله: «الإلحاد الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقاته كلها، ولما كان وسط الشيء يشبه به الحق والصواب استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، ويعدى حينئذ بفي لتنزيل المجرور بها منزلة المكان للإلحاد، والأكثر أن يكون ذلك عن تعمد للإفساد، ويقال لَحِدَ وألْحَدَ الأشهر ألحد»[5].

وأما تعريف فخر الدين الرازي له عند تفسير الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة فلا تخرج عنها المعاني التي أشار إليها ابن عاشور، فهو عنده الشرك أو الميل إليه أو الميل إلى المعاصي عموما كالظلم وغيره-وفي أحد معاني الشرك أنه الظلم-والعدول عن الاستقامة والانحراف عنها[6].

وهي المعاني التي أوردها الألوسي في تفسيره لهذه الآيات[7].

ويعرف التهانوي فرقة الدهرية بأنها فرقة الملاحدة وهم من الكفار ذهبوا إلى قدم الدهر واستناد الحوادث إلى الدهر كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[8]. وذهبوا إلى ترك العبادات أصلا لأنها لا تفيد[9]، ثم يذكر هذه

---

(1)-سورة فصلت، الآية:34.

(2)-سورة فصلت، الآية:26.

(3)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج24، ص304.

(4)-سورة الأعراف، الآية:180.

(5)-محمد الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج9، ص189.

(6)-فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، دم، ط1، 1401هـ-1981م، ج23، ص26 ومج14، ج27، ص132 ومج8، ج15، ص75.

(7)-الألوسي: روح المعاني، مج8، ج22، ص126، ومج3، ج9، ص121.

(8)-سورة الجاثية، الآية:24

(9)-محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص800.

الفرقة-الدهرية-تحت تعريف مصطلح "الشرك"، فيقول «إن أصحاب المذاهب الباطلة ينقسمون إلى خمس فرق: الفرقة الأولى الدهرية القائلون بأنه ليس للعالم صانع، وأن المواد اجتمعت هكذا وتشكلت منها الصور الموجودة»[1]، ثم يذكر باقي الفرق وهي: الفلاسفة: الذين يقرون بوجود الصانع ولكن لا صفة له عندهم وإنما التأثير في العوالم من الوسائط وليس من الصانع، وفرقة الثنوية: القائلون بوجود إلهين إله الخير وإله الشر، وعبده الأوثان: الذين يعتقدون بأنّ عبادتها وسيلة لقضاء حاجاتهم، وفرقة المجوس القائلون بأن إبليس إله الشر والقبح والإله الثاني هو إله الخير.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2] عند بعض المفسرين كتفسير "التحرير والتنوير" لابن عاشور، وتفسير "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب وتفسير "زاد المسير في علم التفسير" لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، أنّ هذه الآية قصدت منكري البعث واليوم الآخر وكانوا يقصدون تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا العالم المعبر عنه عندهم بالدهر، فالحياة بتكوين الخلقة والممات بفعل الدهر لذا فلا حياة بعد موت، وأن هؤلاء كانوا لا ينكرون وجود الله ولا خلقه للخلق، وإنما كانوا لا يعلمون، لقوله «وما لم بذلك من علم» إذ لا دليل لهم على ما يقولون وعلى هذا توهموا لمّا رأوا سنة الحياة في المخلوقات وأنها تفنى ولقلة تدبرهم واعتبارهم لها أنه لا بعث ولا نشور[3]، إلا أنه لم يذكر بأنّ هؤلاء يسمّون "الدهرية" إلا ابن عاشور.

ومن التعريف الذي أورده التهانوي عن "الدهرية"يتبين بأن هذه الفرقة كانت تنكر تصرف الله في الموجودات وتستند الفعل في الكون إلى الدهر، وأن الدهر هو الزمن أو مدة بقاء هذه الموجودات، فما يفنيها إلا طول هذه المدة، أما في التعريف الثاني -الذي أورده عنهم- فيتبين منه أنهم أنكروا أن يكون للعالم صانع أي خالق.

وعلى هذا لا نستطيع أن نجزم من خلاله بأن هؤلاء ينكرون وجود الله إلا من خلال التقسيم الذي أورده عن الفرق الباطلة إذ يذكر بأنها خمس فرق ويجعل الفلاسفة ممن يقرون بوجود الله

---

[1]-محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف لصطلاحات الفنون والعلوم، ص1023.

[2]-سورة الجاثية، الآية:24.

[3]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج25، 353.

-عبد الكريم الخطيب: التفسر القرآن للقرآن، مج7، ج25، ص248.

-أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: محمد بن عبد الرحمان عبد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ-1987م، مج7، ج7، ص129.

-الصـــانع- إلا أن هذا الإله لا يفعل شيئا في الكون فهو مجرد من أي فعل أو صفة وإنما الفعل في الكـــون للوسائط، وعلى هذا نستطيع القول بأنّ الدهرية وهي فرقة الملاحدة كانت تنكر وجود الله إذ لو لم تكن تنكر وجوده لكانت كفرقة الفلاسفة وبالتالي تدرج تحت اسمها.

واعتبار فرقة الدهرية تنكر وجود الله هو ما ذهب إليه أيضا فخر الدين الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1]، إذ يقول: « ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، يعني تولد الأشخاص كان بسبب الحركات الأفلاك الموجبة لا متزاجات الطبائع، وإذا وقعـــت تلـــك الامـــتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك... فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإلـــه وإنكـــار البعـــث والقيامة»[2]، وذهب إليه الألوسي إذ يقول: «وذكر بعض الأجلة أنّ الدهر بالمعـــنى الســـابق منقول من المصدر وأنه يقال: دهره دهرا أي غلبه وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر انكـــار منهم لملك الموت وقبضة الأرواح بأمر الله ﷻ وكانوا يسندون الحوادث مطلقا إليه لجهلهم أنها مقدرة من عند الله تعالى [...] وهؤلاء معترفون بوجود الله فهم غير الدهرية فإنهم مع اسنادهم الحـــوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير»[3].

ونظـــرا لـــتعدد الآراء حول هؤلاء المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَقَالُـــوا مَـــا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَـــا الدُّنْيَا ...﴾ ما إذا كانوا يقرون بوجود الله أم لا فالثابت عنهم أنهم ينكرون اليوم الآخر وفي هذا ميل وانحراف عن الحق إذ فيه إنكار لقدرة الله تعالى وحكمته وعدله وإثبات صفة العبثية له -تعالى عن ذلـــك علـــوا كبيرا- وقد ردّ على هؤلاء الملاحدة بقوله: ﴿أَفَحَسِـــبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُـــرْجَعُونَ. فَـــتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[4]، وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضَ وَمَـــا بَيْـــنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[5].وقوله: ﴿وَهُوَ الَّـــذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَـــالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[6]. وألفتهم إلى الدلائل التي تؤيد ذلك، إلا أننا لا نستطيع

---

[1]-سورة الجاثية، الآية:24.

[2]-فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، مج14، ج24، ص270-271.

[3]-الألوسي: مج9، ج25، ص153.

[4]-سورة المؤمنون، الآيتان: 115-116.

[5]-سورة الأحقاف، الآية:3.

[6]-سورة الأنعام، الآية:73

أن نجزم من خلال الآية أنهم منكرون لوجود الله تعالى.

ومـــا نستطيع الجزم به هو أن قضية إنكار وجود الله تعالى كانت مطروحة منذ القديم، وما يؤيـــد هذا هو غزارة البحث في المسألة خلال التاريخ الإنساني الطويل، إذ كان البحث فيها موجها للإجابـــة عـــن أســـئلة تدور في مجملها حول الوجود الفعلي لله. أهو موجود حقا أم أن هذا الشعور مجرد وهم؟ وإن كان موجودا فما دليل وجوده وما السبيل إلى إثباته؟ ثم ما حقيقة هذا الموجود أهو جسم كالأجسام؟ أم هو غير ذلك؟

فالباحـــث في تاريخ الفكر الفلسفي والديني يلحظ أو يكشف عن جذور هذه المسألة، فالعصر الهيلينـــي أو الإغريقـــي[1] -الذي كان مضنة تأثيره في عقلية من خالط أهله أو اطلع على أفكارهم لـــتأخره وانتشـــار أفكاره بشكل واسع- تميز ببحثه العقلي الجاف، وأيا كانت أسبابه[2] وروافده فهو يعـــبر عـــن محاولة الإنسان حينها أن يجد تفسيرا للعالم المادي الذي يشاهده ويحس به، كشفت عن نـــزعة عقلية مجردة انتهت به إلى اعتقاد يكشف عن التضارب الخفي المستور. أما العصر الهيليني الرومانـــي[3]: فقـــد كـــان فكره قائما على منتجات العصر الإغريقي، إذ تراوح بين الانتخاب من المـــدارس الســـابقة والمزج بين عناصر منتجاتها، أو الشرح والتعليق على كتب السابقين، ثم الجمع بيـــن هـــذه الفلســـفة -الإغريقية- وبين عناصر من التصوف الشرقي، لذلك تميز بخواص الفلسفة الإغريقية المخالفة للديانات السماوية -اليهودية، والنصرانية-، هذا الفكر هو الذي وصل تأثيره إلى المـــدارس المســـيحية فـــي الشرق الأدنى[4]، ثم انتشر على تلك الصفة التي لا تكاد تظهر ملامحها خـــلال الفترات التي كان الوحي يتواصل فيها نزولا إلى أن ظهر جليا في المراحل التالية بعد وفاة الرســـول ﷺ إذ بـــدأت تطـــرح فكـــرة وجود الله في الفكر الإسلامي بشكل جلي في مؤلفاتهم وفي محاولاتهم الجدالية مع من حاول الاستدلال على نفي وجوده تعالى.

---

[1]-وهـــو الزمن الذي كان فيه وقفا على العقلية الإغريقية ويمتد من القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد إلى آخر القـــرن الـــرابع قـــبل المـــيلاد. انظر: محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، مكتبة وهبة، 14 شارع الجمهورية بعابدين، ط، دت، ص105-106.

[2]-يذكر محمد البهي بأن أسبابه الأولى هي محاولة التخلص من طائفة الكهنة أو أرباب المعرفة الدينية، ومن سلطة المعـــرفة الدينية بوضعها تحت ميزان العقل الإنساني، ويذكربأن أفكارهم بعدها لن تخل من التأثر بعناصر الديانات الشعبية البدائية التي كانت سائدة حينها. الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص107 وما بعدها.

[3]-يمتد من آخر القرن الرابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

[4]-المرجع نفسه، ص107-115.

ثـم اسـتمرت هذه النزعة إلى أن ظهرت في العصور الأخيرة بصفة بارزة وعرفت بعدها بالنزعة الإلحادية فإذا أطلق لفظ "الإلحاد" انصرف الذهن إلى هذه النزعة التي تنفي وجود الله وتقول بالوجود الذاتي للكون.

ولـم تـبرز بهـذه الصفة الجلية وبهذا الاسم إلا منذ منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب، إذ تزعم هذا الاتجاه علماء وفلاسفة عاشوا في ظروف خاصة أدت بهم إلى الثورة العنيفة، وكـان مـن أهـم أسبابها تسلط رجال الكنيسة وتعاونها مع السلطة الحاكمة والضغط على الطبقات الكادحة مما أدى بهم إلى الثورة لتغيير نظام الحكم ومن ورائه جميع الأنظمة كالنظام الاقتصادي ثم حصر دور الكنيسة وتقليص مهمتها فلا تمتد إلى شأن من الشؤون العامة وخاصة تسيير الدولة[1].

وبعـد أن حرر العلماء أنفسهم من هذه السلطة واكتسب العلم استقلاله انطلق البحث العلمي بعدها واكتسب قوة ونجاحا واهتماما متزايدا كما اكتسب ثقة الكثير من الناس في أنّه حلّ كل أسرار الكون، ولم يعد للدين مكان بعد ذلك، وأنّ عالم الحقائق بأسره وبجميع أجزائه أصبح مفتوحا لبحوث العلـم، وكل القضايا التي كانت تعزى إلى الدين من حيث تعليلها وتفسيرها، أصبح العلم كفيلا بهما يعللهـا ويفسـرها، أي أن العلم أصبح يكفي نفسه في نموه وتطوره، وانتهى بهم الأمر إلى اعتبار جميع المفاهيم الدينية كالإيمان بالله وبالمعاد والتي تفسر وجود العالم، مفاهيم أسطورية مضى وقتها ولـم يعـد لها قيمة مع التطور العلمي المعاصر إذ حلّ محلّها التفسير المادي للكون، وأصبح المبدأ عـندهم أن الحقـيقة ليست إلا نتاج المشاهدة والتجربة العلمية ولا قيمة لأي فكرة إذا لم تكن تعبيرا مباشرا عن وقائع[2].

ويمكن إجمال الخصائص العامة للإلحاد كالآتي:

-الوجود في أصله ومظاهره مادة، وهذه المادة أزلية وأبدية وهي خالقة لا مخلوقة.
-الوجود ينحصر في المحسوس أي رفض ما وراء الوجود المادي.
-وسيلة المعرفة تنحصر في الحواس.

---

(1)-علي عبد المنعم عبد الحميد: العقيدة الإسلامية، دار القلم، الكويت، ط2، 1403هـ-1983م، ص46-47.

(2)-صـالح نعمـان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، رسالة دكتوراه، كلية أصول الديـن والشـريعة والحضـارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسـنطينة، الجزائر، 1424-1425هـ/2003-2004م، ص194-195. روبرت م أغروس وجورج ن. ستانسيو: العلـم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلايلي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط، جمادى الآخرة 1409هـ، فبراير، شباط 1998، ص15.

-العلم بديل عن الدين في توجيه الحياة والإنسان.

-الأخلاق مادية نفعية، أي أنه يهمه اتباع أهوائه وشهواته والتمتع بها غير ناظر إلى الجانب الروحي الذي هو ضروري في حياة الإنسان، ولهذا فإنّ الأخلاق تحددها هذه الأهواء والمتع ولا قيمة للقيم والمثل والمبادئ[1].

ومنه فإن هذه التسميات الثلاث للانحراف -الكفر، الشرك، الإلحاد- في حقيقتها هي مسميات لشيء واحد وهو الانحراف عن التوحيد إلاّ أنّ مصطلح "الكفر" عام يشمل الشرك والإلحاد وهو يصدق على من بلغ حدا من الانحراف حدده الإسلام لكي يصدق في حقه وصفه بالكافر والذي تجري عليه سائر أحكام الكفر المعروفة في الإسلام كما أنّ الإلحاد بمعناه الأصلي يصدق إطلاقه على الشرك بأنواعه -العظيم والصغير- كما يصدق على إنكار وجود الله لأنّه يعتبر أشد أنواع الانحراف، أما بالمعنى المعروف به الآن وهو -إنكار وجود الله- فهو أشد أنواع الكفر، ولا يصدق إطلاقه على الشرك، إلاّ أنّه قد يصدق إطلاقه عليه إذا اعتبرنا أن الملحد في حقيقة أمره لا تنعدم فطرته إذ يبقى شعور التدين في فطرته وإن أنكر وجود الله فإنّ هذا الإنكار في حدّ ذاته هو نوع من التدين، إذ لا ينفك صاحبه من البحث عن حل مرض وإجابة مقنعة لتساؤلاته الوجودية الكبرى والتي تعود في حقيقتها إلى هذا الدافع، فإشراكه من حيث إسناد الخلق لغير الله وتأليه سواه.

2-صور من الانحرافات التصورية كما وردت في سورة الأنعام

يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

تنقل هذه الآية صورة من صور الانحراف في التصور، وهي اعتقاد أن لغير الله سبحانه وتعالى حق في العبادة لما لها من قدرة التصرف في بعض ما هو من خصائص الألوهية، فقوله "يعدلون" أي يسوون غيره معه تعالى في الألوهية[3]. ومن صور هذه التسوية الاعتقاد بأنّ لها حق الولاية وأنها تنفع وتضر وأن لها القدرة على التصرف في الرزق من الإطعام ومنعه، ولم يكن هذا إلاّ لاعتقادهم بأنّ الله تعالى ليس له كمال القدرة والتدبير، ولقد ردّ الله تعالى عليهم آمرا نبيه ﷺ بأن يتبرأ مما يفترون فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ

---

[1]-ماجد عبد السلام إبراهيم نصر: "ظاهرة الإلحاد الخلفية التاريخية والرؤية الإسلامية"، مجلة حولية كلية الدعوة الإسلامية، قسم مقارنة الأديان والمذاهب، جامعة الأزهر، القاهرة، ع16، 1422، 2001-2002، ص207-218.

[2]-سورة الأنعام، الآية:1-2.

[3]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص128.

إِنَّنِي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، كما قال أيضا مبطلا افتراءاتهم ببيان عجز غيره عن كشف ما بهم من ضر وعدم التجائهم حينها إلا إليه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[2].

ومن خلال قصة إبراهيم عليه السلام تتجلى لنا صورة أخرى من صور الانحراف الذي وقع فيه الإنسان في تلك الفترة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3]، فالتصور الذي كان سائدا في تلك الفترة هو الاعتقاد في ألوهية الأصنام واستحقاقها للعبادة.

تَذْكُرُ السورة محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه وتبين بأنه كان يعتقد التوحيد وأنه صبغ به حياته فجادل والده وقومه من أجل إثباته وإبطال ما يخالفه، وأنّه أعلن براءته ممّا ينسبونه إلى الله بغير علم إذ أقام أمامهم الحجة الدامغة، «وقد كانت أعدل حجة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركا ولا مقرا للشرك في قومه، وأعظم حجة للرسول ﷺ إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك»[4].

لقد ساد الشرك في قوم إبراهيم عليه السلام كما ساد في قوم الرسول ﷺ ولم يكن في مواجهته في بداية الدعوة إلاّ الرسول ﷺ كما هو شأن إبراهيم عليه السلام في قومه.

هذا الشبه الكبير بين المجتمعين يدفع إلى التساؤل عن حقيقة الشرك -الذي ساد فيها مع التباعد الزمني الكبير بينهما- فهل كان التوحيد الذي يحمله إبراهيم عليه السلام والرسول ﷺ طارئ على كل من المجتمعين شذّ به حامله في مجتمع عرف بأصالة اعتقاده أم أنّه أصل غطت عليه الانحرافات فجاء من يزيلها ويبرز حقيقتها فيعيد للأصل صفاءه ونقاءه؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل لا تتم إلا من خلال تتبع الآيات التي تناولت هذا الموضوع والجمع بين المعاني التي تحملها.

---

(1)-سورة الأنعام، الآية:14.

(2)-سورة الأنعام، الآية:40-41.

(3)-سورة الأنعام، الآية:74.

(4)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص310.

لقد وصف إبراهيم عليه السلام دين التوحيد الذي آمن به وصدقه بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، ثم قال: ﴿...أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، والحنيف صفة من الحنف وهو الميل عن الضلال والعوج إلى الاستقامة، وضده الجنف، فقوله "الحنيف" حال أي وجهت وجهي له حال كوني مائلا عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها، فتوجهه وإسلامه خالصا لا يشوبه شرك ولا رياء[3].

وقد وردت آيات من سورة البقرة توضح بأن الدين الحنيف الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام هو التوحيد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

ثم إن هذا الدين الحنيف الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام جاء وصفه بأنّه دين الفطرة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فالدين الحنيف الذي وصفه الله بالفطرة هو التوحيد الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وما يعضد هذا المعنى ويوضحه هو العودة إلى الآيات التي سبقت هذه الآية والتي تلتها، فالسورة جاءت إخبارا عن أمور الغيب التي من بينها ما وقع من أمور الحرب وهزيمة الروم ثم نصرها بعد ذلك، وعن الآخرة التي غفل عنها كثير من الناس، ثم ساق الله سبحانه وتعالى بعدها دلائل البعث التي يشاهدها هؤلاء المنكرون في الكون وفي أنفسهم في كل لحظة، ليسلكوا طريق العلم الذي يوصلهم إلى الحق، فأمرهم بالتفكر وإعمال العقل في هذه الدلائل إذ كان سبب

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:79.

[2]-سورة الأنعام، الآية:80.

[3]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص564.

-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص737.

[4]-سورة البقرة، الآيات 130-135.

[5]-سورة الروم، الآية:30.

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[1]. ثم ساق بعدها جميع الدلائل.

لم تكن الغفلة عن هذا اليوم –الآخرة– وعدم الإيمان به إلا عن عدم تقدير الله حق قدره ولاتباع أهوائهم وترك العلم بحقيقة التوحيد، فجاءت هذه الآيات تسوق دلائل قدرة الله وحكمته وعلمه –توحيده–وكشف لهم عن حقيقة تصورهم ببيان الأساس الذي أقاموه عليه وهو اتباع الأهواء فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[2]، ثم قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]. فبين لهم بأنّ التوحيد الذي ساق دلائله هو الدين العنيف وأنه فطرة فطر الله الناس عليه وأنه الدين القيم، ثم أمر باتباعه وترك ما يخالفه وهو الشرك «ولا تكونوا من المشركين" كما أمر باتباعه في الآيات من سورة البقرة التي سبق ذكرها.

إذن فالدين الذي فطر[4] الله الناس عليه هو الدين القيم والصراط المستقيم والدين الحنيف كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[5]. وهو مرتبط بأصل الخلقة الإنسانية لقوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[6]، ولقوله ﷺ في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت

---

[1]–سورة الروم، الآية:6-8.

[2]–سورة الروم، الآية:29.

[3]–سورة الروم، الآيتين: 30-31.

[4]–سبق بيان معنى "الفطر" عند الكلام على معاني أسماء الله وصفاته وبيان بأنها من معاني الخلق والإبداع في المبحث الأول من الفصل الأول، ص29.

[5]–سورة الأنعام، الآيات: 160-165.

[6]–سورة الروم، الآية:30.

عليهم ما حللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به عليكم سلطانا...»[1]، ولقوله ﷺ أيضا: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[2].

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[3]. وهذا يعني أن شهادة التوحيد التي تتقوم بها ماهية الإنسان هي عنصر ثابت في ماهيته على مستوى الماهية الصورية أي على مستوى العلم الإلهي، كما أنها قائمة وحاصلة في الماهية الخارجية للإنسان، لكن على مستوى القوة دون الفعل، أي على مستوى الإرادة الإلهية، لقوله ﴿إني خلقت عبادي حنفاء﴾، لهذا نجد أفرادا في واقعهم غير مقرين بالتوحيد، فالذي ركز فيهم هو توحيد الربوبية وبقي على الإنسان أن يسعى لتحقيق توحيد الألوهية كما أراد منه الله سبحانه وتعالى، فكانت بذلك المسؤولية منوطة به من هذا الجانب[4].

ويبقى هذا التوحيد بشقيه -توحيد الألوهية وتوحيد الربوبيه- شعورا عاما في نفس الإنسان -البعيد عن الهدي الإلهي- حتى يأذن الله له بسبب من الأسباب يجلو هذه الغشاوات كالإطلاع على الدين الذي جاء به محمد ﷺ والاهتداء به[5].

وقد بين الرسول ﷺ في الحديثين السابقي الذكر فطرية التوحيد وأصالته وارتباطه بأصل الخلقة الإنسانية، وبين أسباب الانحرافات التي تطرأ عليه فذكر في الحديث الأول دور "الشيطان" وفي الحديث الثاني دور الوالدين.

---

[1]-رواه مسلم في كتاب الجنة، باب "الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار"، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: عصام الصبابطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415هـ-1994م، مج9، ج9، ص214.

[2]-رواه البخاري في كتاب القدر، رقم الباب: 1، رقم الحديث: 6599، صحيح البخاري، ص1175.

-ومسلم في كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة"، صحيح مسلم بشرح النووي، مج8، ج8، ص464.

[3]-سورة الأعراف، الآية:172.

[4]-صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص85-86.

[5]-عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، مكتبة المؤيد، المملكة العربية السعودية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1412 هـ-1992م، ص348-349.

وهذا ما حدث في التاريخ الإنساني، فقد بين القرآن الكريم دور الأنبياء في التذكير بالتوحيد، وهو تحقيق للوعد الإلهي حين حدوث فتنة الشيطان، وكشف عداوته، إذ قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، فحدد طبيعتهم –الرسل– بقوله "منكم"، ووظيفتهم ودورهم.

تذكر سورة الأنعام بأنّ عبادة قوم إبراهيم عليه السلام كانت موجهة للأصنام، كما أنّ عبادة قوم الرسول ﷺ كانت كذلك، وحقيقة هذه العبادة لم تكن مبتدعة من هؤلاء القوم فقط، بل ابتدعها قوم نوح من قبل قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا. وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[3]، وهذه الأسماء المذكورة في الآية هي لقوم صالحين ماتوا فاتخذ قومهم لهم تماثيل تعظيما لهم واحتراما، ولما تقادم الزمن عبدها الخلف ظنا منهم أن وجودها لم يكن إلا للتعظيم والعبادة وأنها تنفع وتضر[4]. ويذكر القرطبي أن السبب في اتخاذ هذه الأصنام هو الشيطان إذ أوحى إليهم وغرّهم بزخرف القول بأن برّ هؤلاء الصالحين وتذكرهم لا يكون إلاّ بنصب تماثيلهم[5]، فكانت الفتنة هي نهاية الأمر.

أما قوم إبراهيم عليه السلام انتهى بهم الأمر إلى اتخاذ آلهة من دون الله، فعبدوا الأصنام[6]، كما

---

(1)–سورة البقرة، الآيتان:38–39.

(2)–سورة الأعراف، الآيتين: 35–36.

(3)–سورة نوح، الآيات:21–24.

(4)–أبو محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص73.

(5)–القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ص294–295.

(6)–يذكر محمد رشيد رضا في تفسيره بأنهم عبدوا الأصنام كما عبدوا الكواكب، أما ابن عاشور فيذكر بأنّ هذه الأصنام هي صورة صوروها للكواكب، وهذا ما ذهب إليه عبد الكريم الخطيب. انظر: محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج7، ص568.

–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص317.

–عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآن للقرآن، مج2، ج18، ص222.

وعلى كل فإنّ الصورة تنقل صورة من هذا الانحراف وهي عبادة الأصنام وصورة أخرى وهي عبادة الكواكب ذلك أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يطمئن قلبه وتختبر هذه الكواكب، فانتهى تأمله إلى أنها لا تصلح لأن تكون آلهة،=

عبدها قوم نوح، فبعد أن طهّر الله الأرض من هذه الوثنية، لم يبق إلا نوح ومن معه من المؤمنين، وبمضي الزمن وطول العهد خلف من بعدهم من اتبع أهواءه وابتدع عبادة غير الله، -فأعاد إبراهيم عليه السلام الصفاء للتوحيد وترك بعده من يعبد الله من ذريته ويدعوا بدعوته.

أما قوم النبي ﷺ -مشركوا مكة- الذين ينتهي نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام فلا يختلف أمرهم عن أجدادهم، فقد ورد عن أسباب ابتداعهم للشرك أن عمر بن لحي خرج في سفر له إلى الشام فرأى أقواما يعبدون الأصنام ويعتقدون فيها النفع، فاستحسن ذلك وعاد بصنم إلى قومه ليأمرهم بعبادته وتعظيمه ففعلوا -وكان هذا الرجل معظما في قومه يسمع ويطاع-[1].

ومنها أن تعظيمهم للكعبة دفع إلى أخذ شيء منها -حجارة- عند سفرهم حتى إذا ألجأهم السفر إلى الراحة نزلوا فوضعوا ذلك الحجر وطافوا به طوافهم بالكعبة، ومضى الزمن وتباعد العهد بالتوحيد، وجاء من بعدهم من نسي هذا العهد واعتقد في الحجارة النفع فعبدها[2]. واتخذت بذلك قبائل العرب تلك الأصنام معبودات لهم يعبدونها ويعظمونها.

ومن صور شركهم نسبة الولد لله قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]. كان العرب يعتقدون في نفع الجن وضرهم لهم فاتخذوهم شركاء لله وعبدوهم، ورفعوا أيضا من شأنهم إلى الاعتقاد بأن بينه وبين الجنة نسبا، وكانوا يخافونهم كخيفتهم من الله أو أشد إلى درجة الاستعاذة بها، وكان الخوف منهم هو الدافع الأكبر لاتخاذهم شركاء مع الله[4]، كما ادعوا أنّ لله الولد وقالوا بأنّ الجن أبناؤه والملائكة بناته[5].

-وهذا لما في قومه من توجه لها بالعبادة والتعظيم، وسواء كان التوجه من القوم للأصنام وللكواكب معا، أو للأصنام التي هي صور للكواكب فالعبادة لها ثابتة في القرآن الكريم على أننا نرجح بأنهم اتخذوا الأصنام صورا للكواكب كما ذهب إليه ابن عاشور، وذلك لما ورد في آيات أخرى تبين أن عبادتهم كانت للأصنام كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ سورة الشعراء، الآيات: 69-71.

(1)-ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص79-80.

(2)-المرجع نفسه، ج1، ص79.

(3)-سورة الأنعام، الآيتان: 100-101.

(4)-محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن الكريم، ج1، ص184.

(5)-محمد عزة دروزة: عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربية، بيروت، دط، 1484هـ-1964م، ص552-610.

-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص411.

وكـذا فـإنّ عدم الإيمان بالله حق الإيمان وعدم تقديره حق قدره واعتقاد أن لغيره دخل في التصرف في تدبير الكون أدّى بهم إلى إنكار الرسالة فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

كمـا كذّبـوا بالبعث واليوم الآخر، وفي ذلك إنكار لأن يكون الله له صفة الحكمة والرحمة والعـدل والقـدرة كمـا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3]، فجعلوا الحياة حياة واحدة وأنكروا البعث واليوم الآخر. ولهذا ردّ عليهم الله تعالى بأنهم سيبعثون ويحاسبون علـى أعمـالهم وأنّ له منـتهى الحكمة كما قال في "سورة المؤمنون": ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[4]، وقوله في سورة الملك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1)الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[5].

ثانيا: انحرافات الإنسان السلوكية الاعتقادية

1-حقيقة انحرافات الإنسان الاعتقادية في القرآن الكريم

إنّ حقيقة الانحراف لا تتوقف على الجانب التصوري فقط بل إنّ حقيقته تشمل أيضا الجانب السـلوكي فلـو استقام سلوك الإنسان وجاء موافقا لما يتطلبه التوحيد وانحرف تصوره فإنه لا يعتبر موحـدا وكـذا فإنّـه لو استقام تصور الإنسان ثم سلك ما يخالف مقتضيات هذا التصور كأن يأتي الإنسـان بأعمـال خصـها الله بذاته العلية وجعلها شعارا للعبودية لأحد من الناس، كالسجود لأحد والذبـح باسـمه، والنذر له، والاستغاثة به في الشدة، واعتقاد أنّه حاضر ناظر في كل مكان فيخافه كخـيفة الله، وإثبات قدرة التصرف له فإن ذلك كله يثبت به الشرك، ويصبح الإنسان به مشركا وإن كان يعتقد أن هذا الإنسان، أو الملك أو الجني الذي يسجد له أو يذبح له، أو يستغيث به، أقل من الله

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:37.

[2]-سورة الأنعام، الآية:91.

[3]-سورة الأنعام، الآية:29.

[4]-سورة المؤمنون، الآيتان: 115-116.

[5]-سورة الملك، الآيتان: 1-2.

شـــأنا، وأصـــغر مـــنه مكانا وأن الله هو الخالق، وهؤلاء عبيده وخلقه، لا فرق في ذلك بين الأنبياء والجـــن والشياطين، وغيرها من المخلوقات، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركا، لذلك وصف الله الـــيهود والنصارى الذين غلوا في أحبارهم ورهبانهم، مثل ما غلا المشركون في آلهتهم بما وصف بـــه عباد الأوثان والمشركين وغضب عليهم لانحرافهم كما غضب على المشركين[1]، فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

وعليه فإن لسلوك الإنسان ضوابط حددها الشرع وبينها العلماء فمن أتى بسلوك يخالفها فإنّه يصـــدق علـــيه لفـــظ الانحراف وإنما دخل الكفر على معظم الكافرين بسبب إنكارهم استحقاق الله ســـبحانه وتعالى بأن يفرد في توجيه العبادة إليه، سواء كان هذا الإنكار بالقلب وهو الاعتقاد، أم بما يدل عليه من القول أو الفعل، وبسبب إقرارهم استحقاق غيره لها، سواء كان الإقرار تصديقا بالقلب أو اعـــتقادا، أم كـــان قـــولا وفعلا يدل عليه، فالعبادة التي لا يستحقها إلا الله هي الخضوع والتذلل والطاعـــة والانقياد، ومما يدخل فيها الحب والخشية والاستغاثة والدعاء والتوكل والرجاء والركوع والســـجود والصوم والذبح، والطواف والخشوع وغيرها، فمن نفى بقول أو فعل أو اعتقاد استحقاق الله لهـــذه المعانـــي كفـــر، وكذا من سخر ممن عبد الله أو استخف بمن يدعو الله أو يستعين به أو يـــرجوه بسبب دعائه لله واستعانته به، أو الصلاة له أو الصوم، أو الطواف أو أي فعل أو قول يعده الشـــرع عـــبادة، لأن استهزاءه واستخفافه بذلك يدل بصورة قاطعة على عدم اعتقاده باستحقاق الله لهذه العبادات، وكذا من أنكر استحقاقه سبحانه وتعالى للطاعة وامتثال أمره واجتناب نهيه، أو ادعى أنّ الشـــريعة التـــي جاء بها الرسول ﷺ لا تستحق الامتثال والتطبيق وأنها لا تصلح لهذا الزمان أو نحوها، لأنّ من خصائص الألوهية الأمر والحكم والتشريع[3].

2-صور من انحرافات الإنسان السلوكية كما بينتها سورة الأنعام:

إن للانحرافات التصورية تجليات سلوكية تعد مصدر الحكم على عقيدة الإنسان وتقويمها لذا

---

(1)-أبـــو الحسن علي الحسني الندوي: العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، دار القلم، الكويت، ط3، 1406هـــ-1986م، ص71.

(2)-سورة التوبة، الآيتان: 31-32.

(3)-محمد نعيم ياسين: الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـــ-1983م، ص198-199.

بينت سورة الأنعام صورا من الانحرافات العملية التي كان عليها العرب خلال فترة النزول، وقد تنوعت بين القول والفعل كالصد والإعراض عن السماع للقرآن وغيرها، نبينها كالآتي:

-الإعراض والتكذيب والاستهزاء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2]. فلم يكتفوا بالإعراض والتكذيب بل انتهى بهم العناد إلى الاستهزاء[3]. ولهذا قال تعالى مسليا نبيّه محمداﷺ لما يلقى من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله بوعيده المستهزئين به بالعقوبة[4]: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[5].

-وصف القرآن الكريم بالسحر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[6]، وقد كان شأنهم مع الرسول ﷺ وصفه بالساحر والمسحور كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿...وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[7]، وقال في سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[8]، وقال في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾[9]، وقال في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[10].

-وصف القرآن بالأساطير، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ

---

(1)-سورة الأنعام، الآيتان:66-67.

(2)-سورة الأنعام، الآيتان: 4-5.

(3)-الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج7، ص149.

(4)-المرجع نفسه، ج7، ص153.

(5)-سورة الأنعام، الآيتان: 10-11.

(6)-سورة الأنعام، الآية:7.

(7)-سورة الفرقان، الآية:8.

(8)-سورة هود، الآية:7.

(9)-سورة الزخرف، الآية:30.

(10)-سورة الأحقاف، الآية:7.

كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]، أي أنّه ليس إلا ما كتبه الأولون وخرافاتهم وترهاتهم[2]، كما يمكن أن يكون قولهم هذا هو أن هذا القرآن كذب على ما تعارفوه عن الأساطير -أي ما كان يتسامر به الناس من القصص والأخبار-[3]، ولهذا قالوا عنه بأنّه أساطير نقلها عن غيره كما جاء في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[4]. أي ينقلها عنهم بدراسته عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5].

-طلب الآيات والمعجزات والخوض فيها بالاستهزاء والتكذيب وسبهم من أنزلها وتكلم بها[6] ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[7]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[8]. ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[9]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[10].

-الكذب والافتراء عليه بادعاء النبوة والوحي كما فعل ذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفي مسيلمة، فادعى أحدهما النبوة، والآخر أنّه جاء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ[11] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:25.

[2]-الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج7، ص171.

[3]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص182.

[4]-سورة الفرقان، الآية:5

[5]-سورة الأنعام، الآية:106

[6]-الطبري: المرجع السابق، ج7، ص228.

[7]-سورة الأنعام، الآية:8.

[8]-سورة الأنعام، الآية:37.

[9]-سورة الأنعام، الآية:125.

[10]-سورة الأنعام، الآية:68.

[11]-الطبري: المرجع السابق، ج7، ص272.

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

-الكذب على الرسول ﷺ بادعاء أنهم سيؤمنوا إن جاءهم بالآيات التي يطلبونها: قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

-النهي عن الاستماع للرسول ﷺ والابتعاد عنه وعن أتباعه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3].

-عبادة غير الله: فقد دعوا الرسول ﷺ إلى عبادتها[4]، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[5].

-المكر من الأكابر بتدبير كل ما يصرف الناس عن الرسول ﷺ وعن دعوته[6]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[7]. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[8]، إذ كانوا يتآمرون من أجل الصدّ عن الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ[9].

-تحكيم غير الله تعالى بينهم وبين الرسول ﷺ لإثبات صدقه فردّ عليهم الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:93.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 109.

-انظر هذا المعنى: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج7، ص311.

[3]-سورة الأنعام، الآيتان: 25-26.

-انظر تفسير الآية: الطبري: المرجع السابق، ج7، ص174.

[4]-المرجع نفسه، ج7، ص210.

[5]-سورة الأنعام، الآية:56.

[6]-انظر هذا المعنى: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص46.

[7]-سورة الأنعام، الآية:123.

[8]-سورة الأنعام، الآية:112.

[9]-الطبري: المرجع السابق، ج8، ص3.

أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1]. فردّ عليهم بأن الله هو الحكم بينه وبينهم وقد أنزل القرآن الكريم فيه دلائل صدقه وكونه وحيا من الله تعالى، وأهل الكتاب يعلمون أنّه حق وأنّ محمدا لم يدرس منهم ولم ينقل عنهم ما يقول[2]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[3].

-الذبح لغير الله، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[4]، ومقصود هذه الآية «التحذير من أكل ما ذكر اسم غير الله عليه، فمعنى: ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: أنه ترك ذكر اسم الله عليه قصدا وتجنبا لذكره عليه ولا يكون ذلك إلا لقصد أن لا يكون الذبح لله، وهو يساوي كونه لغير الله، إذ لا واسطة عندهم في الذكاة بين أن يذكروا اسم الله أو يذكروا اسم غير الله [...] ومما يرشح هذا المقصود قوله هنا: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وقوله في الآية الآتية: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، فعلم أن الموصوف بالفسق هنا: هو الذي وصف به هنالك، وقيد هنالك بأنّه لغير الله به، وبقرينة تعقيبية بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، لأن الشرك إنما يكون بذكر أسماء الأصنام على المذكى، ولا يكون بترك التسمية»[5].

-التشريع بالباطل بجعل الحق للأصنام فيما يملكونه من الأموال والحرث: قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[6]. فكانوا إذا قسموا ما يملكون بين الله وبين شركائهم فإنهم يفضلون الشركاء على الله فلا يمسون نصيب الشركاء إذا ذهب نصيب الله أما إذا مس نصيب شركائهم نقص أو سوء كذهابه قالوا إن الله غني عن قسمته ويردون ما لله لشركائهم[7].

-قتل أولادهم: وما ذلك إلا لفساد أنفسهم وعقولهم بالشرك وتزيين الشيطان لأعمالهم، قال

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:114.

[2]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ، ج8، ص13، 16.

[3]-سورة الأنعام، الآية:57.

[4]-سورة الأنعام، الآية:121.

[5]-محمد الطاهر ابن عاشور: المرجع السابق ، ج8، ص39.

[6]-سورة الأنعام، الآية:136.

[7]-الطبري: جامع البيان في تأويل أي القرآن، ج8، ص40-42.

تعـــالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1]، ومعنى التزيين في الآية أنهم خيلوا لهم فوائد في هذا القـــتل كمـــا في وأد البنات تخلصا من العار الذي ستجلبه البنت وأنهن لا فائدة فيهن، وكما في قتل الأولاد خشـــية الفقر وكل هذه الأفعال كانت من إيحاءات الشيطان أو الكبراء الذين كانوا يشرّعون اتباعا لأهوائهم واستماعا لوساوس الشيطان[2].

-وكـــذا التحليل والتحريم بغير شرع من الله قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وهذا أيضا مما انتهوا إليه بشركهم، فكمـــا زيـــن لهـــم قـــتل أولادهم وقسمة أموالهم وممتلكاتهم بين الله وبين شركائهم، زين لهم هذه التشريعات المذكورة في الآية، فكانوا يحرمون أكل لحم الأنعام التي عينوها وحددوها لذلك إلا على بعـــض من أحبوا وشاءوا أن يطعمها، وكذا في سائرما يملكونه من الزرع والثمار، وكانوا يحددون لمـــن تصـــرف بعد ذلك، وكذا حرموا ركوب بعض الأنعام، وكذا تشريع عدم ذكر اسم الله على ما يذبحونـــه ويزعمون أن الله أمر بذلك حتى تكون خالصة لما عينت له، ولهذا قال: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ ذلك لأنها في زعمهم أنها ترضيه لأنها لشركائه[4].

وهكـــذا ظهـــر واقـــع الإنسان المنحرف عن الفطرة بانحرافات عملية دلت على اعتقاداتهم وأفكـــارهم، وتبينـــت حقيقة عبادتهم، إذ كانت كلها لهوا وعبثا واتباعاًللأهواء والشهوات، كما قال تعـــالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[5].

وهـــذا الانحـــراف لـــم يكن عند قوم الرسول ﷺ فقط، وإنما كان هذا شأن المنحرفين عن

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:138.

[2]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص107-108.

- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص43-44.

[3]-سورة الأنعام، الآيتان: 138-139.

[4]-محمد الطاهر ابن عاشور: المرجع السابق، ج8، ص107-108.

[5]-سورة الأنعام، الآية70.

الفطـــرة مع كل نبي لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ولمـــا كان هذا شأنهم بيّن لهم بأنّ وظيفة الرسل البلاغ والتذكير وأن حساب هؤلاء على الله قـــال تعـــالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[4].

لقـــد أدى الانحـــراف عـــن حقيقة الألوهية إلى الانحراف في جميع الأصول الإيمانية التي جـــاءت ســـورة الأنعـــام لـــتقريرها وبيان حقيقتها، وإلى الانحراف في العبادة وصرفها إلى من لا يســـتحقها، ولم يكن الإعراض عن التوحيد إلا لمّا تمكنت تلك العقائد من نفس المنحرف –المشرك– فقـــد سخر من أجلها كل ما يملك خدمة ووﻻء، وانصرف بكل ملكاته العقلية والوجدانية، فما التدبير والتخطـــيط الذي يقوم به لصرف الناس عن التوحيد الذي دعت إليه الرسل إلاّ دليل على ذلك، وما يكشف عن هذا الوﻻء التام هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]، وهذا الأمر يكشف عن حقيقتهم التي كانوا عليها، فأمره تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين بعدم سبهم دليل على أنهم وصلوا إلى درجة من الوﻻء بحيث ﻻ يرضون بأن تمسّ معتقداتهم بسوء، وهذا ما فعله أبو جهل بن هشـــام حيـــن لقـــي الرســـول ﷺ فقال له: «والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد»[6].

---

(1)–سورة الأنعام، الآيتان 10–11.

(2)–سورة الأنعام، الآية34.

(3)–سورة الأنعام، الآيتان: 42–43.

(4)–سورة الأنعام، الآية:48–49.

(5)–سورة الأنعام، الآية:108.

(6)–ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص8.

المطلب الثالث: أسباب الانحراف عن التوحيد

إن حقيقة التوحيد تؤكد لنا أنّ أساس سلوك الإنسان هو ما يحمله من يقين ثابت وتصور راسخ وأن دافع السلوك هو الفكرة التي يحملها الإنسان، وأنه لا يترجم التصور إلى سلوك إلا إذا اجتمعت في ترسيخه والاستيقان به كل ملكات الإنسان العقلية والنفسية والوجدانية ولا يختلف عنه في ذلك الانحراف، وبتتبع سلوك هذا المنحرف وطريقة تفكيره وميولاته ورغابته يمكن الكشف عن أسباب هذا الانحراف وبيانها الآتي:

أولا: الإعمال السلبي لوسائل المعرفة

يعتبر الحس والعقل من أجل النعم التي أنعم الله بها على الإنسان من أجل أداء وظيفته الوجودية، فالحواس -كالسمع والبصر- لها عالمها الذي تعمل فيه وهو عالم المحسوسات، ولكل حاسة من الحواس مجالها الذي تعمل فيه ودورها ووظيفتها الخاصة بها، وكلها تساهم في إمداد الإنسان بالمعرفة اللازمة وتساعده على التعرف على العالم الذي يعيش فيه، كما أنّ للعقل دوره وأهميته في هذه العملية المعرفية.

ولقد كان للإنسان اهتمام بها -وسائل المعرفة- منذ القديم إذ كانت تدرج ضمن مباحثه حول نظرية المعرفة، إلاّ أنّه لم تجتمع له كلمة واحدة حولها، إذ نلحظ التعدد والاختلاف والتضارب في الآراء حول أهميتها ودورها في تشكيل المعرفة عند الإنسان. وما يهمنا في هذا البحث هو الموقف الذي أسسه القرآن الكريم للإنسان في هذه القضية، فكيف وجه الإنسان فيها؟

يبين القرآن الكريم دور التوجيه الإيجابي لوسائل المعرفة في تحقيق استقامة الإنسان والتذكير بأصل التوحيد الذي فطر عليه ويوجه الإنسان إلى ضرورة استخدامها في هذا المسلك وذلك من خلال العديد من الآيات سواء التي تبين مسؤولية الإنسان عن نتيجة توظيفها وخطورة صرفها في غير مسلكها الصحيح بالانحراف عن طريق العلم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[1]، أو التي تبين النتيجة السيئة التي انتهى إليها من اتبع غير سبيل العلم -كما يفهم من النهى الوارد في هذه الآية إذ نهى عن اتباع ما ليس لنا به علم أي اتباع كل ما يؤدي إلى مخالفة هذا السبيل -وذلك بتعطيل هذه الوسائل عن دورها الصحيح كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

---

[1]-سورة الإسراء، الآية:36.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]، وكقوله إشارة إلى عدم إعمال هذه الوسائل بتدبر الآيات والاعتبار بها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، وكالنهي عن اتباع الظن المخالف للعلم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3]، أو الآيات التي تدعوا إلى اتباع المسلك الصحيح والتي تدعوا إلى النظر والتفكر والتدبر والتعقل وهي كثيرة ومتعددة وقد اختلفت أساليبها بين الإشارة المباشرة أو الدعوة المباشرة كقوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[5]، وبين التحذير من الغفلة عن ذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[7]، وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[8].

وخلال هذا التوجيه نجده يربط بين الحواس والتعقل مما يفصح عن ترابط بيّن بينها وبين تحقيق وظيفتها أو عدمه فمثلا حين يندد بتعطيل العقل واتباع الآباء في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[10]، بين بأن حال هؤلاء في التقليد واتباع الآباء كالبهائم إذ أنهم يسمعون القرآن ثم يعرضوا عنه دون نظر، فهم صم

---

[1]-سورة الأعراف، الآية:179.

[2]-سورة يونس: الآيتان: 7-8.

[3]-سورة الأنعام، الآية:116.

[4]-سورة يونس، الآية:101.

[5]-سورة النمل، الآية:69.

[6]-سورة المؤمنون، الآيتان 78-80.

[7]-سورة الحج، الآية:46.

[8]-سورة الأنفال، الآية:22.

[9]-سورة البقرة، الآيتان 170-171.

[10]-سورة الفرقان، الآية:44.

وبكـــم وعمـــي أصموا آذانهم وأعموا أبصارهم وأعرضوا عن قول الحق لذلك فهم "لا يعقلون"[1]، وهذا دلالة على إغلاق جميع نوافذ المعرفة وإصرارهم على جهل الحق، فلو سلمت وسائل المعرفة عندهم من عنادهم لأدّت وظيفتها ودورها المطلوب.

لذا فإنّ لهذا التوجيه دور كبير في رفع الإنسان من درجة الأنعام إلى درجة تحقيق إنسانيته ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، دفع بالإنسان المنحرف إلى تدبر حقيقة مـــا هـــو عليـــه إذ المقارنة بين المرتبتين-مرتبة الإنسانية ومرتبة الحيوان- كفيلة بتحقيق المطلـــوب إلاّ إذا كـــان الإصـــرار على الانحراف فإنه حينها لا يرتجى سماع أو استجابة كما قال تعـــالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

فدعـــوة القرآن إلى استخدام الحواس، إنما هي دعوة إلى تحقيق المعرفة التي ترتفع به إلى درجـــة الإنســـانية، أما الإحساس المجرد فليس مقصودا بتلك الآيات الكثيرة، ولا يبقى أية قيمة لهذا الإحســـاس بدونها، وهذا ما يدل عليه التعقيب الواضح لكثير من آيات القرآن الموجهة إلى استعمال الحـــواس -كالتـــي تذكر آياته في الآفاق وفي الأنفس، والتي يدركها الإنسان بحواسه- بألفاظ مثل: يعقلـــون، يتفكرون، ونحوها كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[5]، كمـــا يدل عليه وصف من لم يستفيدوا المعرفة الصحيحة حين عطلوا حواسهم عن دورها الحقيقي بأنهم كالبهائم فاقدون للإحساس[6].

ولمـــا كان الإنسان خلال بنائه المعرفي لا يستغني عن الحواس فإن للعقل الدور الكبير في تمامهـــا واستكمالها فرغم ضرورتها في العملية المعرفية إلا أنها ليست كافية لأنها تستند إلى العقل،

---

[1]-محمـــد علـــي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، كانون الثاني (يناير)، 1983، ص79.

[2]-سورة الفرقان، الآية44.

[3]-سورة الأنفال، الآية:22.

[4]-سورة الأعراف، الآيتان 175-176.

[5]-سورة النحل، الآيتان: 12-13.

[6]-عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، ص497.

فلولا الاستدلال والبرهان والتحليل والاستنتاج العقلي لبقيت معرفته ناقصة ولما تجاوز حد الاستقراء الذي لا يفيد العلم، ولهذا كان التفكير العقلي أساس المعرفة[1].

ونظـــرا لهذه الأهمية التي يكتسبها العقل إذ يعد أساس التصورات والاعتقادات والأفكار جاء حديـــث القـــرآن عنه في آيات عديدة لتكشف عن دوره وأهمية أدائه ومثالها الآيات التي تدعو إلى الـــتعقل كالتي ختمت بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، مثالها قوله تعالـــى: ﴿ وَهُـــوَ الَّـــذِي يُحْـــيِي وَيُمِيـــتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ ... خَلَّكُمْ وَصَّـــاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]، فالمطلوب من الإنسان في هذه الآيات هو توجيه الإرادة إلى الطريق الصـــحيح وهو تعقل ما يعرض عليه وما يقع بين يديه وما يشاهده ويلاحظه وما يحس به وما يدرك أثره لأنّ تعطيل العقل عن ذلك مآله إلى الفساد المؤدي إلى الهلاك.

وبـــتدبر الآيات التي تتحدث عن العقل نجد بأنه لم يرد في صيغة مصدرية "عقل" وإنما ورد في صيغته الفعلية[4] مما يدل على أنه «صفة من الأوصاف أو الأفعال أو سلوك من السلوكات التي يطلـــع بها الإنسان على الأشياء في نفسه وفي أفقه، مثله في ذلك مثل البصر في المبصرات وليس جوهـــرا وذاتـــا مســـتقلة»[5]، كما وردت مرادفات له وما يدل على معناه ووظيفته في آيات كثيرة منه[6]، فهو «في حقيقته وفحواه: قدرة الوعي الإنساني على تنظيم المعطيات الوجودية المختلفة وفق نظـــام مفاهيمي –أو لنقل [...]نظم مفاهيمية– بحيث يتمكن الإنسان من تحديد بنية الأشياء ومقاصد

---

(1)–آيـــة الله جوادي آملي: التوحيد في القرآن، ترجمة: دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـــ–1994م، ص 135.

–محمـــد الســـيد الجنيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، مكتبة الزهراء، القاهرة، دط، 1410هـــ–1990م، ص27–29.

(2)–سورة المؤمنون، الآية:80.

(3)–سورة الأنعام، الآية:151.

(4)–صـــيغة "عقلوه"جاءت مرة واحدة، صيغة "تعقلون" تكررت 24مرة ومعظمها على صورة الرجاء "لعلكم تعقلون" وعلى صورة الاستفهام أو الاستنكار "افلا تعقلون" صيغة "يعقلون" تكررت 22 مرة، منها 10 صيغ دون نفي، و12 صيغة منها جاءت منفية بـــ"لا" "لا يعقلون" للدلالة على تعطيل أناس لعقولهم وصرفها عن عملها الصحيح إلى التقليد وغـــيرها، صـــيغة "يعقلها" جاءت مرة واحدة، صيغة "تعقل" مرة واحدة. راجع: فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المؤيد، بيروت، لبنان، ط4، 1418هـــ–1997م، ص594–595.

(5)–صالح نعمان: منهج البحث في العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص107–108.

(6)–الفـــؤاد ومشـــتقاته 16 آيـــة، الفكر ومشتقاته 18 آية، التدبر ومشتقاته 18 آية، الفقه ومشتقاته 20 آية، الألباب ومشـــتقاته 30 آيـــة، النهـــي –بمعنى العقول– آية واحدة، وغيرها. انظر: فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

الموجـــودات وأنســـاق العلاقـــات [...] التـــي تحكمها [...]، [فـــ]قدرات الإنسان العقلية تتحدد في العملـــيات الذهنـــية التـــي [...] تسمح بتكوين النظام المفاهيمي [عن الموجودات] وتحقيق انسجامه الداخلي من جهة، وتضمن اتفاقه مع النظام الوجودي الخارجي من جهة أخرى»[1].

فـــالعقل بقـــيامه بهـــذه الوظـــيفة يرتكز أساسا على نوعين من المعارف: المعارف الأولية أو القبلـــية الفطـــرية وهـــي ســـابقة عـــن الخبرة والتجربة وموجهة لها ومعارف مكتسبة ومنطلقها الإدراكـــات الحســـية والـــتأملات الـــنظرية والخبرات العملية. يكتسبها الإنسان بعد التفكير والنظر والتدبر. وطبيعة المبادئ الفطرية أنها لا تتغير عبر الزمان والمكان يتساوى في امتلاكها كل العقلاء علـــى اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم المكتسبة، فهي تعود إلى الفطرة –أي الجبلة–، التي يكون عليها الإنســـان حال ولادته خلقها الله في النفس البشرية قبل مباشرتها المعارف المكتسبة، وهي مع كونها تتضـــح مع نمو الإنسان وتمكنه من تحقيق تكاملها وتوازنها مع المبادئ المكتسبة التي تحقق الاتفاق مـــع الـــنظام الوجودي الخارجي إلاّ أنّها قد تتأثر ببعض العوامل فيغفل الإنسان عن شيء منها، أو يخفـــت وضوحها، فيظهر صاحبها بعد ذلك بعقل مخالف لتلك الطبيعة أو الفطرة، وبمعنى آخر فإنّ تلـــك المبادئ رغم أنها يتساوى فيها جميع الناس إلا أنّ حضورها عندهم يتفاوت من شخص لآخر بسبب قوة استخدامهم وتوظيفهم لها وضعفه.

وتعـــود هـــذه القـــوة والضـــعف إلى أسباب وعوامل كثيرة تعود معظمها إلى المكتسب من المعـــارف الـــذي توجهـــه عـــادة ميولات الإنسان ورغائبه، وتتمثل المعارف الفطرية في مجموعة المـــبادئ كمبدأ الهوية وعدم التناقض والسببية ومجموعة الأحكام كالحكم بأنّ الكلّ أكبر من الجزء، والعملـــيات العقلية كالتجريد والتحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج، يستخدمها العقل للتحقق من صدق الأحكام التي تتكون من المكتسب من المعارف وتفاعلها مع الفطري من المبادئ[2].

إذن فـــالعقل الإنســـاني يـــتكون أو يتشكل من اجتماع المبادئ والأحكام الفطرية الأولية مع الأحكـــام المكتســـبة وأنّ هـــذا المكتســـب تتدخل عوامل كثيرة في تشكيله كالبيئة وميولات الإنسان ورغائـــبه، ويختلف الناس في التفكير باختلاف هذا المكتسب لكن يبقى الفطري منه القاسم المشترك بيـــن مخـــتلف العقـــول وهو المنطلق الذي ينطلق منه القرآن الكريم لتسديد العقل الإنساني بالتذكير لدفعـــه إلـــى الـــتذكر ومقارنة المعارف المكتسبة مع الحقائق الواقعة التي لا تخالف فطرية العقل،

---

(1)–لؤي صافي: إعمال العقل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ–1998م، ص303.

(2)–المرجع نفسه، ص17، 58، 59.

–وعبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، ص313، 328–331.

ويـنطلق به من تلك المبادئ نفسها ليصل إلى الحق والصواب فيما عرضه عليه، ولذا فإنّ أصحاب العقـول السـليمة التي تعمل على إقصاء الأغراض الذاتية والخاصة والأحكام المسبقة وتسلك سبيل العلم تصل إلى الحق كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

ومـنه فـإنّ إمكانـية تغيـير التصورات المنحرفة لا تعدّ مستحيلة إذا حضر القصد والنية الصحيحة للعلم وغابت النظرة الاستكبارية أو الاقصائية التي توظف الحقائق وتنطلق من المغالطات لاقصاء الحق وإثبات ما يوافق هواها والانتهاء إلى ما عاندت من أجله.

إنّ السـر الذي يكمن في عدم استجابة المستكبر هو كونه أقام تصوراته على مبادئ يرفض تغيـيرها، أو أنّـه انطلق من أحكام مسبقة خلاصتها أنّ ما يعرض عليه لا يقبله ولا يصدقه كانت ناتجـة عن هوى في نفسه –إمّا خوفا من ضياع سلطة أو جاه أو غيرها من المتع الدنيوية الزائلة– لـذا فهو يسلك جميع المسالك لأجل إبطال ما يعرض عليه من حق وإن ألجأه ذلك إلى الانطلاق من المغالطات وتزييف الحقائق ليصل إلى ما يريد، وهذا ما فعله المشركون لتبرير شركهم حين نسبوه إلـى الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2]، ومـا فعله اليهود من قبلهم حين حرموا ما أحله الله وأحلوا ما حرمه الله فعاقبهم الله، لذلك فشدد عليهم كما شددوا على أنفسهم وأذاقهم بأسه: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[3].

فهؤلاء المشركون أعرضوا عن التخلي عن تصوراتهم التي اكتسبوها وحاولوا أن يجدوا لها مـبررات فنسـبوها إلـى الحـق وجعلوهـا من الدين الذي أمرهم الله به، ولم يكن مصدر فكرهم وتصوراتهم إلاّ الظن واتباع الأهواء، فلو لم يكن خادما لأهوائهم ومصالحهم لما بحثوا له عن مبرر، وهو ما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ

---

[1]–سورة فاطر: الآية:28.

[2]–سورة الأنعام، الآية:148.

[3]–سورة الأنعام، الآية:146.

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

إن الامـــتراء والإعراض والتكذيب والاستهزاء الذي اتصف به المشركون لم يكن دافعه إلا رفـــض الجديـــد الذي جاء به الرسول ﷺ دون نظر أو تمحيص أو تدبر فقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُـــمْ مِـــنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[2].وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَـــةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِـــهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3]. يكشف عن هذا الدافع، فرغم تعدد الآيات والدلائل التي تكشف عن الحق بمجرد التأمل والتدبر البسيط إلا أنهم رفضوه وأعرضوا عنه وتقولوا عنه الأقاويل.

وما يؤكد هذا الدافع ويفصح عنه بصورة جلية هو مبالغتهم في الإعراض إلى درجة التعنت وعـــدم الرغبة في التعرف إلى الحق وهذا ما ينقله قوله تعالى: ﴿ وَلَـــوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْـــنَا عَلَـــى قُلُوبِهِـــمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَـــاءُوكَ يُجَـــادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[5].

إنّ شـــدة التمســـك بالتصـــورات التي ورثوها عن الآباء دفعتهم إلى وصف الحق بالباطل وتشـــويه الحقـــائق والانطـــلاق مـــن المغالطات للحفاظ عليه وإبعاد الناس عن هذا الجديد، ويظهر تخطـــيطهم لذلك بشكل جلي في قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[6].

ثـــم محاولة إعطاء البديل لتمويه الحقائق، أي محاولة الادعاء من بعض الأشخاص أن لهم حظ من الوحي الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ حتى ينصرفوا عنه، وهذه الحقيقة نقلها قوله تعالى: ﴿ وَمَـــنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا

---

[1]-سورة الأعراف، الآيتان 28-30.

[2]-سورة الأنعام، الآية:2

[3]-سورة الأنعام، الآيتان: 4-5

[4]-سورة الأنعام، الآية:7.

[5]-سورة الأنعام، الآيتان 25-26.

[6]-سورة فصلت، الآية:26.

أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]، ومحاولة القول بأن ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن ليس وحيا وإنما هو من تأليفه وتأثره بأهل الكتاب الذين كانوا يخالطونه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2] -أي أنّه درس وتعلم من أهل الكتاب- والتلبيس على الناس بأن رسول الله ﷺ عاجز عن الإتيان بما طلبوه من الآيات التي تثبت صدقه، فطلبوا الخوارق التي لا تنزل أو لا تأتي لأمر إثبات الرسالة كطلب انزال "ملك" ونزول الملك معناه هلاكهم[3].

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[4]. فكشف الله عن نيتهم بقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[5]، أي أنهم «لا يعلمون ما وجه الارتباط بين دلالة الآية ومدلولها»[6].

ومما يؤكد عدم استجابتهم واستمرارهم في التعنت والعناد هو قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[7]، وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:93.

[2]-سورة الأنعام، الآية:105.

[3]-يقول محمد الطاهر بن عاشور: «ذلك أنه لا تنزل الملائكة غير الذين سخرهم الله للأمور المعتادة مثل الحفظة، وملك الموت، والملك الذي يأتي بالوحي، إلا ملائكة تنزل لتأييد الرسل بالنصر على من يكذبهم، مثل الملائكة التي نزلت لنصر المؤمنين في بدر، ولا تُنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلا لا نزال العذاب بهم، كما نزلت في قوم لوط...». انظر: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص144.

وانظر هذا المعنى: برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص592.

[4]-سورة الأنعام، الآيتان: 9-10.

[5]-سورة الأنعام، الآيتن:109-111.

[6]-محمد الطاهر ابن عاشور: المرجع السابق، ج7، ص211.

[7]-سورة الأنعام، الآية:158.

شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1]، إذ اتخذوه عدوا، وهو مبدأ لا يرجى لصاحبه استجابة أو سماع.

وهكذا كان فساد منهج التفكير باتباع الظن أو الإعمال السلبي والسيء لوسائل المعرفة من أهم أسباب الجمود الفكري والتصلب على الموروث والانحراف عن الحق كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ(170)وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، فلو كانوا يعقلون حقا لما انتهى بهم الأمر إلى اتباع طريق الآباء رغم انحرافهم وضلالهم إذ لو حاولوا التعقل وتمحيص هذا الموروث وتدبره لأدركوا فساده وانحرافه ولأدركوا جهلهم واتباعهم الظن كما قال تعالى: ﴿ ... أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3].

ثانيا: اتباع الهوى

يعرف "الهوى" بأنه حب الشيء والتعلق به ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في الميل المذموم فيقال:اتبع هواه[4]، إذا كان رأيه ناشئا عن شهوة لا عن دليل، ومن ثم سمى علماء الإسلام أهل العقائد المنحرفة بأهل الأهواء كما غلب إطلاقه على حب لا يقتضيه الرشد ولا العقل، وشاع إطلاقه في القرآن على عقيدة الضلال[5].

ويعتبر اتباع الأهواء والشهوات أساس كل انحراف وفساد، وقد حذر القرآن الكريم من هذا المسلك وبيّن دوره في عموم الفساد الحياة الإنسانية ومن ثم النظام الكوني العام كما قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[6]. ذلك لأنّ السموات والأرض ومن فيهن قامت على الحق فخالقها هو الله الواحد الأحد وخلقها كان وفق نظام وحكمة وغاية محددة، وأن جميع الحقائق القائمة بالحقيقة الأولى كالبعث لها غاية وهدف وحكمة، فلو قامت على ما يريد المشركون من اتباع الأهواء كالتعدد في الآلهة وإنكار البعث الذي ينتج عنه إنكار الحكمة والعدل لسار الإنسان بغير هدف ولظلم بعضهم بعضا، ولما

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:112.

[2]-سورة البقرة، الآيتان 170-171.

[3]-سورة المائدة، الآية:104.

[4]-أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص331.

[5]-انظر: محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج2، ص37، ج1، ص695.

[6]-سورة المؤمنون، الآية:71.

أقاموا حدود الله من العدل بينهم وغيرها[1] ولعلى الناس بعضهم على بعض بغير حق وفي هذا فساد للنظام الاجتماعي، وهذا الفساد مؤذن بالفساد الكوني العام مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

وما يبين خطورة هذا المسلك –اتباع الأهواء والشهوات– هو ما انتهى إليه المشركون في إقامة تصوراتهم المنحرفة التي نتجت عنها جميع الانحرافات السلوكية والتي كشف عنها الاضطراب في الحياة الفردية والجماعية، فقد كان مسلكهم في إقامة تصوراتهم توجيه الأهواء والشهوات، فكان نتيجة ذلك اتباع الظن الذي أدى إلى مخالفة الحق كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3]، وقال تعالى موضحا حقيقة الافتراءات التي يفترونها بالتحليل والتحريم بغير علم: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[4]. وقال: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[5]، وقال: ﴿ ... أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[6]، وقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[7]، وقد كشف الله عن مسلكهم وبيّن بعدهم عن اتباع طريق العلم بقوله: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿ ... نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[9]، فلم يكن لهم دليل من وحي أو حجة أو برهان يثبتون به مزاعمهم وافتراءاتهم، ولما عجزوا عن الإتيان بشهادة صدقهم فيما افتروه من التحليل والتحريم وعجزوا عن اتباع مسلك العلم

---

(1)–محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج18، ص92–93.

(2)–سورة الروم، الآية:41.

(3)–سورة الأنعام، الآية:116.

(4)–سورة الأنعام، الآية119.

(5)–سورة الأنعام، الآية:150.

(6)–سورة الأنعام، الآية:144.

(7)–سورة الأنعام، الآية:140.

(8)–سورة الأنعام، الآية:148.

(9)–سورة الأنعام، الآية:143.

دلّ ذلك على جهلهم واتباعهم الظن[1].

إن هـذه الآيـات تكشف عن حقيقة الجهد الذي قام به المشركون لصرف الناس عن الحق الـذي جـاء بـه الرسـول ﷺ وهذا ما يدل على رسوخ الضلالات في أنفسهم «لأنهم لما تعمدوا الإضلال أو اتبعوا متعمّديه عن تصلب، فهم بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النظر في حال أنفسهم، وذلـك يغـريهم بالازدياد والتملي من تلك الأحوال، حتى تصير فيهم ملكة وسجية، فيتعذر إقلاعهم عـنها»[2]، فلـم يـزل حـالهم كذلك حتى أصبحوا مطمئنين إليه يحرجهم تركه وتضيق صدورهم بمفارقـته كمـا قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

ثـم أدى بهـم ابـتاع أهوائهم ورفض إعادة النظر في أسس تفكيرهم إلى طمس بصيرتهم وانحـراف أحكامهم فصار حالهم كالميت الذي لا ترجى له استجابة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[5].

كمـا انـتهى بهـم اتـباع الهوى إلى عدم الاعتبار بالآيات والدلائل مما أدى بهم إلى عدم الاعتـبار بالقـرآن الكريم واستمرارهم في العناد وطلب الخوارق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[6]، فلأجل أن لا يلزموا حجة القرآن إذ أقام عليهم كل الدلائل سارعوا إلـى نفـي أعظـم شـأن من شؤون الله وهو شأن هداية الناس وإبلاغهم مراده بواسطة الرسل[7]، وجحـدوا آياتـه كلها كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

---

(1)-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص144.

-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص133.

(2)-المرجع نفسه، ج8، ص136.

(3)-سورة الأنعام، الآية:125.

(4)-سورة الأنعام، الآية:36.

(5)-سورة الأنعام، الآية:116.

(6)-سورة الأنعام، الآية:91.

(7)-محمد الطاهر ابن عاشور: المرجع السابق، ج7، ص362.

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1]، وهذه المرحلة التي وصلوا إليها في الغي والضلال هي المرحلة التي لا يرتجى لصاحبها استجابة، إذ طبع على قلبه وعطلت جميع حواسه عن عملها الصحيح، كما قال تعالى عن الذين لم يعتبروا بعاقبة من كان قبلهم حين أصابهم الله بذنوبهم: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[2]، وقال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[3]، وقد تعددت الآيات التي تبين حال من وصل إلى هذه المرحلة وتعددت أوصافها فهي مرحلة "الطبع على القلوب"، كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4]، ومرحلة "الختم" كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5]، ومرحلة "الران" كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[6].

فالحقيقة التي كشف عنها القرآن الكريم أن اتباع الأهواء والشهوات يمنع من التعقل وينحرف بالإنسان عن طلب الحق ولهذا حذر منه وبين خطورة الميل إليها، وهذا ما نلمسه من الجمع بين هذا الانحراف وعدم وقوع التفقه والتعقل إذ يؤدي إلى تعطل وسائل المعرفة كما في قوله تعالى:﴿ ... وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[7]، وقوله: ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ.رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[8]، وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:33.

[2]-سورة الأعراف، الآيتان 100-101.

[3]-سورة محمد: الآية:16.

[4]-سورة النساء، الآية:155.

[5]-سورة البقرة، الآيتان 6-7.

[6]-سورة المطففين: الآية:14.

[7]-سورة الأعراف، الآية:100.

[8]-سورة التوبة، الآيتان86-87.

[9]-سورة المنافقون: الآية:3.

وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

ولهذا كشف الله عن حقيقة ما وصلوا إليه بقوله: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2]، فبين بأنهم لا ترتجي لهم استجابة أو تذكر لأنهم ألهوا هواهم وأسروا عقولهم باتباعه فلا يصرفون عنه نظر أو تفكر في غيره أو فيما يناقضه.

وهو -اتباع الهوى- ما كان سببا أيضا في محاربة الدين وصمود الإلحاد في العصر الحالي يقول وولتر أوسكار لندبرج[3]: «يرجع إنكار وجود الله في بعض الأحيان إلى ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية أو الدولة من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الإلحاد ومحاربة الإيمان بالله بسبب تعارض هذه العقيدة مع صالح هذه الجماعات أو مبادئها»[4].

ثالثا: الاستكبار والحسد

يعتبر الاستكبار والحسد من أسباب الانحراف والابتعاد عن الحق، وهو ناشئ عن اتباع الهوى، فالمتتبع لهواه حريص على بلوغه والتملي فيه ولا يرضى أن يمنع منه وعلى هذا تنشأ فيه نزعة الاستكبار والحسد إذ يرى نفسه أولى بالعلو والسيادة ولهذا لا يقبل بجديد يزلزل كبرياءه ويصادم هواه ولا يرضى الخضوع لمن يرى نفسه أولى منه بالرياسة والإمامة[5] كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[6]، فالأكابر عادة لا يرضون النزول عن مرتبتهم التي وصلوا إليها من قيادة قبيلة أو قبائل كما هو شأن المشركين،

---

[1]-سورة الأنعام، الآية:25.

[2]-سورة الأنعام، الآية:43-44.

[3]-عالم الفزيولوجيا والكيمياء الحيوية، أستاذ الكيمياء الفسيولوجية والكيمياء الحيوية الزراعية بجامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية. انظر: جون كلوفر مونسما: الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط4، 1986، ص49.

[4]-المرجع نفسه، ص50.

[5]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص43.

[6]-سورة الأنعام، الآيتان: 123-124.

ولذلك فإنهم يدبرون الحيل لصرف الناس عما جاءهم من جديد شعروا بأنه يهدد منزلتهم ويسوي بهم من استضعفوهم واعتبروهم أقل منهم منزلة ولا يستحقون العلو أو مخالطتهم[1] وعلى هذا اغتروا بأنفسهم ورفضوا رسالة الرسول ﷺ ورأوا أنفسهم أحق بالرسالة فطلبوها بدل الإيمان بالرسول ﷺ وما أتى به، وهذه الأخلاق من أشد ما يهدد الأمم والجماعات بالزوال والهلاك لأنها أساس الفساد ومن أشد ما يمنع الحق من الظهور ولهذا سماهم القرآن "المجرمون" لأنهم يسلكون كل المسالك لإضعاف الغير وخاصة من يهدد أهواءهم ولهذا حذر الله تعالى منها وبين بأن عاقبة مرتكبها الصغار والهلاك فعقب الآية بقوله: ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . .....سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

وما يكشف عن أخلاقهم الذميمة وحرصهم الشديد على منزلتهم هو سلوكهم تجاه من اتبع رسالة الرسول ﷺ فلما شعروا بأن الحجة ستلزمهم أرادوا أن يحافظوا على مكانتهم فطلبوا من الرسول ﷺ بأن يفرق بين مجالسهم، فيجعل مجلسهم غير مجلس الضعفاء، وأن يطرد هؤلاء الضعفاء إذا حضروا إلى الرسول ﷺ، وهم معه أو حضروا وكان معه هؤلاء الضعفاء، فرد عليهم الله بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

رابعا: التنشئة الاجتماعية

تعد التنشئة الاجتماعية من أخطر أسباب الانحراف عن التوحيد لقوله ﷺ : «ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[3]، إذ تساهم هذه التنشئة بقدر كبير في تكوين تصورات الإنسان، وقد تبين لنا -مما سبق- العلاقة بين الفطري من المعارف والمكتسب منها، وكيف ينتقل الإنسان من طريق العلم والاستيقان بالحق إلى طريق التبرير وتزييف الحقائق من أجل غرض أو شهوة أو غيرها وهذه كلها لها سببها وهو ما استقر عند الإنسان من تصور والتصور لا يكونه في بداية التنشئة إلا الأسرة والمجتمع، وهكذا في غياب الوحي كلما انحرف الوالدان أو المجتمع زاد انحراف النشأ إلى أن تأتي الفترة أو الزمن الذي يظهر فيه الفارق بين بداية الطريق ونهايتها، بين فترة الرسل

---

[1]-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص33-34.

[2]-سورة الأنعام، الآية:52.

[3]-سبق تخريجه.

وبين فترة نسيان هدايتهم وتحريفها.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وأصل الإقامة -كما مرّ بيانه عند الحديث عن إقامة الصلاة- يتطلب الحرص والانتباه واليقظة والقصد إلى الالتزام والصبر، وعلى هذا فإنّ إقامة الوجه للدين الحنيف الذي فطر عليه الإنسان هو الحرص على نقائه وصفائه وعدم تبديل أصله، وفي هذا إثبات لدور الإنسان ومسؤوليته في الاستمرار على هذا الأصل أو الانحراف عنه ولا شك أن عامل التربية من الوالدين له أكبر الأثر في ذلك، ولهذا بين الحديث مسؤوليتهم كما حذّر القرآن ونهى عن اتباعهم إن كانوا منحرفين عن التوحيد بقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، إذ الولاية تقتضي القرب والمحبة والمخالطة والرضا، بما هم عليه من الانحراف[3] وهو ما يقتضي التأثر بهم والأخذ عنهم، ومن الولاية ينشأ الاتباع والتعصب الذي ينميه الجهل والهوى والمصلحة، فحين يرى المنحرف عن الحق أن المصلحة تكون باتباع آبائه والجمود على الموروث فإنّه لا يرضى عنها بديلا، وأخطر أنواعه ما كان ناشئا عن الهوى، ذلك لأنّه يتدرج بصاحبه إلى مرحلة عدم التعقل والتذكر. كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[4]، فهؤلاء المشار إليهم في الآية الثانية لما كانوا مبتعدين عن الحق -لا يؤمنون بالآخرة- سماعون لكبرائهم -المشار إليهم الآية الأولى- استمعوا لما يمليه عليهم كبراؤهم وارتضوه لموافقته أهواءهم[5].

وعلى هذا رفضوا جميع الآيات ولم يؤمنوا بها كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

---

(1)-سورة الروم، الآية:30.

(2)-سورة التوبة، الآية:23.

(3)-القرطبي: الجامع الأحكام القرآن، ج8، ص90.

(4)-سورة الأنعام، الآيتان: 112-113.

(5)-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص5-9.

-وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج8، ص10.

يَجْهَلُونَ﴾[1]، فعلى رأي ابن عاشور في تفسيرها أن الكبراء[2] لما طلبوا الآيات تعجيزا للرسول ﷺ وعنادا منهم ردّ عليهم بهذه الآية ليثبت أنهم يعاندون ويمكرون وأن نيتهم لم تكن صحيحة في معرفة الحق للإيمان، وأنّه إن شاء الله إيمانهم آمنوا وقد آمن منهم بعد ذلك كثير، فيكون إسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم وهم أهل الرأي والعلم فإنهم يرتجى إيمانهم لو ظهرت لهم الآيات[3]. وعليه فلما كان المعاندون وهم الكبراء معْدُودين، وكان أكثر المشركين يتبعونهم بغير علم فإنّ قوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، يدخل فيه هذا الصنف الأخير من المشركين –وهم عامتهم–.

وقد كان المشركون يبررون شركهم بأنهم وجدوا عليه اباءهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ. بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[4]، فقد نفى الله تعالى عنهم العلم إذ كانوا يسلكون في اتخاذهم للآلهة وعبادتها مسلك الظن والجهل ونفى أن يكون قد أمرهم بذلك في كتاب أنزله عليهم من قبل هذا الكتاب، ولهذا أبطل ما كانوا يفترونه بأن الله أمرهم بها ببيان أن الله لم يأمر إلا بالتوحيد ونبذ الشرك وأن جميع الرسالات جاءت بهذا الأصل الذي فطر عليه الناس كما في قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[5]، فكشف عن بطلان حجتهم بأنه ليس لها سند من علم أو كتاب وأن حجتهم باتباع الآباء كان دافعها الهوى وحب الترف، إذ لو تدبروا حالهم لكشفوا زيف وبطلان ما يعبدون.

ومنه يتبين لنا خطورة الهوى والتعصب في الانحراف بالإنسان إلى الغفلة وعدم التذكر والإصرار على الولاء للآباء والموروث.

---

[1]–سورة الأنعام، الآية:111.

[2]–وهم: الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن حنظلة من أهل مكة. انظر: محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص5.

[3]–المرجع نفسه، ج8، ص5–7.

[4]–سورة الزخرف: الآيتان 20–24.

[5]–سورة الأنبياء: الآيتان 24–25.

يقــول وولتر أوسكار لندبرج مبينا دور التنشئة الاجتماعية في تكوين التصورات المنحرفة والتعصــب إلــيها: «وحــتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف فليس من السهل أن تتحرر من التعصــب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولــتهم فــي إلــه هو على صورة الإنسان، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإنّ تلك الصورة التي تعلموهــا مــنذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول، وأخيرا عــندما تفشــل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكــير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية. وعندما يصلون إلــى هــذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية، لا يحــبون العــودة إلــى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله»[1].

وقــد كشــفت الســورة –الأنعام– عن هذه الخطورة وبينت حقيقة المنزلة التي يصل إليها الإنســان بسبب ذلك فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، وهي المرحلة التي لا يرجى لصاحبها استجابة إلا أن يشاء الله.

خامسا: الشيطان

تذكر بعض الآيات القرآنية دور الشيطان ومساهمته في انحراف الإنسان بالغواية والوسوسة وتزيــين الــباطل أمام الإنسان وتسهيل طريق اقترافه، فقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[3]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا

---

[1]–جون كلوفرمونسما: الله يتجلى في عصر العلم، ص50.

[2]–سورة الأنعام، الآية:108.

[3]–سورة الأعراف، الآيتان 16-17.

يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]، فبين في هذه الآيات سبيل الكفر من الشرك وغيره وقوله "ضلالا بعيدا" أريد به القول في نوعه الذي لا يرجى لصاحبه اهتداء، ثم بيّن أنّ دعوتهم للأصنام دعوة للشيطان فهو الذي يُسوّل لهم عبادتها، ذلك لأنّه يئس من رحمة الله فقد طرده الله منها يوم أن أعلن استكباره عن السجود لآدم عليه السلام وادعى أفضليته عليه بقوله: ﴿... أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[2]، فنشأت العداوة بينهما وأعلنها الشيطان بقوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3]، فكان بذلك عمل الشيطان انتهاز ميل القوى البشرية إلى الضعف فيستميله إلى الانحراف بالوسوسة والتزيين، وهذا الضعف الذي خلق عليه الإنسان أكبر مدخل يدخل به الشيطان للإنسان، ولما كان الإنسان بطبعه تعتريه حالات الضعف كان بدخول الشيطان منه نصيبا مفروضا له، فكل حظ للشيطان في تصرفات البشر من أعمالهم المعنوية -كتكوين التصورات والأفكار المنحرفة- ومن أعمالهم المحسوسة -كالفساد في الأرض- والإعلان بخدمة الشيطان -كعبادة الأصنام، والتقريب لها، وإعطاء أموالهم لضلالهم، كل ذلك من النصيب المفروض، ومعنى "لأضلنهم" إضلالهم عن الحق، ومعنى "لأمنينهم" لأعدنهم مواعيد كاذبة القيها في نفوسهم، تجعلهم يتمنون، أي يقدرون غير الواقع واقعا، إغراقا في الخيال، ليستعين بذلك على تهوين انتشار الضلالات بينهم وأما تبتيك آذان الأنعام وتغيير خلق الله فهو كما كان يفعله العرب من جدع الأنعام للتقرب بها إلى معبوداتهم والوشم وغيره[4].

وقد يكون تغيير خلق الله هو تبديل الفطرة -التوحيد- والانحراف عنه إذ هي الخلقة أو الصورة التي خلق الله عليها الإنسان -كما سبق بيانه- يخرج بها الإنسان كاملة لا انحراف فيها ثم يأتي دور الشيطان ليحدث التغيير لهذه الخلقة كما أشار إليه الحديث "كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" فيتصرف الإنسان فيها كتصرف العرب بالجدع وغيرها.

فقد كشفت الآيات التي تتحدث عن قصة موقف إبليس من آدم عليه السلام حين نفخ الله فيه من روحه وأمره بالسجود له عن نزعة الكبر والحسد والتي نشأت عن اتباعه لهواه فأدى به إلى رفض السجود لآدم امتثالا لأمر الله تعالى، وبذلك استحق غضب الله وطرده من رحمته، وكما سيطر هذا الخلق الذميم على إبليس سيطر أيضا على أولئك المكذبين والمعاندين، فكان موقفهم تجاه الحق بإيحاء من الشيطان واستغلال منه لضعف الإنسان وميله إلى مثل هذا الخلق فعمل على تقويته

---

[1]-سورة النساء، الآيات: 116-120.

[2]-سورة ص، الآية:76.

[3]-سورة الأعراف، الآية:16.

[4]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج5، ص202-205.

في نفوسهم.

وهكذا تكشف هذه الآيات عن الأسباب الحقيقية للانحراف وعن منشأ الإعراض عن الحق والتكذيب به وبينت أن الإنسان بفطرته يسعى لتحقيق ما فطر عليه من التوحيد وأنه يبحث عن الحق الذي فطر عليه وخلال محاولة سلوكه هذا الطريق يعترضه الشيطان بالغواية ومحاولة صرفه، وبسببه يحيد كثير من الناس عن هذا الطريق، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

ولقوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما حللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به عليكم سلطانا...» [3].

فعمل الشيطان هو محاولة صرف الإنسان عن طريقه بالوسوسة والإيحاء لإخوانه من شياطين الإنس بزخرف القول كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[4]، وما يجده الناس في أنفسهم من خواطر السوء والانحراف عن طريق الحق هو من وساوس الشيطان، وقد كشف الله تعالى عن ذلك ليدركوا حقيقة ما يدور في أذهانهم من خواطر، فيميزوا بين الحق منها والباطل، والخير والشر فيختاروا ما فيه أمنهم ونجاتهم، وبين أساليبه ووسائله في محاولة الغواية وكيفية اتقائه وتجنب كيده[5].

وهكذا تكشف لنا السورة عن شخصية المشرك وتبين لنا أن المواقف الصادرة منه لا تعكس إلا رؤية منغلقة على ذاتها رافضة للنظر والتعقل تختلق المبررات وتقلب الحقائق وتتطلق من المغالطات لخدمة أهوائها ورغائبها وأسست تصوراتها على قاعدة معرفية غير ثابتة، تتحكم فيها الأهواء والشهوات، ولهذا فهي ترفض إعادة النظر في أحكامها ومبادئها المكتسبة فسكرت عقولها

---

[1]-سورة ص: الآيات: 82-85.

[2]-سورة الأنعام، الآيتان 42-43.

[3]-سبق تخريجه.

[4]-سورة الأنعام، الآية:112.

[5]-طه جابر العلواني: التوحيد والتزكية والعمران، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، ص34-35.

وأذانهـا كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وقـد جمع هذه الأسباب قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ. وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[3].

ومما سبق يمكن القول بأن تلك الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن الفطرة – التوحيد– تنتهي بالإنسان إلى الغفلة، فحين ينصرف الإنسان بسببها عن النظر والتدبر بتعطيل وسائل المعرفة فإنه يصعب عليه التذكر وبالتالي يظل في غفلته إلى أن يأذن الله بسبب من الأسباب يزيل تلك الغشاوة فيحدث التذكير، ولهذا كان من مقاصد القرآن الكريم التذكير بأصل الفطرة وتوجيه الإنسان إلى طريق الهداية كما قال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[5].

---

[1]–سورة الأنعام، الآية:25.

[2]–سورة الأنعام، الآية:39.

[3]–سورة الأعراف، الآيات: 172–179.

[4]–سورة البقرة، الآيتان:38–39.

[5]–سورة الأعراف، الآيتان: 35–36.

وهكذا تبين لنا كيف ارتبطت العقيدة بالسلوك ارتباطا وثيقا، وكيف كان اليقين بالعقيدة دافعا للسلوك الذي تقتضيه، وكيف كان القرآن الكريم يركز على بناء التصور لحقيقة الألوهية، فيعرّف الإنسان من هو "الله" ومعنى أن يؤمن الإنسان حقيقة بأنّه "لا إله إلا الله"، فأنشأ التصور الصحيح وأبطل في الوقت ذاته التصور المنحرف، وبعد أن عرّفهم بهذه الحقيقة واستكمل كل أركان الإيمان تدرج في إتمام وضع ضوابط السلوك ومكارم الأخلاق حتى لا يضل الإنسان بوضع طرق للعبادة عرف أنها من مقتضيات التوحيد وأنها من حقيقته.

ثم إننا إذا تأملنا الواقع الإنساني خلال فترة النزول –نزول القرآن الكريم– رأينا الفارق بين بداية الدعوة للتوحيد ونهايتها، فرغم ما عرفت به بعض النفوس من العناد ورفض الدعوة إلاّ أنّه انتهى بها الأمر إلى الإذعان والقبول بل إلى حمله وتمثيله أحسن تمثيل. فكيف كان القرآن الكريم يخاطب هؤلاء الناس؟ أو –كيف أثبت القرآن الكريم حقيقة الألوهية وكيف صحّح التصورات المنحرفة؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني:

دلائل التوحيد من خلال سورة الأنعام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

المبحث الأول: دلائل الآفاق على التوحيد

المبحث الثاني: دلائل الأنفس على التوحيد

التمهيد

تنقسم الموضوعات التي اهتم الإنسان ببحثها ودراستها إلى مجالين: المجال الحسي –عالم الشهادة– والمجال الغيبي الذي لا يخضع للحس والمشاهدة –عالم الغيب– ولقد كان عالم الشهادة مبعثا لكثير من التصورات والأفكار التي يكونها الإنسان عن عالم الغيب، ذلك أنه خلال تعامله مع الكون يجد الضرورة تدفعه إلى تحديد تصور معين له ليصل إلى تحقيق ما يحس به من دافع التدين، ثم إنه خلال هذه الممارسة وما ينتج عنها من تأملات يجد أمامه تساؤلات تفرض عليه إيجاد الجواب المقنع للقضاء على حيرته واضطرابه، ولإشباع حب الاستطلاع نحو الظواهر التي كانت مصدرا لكثير من تساؤلاته، ثم إننا إذا نظرنا في التفكير الإنساني قديما وحديثا نجد اختلافا كبيرا في التفسير والتصور لحقيقة هذا الوجود قامت على إثرها حضارات وتنوعت وانتهت غالبها إلى ضروب من التّدين المنحرف عن حقيقة ما جاء به الوحي، منها اتخاذ بعض الموجودات الكونية آلهة كالشمس والقمر والكواكب و النار و غيرها، و منها إنكار أن يكون هذا الوجود مخلوقا لإله يختلف اختلافا كليا عنه و بالصفات التي حددها الوحي و لم يكن ذلك إلا نتيجة للاختلاف بين طبيعة العالمين– العالم المحسوس والعالم الغيبي– من حيث الإدراك و التصور، فالقضايا الحسية والمسائل التجريبية تخضع للضبط و التحديد، أما القضايا الغيبية التي لا تخضع للمشاهدة و التجربة لا يمكن للإنسان أن يضبط تصوره فيها و يحدده.

و على هذا عجز الإنسان عن تقديم الإجابة الكافية لتساؤلاته الوجودية و التي جمعت في ثلاث تساؤلات كبرى هي: ما الكون؟، ما الإنسان؟، ما الحياة؟، أو من أين–المبدأ–؟ و لماذا– الحياة–؟، وإلى أين – المصير–؟، وهي أسئلة تبحث عن العلاقة بين عالم الشهادة وعالم الغيب أي أنها تحاول أن تجد إجابة عن سر ما يحسه الإنسان ويجده في فطرته و في فطرة الوجود من جهة، ومن جهة أخرى معرفة سر ما يدركه من آثار القدرة و الإرادة و الحكمة التي تتجلى من خلال نظام الكون وسننه.

ولم يجد الإجابة الشافية إلا في الوحي الإلهي المعصوم الذي كان مصدرا لجميع التصورات الصحيحة عن الكون والحياة والإنسان، إذ جاء بالحق الجلي في هذا الميدان مما يلبي تطلع الإنسان و حاجته، فأخبر عن أصل هذا الكون وأصل الإنسان والحكمة من وجوده، وما وراء هذا الوجود المادي من عالم غيبي خاضع لإله واحد عظيم موصوف بأكمل الصفات، وما في هذا العالم الغيبي من موجودات لها صلة بالإنسان كالملائكة، وما وراء هذه الحياة من حياة أخرى ستكون تكملة لهذه

الحياة يتحقق فيها العدل ويكون الجزاء[1].

لقد تميزت المعرفة التي يقدمها القرآن الكريم عن غيرها من المعارف البشرية المبتورة التي لا تتعدى عالم الشهادة الخاضع للحس والتجربة الإنسانية بجميع وسائلها التي إن تجاوزته إلى عالم الغيب أصبحت وهما وظناوتخمينيا في جمعها بين عالم الغيب والشهادة في منهج معرفي متكامل يجمع بين الوحي الإلهي والمدركات الحسية والعقلية، إذ الخلل الذي وقع فيه الإنسان في عمليته المعرفية هو الفصل بين المدركات الحسية والعقلية وبين معرفة الوحي، وإبعاد إحداهما والتقليل من أهميتها.

فآفاق هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان والذي كان مصدرا لجميع تصوراته قديما وحديثا ومختبرا حقيقيا للوصول إلى ما يطمئن إليه الإنسان من إجابة عن التساؤلات الأساسية في حياته، وميدانا خصبا لإشباع شهواته وميولاته، هو المنطلق الأساسي الذي ينطلق منه القرآن الكريم من أجل تصحيح تصورات الإنسان عن الوجود والإجابة عن تلك التساؤلات الكبرى والتذكير بحقيقة الفطرة التي خلق عليها الإنسان والكون من حوله.

أي ينطلق بالإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الغيب عن طريق تدبر مظاهر الكون وفهم تجليات القدرة الإلهية البارزة في نشاط الموجودات وحركتها وتفاعلاتها والسنن والقوانين التي تحكمها للوصول إلى فهم حقيقة عالم الشهادة وعلاقته بعالم الغيب ومنه توحيد الخالق سبحانه وتعالى.

ومن هنا يتجلى تميز المنهج القرآني الذي يبتعد بالإنسان عن المثالية والتجريد والخيال إلى الواقعية والفعالية في الحياة، فالإنسان لا يستطيع أن ينفك في حياته عن الكون ولا يستطيع أن ينكر دوافعه التي تشد وعيه للاتصال بالوجود الكوني، سواء بالعقل أو بالوجدان، فكان خطاب القرآن للإنسان خطابا متميزا يجمع بين العقل والوجدان ليربطه بالآيات المشهودة، والمتدبر لآياته يجد اختلاف الأساليب التي تدفع بالإنسان إلى الاتصال بالحقائق المشاهدة ليصل إلى الحقائق الغيبية وأساليب تجدد مشاهد الكون وظواهره وتحيي فعاليتها في نفوس الناس، بعد أن فقدت جدتها بطول الألفة وضعف تأثيرها بطول التكرار، فليس من العبث أن نجد بعض سور القرآن تحمل أسماء هذه الآيات عنوانا لها، فنجد سورة الفجر والضحى والعصر، والليل والشمس، والقمر، والنجم، وسور أخرى تحمل أسماء بعض الكائنات مثل: النحل العنكبوت، النمل...، الخ، فهذه كلها لفتات قرآنية توقظ العقل البشري لكي يتأمل الظاهرة المادية والمحسوسة ثم يتجاوز متسائلا عما وراءها وإذا

---

[1]-عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، ص152.

توقف الإنسان عند النظر في الظواهر الحسية ولم يتجاوزها إلى ما وراءها فقد ضل طريقه إلى معرفة الحقيقة، إذ يترتب عليه انشطار في علاقة الإنسان بالكون وتوظيفه[1].

تعددت الآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر والتدبر في الآيات المشهودة –أي الكون بما فيه الإنسان– إذ تصل إلى السبعمائة آية وكلها جاءت ملفتة إلى دلائل توحيده تعالى إما إجمالا كقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2]، وقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[3]، وإما تفصيلا وهي الآيات التي تفصل ذكر هذه الدلائل كالتي تشير إلى أطوار خلق الإنسان ومراحل تشكل المطر وغيرها.

والمتدبر لآيات دلائل التوحيد يستطيع تقسيمها إلى صنفين صنف يتعلق بدلائل الآفاق وصنف يتعلق بدلائل الأنفس، وهذا يلمس من كثير من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5].

واعتبارا لهذا التقسيم المستخلص من القرآن الكريم جاء بيان هذه الدلائل وفق مبحثين، إلا أن ما يلاحظه المتدبر للقرآن الكريم أنه يطلق على تلك الدلائل في الآفاق وفي الأنفس لفظ "الآية" وهو اللفظ الذي يستعمله للدلالة على آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[6]، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[7]. وإذا رجعنا إلى معاني هذه اللفظة نجدها تحمل عدة معاني:

1–تطلق الآية على العبرة كما قال تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[8]؛ أي عبرة ودرسا

---

(1)–محمد السيد الجليند: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، ص19.

(2)–سورة فصلت، الآية: 53.

(3)–سورة الأنعام، الآيتان: 1–2.

(4)–سورة فصلت، الآية: 53.

(5)–سورة الذاريات، الآيتان: 20–21.

(6)–سورة البقرة، الآية: 252.

(7)–سورة آل عمران، الآية: 7.

(8)–سورة البقرة، الآية: 259.

لأولئك الذين ينكرون البعث.

2-وتطلق على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[1] وقوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2].

3-وتطلق على القطعة من القرآن المشتملة على حكم شرعي أو موعظة أو نحو ذلك.

4-والآية في الأصل: العلامة والدليل والشاهد والأمارة والمراد بالآيات أيضا علامات الديار من الآثار التي تترك بعد الإقامة[3]، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5].

وجمع آية آيات بمعنى دليل الذي جمعه أدلة ودلائل وهي الأجسام التي يعرف وجودها حسا ومشاهدة، وهي دلائل على الله أنه خلقها ودبرها[6].

وبما أن الآيات تحمل معاني الآيات المقروءة -القرآن- والآيات المشهودة -الآفاق والأنفس- نختار لهذا المبحث مصطلح الآيات للقرآن الكريم ومصطلح الدلائل للآيات المشهودة -آفاق وأنفسا- وسنختار الآية 53 من سورة فصلت والتي جمعت لفظي الآفاق والأنفس ثم نتناول مفهوم كل كلمة من خلال أقوال المفسرين الواردة حولها وذلك في المبحث المخصص لكل منها.

---

(1)-سورة الإسراء، الآية: 101.

(2)-سورة الإسراء، الآية: 59.

(3)-ابن منظور: لسان العرب، ج1، [أ-ج]، ص185.

-أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م، ص 219-220.

-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص656.

-محمد محمد خليفة: مع آيات الله في كتاب الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1403هـ-1983م، ص67-68.

(4)-سورة البقرة، الآية: 248.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 13.

(6)-سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص93.

المبحث الأول: دلائل الآفاق على وحدانية الله تعالى

المطلب الأول: مفهوم الآفاق

يقول ابن قيم الجوزية في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، «أي أن القرآن حق فأخبره أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أنّ آياته المتلوة حق»[2].

ولخص ابن الجوزية أقوال من سبقه في تفسير هذه الآية في خمسة أقوال:

1-الآفاق: فتح أقطار الأرض.

2-إمساك القطر عن الأرض كلها.

3-آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم.

4-وقائع الله في الأمم الخالية.

5-آثار من مضى قبلهم من المكذبين[3].

وفي تفسير فخر الدين الرازي أن الآفاق جمع أفق وهو الناحية من نواحي الأرض، وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها-وفي تفسير قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

يرجح القول بأن معنى الآفاق هي الآيات الفلكية والكونية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإظلال والظلمات[5].

وهو المعنى الذي ذهب إليه الألوسي بقوله: «والأفاق النواحي [...]أي سنريهم آياتنا في النواحي عموما من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها...»[6].

كما ذهب إليه ابن عاشور بقوله: «هو الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها والناحية من

---

(1)-سورة فصلت، الآية: 53.

(2)-يسري السيد محمد: بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ-1993م، مج4، ص106.

(3)-ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، مج7، ج7، ص68-69.

(4)-سورة فصلت، الآية: 53.

(5)-فخر الرازي: التفسير الكبير، مج14، ج27، ص140.

(6)-شهاب الدين محمود الألوسي: روح المعاني، مج9، ج25، ص6.

قبة السماء [...] والأحسن أن يكون في الآفاق على عمومه الشامل لأفقهم»[1].

ومنه فإن آيات الأفاق أو دلائل الأفاق هي السموات والأرض وما اشتملت عليه من المخلوقات الحية كالأنعام والنباتات وغير الحية كالنجوم والجبال والرياح وغيرها التي يراها الإنسان حوله ولو استعرضنا كل الآيات القرآنية التي تدور حول الكون ومظاهره كالشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والبحار والينابيع والليل والنهار والسحاب والأمطار والنبات والحيوان لرأينا كل هذا يشكل صورا رائعة لهذا الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى وأبدعه وجعله مسرحا للإنسان لتحقيق الاستخلاف عبادة وعمارة، ومجالا لمعرفته وتفكيره ليصل من خلال معرفته إلى معرفة الله الخالق جل جلاله.

وإذا أردنا أن نحصي دلائل الآفاق الواردة في سورة الأنعام صعب علينا الإحاطة بحقيقتها، فرغم كونها محدودة في هذه السورة إلا أن بحث حقيقتها من حيث دلالتها على الوحدانية يطول، فالحديث عن السماوات والأرض والقمر والنجوم والأنعام والنبات وغيرها لا يسعه إلا إفراد كل منها بمطلب، ولهذا كان تقسيم هذا المبحث على حسب دلالتها العامة باعتبارها مخلوقة لله دالة على وحدانيته.

المطلب الثاني: دلائل الخلق

إن التساؤل الذي لا زال يشغل عقل الإنسان هو: من أين أتى هذا الكون؟ هل هو قديم أزلي أم أن له بداية وإن كان قديما فكيف كان وجوده الذاتي؟ وإن كانت له بداية فمن الذي أوجده هل العدم المحض أم أن قدرة قادر حكيم أوجدته بعد أن لم يكن؟

قضية الخلق هذه التي شغلت عقل الإنسان عبر العصور هي من القضايا الإيمانية الأساسية لما يتبعها من إيمان بنهاية هذا الكون وإيمان بيوم يحاسب فيه الناس عما قدموه في حياتهم، وهي تتضمن ثلاثة مسائل هامة، الأولى: حكمة الخلق، والتي بينها القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، والثانية: مصدرية الخلق، أو الخالق، وهو الله سبحانه وتعالى كما توضح الآية الكريمة والكثير من الآيات الأخرى، وثالثها: كيفية الخلق، ويشمل ذلك مبدؤه وتجدده، وصريح الآيات يبين أن الإنسان لم يشاهد مبدأ الخلق -خلق الكون أو الإنسان- إذ قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[3]، إذ

---

[1]-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج12، ج25، ص19-20.

[2]-سورة الذاريات، الآية: 56.

[3]-سورة الكهف، الآية: 51.

يعـد الـتفكر فيها والبحث عن كنهها إضاعة للجهد واشتغال عن جوهر القضية الإيمانية إذ هو من الغيـب الذي لا يعلمه إلا الله فالعقل الإنساني مخلوق محدود له عالمه الذي يعمل فيه ومهما بلغ من القـدرة فإن له مستوى معين لا يتعداه، فلا يتجاوز عالم المادة إلى عالم الغيب إلا بالتسليم والإحالة على الإرادة الخالقة[1] المبدعة وإلا عجز تماما عن التعليل والتفسير.

فحين غيب الإنسان هذه الإرادة الخالقة المبدعة في تفسير الوجود واغتر بما وصل إليه في شـأن تعامله مع الكون حصر إيمانه بالمادة والمحسوس وأنكر ما عداها من الحقائق الغيبية وانتهى بـه هـذا الإيمان إلى تفسير الوجود تفسيرا ماديا والقول بأزلية الكون أي أنه أحال الخلق إلى المادة باعتبار أن كل شيء يعود إليها وأن الشيء إذا فني أمامنا فإن مادته لم تفن وكل شيء إذا رأيناه فني فإنه قد عاد إلى مادته الأولى التي لا تفنى.

لكـن السؤال الذي نشأ مباشرة من هذا القول هو من أين جاءت تلك المادة؟ وكانت الإجابة بأنهـا تخلق من العدم، واعترض بعض الملاحدة على فكر الخلق من العدم خشية أن تلزمهم حجة الدين، لكن رحب بها بعضهم، إذ أنها بهذا المعنى الذي يقصد أصحاب النظرية لا تؤيد الإيمان بالله لأنهـا فـي حقيقـتها لا تعـترف بـأن الله هو الخالق، وإنما هي تقول بأن العدم هو الذي يخلقها ويوجدها[2] وعلى هذا لجأ إليها بعضهم لنقض الدين وذلك بتغييب قدرة الله وإرادته، واعتبار أنه لا وجـود إلاّ للمادة وأن العالم لا يقوم دليلا على وجود الله بل هو يؤيد النظرة المادية إلاّ أنّه سرعان مـا جاءت نظرية الانفجار العظيم التي يقول أصحابها بأن الكون اليوم في تباعد مستمر فلا بد أنه كـان فـي يـوم مـا مـتحدا بما يدل على أن للكون بداية[3]، ومزيدا من التوضيح لهذه النظرية، فالفيزيائيون يقولون إنه كلما تقاربت المجرّات وتضامت ازدادت كتلتها فازدادت شدة جاذبيتها، وكلما ازدادت قوة الجاذبية ازداد التلاصق حتى تتلاشى الفراغات بين النجوم المكونة للمجرات، ثم يزداد ضـغط الجاذبية على النجوم نفسها، وهكذا يستمر الضغط حتى تكون كل المادة المكونة للكون في حجـم الذرة، ثم يستمر الضغط إلى ما لا نهاية له فيقل الحجم إلى ما لا نهاية له، أي حتى يصير لا شـيء وبمـا أن الـزمان والمكـان تابعـان للمادة، فإن زوالها يعني أيضا زوال الزمان والمكان المصـاحب لهـا، فعـندما بدأ هذا الكون كان حجم مادته قريبا من الصفر، ثم انفجرت هذه المادة

---

(1)-كريم حسنين: الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، نهضة مصر، القاهرة، ط2، 2002، ص344.

-عـبد العـال سالم مكرم: الفكر الإسلامي بين العقل والوحي، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1، 1402هـ-1982م، ص14.

(2)-جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، كتاب المنتدى، ط1، 1422هـ-2001م.

(3)-روبرت م. أغروس: جورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص100-102.

المضغوطة وتبددت أجزاؤها في صورة إشعاع، ثم تكوّن منه بالتدريج كوننا هذا، فمن الإشعاع الذي ظهـر أولا تكونت المادة ومنها تكونت المجرات، والنجوم والأفلاك بما فيها أرضنا هذه التي نشأت فيها الحياة[1].

هذه النظرية –الانفجار العظيم– أو هذا التطور العلمي دفع ببعض الباحثين في هذا الشأن – وجـود الكـون– إلـى الاعتراف بخالق الكون، بقول أحد الفزيائيين: «ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الـذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقا من العدم، أي إيـداع الإرادة الإلهية للكون من العدم وينتهي [فيزيائي آخر] بعد تفكره في الكون المتمدد، إلى هـذه النتيجة: أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله»[2].

وقـد استغل الماديون نظرية الانفجار العظيم بأن هذا التوسع الذي لا يستمر إلى ما لا نهاية وأنّـه سيعقبه انكماش إلى حد زوال المادة هو دلالة على أزلية المادة إذ أنه في اللحظة التي يقترب فـيها الكون من الصفر سينفجر فيها مرة أخرى وهكذا سيظل الكون في "انكماش" و"انفجار" إلى ما لا نهايـة، لكن أبطلها بعض الباحثين بأن عملية انكماش كبيرة واحدة من شأنها أن تنهي الكون إلى الأبـد، إذ في حصول انهيار في الجاذبية في نهاية الانكماش سيقضي على المادة أو على الكون إلى الأبد[3].

لا نريد من خلال هذا العرض أن نستوثق كل الوثوق بنتائج مشاهداتنا فما أخبرنا به الوحي الصـادق هو الأساس، لكن نود بيان التناقضات التي وقع فيها الإنسان منذ القديم حين انحرف عن مـنهج التوحيد، فرغم ما يبدو من أن العلم تراكمات ينبني بعضه على بعض لكن مظهر الانحراف فـيه ظهر بشكل جلي ونتائج بحوث الإنسان غير مستقرة فهي متغيرة من وقت لآخر من جيل إلى جيل، وفرق شاسع بين الحقائق التي في الواقع وبين تفسير الإنسان لها، فالحقائق الحسية التي توسع الإنسـان في إخضاعها لتجاربه وملاحظاته، وطور في أساليب التعامل معها، ووضع كل ثقته فيها لتفسـر الوجـود رغـم كونها مختبرة فإنها تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، إذ تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات، ونتائجها اجتهادية وقابلة

---

[1]–جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، ص87–88.

[2]–روبرت .م، أغروس، جورج.ن ستانسو: العلم في منظوره الجديد، ص64.

[3]–المرجع نفسه، ص63.

للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائية، وهي لذلك تفرض على المشتغلين بها تقييد النتائج وإخضاعها إلى الاختبار والتحقيق، وتعتبر الخبرة الشخصية المحك النهائي والملاذ الأخير التي تختبر به جميع الحقائق والنظريات، هذا هو شأن التحقيق العلمي فيما يخضع للتجربة والاختبار فهو يعتمد على التسليم بالنتائج السابقة لأن الحياة لا تتسع والظروف لا تسمح لكي يقوم الإنسان بإجراء كل تجربة بنفسه[1].

ثم إننا إذا رجعنا إلى خطوات العمل العلمي أو منهج العمل العلمي، فإننا نجده يمر بمرحلتين: الأولى يستخدم فيها الاستدلال الاستقرائي يكشف به عن الأسباب والمسببات، ويتوصل بها إلى صياغة القوانين العامة التي تخضع لها الموجودات، والثانية يستخدم فيها تفكيرا عقليا أساسه الاستدلال القياسي[2]، الذي ينبني عليه إيمانه وتصوره.

أي أن المرحلة الأخيرة التي تحدد التصور أو الفكرة عن النتيجة هي عمل عقلي بحت، فالعقل هو الذي يقوم بالتفسير الفلسفي لتلك الحقائق والتجارب. وإضافة المعارف العقلية إليها فالتجربة في كل قضية نقطة الانطلاق، وهي مع ذلك بحاجة إلى تفسير عقلي، لنستنتج منها الحقيقة الفلسفية أو العلمية[3] وهي –المرحلة الأخيرة– تخضع للعقل الذي يقوم بتفسيرها أي لمدى تمسك الشخص والتزامه بالمنهج العلمي الحقيقي الذي يفرض الموضوعية على صاحبه ولهذا اختلفت التصورات للوجود تبعا لاختلاف العقول التي تحملها.

ومن هنا تبرز أهمية المبادئ الفطرية –والتي بينا حقيقتها وطبيعتها في الفصل السابق– التي تكون العقل إذ أنها في حقيقتها تعطي العقل القدرة على العمل الموضوعي والكشف عن الواقع بموضوعه. وهذا ما يعطي القيمة للاستدلال والبرهان الذي يعطي القيمة للأفكار المكتسبة التي تشكل العقل وتكمل تكوينه، كما أن للمكتسب من المعارف –والذي يشكله الإنسان بتوجهه وسعيه سواء خلال مرحلة التنشئة الأولى والتي تتدخل فيها عوامل كثيرة كالوالدين والمجتمع أو بعدها حين يصل الإنسان إلى مرحلة الاعتماد على النفس ومباشرة شؤونه بنفسه –الدور الكبير في صدق التوجه لطلب الحقيقة أو عدمه، كما أن هذا التوجه مهما كان صادقا فإنه لا يستطيع أن يصل إلى اليقين عن الحقائق الغيبية التي لا تخضع للحس والتجربة، فالوجود لا يقتصر على المشاهدة،

---

(1)–جون كلوفر مونسينا: الله يتجلى في عصر العلم، ص35، 157–158.

(2)–أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: الإنسان والكون في القرآن، دار الثقافة، دط، 1995، ص39.

(3)–محمد باقر الصدر: فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط15، 1410هـ–1989م، ص185–187.

والأجهـزة التجريبـية مهمـا تطورت لن تستطيع رصد كل شيء، ولا معرفة كنه وحقيقة كل ما ترصـده، لذا استنجد العلماء بالمنهج الاستنباطي الذي يعد مصدر القوة في العلم الحديث رغم أنه لا يسلم من الفرضيات والتفسير الشخصي، فنحن لا نستطيع أن نشاهد كل الحقائق في عالم الشهادة أو عـالم الغيـب بـل جل ما نستطيعه هو استنباط الحقائق الكامنة بدراسة ومشاهدة الأشياء الظاهرة، ولذلـك يلجأ العلماء إلى افتراض ما لا يشاهدونه حتى يتمكنوا من تعليل الوقائع المشاهدة، كما أنهم بهذا لم يستطيعوا إنكار آثار غيبيات المادة وغيبيات الغيب، واعترف كثير منهم بأنها السبيل الوحيد للنجاح في المختبر وهم يعترفون بأن عالم الشهادة نفسه معلق على الإنسان فما بالك بعالم الغيب[1] ولهـذا فإن كثيرا من المعلومات التي يحتاج إليها الإنسان في حياته ويسلم بصحتها لا بد أن يتقبلها ويؤمن بها إيمانا يقوم على التسليم بصحتها وليس معنى ذلك أنه إيمان أعمى، فهو إيمان يسمح بأن يوضـع علـى محك الاختبار في شتى مواضيعه فيزداد ذلك قوة وتدعيما[2] وعلى هذا فإن الإيمان والتسليم لازم لاكتمال تصور الإنسان للوجود ولولاه لما وصل الإنسان إلى التطور العلمي المعاصر وعـدم اسـتقرار العلـم في نتائجه -إذ تصبح النتيجة بمثابة فروض ينطلق منها الباحث لمواصلة اكتشـافه -اسـتدلالاته- لدلـيل على هذا العجز، وتبقى النظريات والقوانين -مهما كانت فائدتها- خاضعة للمحك، وتعد باطلة وتلقى جانبا إذا قام دليل من حقائق الطبيعة على بطلانها.

وإن الكـون يضـطر الباحث والناظر فيه إلى الاعتراف بقدرة الله تعالى سواء كان النظر مباشـرا بإلقـاء النظر في مظاهر القدرة كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث استدل على بطلان عبادتها بخضـوعها لنظام الكون العام وسننه، وقد عبر عنه القرآن الكريم بالأفول فقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[3]. أو بالتعمق بالبحث فـي المختـبر، إلا أن الإنسان لم يشأ أن يعترف بعجز قدرته وضعفه أمام الخالق وأبى إلا أن يكفر فكانت نتيجة إبائه أن زاد في كفره وطغيانه.

فالاعـتقاد في قدرة الإنسان وفي ذكائه وفكره وتدبيره بأنها أعلى مراتب الذكاء والتدبير في الوجود وأنه لا يخفى عليه شيء في هذا الكون هو ما جره إلى استبعاد الغيب.

ولقـد تشابهت قلوب هؤلاء المنحرفين فقول العلماء المحدثين بأن العدم يخلق ويوجد وليس

---

[1]-صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص196-197.

[2]-جون كلوفر مونسيما: الله يتجلى في عصر العلم، ص35، 157-158.

[3]-سورة الأنعام، الآيات: 77-79.

الله وأن هـذا الشـيء المخلـوق من العدم لابد أنه قد سبقه شيء خلقه لكنه غير الله هو شبيه يقول القائل: هذا الله خلق كل شيء فمن خلق الله؟[1].

فتغيب الغيب عند هؤلاء في مجال بحوثهم أدى بهم إلى تناقضات داخلية في فكرهم، خاصة حين اصطدم بحقائق الكون التي يسير عليها، فهذا الجانب –الغيبي– له من الأهمية ما يفوق تصور هـؤلاء الملحديـن، فحين لم يؤصل للعلاقة التي تربط الإنسان بالغيب وبالموجودات، كانت النتيجة هـي الانفصـام القائل باستحالة الربط، وهو ما يدفع إلى الانتقائية للتبرير الذي يغيب الحقائق التي تصادم النتائج.

لقـد اضطر الإنسان أمام حقيقة الخلق، إلى التسليم بكثير من الحقائق التي تواجهه، وأدى به إنكارهـا إلـى الاصـطدام بها وإلى الهروب بتأويلات وتفسيرات، سرعان ما يكشف بطلانها أمام الحقائق.

كمـا اضطرته هذه القضية إلى إدراك أنه لا ينفع مجرد الإيمان بوجود إله، بل التوحيد هو الـذي يقضـي علـى كل تلك التناقضات ويسلم الإنسان إلى المنهج السليم، ذلك حين يضطره إلى الصـدق فـي بحوثـه وتفسيراته، والتسليم لله فيما لا قدرة له به ولا علم، فيتجه إلى عالم الشهادة بتوجيه من القرآن الذي دعانا إلى استقراء آياته في الكون، لكي نثبت إيماننا ولكي نستدل دائما على أنه الحق[2].

فضوابط البحث في الكون كما قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]. هو الإيمان بأن الوجود كله مخلوق لله تعـالى، كمـا أخبر في كتابه الكريم، أما البحث عن سبق هذا الكون بمخلوقات أخرى وغيرها مما يطرحه المضللون عن الحقيقة القرآنية، فنحن لم نر بأعيننا رؤية حس، بل علمنا بعلم تعجز الرؤية البصـرية عن تحقيقه، قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[4]. وهو علم زودنا به القرآن الكريم، وهو الخبر الصادق المعجز، فأعلمنا عـن بداية نشأة الكون بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

---

[1]–جعفر إدريس، الفيزياء ووجود الخالق، ص122.

[2]–تدخـل أحمـد فـؤاد باشا في ندوة لمناقشة مؤلف: أبو القاسم حاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، دار الهادي، بيروت، ط1، 1424هـ–2003م، ص283.

[3]–سورة العنكبوت، الآية: 20.

[4]–سورة الكهف، الآية: 51.

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وعن بعض أصوله كما قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2]، لكن يبقى موقف الإنسان عاجزا خارج هذه الدلالات، وما أتى به العلماء من نظريات فهي تبقى نظريات علمية لا ترتقي إلى الحق إلا ما كانت دلالاتها لا تخالف دلالات الآيات القرآنية، كما هو الشأن بالنسبة لنظرية الانفجار العظيم فإن البحوث لا زالت جارية لأجل التأكد من صحتها، وعلى كل فإن دلالتها عن بداية نشأة الكون وعدم أزليته لا تخالف المعاني الواردة في القرآن الكريم في شأن بداية الكون، وأما البحث الذي يمتد إلى ما قبل الخلق وكيفيته فعلمه عند الله وهو مما لا يضر تركه شيئا بل يصبح الخطأ في تقديره وكشف حقيقته رجما بالغيب.

وإعطاء قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]. دلالة بداية نشأة السماوات والأرض لا يخالف دلالة الآيات الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[4]. وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[5].

كما لا يخالف ولا يلغي المعنى الوارد عند بعض المفسرين وهو القول بأن السماء كانت لا تمطر والأرض لا تنبت (ففتقنا هما) أي جعلنا الأولى تمطر والثانية تنبت[6] وتفسير ابن كثير يجمع المعنيين بأنهما كانتا موحدتين ففصلهما ثم جعل السماء تمطر بعد أن كانت لا تمطر والأرض تنبت

---

(1)-سورة الأنبياء، الآية: 30.

(2)-سورة فصلت، الآية: 11.

(3)-سورة الأنبياء، الآية: 30.

(4)-سورة فصلت، الآية: 11.

(5)-سورة الأنبياء، الآية: 104.

(6)-محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن وبهامشه: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الفكر، بيروت، دط، 1398هـ-1978م، مج7، ج17، ص16-17.

-محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي: البحر المحيط، دار الفكر، دم، ط2، 1403هـ-1983م، ج6 ص307.

-أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الحق محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ-1993م، ج4، ص80.

بعد أن كانت لا تنبت[1] على أن الرأي الغالب هو أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة أي متحدتين ففصل الله بينهما وخلق منهما السماوات والأرض وما بينهما[2]، وابن عاشور يجعل الآية تحتمل جميع معاني الرتق والفتق فيقول بعد أن فصل بينهما: «والظاهر أن الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعهما جميعا، فتكون الآية قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس وكل عبرة خاصة بأهل النظر والعلم فتكون من معجزات القرآن العلمية التي أشرنا إليها في مقدمات هذا التفسير»[3].

فالقرآن الكريم يوجه الإنسان إلى النظر في دلالات الخلق على وحدانيته كما قال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

ودلالات الخلق أكثر من أن تحصى، ولما كان كل شيء في هذا الكون ينبئ بمخلوقيته لله تعالى، حاول المنكرون تلبيس هذه الحقيقة بإرجاعه إلى أصله الأول، وهو المادة لكن أبت المادة في المختبر إلا أن تعترف بقصورها عن الفعل الإنشائي، وذلك لكونها قابلة للفناء، وهي الحقيقة التي كشفها العلم الحديث حين انتهى إلى نظرية الانفجار العظيم، والتي كشفت بل أثبتت عجز الإنسان ومنه اعترافه بسبب فوق حدود المادة ترجع إليه عملية الخلق الأول التي أوجدت المادة بعد أن لم تكن شيئا كما ترجع إليه جميع صوره وأشكاله التي تتجلى في مظاهر الكون المتعددة والتي دلت كلها على قصورها عن الفعل الذاتي، وعلى هذا جاء التأكيد على هذه القضية في العديد من آيات القرآن الكريم، وكلها تؤكد عملية الخلق لله تعالى وحده، وتنفي أن يكون لغير الله سبحانه وتعالى القدرة على فعل شيء من ذلك وقد وردت هذه اللفظة في القرآن 265 مرة منها 7 آيات في سورة الأنعام أكد في آيتين خلقه لكل شيء بقوله: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[5]. وفي آية منها نفي شركة الجن له التي ادعاها المشركون وأكد مخلوقيتها

---

(1)-أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـ-1981م، مج2، ص506.

(2)-وهو ما أورده أغلب المفسرين ورجحه فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، مج11، ج22، ص162-163.

(3)-محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج17، ص42.

(4)-سورة العنكبوت، الآية: 20

(5)-سورة الأنعام، الآيتان: 101-102

بقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾[1].

وفي آيتين خلقه للسماوات والأرض بقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾[3].

وفي آيتين خلقه للإنسان بقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ...﴾[4]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5].

والمتدبر في آيات الخلق الواردة في هذه السورة يلحظ الإشارة إلى مخلوقية ما وراء المادة بقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[6]. وقوله: ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[7]. وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾[8]. وهذه الحقيقة التي أشار إليها تكفي الإنسان شر التأويلات والتفسيرات الباطلة التي وقع فيها حين أراد إنكار غيبيات المادة في المختبر، كما تكفيه خطر ما لا يدركه من شرور الجن والشياطين التي تحاول تضليله عن الحقيقة.

فخلال هذه الإشارة ربط بين الحقائق الكونية وبين الإيمان بالله الخالق، الواحد الأحد، لأن عقيدة التوحيد تقوم على أساس من الحق الذي قامت به السموات والأرض، وكل ما فيهما من صور الخلق، وعلى هذا كان كل ما في الكون ينبئ بمخلوقيته لله تعالى، كما ينبئ بوحدانيته تعالى، كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾[9].

ولهذا فإن البحث من أجل إدراك حقيقة الخلق كما قال تعالى: ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[10]. لا يتنافى مع التوحيد لأنه بحث في حدود المادة للتسليم بما وراءها، ففي الكون من الشواهد الحسية ما يمكن الإنسان من كشف حقيقة الخلق وفي القرآن الكريم ما يعين الإنسان على السير

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 100

(2)-سورة الأنعام، الآية: 1.

(3)-سورة الأنعام، الآية: 73.

(4)-سورة الأنعام، الآية: 2

(5)-سورة الأنعام، الآية: 94.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 101.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 101.

(8)-سورة الأنعام، الآية: 100.

(9)-سورة الأنعام، الآية: 73.

(10)-سورة العنكبوت، الآية: 20.

السليم والإدراك الصحيح، كما قال: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[1].

وهي إشارة إلى حقيقة كونية وتعليم الإنسان بأن الكون كله مليء بالغيوب، وأن مفاتيحها بيد الله تعالى وحده.

ومن الحقائق التي أشارت إليها سورة الأنعام هي خلق السموات والأرض: فقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...﴾[2]. وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3]. وهما من أعظم دلائل القدرة الإلهية المبدعة، والآيات القرآنية تبين بأنهما أول ما خلق من الكون لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ...﴾[5].

وقوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[6].

ثم من تكون السماء بكواكبها ونجومها بما فيها المجموعة الشمسية كان الليل والنهار وهما من نتائج دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس ومنذ بداية خلق الكون بدأ الزمن والحساب الذي عهده الناس، وهو مخلوق تابع لخلق السماوات والأرض بدأ ببدايتها وينتهي بنهايتها، وهذه الحقيقة القرآنية أشار إليها العلماء الذين كشفوا نظرية الانفجار العظيم في بداية الخلق.

وعلى هذا فإنه يختلف عن الحساب الذي يعلمه الله والذي يقدر به الآجال ومدة العقاب

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 59.

[2]-سورة الأنعام، الآيتان: 1-2.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 73.

[4]-سورة الأنبياء، الآية: 30.

[5]-سورة فصلت، الآية: 11.

[6]-سورة فصلت، الآيات 9-12.

وغيرها لقوله: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

وقوله: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2].

وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[3].

فمدلـول لفظـة "يوم" عند الإنسان وهو الناتج عن بداية الكون وبداية حركته[4] يختلف عن مدلـول لفظة "يوم" عند الله تعالى والذي لا يعلم **هداه** إلاّ الله ولكي يقرب الله سبحانه وتعالى مدلول الآيات، قارنها بعدد سنينها مضافا إليها الوصف القرآني: ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[5].

فإشارات القرآن الكريم إلى هذه الحقائق تبين مخلوقيتها لله تعالى وتبين ارتباط كل ظاهرة بغيرها وتشكلها من الأخرى، وتبين بأن كل ظاهرة لا تستقل في أداء دورها في الكون بل تسند أمر حدوثهـا وتكونهـا إلى الله تعالى، وهو ما كشفه الإنسان في بحثه في الكون إذ أكدت له حقائق هذه الظواهـر بـأنّ تشـكل كـل ظاهرة يعود إلى التي تسبقها كما هو الحال في حدوث الليل والنهار وعلاقـتها بالأرض والشمس والسموات، وهذه الحقائق قادت الإنسان إلى كشف حقيقة أن كل حادثة أو ظاهرة من هذه الظواهر هي مخلوقة.

و من هذه الظواهر الكونية:

1-خلـق الحب و النوى و إخراج الحي من الميت و الميت من الحي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ....﴾[6].

فإنـبات النـبات وإحـياء الأرض بعد موتها يجتمع في تكوينها أو حدوثها: الماء، الضوء، وتربة الأرض، ولتربة الأرض العناصر التي تكونها منها الداخلية، و منها ما يكونه النبات نفسه بعد أن يصـير حطاما، و أيضا غبار النجوم المحترقة في جو السماء وغيرها وكذا الماء و خاصة ماء

---

[1]-سورة الحج، الآية: 47.

[2]-سورة المعارج، الآية: 4

[3]-سورة السجدة، الآية: 5.

[4]-روبـرت م أغروس، جورج ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ص64،60 ، وتفصيل مراحل خلق الكون عـند كـل مـن الفلكيين والفزيائيين، زغلول راغب محمد النجار: السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1425، 2004، ص128.

[5]-سورة السجدة، الآية: 4.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 95.

المطر وهو ظاهرة يجتمع أيضا في تشكيلها عدة عوامل[1]:

2-خلق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر للحساب وذلك في قوله: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا...﴾[2].

3-خلق النجوم وجعلها للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، وذلك في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[3].

4-خلق الماء وإنزاله من السماء وإنبات النبات به، واختلاف النبات الذي يسقى بهذا الماء، وذلك في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ...﴾[4].

وكذا إنشاء الجنات -النباتات بما فيها الأشجار- المعروشات وغير المعروشات كما في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾[5].

5-خلق الأنعام والدواب والطيور وفيها من الدلائل ما لا يحصى، وذلك في قوله: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[6]. ولقد كشف العلماء أن حياة الحيوان حياة اجتماعية تربطها صلات وعلاقات، وأن أسلوب حياتها لا يختلف عن البشر حتى أن منها من تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنحل والنمل[7] وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[8].

---

(1)-انظر مثلا: قانون البرق والمطر: عبد العليم عبد الرحمن خضر: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عالم المعرفة، دم، دط، دت، ص255. وتفصيلها في كتابه: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، الدار السعودية، الرياض، ط2، 1405هـ-1985م، ص19-26. وكتابه المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية، الرياض، ط1، 1404هـ-1984م، ص191-193، 1997-206، 351 وما بعدها.

(2)-سورة الأنعام، الآية:96.

(3)-سورة الأنعام، الآية: 97.

(4)-سورة الأنعام، الآية: 99.

(5)-سورة الأنعام، الآية: 141.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 38.

(7)-عبد الله بن عبد القادر التليدي: دلائل التوحيد انطلاقا من القرآن والكون، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م، ص82.

-الألوسي: روح المعاني، مج4، ج7، ص136.

-الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج7، ص187.

(8)-سورة الأنعام، الآية: 142.

وستتضح لنا بعض الحقائق عن هذه الظواهر من خلال المطلب الآتي:

المطلب الثالث: دلائل النظام والتسخير

الحقيقة التي لم يستطع الإنسان إنكارها ولم يستطع أن يكابر فيها ويعلن بطلانها هي حقيقة النظام والسنن والنواميس التي يسير عليها الكون، إذ لو أعلن ذلك لقضى على أهم حجة يبرر بها تصوراته وتفكيره وتفسيره للوجود، فهي أساس بحوثهم واكتشافاتهم، ولولاها لما وصلوا إلى نتيجة تذكر، فأساس الطريقة العلمية أو خطوات العمل العلمي كما هي معروفة عند المشتغلين بها هي أن «يلاحظ العالم أولا بعض الظواهر التي يقع عليها اختياره ويسجلها، وقد تتم هذه الملاحظة دون تأثير في الظاهرة نفسها... كما في دراسة الفلك أو مع شيء من التحكم في العوامل المؤثرة، كما في تجارب المعمل ثم يربط العالم بين ملاحظاته والملاحظات والنتائج التي حصل عليها غيره من العلماء السابقين لكي يحصل على نتائج أو فروض جديدة، وتتوقف هذه العملية على الاستنباط أكثر من توقفها على القياس، لأن النتائج أو الفروض التي يصل إليها العقل بهذه الطريقة تتناول أكثر مما يستطيع أن تصل إليه الملاحظة، فهي بذلك نوع من التنبؤ، و[...] إذا أراد العالم أن يختبر صحة فروضه أو نتائجه فإنّ عليه أن يحصل على ملاحظات إضافية جديدة لكي يستوثق بها من صحة التنبؤات التي صاغها، ومجمل القول أنّ الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا الانتظام ونستطيع أن نقول بكل دقة إن هذا الانتظام في ظواهر الكون والقدرة على التنبؤ بها [...] هما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية»[1].

ويقول دونالد روبرت كار[2]: «أما مبدأ الانتظام، فيعتبر من البديهيات في علم الجيولوجيا وينص هذا المبدأ على أن جميع العمليات الجيولوجية والكيموية الجيولوجية التي تعمل الآن، كانت تعمل أيضا في الماضي وعلى ذلك فإن فهمنا لهذه العمليات يعيننا على تفسير التاريخ الجيولوجي، فانتظام الكون ووجود القوانين الطبيعية، هما أساس العلم الحديث»[3].

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون على حقيقة التوازن والإحكام والدقة والانتظام كما قال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ...﴾[4]. وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي

---

(1)-جون كلوفر مونيسما: الله يتجلى في عصر العلم، ص51.

(2)-أستاذ الكيمياء الجيولوجية، وأستاذ مساعد بكلية ملتون، أخصائي في تقدير الأعمال الجيولوجية باستخدامه الإشعاعات الطبية، جون كلوفر مونسيا: الله يتجلى في عصر العلم، ص107.

(3)-المرجع نفسه، ص109.

(4)-سورة الملك، الآية: 3.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ... ﴾[1].

فالحق الذي قامت عليه السماوات والأرض هو: "اللاتفاوت" لأنه من تقدير الله سبحانه وتعالى الذي له كمال الصفات، وقد لفت القرآن الكريم إلى هذا التقدير الحكيم في الكثير من الآيات ليدلل على الإرادة والقصد منه سبحانه وتعالى في إنشاء هذا النظام وينفي عنه صفة العبث واللهو.

والمتدبر في دلالات آيات الآفاق يلحظ الربط المقصود بين مظاهر النظام والتقدير الحكيم، وبين تسخيرها للإنسان كما في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فمظاهر النظام والتوازن ظاهرة جلية، وكذا الانتفاع بها لا ينكره أحد، وعلى هذا جاء التذكير بالربط بينها، ليبين للإنسان حقيقة القصد والتقدير الحكيم، وخلال هذا البيان يلفت إلى حقيقة وحدانيته تعالى والتي يدل عليها هذا النظام المقصود، كما في قوله بعد هذا الربط بين مظاهر النظام والتسخير: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3]، وكما في قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]. وقوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾[5].

وسنختار بعضا من هذه الدلائل الواردة في السورة -سورة الأنعام- على أن الاختيار يكون على حسب الدلالة العامة للآية، فحقيقة "السماوات والأرض" الواردة في أول السورة وكذا حقيقة الدواب والأنعام الواردة في قوله تعالى فيها: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ... ﴾[6]. وقوله: ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا...﴾[7]. فيها من الدلائل ما لا يسعه المقام.

وعلى هذا نختار بعضا من الأسماء في السورة ثم نجمل بيان دلالتها على الوحدانية.

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 73.

[2]-سورة الأنعام، الآيتان: 96-97.

[3]-سورة الأنعام، الآيتان: 101-103.

[4]-سورة الأنبياء، الآية: 22.

[5]-سورة المؤمنون، الآية: 91.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 38.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 142.

أولا: الأرض

وردت الإشارة إلى الأرض في القرآن الكريم بما يدل على تذليلها وتسخيرها وتهيئتها للإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. وقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[3]. وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾[4]. وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[5].

وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾[6]. وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[7].

فالمستقبر في هذه الآيات يقف على دلالات التسخير القائم على النظام، وقد ورد التعبير عنه إمّا بلفظه "سخر" أو بقوله "جعل لكم" بما يفيد أنها للإنسان وهذا اللفظ يأتي مقرونا بالإشارة أو التقدير المحكم كما في قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾. أو بألفاظ أخرى مثل "مددناها" في قوله: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. و"فرشناها" في قوله: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾. و"سطحت" كما في قوله: ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

ومظاهر تهيئة الأرض وتسخيرها عديدة منها مدّها وبسطها وتذليلها للإنسان كما أشارت إليه الآيات السابقة، وعلى رغم صغرها من حيث الحجم أو الكتلة فإنها تحمل من الآيات ما يعجز الإنسان عن حصرها.

---

(1)-سورة البقرة، الآيتان: 35-36.

(2)-سورة البقرة، الآيتان: 21-22.

(3)-سورة الملك، الآية: 15.

(4)-سورة الحج، الآية: 65.

(5)-سورة الجاثية، الآية: 13.

(6)-سورة ق، الآية: 7

(7)-سورة الذاريات، الآية: 48.

هـذا فـيما كشفه الإنسان أما ما لم يكشفه إلى الآن فعلمه عند الله تعالى فقد تهيأت لاستقبال الحـياة والتي تتطلب لتوفيرها في غيرها من الكواكب قدرة الله وأمره بـ"كن" فله الملك والأمر وله الإرادة والمشـيئة والتصـرف والتدبير، ولا يملك الإنسان إزاءها إلا الخشوع أمام عظمته والسجود حمـدا وثناء كما قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[2].

ومـن مظاهر التهيئة الكاملة والتسخير، شكلها شبه الكروي[3] ودورانها حول نفسها وحول الشـمس في نظام المجموعة الشمسية فقد ساهم ذلك في تسهيل الحياة للكائنات الحية وللإنسان بصفة خاصـة، فما ينتج عن هذه المظاهر من الليل والنهار والفصول الأربعة، والحساب هو من أعظم ما سـهل علـى الإنسان حياته عليها، بالإضافة إلى دور الجاذبية الأرضية، وكذا طبقاتها الجيولوجية والتـي تسـاهم مـع الجبال في تماسك الأرض وتوازنهـا كمـا قال تعالـى: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾[4].

وكـذا تميز سطحها وتهيئته لاستقبال الحياة، وقد سخر الله تعالى عوامل عدة لتهيئة سطحها فمنها الرياح والأمطار وجريان الأنهار واختلاف تربتها باختلاف مكوناتها ومما جعلها سخية كريمة تجـود بمخـتلف الـثمار والنـباتات[5] كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا...﴾[6].

فقد كان خلق الكون وفق تقدير حكيم يجعل من الصعب تصور انعدام التكامل المقصود بين مظاهـره، فقد حدد كل شيء وأعطاه أوصافه حسب قوانين الفطرة وسنن الكون الشاملة، وجعل له رتـبة وجوديـة معيـنة[7] كما قال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 1

(2)-سورة الذاريات، الآية: 20.

(3)-عبد العليم عبد الرحمان خضر: المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، ص263.

(4)-سورة النمل، الآية: 61.

(5)-عبد العليم عبد الرحمان خضر: المرجع السابق، ص309، 517، 351، 424.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 99.

(7)-عبد العليم عبد الرحمان خضر: المرجع السابق، ص249.

وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].وقال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3].

ومن أهم المظاهر الكونية التي تنشأ عن توازن الكون الدقيق وسيره على نفس السنن منذ ملايين السنين، ظاهرة الليل والنهار والذي ينتج عن حركة الأرض الدورانية حول الشمس.

ثانيا: الشمس والقمر

والبحث في شؤون الشمس والقمر يمثل التعامل مع أكبر مرئيين وأكثر ما في السماء وضوحا للعين البشرية، ولقد لخص القرآن الكريم بإعجاز حقيقة التقدير والنظام الذي يسير عليها كل من الشمس والقمر فقال: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[4].

فقدرة الله المعجزة التي جعلت من الشيء الواحد شيئين مختلفين يعقب أحدهما الآخر ويخرج أحدهما من الآخر بسبب الحركة الدورانية للأرض حول محورها وحول الشمس فبداية النهار –الفجر– تخالطه الظلمة ثم شيئا فشيئا حتى تغيب تلك الظلمة وتظهر آية النهار مبصرة، وكذا حين ذهاب النهار وحلول الليل فإن ذلك التدرج في ذهاب النهار وحلول الليل وذهاب الليل وحلول النهار من التقدير الحكيم الذي خلق عليه هذا الكون، وهذا التقدير يمنع أي خلل أو فوضى فله دلالة عميقة على النظام والتدبير والإحكام فالتواصل أو إدراك الشمس للقمر الذي ينفي النظام نفاه قوله: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. فكان الاتصال الضوئي والجذبي الحركي على مسافة مقدرة بدقة ونظام موضوع بدقة أكبر من خلال كلمة فلك نفسها "كل في فلك يسبحون"، فهذا النظام ينفي سبق الليل النهار الذي يدل على اختلال ما، وتغييرا ما في حركة الأرض، ولما كانت هذه الحركة تسير وفق سنة واحدة ثابتة، فإن من المستحيل، تلقائيا، أن يسبق حدث حدثا آخر في ظله ومنه استباق الليل النهار فهي سنة يسير عليها الكون فلا تقديم ولا تأخير، ومن هنا فإن اقتران الشمس بالقمر له نظير في اقتران الليل والنهار من

---

[1]–سورة فصلت، الآيات: 9-12.

[2]–سورة القمر، الآية: 49.

[3]–سورة الفرقان، الآية: 2.

[4]–سورة يس، الآيات: 37–40.

حيث "الوظيفة" وخضوعهماللنظام الذي يسير عليه الكون[1].

ولقد جاء التعبير القرآني عن هذا النظام والتوازن والتقدير الحكيم الذي يربط الأرض بالشمس وبالمجموعة الشمسية بغشيان كل من الليل والنهار للآخر، واختلافهما وتقلبهما وولوج كل منهما في الآخر، وسلخ النهار من الليل، وبمرور الجبال مر السحاب[2].

فعن غشيان الليل والنهار يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

وعن اختلاف كل من الليل والنهار يقول: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[5].

ويقول أيضا: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[6].

ويقول أيضا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[7].

وعن تقليب الليل والنهار يقول: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[8].

وعن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل يقول:

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

---

(1)-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص167-168.

(2)-حميد مجول النعيمي: الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، الدار العربية للعلوم، مكتبة الرائد، بيروت، الأردن، ط1، 1421هـ-2000م، ص69-71.

(3)-سورة الأعراف، الآية: 54.

(4)-سورة الرعد، الآية: 3.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 190.

(6)-سورة يونس، الآية: 6.

(7)-سورة المؤمنون، الآية: 80.

(8)-سورة النور، الآية: 44.

وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وعن سلخ النهار من الليل يقول:﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾[2].

وعن سبح كل من الليل والنهار يقول أيضا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3].

وعن تكوير الليل على النهار والنهار على الليل يقول: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ...﴾[4].

كما يلفت إلى عظمة هذا التقدير بطريق القسم: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا.وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾[5].

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى.وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[6].

وبالامتنان يعظم هذه النعمة ليذكر الإنسان بالتوحيد: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7].

ويقول: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[8].

إن كل هذه الإشارات القرآنية إلى آية الليل والنهار يلفت الإنسان إلى حقيقتها فهذا الاختلاف والتناقض في الشكل والتكامل في الطول لم يكن لذاته، بل لغايات أخرى تتعلق ببيولوجيا الإنسان والحيوان والنبات على الأرض واستمرار حياة كل منهم بانتظام وعافية، فللكائن الحي حاجة لليل والنهار معا، وهو لا يستطيع العيش في نهار دائم -سرمدي- ولا ليل دائم -سرمدي-، ورغم أن تكون الليل والنهار على الأرض له مثيل بين الكواكب، إلاّ أنهما على الأرض وحصرها بمدة

---

[1]-سورة آل عمران، الآية: 27.

[2]-سورة يس، الآية: 37.

[3]-سورة الأنبياء، الآية: 33.

[4]-سورة الزمر، الآية: 5.

[5]-سورة الشمس، الآيات: 1-4.

[6]-سورة الليل، الآيتان: 1-2.

[7]-سورة القصص، الآيات: 71-73.

[8]-سورة الأنعام، الآية: 96.

قياسية (24 ساعة) جعل من التوازن البيئي والحياتي على الأرض أفضل ظرف لنمو الحضارات وتقدم الإنسان، فمقارنة مع الأرض فإن الزمن الدوراني للكواكب الأخرى يطول أو يقصر، فاليوم يتراوح من (6,15) أيام كما هو في كوكب بلوتو، إلى (243,2) يوم كما هو في كوكب الزهرة، كما يتراوح من (9,84) ساعة كما هو في المشتري إلى (18,1) ساعة كما في نبتون، ومن هنا فإن آية الليل والنهار في الأرض ليس مثلها آية في الكواكب على الإطلاق[1].

وعلى هذا جاءت الإشارة في أول سورة الأنعام إلى الثناء على الله تعالى وتوجيه الإنسان إلى حمده وعبادته بقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[2]. فمن رحمة الله بنا أن جعل الظلمات والنور، فالكون كله ظلام وما يبدّد هذا الظلام على وجه الأرض هو ضوء الشمس ونور القمر، وللنجوم نور في تبديد ظلمة الليل الشديدة.

ولما كان ضوء النجوم في غالبيته غير مرئي تعددت الظلمات في كوننا على النحو التالي:

1-الظلمة الأولية للكون: وهي التي كانت قبل خلقه لأنه لم تكن شمس ولا قمر ولا نجوم.

2-الظلمة الحالية للكون: ذلك لأن أغلب ما ترسله النجوم من أضواء غير مرئية كما أن حقيقة النهار لا تتجلى إلا في طبقة النهار وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس لا يتعدى سمكه مائتي كيلومتر، وفيه يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار وقطيرات الماء، وجزئيات الهواء، وعند اختلاطها مع بعضها البعض تعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض، وعلى هذا فإن الإنسان إذا تجاوز طبقة النهار فإنه يرى الشمس قرصا أزرقا في صفحة سوداء شديدة الظلام.

3-ظلمة أعماق البحار والمحيطات: ذلك لأنّ أشعة الشمس لا يمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبدا، لأن معظم أشعتها تنعكس بفعل الغلاف الغازي للأرض وبسبب السحب وكذا بفعل الأمواج السطحية، كما تمتص السحب والأمواج السطحية نسبة معتبرة، وعلى هذا فإن المتبقي من أشعتها يتعرض للعديد من عمليات الانكسار والتحلل، وهذا ما يجعل النطاق المضيء من سطح الماء يصل إلى 100 متر تقريبا، ويستمر 1% فقط من هذه الأشعة إلى عمق 150م، و0,01% إلى عمق 200م ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتى يتلاشى تماما على عمق لا يكاد يصل إلى الألف متر تحت مستوى سطح البحر، هذا إذا لم تحل الأمواج الداخلية حيلولة كاملة دون وصول الضوء إلى تلك الأعماق، ويبدأ تكون تلك الأمواج

---

[1]-حميد مجول النعيمي: الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، ص49-54.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 1.

عـل عمق 40متر تقريبا من مستوى سطح البحر، ويصف القرآن الكريم ظلمة قبعان البحار بقوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ... ﴾[1].

4-ظلمات الأرحام

5-ظلمـة القـبر: كنموذج لظلمة كل مكان مغلق في باطن الأرض أو على سطحها ويشبه ظلمة القبر ظلمة الكهوف، والمغائر والمناجم وغيرها[2].

ومما ينتج عن العلاقة المتوازنة والمنتظمة بين الشمس والأرض والقمر، وتعلقت به مصالح الإنسـان: الحساب، وقد أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[3].

فقـد تمكـن الإنسان من تحديد وضبط دورة كل من الأرض والقمر حول الشمس وتقديرها بالسـاعات والدقائق والثواني وفقا لدورة الأرض اليومية حول نفسها، والتي تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثيـن كيلومتر في الدقيقة لتتم دورة كاملة مقداره (24) ساعة (23 ساعة56 دقيقة، 4 ثواني في المتوسـط)، يتقاسـمه الليل والنهار بتفاوت قليل في طول كل منها، وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض علـى مسـتوى مدارهـا حول الشمس، مما ينتج عنه تبادل فصول السنة: الربيع والصيف والخـريف، والشتاء ومن هذه الدورة -دورة الأرض حول الشمس- عدد الأشهر والسنة الشمسية، كمـا حـدد مـن دوران القمر وتطوره في صفحة السماء من الضآلة حتى الاكتمال الأشهر والسنة القمرية، وتتفاوت السنة الشمسية عن القمرية بأيام وذلك لأن الشهر القمري يتراوح ما بين 29 يوما إلـى 30 يومـا ولا يزيد أما الشهر الشمسي فيتراوح ما بين 30 إلى 31 يوما، ورغم أن لكل من الشـمس والقمر مداره الخاص كما قال تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[4]. فإن للقمر تأثير على الغلاف المائي للأرض وهو ما يتسبب في ظاهـرة المـد والجزر، وحينما يبلغ القمر هيئة البدر التمام يزداد تأثيره على سطح الأرض اليابس بنسـبة بسـيطة وعلى البحار بنسبة كبيرة ويصير بذلك المد أعلى من المعتاد ويصبح الحر أقل من المعتاد وهذه الظاهرة تساهم في ضبط مدة دوران الأرض بـ24 ساعة فقط[5].

---

[1]-سورة النور، الآية: 40.

[2]-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص250-253.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 96.

[4]-سورة يس، الآية: 40.

[5]-عبد العليم عبد الرحمن خضر: المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، ص162-163.

ثالثا: النجوم والكواكب

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾[2]، ففي هاتين الآيتين إشارة إلى حقيقتين من الحقائق الكونية وهما مواقع النجوم وحركة الكواكب.

فالاهتداء بالنجوم حقيقة يدركها العامي والمتخصص ولا أحد ينكرها ومنذ القديم فمواقع النجوم تتميز بالتوازن والانسجام والاتساق مما ساعد الناس قديما وحديثا على تحديد الاتجاهات وتحديد المسير ليلا حين تعتم الرؤية وتكاد تظل الغاية.

والنجوم منتشرة في هذا الكون الواسع وهي تختلف في البعد والقرب، فالبعيد منها رغم كونه كبير فإنه يظهر صغير الحجم ونتيجة هذا البعد نراه أقل لمعانا من النجم القريب رغم صغره، فمثلا النجم القطبي يفوق الشمس بلمعانه نحو (1500) مرة ولكنه لا يعد إلا نجما بسبب بعده الهائل حين نراه بالعين من الأرض، وتتولد طاقة النجم الحرارية من التفاعل الذي يحدث في باطنه بفعل الضغط ودرجة الحرارة البالغة الارتفاع وما الشمس إلا نجم متوسط الحجم فهناك نجوم أكبر منها (15) ضعفا وأصغر منها بـ(15) ضعفا، وبالرغم من الكتلة الهائلة للنجوم، فإن هناك عددا هائلا منها وهو ما يقرب من 100 بليون نجم في مجرتها وحدها والتي هي واحدة من الملايين من المجرات أو الجزر الكونية المتناثرة في الكون الواسع وهذه النجوم تعتريها التغيرات كما أن العديد منها انقضى أجله، وهي تختلف عن الكواكب في كونه يشع من الضوء الذي يولده بنفسه[3]، وهو الضوء الأصلي الذي تستمد الكواكب والأقمار نورها منه[4].

وفي عام 1928 تظم علماء الفلك نجوم القبة السماوية في 88 كوكبة لـ(مجموعة) نجمية تغطي جميع أجزاء السماء مع تثبيت مواقعها وتنسيق الحدود المناسبة لها تسهيلا للأرصاد والدراسات الفلكية، ومن المعروف أن كل مجموعة نجمية منها تميزت باسم يجمعها معا وعدد من النجوم يمكن توصيل خطوط وهمية بينهما لتعطي صورة الاسم الذي تمثله كما في الدب الأكبر والدب الأصغر، وهذه الأشكال تبدو ثابتة للراصد في الأرض رغم سرعة حركتها في حقيقة،

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 98.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 76.

(3)-حميد مجول النعيمي: الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، ص122، 126.

(4)-عبد العليم عبد الرحمن خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، ص190.

النظام العام.

ومـــن بين هذه الأشكال والمجموعات "البروج" والبروج كما في التعريف العلمي: كوكبات نجمـــية تزيـــن السماء بصور شتى شاع فيها تعدد الحيوانات وأبطال الأساطير أي أن النجوم تتخذ بعـــض التجمعات الظاهرية، وكل مجموعة متقاربة من النجوم يربطها شكل معين. ويسميه الفلكيون كوكبة نجمية أو تشكيلة نجمية[1].

ولقـــد أثنى الله تعالى على نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾[2]. فهو الذي جعل هذه البروج على الصفة التي هي عليها في السماء وأضفى عليها من الجمال مما منح الإنسان كـــل التصـــورات الجمالـــية والتنبئية التقليدية والمعرفية، حتى إذا انحرف خيال الإنسان عن تصور حقيقتها جاء التنبيه إلى أبعادها الإيمانية ببيان وظيفتها الوجودية والجمالية.

وتعتـــبر هـــذه البروج منازل ذات نظام محكم تمر خلالها الكواكب دون أن يقع صدام بينها وبيـــن النجوم التي تحويها وينشأ عن نظام الحركة التي تربط بين النجوم والكواكب ظاهرة الفصول الأربعـــة ومـــا تتســـم به من تفاوت في الحرارة والبرودة كما توصل البشر عن طريقها إلى معرفة الســـنين والحســـاب وتفصيل كل شيء[3]، وبمعنى آخر جعل الحياة على الأرض منتظمة ومساعدة للمخلوقـــات الحـــية بما فيها الإنسان وإذا تعمق الإنسان في التحديد أكثر وجد أن الشمس والأرض معنيـــتان أكثر بهذا التسخير، وأما غيرها من الكواكب فإن مساهمتها هو من حيث النظام والتوازن مـــع الأرض والشـــمس، فلـــو كانت تلك الكواكب تسير على غير نظام الأرض والشمس لتصورنا الفساد الذي سيحدث نتيجة ذلك كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]. وهي أعظم دلائل الوحدانية.

وكلمـــا أمعـــن الإنســـان في النظر والتدبر في حقيقة هذه النجوم ازداد إيمانه بأنها من خلق وتدبـــير حكـــيم علـــيم. وأدرك أن القول الشائع بأنها من محض الصدفة أو أنها من غير تدبير من الخالق العليم هو وهم وخداع. وكلما تعمقت معرفته بحقيقتها زاد إيمانه وخشوعه وأدرك حقيقة قوله تعـــالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

(1)-حميد مجول النعيمي: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، ص6، 136-137.

(2)-سورة الفرقان، الآية: 61.

(3)-عبد العليم عبد الرحمن خضر: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، ص188-189.

(4)-سورة الأنبياء، الآية: 22.

يَعْقِلُونَ﴾[1]. وسر القسم بهذه المواقع حقيقة قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[2].

رابعا: المطر أو الماء النازل من السماء

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

يساهم في حدوث ظاهرة المطر النظام الذي عليه الكون إذ تجتمع في تشكيله عدة ظواهر كونية، فللشمس الدور الأساسي في تبخر المياه السطحية (المحيطات، البحار، الأنهار، والأودية...) وتعمل الرياح والتي يساهم في حركتها دوران الأرض حول محورها على تعديل درجة الحرارة ولولا هذا الانخفاض لفقدت الأرض كل مائها، كما تعمل على دفع هذا البخار إلى الطبقة الدّنيا من الغلاف الغازي للأرض[4] لتشكل السحب بمساعدة غبار الشهب[5]، وقانون البرق وهو الكهربة الموجودة في ذرات الهواء والتي تساعد على تكاثف بخار الماء عليها في شكل ذرات مائية سحابية مكهربة بنوعي التكهرب الموجب والسالب ولولا وجود هذه الكهربة الجوية لقل تكوين السحاب إلى حد عظيم وبسببه تتجمع قطرات الماء بعضها على بعض ويزداد ثقلها ثم تسقط على صورة مطر وتصحب هذه الظاهرة ظاهرة البرق والرعد[6].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[7]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

[1]-سورة النحل، الآية: 12.

[2]-سورة الواقعة، الآيتان: 75-76.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 99.

[4]-زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص378-379.

[5]-حميد مجول النعيمي: الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، ص346.

[6]-عبد العظيم عبد الرحمن خضر: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ص20-25.

[7]-سورة الروم: الآية: 48-50.

لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1]. وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فبعد تشكل السحاب يساهم الرياح في نقله إلى المكان الذي يأذن فيه الله بنزوله فاصل تكوين المطر وسبب نزوله مناطان بإرادة الله تعالى وأمره، وإلى الآن لم يستطع الإنسان التحكم في هذه الظاهرة لأنها من مشيئة الله وهي من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو كما قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3]. فلا يستطيع الإنسان صرف هذا المطر إلى بلد بعينه ولا رده إلا أن يلجأ إلى الله تعالى بالدعاء والاستسقاء وهذه من أعظم الأسباب التي يقدمها الإنسان لإنقاذ نفسه من الهلاك بسبب غياب ظاهرة المطر وقد قال الله تعالى عن نوح حين دعا قومه لعبادة الله وحده: ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[4].

فقد ربطت هذه الآيات ظاهرة المطر بالغيب للوصول إلى وحدانية الله تعالى وقد عرضتها على مرحلتين الأولى: عرضها للوصول إلى مسألة إحياء الأرض وهي من أجل النعم التي تدعوا إلى شكر الله وتوحيده، والثانية: تقريب تصور البعث وإحياء الموتى بتمثيله بإحياء الأرض بعد موتها والتي لا دخل لبد الإنسان فيها.

والتفسير العلمي لظاهرة المطر يزيد الإنسان خشوعا واطمئنانا إلى قدرة الله وعلمه وحكمته، لا كما يراه المنحرفون بأنها لا علاقة لها بفعل الله، فالكلمات الخاوية المفرغة من بعدها الغيبي التي أضفاها هؤلاء على تفسير ظاهرة المطر وغيرها من الظواهر جعلت المغترين بها ينظرون لها وكأنها لا علاقة لها بالغيب.

هذا الماء هو أساس عملية الإنبات في الأرض وإخراج جميع النباتات من العدم إذ يعمل الماء على إحيائها ونموها وتطورها إلى أن تأتي أكلها.

ومن خلال ما سبق نلحظ كيف سخر الله سبحانه وتعالى الكون كله للإنسان، فالمتأمل في

---

[1]-سورة النور، الآيتان: 43-44.

[2]-سورة الأعراف، الآية: 57.

[3]-سورة لقمان: الآية: 34.

[4]-سورة نوح، الآيات:9-12.

مجمـــل الوجود الكوني يلاحظ كيف كان مهيأ لغاية أن يحتضن ويخدم عنصر الحياة فيه، ثم ليخدم نقطـــة الـــذروة في ذلك العنصر وهو الإنسان، وتعتبر الحياة أساس التساؤلات الرئيسية لذا الإنسان، وأقـــل فهما في نفس الوقت، ولقد أدرك الإنسان بأنها من الأسرار التي لا معنى للكون بغيرها، لكنه عجـــز عـــن تفسير حقيقتها والوقوف على سرها إذ عدها من المعضلات العلمية والفلسفية واختلفت أراؤه حولهـــا[1]. وعلـــى هـــذا لـــم يظفر بالرأي الصحيح إلا من خلال إحالتها إلى إرادة الله تعالى وقدرته وأمره الذي «يخلق من شيء واحد كل شيء، ويخلق من كل شيء شيئا واحد»[2].

ومـــنه نلحـــظ كيف ارتبط النظام بالتسخير ليكشف عن حقيقة وحدانية الله تعالى في الخلق والتدبـــير، فـــالكون كلـــه وحدة واحدة تعمل في كل منسق ومنظم كل ظاهرة مكملة للأخرى وكلها تجتمع لخدمة الإنسان وتسهيل حياته، هذا النظام الواحد والمحكم يدل على أن مدبره واحد وينفي أن يكون لغيره يد في ذلك كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3].

المطلب الرابع: دلائل الجمال الكوني

إن حقـــيقة هـــذا الـــنظام الذي عليه الكون جمال إذ الفوضى ليست بجمال، والنظرة العميقة بالـــتأمل والتدبر في هذا الكون العظيم كفيلة بأن تغذي مشاعرنا بمعاني الجمال اللامتناهية وتجعلنا نخرج من دائرة الحس المعهود إلى إدراك وتعقل سر هذا النظام والجمال والفطرة السليمة الموجودة في الكون.

فالخالق المبدع خلق كل شيء، وجعله في أبهى حلله، وأجمل صورة وجعل النفس الإنسانية على فطرة سليمة تفطن إلى معنى الجمال وتستشعر به وتستجيب له، وتستمتع به، وهذا هو الإدراك الجمالـــي الذي ينطبع في النفس بغير تعمد، وتظل هذه الحاسة الجمالية في شوق إلى ما يشبعها مما يدفع بالإنسان إلى تجاوز هذه الحدود وإلى الكشف عن الفطرة السليمة الموجودة في الكون[4].

---

(1)-انظر تفصيل هذه الآراء حول منشأ الحياة: كريم حسنين: الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية، ص 147-153.

-روبرت.م. أغروس وجورج ن. ستانسيو: العلم في تطوره الجديد، ص65-68.

(2)-بديـــع الـــزمان ســـعيد النورسي: كليات رسائل النور "الكلمات"، دار سوزلر للنشر، فرع القاهرة، مصر، ط2، 1992، ص328.

(3)-سورة الأنبياء، الآية: 22.

(4)-عـــبد الرحمـــن محمـــد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات: الكونية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1419هـ-1999م، ص111-113.

ويرتبط الإنسان بالكون بعقله فيدرك النظام والتسخير، وبقلبه فيدرك الجمال ومن النظام الكوني يصل إلى الجمال، ومن الجمال يصل إلى حقيقة النظام، ومنه يصل إلى حقيقة المصور المبدع سبحانه وتعالى فالكون كله تجليات لصفاته وأسمائه الحسنى فمن وحدة الكون وانتظامه نلمس القدرة المبدعة والعلم المحيط والأمر النافذ، ومن التسخير نلمح الحكمة والرحمة «لقد تحولت بذلك النور حركات الكائنات وتنوعها وتغيراتها [...] إلى مكاتب ربانية، وصحائف وآيات تكوينية ومرايا أسماء إلهية [...] حتى ترقى العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية»[1].

ونحن نتحدث عن الجمال فإن الجمال صفة أزلية لله ﷻ، أي أن الجميل الحقيقي هو الله فكل ما هو حسن في الكون من مخلوقات فهو مظهر من مظاهر الجمال الإلهي المطلق، فحقيقة أسمائه وصفاته جمال أي أن جماله تعالى عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى، لذا فلا يمكن رؤية النظام دون حقيقة الجمال أو الجمال دون حقيقة النظام.

ولم يستطع الإنسان إنكار هذه الحقيقة، فالنظرة العلمية كانت تميل إلى اعتباره خاصة من خواص المراقب -الباحث- لا صفة من صفات الأشياء الطبيعية، وعلى هذا تصور العلوم بأنها باردة المشاعر فلا ترى جمال الكون كما أن الفنون غير واقعية ولا ترى من الكون إلا جماله[2]، ففصلت بين عقل الإنسان ووجدانه لكن أجبرته فطرة الإنسان السليمة حين التقت بفطرة الوجود إلى الاعتراف بوحدة كيان الإنسان والتقاء عقله بوجدانه. يقول الفزيائي لويس دوبروجلي[3] " Louis De Braglie": «كان الإحساس بالجمال في كل عصر من تاريخ العلوم دليلا يهدي العلماء في أبحاثهم، والجمال كان ولم يزل مبدأ أساسيا من مبادئ العلوم [...]، ويجمع أبرز علماء الفزياء في القرن العشرين على أن الجمال هو المقياس الأساسي للحقيقة العلمية»[4].

فكبار علماء الفيزياء في هذا القرن أحرزوا كشوفا كبيرة بنشدانهم الجمال، فأجمل النظريات الفيزيائية هي التي تتسم بالتناسق والتماثل والتناسب والبساطة والتآلف والوضوح، وليس هذا إلا من حقائق الكون إذ هو في بساطته يعيد عن كل تعقيد، فالجمال خاصة من خواصه لأن النظام والتقدير

---

(1)-بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور، ص257.

(2)-روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص45.

(3)-فيزيائي فرنسي ولد عام 1892 منح جائزة نوبل في الفيزياء لعام 1929 لطرحه نظرية ثورية في الطبيعة الموجية للالكترونات، المرجع نفسه، ص154.

(4)-المرجع نفسه، ص45-46.

خاصة من خواصه، وهو ما جعل النظرة الجديدة للعلم تطرح الجمال معيارا في العلوم[1]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2].

وكثيرا ما نجد القرآن يشير إلى أن هذا الكون يتجاوز في حقيقته ظواهره المادية ليتضمن أبعادا ومعاني روحية، ثم يرشد إلى التعامل معه على أساس تلك الحقيقة، وذلك بأن يتجه إليه الإنسان في سبيل معرفة حقيقته بالعقل والوجدان معا، فيكتمل تصوره لحقيقته فالوجود الكوني وجود ظاهر محسوس، والوجود الغيبي خفيا غير محسوس، إلا أن هذا الوجود له ظهور بيّن في الكون المحسوس نفسه بل في كل عنصر من عناصر وفي كل هيئة من هيئاته، ولكنه ظهور غير محسوس وإنما هو مضمن فيها بما هي أثر له في الخلق والتدبير، بحيث يتجلى ذلك الأثر فيه تجليا يصبح به شاهدا على ذلك الوجود الغيبي بل يصبح به هو ذاته شهادة قائمة على ذلك الوجود ناطقة به[3]، فهذه الموجودات البديعة الدقيقة الرائعة المنتشرة في هذا الكون تدل دلالة واضحة كدلالة النهار على وجود الشمس على محاسن الجمال المعنوي الذي لا مثيل له وتريك كذلك لطائف الحسن الخفي الذي لا نظير له وإن تجلّي ذلك الحسن الباهر المنزه، وذلك الجمال الزاهر المقدس يشير إلى كنوز خفية موجودة في الأسماء الحسنى، بل في كل اسم منها، فهذه الموجودات ابتدا من الذرات إلى الشموس قد ألبست ثوبا جميلا، مزين بنقوش الثمرات والنتائج والغايات والفوائد والمصالح فدل على أن موجدها حكيم وجعلت مائدة للرزق العام على امتداد سطح الأرض بما يكفي طوائف ذوي الحياة وبما يفي سد جميع حاجاتهم فأشارت إشارة واضحة وضوح الشمس إلى حكيم مطلق الحكمة وكريم مطلق الكرم، ورحيم مطلق الرحمة ورازق مطلق الرزق[4].

ومن هذه الحقائق الجمالية الدالة على حسن الإبداع وجمال الصفات:

أولا: جمال السماء

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

---

(1)-وهو ما انتهى إليه علماء الفيزياء الحديثة واعتبروا الجمال في النظرة الجديدة للعلم وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية. روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص45-51.

(2)-سورة المؤمنون، الآية: 14.

(3)-عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1420 هـ-1999م، ص85-86.

-محمد المبارك: نظام الإسلام تعقيدة وعبادة، دار الفكر، ت.ك، 1401هـ-1981م، ص93.

(4)-بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور، ص72، 339.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، فإبداعها جمال وخلقها كان وفق تصميم حسن جميل، وهو مما نستشفه ونستخلصه من الآيات الواردة في هذه السورة -سورة الأنعام- بما أودع فينا من فطرة سليمة، ولنا أيضا أن نستأنس[2] بالإشارات الجلية والمباشرة لهذه الحقيقة في السور الأخرى لنستجلي حقيقتها ونزيد في التوضيح.

فالقرآن الكريم يلفت الإنسان إلى دلالات الخلق والإبداع والجمال بصيغ مختلفة ذات دلالات أخاذة كما في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[4]، وبهذه الإشارة يربط الإنسان بحقيقة تلك "المصابيح" و"الكواكب" التي زينت السماء، إنها بالإضافة إلى وظيفتها الجمالية لها وظيفة وجودية أخرى وهي "الحفظ" من العبث الذي تميزت به الشياطين، ليقطع عنهم بعض افتراءاتهم التي يزينونها للإنسان بغرض الإغواء، فهي في حقيقتها تجمع كل معاني الألوهية للخالق مع معاني البهجة والجمال، أي أن خلقها ليس مجردا بل ارتبط بغايات مكملة تعكس ما يريده لإنسان في تأمله إزاء القبة الزرقاء لتتحول في غياب الشمس إلى صفحة مرصعة بالنجوم والكواكب، ثم تنطلق بين الحين والآخر من جملة تلك المصابيح شهبا تتحول بعدها إلى عدم، هذه الظاهرة يعجز الإنسان عن تفسيرها.

بل جل ما يستطيع أن يقوله بعيدا عن التفسير الغيبي الذي يقدمه القرآن الكريم عن هذه الشهب أنها «جسيمات صخرية أو معدنية التركيب متباينة في أشكالها وحجومها تتراوح ما بين الحبات الصغيرة مثل حبة الرمل والصخور الضخمة التي تبلغ كتلتها آلاف الأطنان، وعند مرور هذه الكتل السماوية في الغلاف الجوي الأرضي تزداد مقاومة الهواء لها فتتولد من جراء ذلك عملية احتكاك ميكانيكية بين جزئيات الهواء وجزئياتها السطحية فترتفع درجة حرارتها وتزداد بازدياد سرعتها حتى تحترق وتتطاير جسيمات مولدة ذيلا موهجا وعلى شكل بريق ناري في كبد السماء وعلى ارتفاع (100كم) تقريبا، إن أغلبها يحترق في الجو وقليل منها يسقط على الأرض وفي هذه الحالة تدعى (بالنيازك)، أي أن النيازك تمثل الأجزاء الساقطة من الكتل السماوية على الأرض

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 103.

[2]-تعتمد في تناول هذه الحقائق في هذا المطلب على الاستئناس بالآيات: التي تشير إلى حقيقة زينة المخلوقات وبهائها وبهجتها.

[3]-سورة الصافات، الآيات: 6-7.

[4]-سورة الملك، الآية: 5.

وغير المحترقة في الغلاف الجوي ويمكن مشاهدة العديد منها في متاحف العلوم»[1].

والتفسير القرآني لهذه الحقيقة يعدّ الأصل لكل تفسير "فالمصابيح" و"الكواكب" التي زينت بها السماء هي التي تتحول رجوما للشياطين فقد صور القرآن الكريم حقيقتها في هذه الآيات، وقد ذكرت أيضا هذه الحقيقة في سورة الجن كما قال تعالى على لسانهم حين اعترفوا بها ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[2].

حين يتأمل الإنسان السماء تأخذه الدهشة والإعجاب والخشوع، فرغم السرعة المدهشة للنجوم والكواكب والأرض إلا أن نظام الكون وتوازنه في الحركة يجعل للناظرين من الأرض المتحرك ثابت، هذه السرعة مع هذا النظام والتوازن وعظم مواقع النجوم التي تعطي للإنسان أشكالا متميزة متعددة الوظائف والأبعاد، فبالإضافة إلى كونها تمنح الإنسان رشده وتهديه إلى سواء السبيل فإنها تمنحه هداية وجدانية فطرية تنشأ من التقاء صورتها الجمالية مع شعور الإنسان الجمالي، هذا الجمال الفطري للسماء، حين التقى مع خيال الإنسان منحه جمالا آخر خيالي فكون لكل مجموعة من النجوم شكلا معينا أو صورة معينة، فمن الجبار -كما تصوره الإغريق- إلى الدب الأكبر والدب الأصغر، والجدي والعقرب والميزان وغيرها[3]. كل هذه الأشكال هي من إيحاء الواقع إلى الخيال، أما الحقيقة فلكل نجم بعده وميزانه.

ومن هنا فإنه يحسن بنا ونحن نتناول هذه القضية بالشرح أن نبين حقيقة هذه الأبراج والتي ضل كثير من الناس في تصورها واعتقد فيها القدرة الخاصة على التأثير في الكون وفي حياة الناس بصفة خاصة كجلب الشرفي أيام معينة ودفعه في أخرى، وكجلب الخير وغيرها مما يدعيه المنجمون الذين حادوا عن العلم الصحيح -علم الفلك- الواجب البحث فيه إلى الدجل والتنجيم، فمنطقة البروج هي النطاق أو الحزام الوهمي الذي توجد فيه الشمس وكواكبها، هذا الحزام يلتف حول السماء، سمكه على القبة السماوية حوالي 18 درجة، مقسم إلى اثني عشرة كوكبة (مجموعة) نجمية كل كوكبة تدعى بالبرج أي أن البروج ما هي إلا كوكبات مثل سائر الكوكبات النجمية لها أشكالها الخاصة ولكنها تختلف عنها في أنها واقعة خلف المسير الظاهري للشمس كما تختلف عنها في الشكل، وعند دوران الأرض حول الشمس وانتقائها من موضع إلى آخر، يخيّل إلينا وكأنها

---

[1]-حميد مجول النعيمي، الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، ص25.

[2]-سورة الجن: الآيتين 8-9.

[3]-حميد مجول النعيمي، المرجع السابق، ص142-145.

انتقلت الشمس من برج إلى آخر وإن فترة الانتقال تقرب من 30 يوما لأن الأرض تتحرك درجة واحدة تقريبا في كل يوم فلهذا تكمل 360 درجة خلال سنة واحدة، والبابليون هم أول من عرف بان الخسوف يحدث للقمر، والكسوف للشمس، عندما يقطع القمر دائرة البروج فلهذا تدعى هذه الدائرة أحيانا بالدائرة الكسوفية[1].

فتبارك الله الذي خلق وأبدع فمنح للإنسان رشده وأمنه كما منحه متعة وجمالا كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... ﴾[2]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[3]، وقال على سبيل المدح: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾[4].

وما يزيد السماء جمالا وبهجة ظهور القمر إلى جانب ترصعه بالنجوم فللقمر جمال سحري خاص، فهو يمنح للإنسان كل ليلة صورة ذات مسحة جمالية خاصة تختلف عن سابقتها، كما قال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[5].

فمما ينتج عن حركة دوران القمر حول الأرض ودورانهما حول الشمس منازل القمر (أحجام الهلال)، إذ يأخذ ضوؤه في الازدياد حتى يكتمل بدرا ثم يأخذ في التناقص حتى يصبح في الليلة الأخيرة شبيها بالعرجون القديم.

ثانيا: جمال النبات

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6]. وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[7].

---

(1)-حميد مجول النعيمي، الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، ص146-147.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 97.

(3)-سورة الحجر، الآية: 16.

(4)-سورة الفرقان، الآية: 61.

(5)-سورة يس، الآية: 39.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 99.

(7)-سورة الأنعام، الآية: 141.

من مناظر الجمال والبهجة التي يلفت إليها القرآن الكريم جمال النبات، فللنبات جمال خاص يتجدد كل حين مع نموه وهو شبيه بنمو الهلال إلى أن يصير بدرا، وتناقصه إلى أن يتضاءل ضوءه بحيث يراه الإنسان كالعرجون القديم الذابل المصفر، فلكل مخلوق من المخلوقات فترات يمر عليها من فترة الضعف إلى فترة القوة المزهرة وإعطاء الأكل إلى فترة الضعف والذبول ثم الزوال والأفول وهي سنة الله في خلقه، تنطبق على كل شيء كما تنطبق على الإنسان، وقد لفت القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]. والشاهد من الآية هو وصف النبات في قوته وشدة إعجاب الزُّراع وافتتانهم به، ومنها قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2]. وعن مرحلة الاخضرار وبداية الحياة يقول ﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[3].

كما يقول عن المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الضعف والذبول ثم الزوال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾[4]. وقال: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5].

وقد جاءت هذه الآيات مذكرة بهذه الحقيقة من أجل أن يكون تأمل الإنسان تأملا واعيا يبعث على اليقظة والتذكر، فتلك التحولات وذلك التبدل بكل نظام وبكل تناسق، فمن الخضرة إلى الحب المتراكب، ومن الطلع إلى القنوات الدانية إلى الجنات المختلفة من الأعناب والزيتون

---

[1] سورة الفتح، الآية: 29.

[2] سورة الزمر، الآية: 21.

[3] سورة الحج، الآية: 63.

[4] سورة الكهف، الآية: 45.

[5] سورة يونس، الآية: 24.

والـــرمان والتي تعطي ثمارا يانعة مختلفة الأكل كلها تسقى بماء واحد اجتمع في تشكيله الكون كله بنظامه ودقة تقديره.

إنـــه مشـــهد يبعث على البهجة والسعادة، أن تكسى الأرض بعد أن كانت هامدة جرداء بكل مظاهـــر الحـــياة، وتكسى الأشجار بتلك الحلل الشبيهة بالسندس الخضر وتزين بمرصعات الأزهار والثمار اللطيفة المتدنية في نهاية الأغصان. كأنها أيدي لطيفة تمدنا بأطيب الثمار الشهية، وأن تمدنا بتلك الجنات التي تمدنا أشجارها بظلالها الوارفة.

إن هذا المنظر البهيج لا يمكن إحالته وهو في غاية الإتقان إلى غير الله سبحانه وتعالى كما لا يمكـــن إحالـــته إلا على خالق واحد بديع لا يعجزه شيء، ولا يؤوده شيء، فهي مرايا تجلت فيها أسماؤه وصفاته وهي أثر من آثارها.

يقـــول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[1].

وقـــال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[2]. وقال: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[3].

ثالثا: جمال الأنعام

حقـــيقة جمـــال الأنعام لا يمكن إغفالها في هذا المجال خاصة وأن السورة التي نحن بصدد دراستها سميت بأسمها لورود هذا الاسم فيها، وكما سبقت الإشارة إليه فإنّ هذه الأنعام مسخرة مذللة للإنســـان كما قال تعال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾[4]. وقال أيضا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[5]، هيئ الكون لأجل حياتها كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ

---

[1]-سورة النمل، الآية: 60.

[2]-سورة فاطر، الآية: 27.

[3]-سورة الحج، الآية: 5.

[4]-سورة يس، الآيتان: 71-72

[5]-سورة غافر، الآيتان:79-80.

شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[1]. والتي جعلت من أجل الإنسان، فانتفاع الإنسان بها لا ينكره إلا مكابر كما أن مساهمتها في حفظ توازن الكون وانتظامه وحفظ الحياة العامة، وكما في تنوعها واختلافها بما يوافق البيئات التي تعيش فيها من أكبر الدلائل على ذلك.

والسورة جاءت مرشدة إلى حقيقة التشريع الذي شرعه الله تعالى ولم يخل زمن من أزمان الناس منه، إلا أن ضلالهم يعد نسيان هذا العهد أدى بهم إلى التشريع من عند أنفسهم ونبذ شريعة الله سبحانه وتعالى، ولقد شمل تشريعهم الفاسد الأنعام، فمما شرّعوه بشأن الأنعام عدم ذكر اسم الله عليها وذكر اسم معبوداتهم عليها، وكذا تحليل بعضها وتحريم البعض الآخر، وكذا تحريم بعضها على نسائهم وتحليل أخرى، وقد فصلنا حقيقة هذا التشريع الفاسد وتصحيح السورة لذلك في الفصل الأول.

تعتبر الأنعام من الشهوات الدنيا وهو ما جعل الشيطان يستغله للإضلال والغواية، وعلى هذا انحرف الإنسان حين ابتعد عن التشريع الصحيح في تقدير حقيقتها والانتفاع بها كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2]. وقال تعالى ينقل افتراء الشيطان: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[3].

لقد جاءت السورة مرشدة إلى حقيقة الانتفاع الواعي بهذه المنن الجميلة –الأنعام– والتي تؤدي كل هذه الأدوار والخدمات المجانية للإنسان في حياته، فهي تقدم له أفضل العون على جميع المستويات وتؤمن له فرص الراحة والدعة، وهو يتغذى بوجودها ماديا، بنتاجها المادي ومعنويا بالعبرة التي يستوجبها منها، فلا زالت إلى الآن رغم التطور الذي وصل إليه الإنسان تشكل غذاء أساسيا له وتساهم في الحفاظ على صحته وقوته كما تساهم في حفظ التوازن الاقتصادي للدول التي تنتجها بشكل ملفت للانتباه.

يقول تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ

---

[1]–سورة عبس، الآيات:24–32.

[2]–سورة آل عمران، الآية: 14.

[3]–سورة النساء، الآية: 119.

رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].تنبه هذه الآيات إلى دلائل التسخير والمنة وإلى عبرة الجمال، والجمال الذي تنبه عليه الآية هو ما يكون من النعم إذا ردت إلى المراح ليلا ممتلئة بطونها، عظاما ضروعها، منتصبة أسنمتها وكذلك إذا خرجت إلى المراعي رافعة رؤوسها متتابعة في سيرها، وأكثر ما يظهر جمالها هو حين رواحها، هذا المشهد الجمالي له إيحاءات جمالية في النفس الإنسانية لما تتركه فيها من آثار طيبة، ولأجل أهليتها أيضا بما تحققه من الاكتفاء بها واعتبارها مصدرا رئيسيا يمكن صاحبها من الاستغناء به، وهو ما يورث في نفسه الإحساس بالغنى والاستقلالية، وهذا جمال ينعكس أثره على حياته، كما أن زينتها وجمالها أيضا يظهر فيما يرى من بدائع الخلقة في الشكل وذلك لتنوع أشكالها وألوانها، بل إنّ أفضل أنواع الزينة التي تقدمها هي أثناء السفر البعيد الذي يضني القلب والروح ويغبر ملامح الوجوه الذي تسببه مشقة السفر، وذلك بما تقدمه من رفاهة السفر وفاره المركب والمجلس فتوصل صاحبها إلى مبتغاه بسهولة ويسر[2]، وهو ما يبعث على حمد الله تعالى وشكره وتقواه كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[3]، وقال: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[4].

فالإشارة إلى الأنعام في القرآن الكريم تنبيه للإنسان إلى إباحتها والاستفادة منها عملا برضاه وترويحا عن النفس في أثناء ذلك إلى أن يصل الإنسان إلى غايته وهي العبادة، وهو ما يبعد الإنسان عن العبث وينفعه إلى الجدية في الطلب.

حقيقة فإنّ جمال هذا الكون وروعته إنما هو من إبداع الخالق سبحانه وتعالى، الذي جعله على نظام واحد وهدف واحد وفق تقدير حكيم، فكان أثرا من آثار وحدانيته، فكل جزء من أجزائه أو كل ذرة من ذراته شاهد على أسمائه وصفاته الجليلة، فجميع الدلائل شاهدة على العلم الإلهي المحيط وعلى القدرة المتصرفة في الكون وعلى الإرادة والمشيئة المهيمنة على تنظيمه وتقدير حركته وسيره، كما هي شاهدة على الجمال المطلق الذي تجلى أثره في هذا الكون البديع.

---

[1]-سورة النحل، الآيات: 5-8.

[2]-السيد الموسوي العاملي: نظرية القرآن حول معالم الحيوان، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، ص211-214.

[3]-سورة الزخرف، الآيات: 12-14.

[4]-سورة الشعراء، الآيات: 132-134.

المبحث الثاني: دلائل الأنفس على وحدانية الله تعالى

المطلب الأول: مفهوم الأنفس

في تفسير ابن الجوزي في معنى ﴿وفي أنفسهم﴾[1] على خمسة أقوال:

-فتح مكة

-يوم بدر

-البلايا التي تكون في أجسادهم

-حوادث الأرض، قاله ابن زيد، وحكي عنه أن التي في أنفسهم: سبيل الغائط والبول، فإن الإنسان يأكل ويشرب من مكان ويخرج من مكانين.

-كونهم خلقوا نطفا ثم علقا... (إلخ)... [2].

وفي تفسير فخر الدين الرازي: أن المراد بقوله: ﴿وفي أنفسهم﴾ يرجّح القول بأنها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة، كما في قوله: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3]. يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم[4].

وفي تفسير الألوسي: المراد بها: في بلاد العرب خصوصا مما يحصل من النصر والفتح، والمطلوب إظهاره أن كونه آية بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونه فتحا بالنسبة إلى الأرض والبلدة[5].

ويجوز ابن عاشور أن يكون من عطف الخاص على العام أي وفي أفق أنفسهم، أي مكة وما حولها على حذف مضاف، والأحسن عنده أن يكون معناها أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي ﷺ، ونزل فيه قولـــه تعالـــى:

---

(1)-سورة فصلت، الآية: 53.

(2)-ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مج7، ج7، ص68-69.

(3)-سورة الذاريات، الآية: 21.

(4)-فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، مج14، ج27، ص140.

(5)-الألوسي: روح المعاني، مج9، ج25، ص6.

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[1]، ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر[2].

ومنه فإن دلائل الأنفس هي ما يتعلق بالإنسان من حيث تكوينه المادي والروحي وما تميز به بذلك، وكذا ما تعلق به من أحداث ساهم في صنعها كالنصر والهزيمة وغيرها من أحداث الأمم الغابرة سواء التي تقع تحت يد الإنسان وبفعله أو التي تحدث بلا إرادة منه ولا اختيار والتي كانت نتيجة فعله كما حدث لقوم لوط، أو ما يحدث من ساعات الشدة والكرب والضيق كالمرض وغيرها.

وما يؤيد هذا المعنى هو أن كلمة "النفس" حين تطلق يراد بها ما به قوام حياة الكائن الحي فإذا ذهبت انعدمت حياته، وقيل ذهبت نفسه وأزهقت نفس إذا سال دمها وذهبت روحها[3]، وإذا قيل نفس الشيء أريد به ذاته وكنهه وجوهره[4]، كما أن ورود لفظ "النفس" بصيغها المتعددة في القرآن الكريم يحمل معنى الشخص أو الإنسان، وعلى هذا فإن الخطاب الموجه في الآية بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هو خطاب موجه للإنسان سواء كان بخصوص السبب فيكون لأهل زمان النزول كما استحسنه ابن عاشور وذهب إليه غيره من المفسرين، أو بعموم اللفظ فيكون المعنى على التجدد الذي يقتضيه لفظ "سنريهم" أي في كل زمن وكل أهل زمان لهم ما يرونه في أنفسهم، ثم إنه لا يرى الآيات إلا صاحب الحياة المتميز بالعقل فإذا انعدمت نفسه صار من الدلائل لغيره. وهذه –الدلائل– أعظم أثرا وأوسع في حياة النفس وعدم ذهاب الروح منها عند انعدامها وذهابها لأنه –الإنسان– في الحياة له فعل وإرادة وعقل ونمو وغيرها وكل الأحداث تتعلق به إذا كان كذلك فإذا زال أصبح من الغابرين ذو عبرة واحدة وهي نهايته على ذلك الشكل كقوم لوط لا تتجدد حوادثه وأفعاله.

ولقد تناولت مبحث الآفاق من جانب ما يؤدي إلى بيان حقيقة التسخير من أجل هذا المخلوق –الإنسان– وسنتناول مبحث الأنفس من جانب ما يوضح حقيقته وتميزه عن باقي المخلوقات التي سخرت له، ذلك لأن محور القرآن الكريم كله موجه للإنسان الذي أوكل أشرف المهمات، فيكون المبحث موجها لما يخدم هذا الغرض، وعليه يكون التفصيل وفق ما يبين حقيقة تهيئته وتميزه من أجل أداء هذا الدور، فحقيقة الخلق والنظام والجمال بادية فيه أكثر من غيره، كما قال تعالـــى:

---

(1)–سورة الدخان، الآية: 10.

(2)–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج12، ج25، ص19–20.

(3)–أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص317–318.

–الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص503.

(4)– ابن منظور: لسان العرب، ج1، [أ، ج]، ص96.

–أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات، ص154.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[3].

فقد كان الإنسان مستجمع لكل تلك الدلائل وهو أبرز من تجلي فيه الكمال المبثوث في المخلوقات ولا نقص فيه بوجه من الوجوه، فكان مظهرا لتجليات آثار صفاته تعالى وأسمائه الحسنى، ولهذا كان اعتبار الإنسان بنفسه أعظم اعتبار، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[4]. ومن تأمل حقيقة ذاته وجدها تدله على حقيقتين عظيمتين: أولاهما: تميزه من أجل الخلافة في الأرض، والثانية: أنها تعينه على إدراك وتقريب صفات الخالق سبحانه وتعالى وأن حقيقتها تكمن في عدم مماثلتها لصفات المخلوقين فيعترف له بالوحدانية.

ولعل الإنسان ومنذ عهده بالحياة على وجه هذا الكوكب الأرضي قد حاول أن يفهم من هو؟ وما هي مكونات جسمه؟ وكيف ينمو جسمه وإدراكه؟ وكيف يحيا؟ ثم ما هي صلته بالكون؟وهي أسئلة مهمة تتعدد أشكالها وتختلف أهدافها، ولكنها جميعها محاولة من الإنسان ليعرف نفسه وأن يعرف الآخرين من بني نوعه.

ولقد حاول العلماء في تاريخهم المتسلسل الطويل وفي شتى مجالات المعرفة ومناهجها أن يقدموا أجوبة تقترب أو تبتعد عن الوصول إلى فهم حقيقة التكوين الإنساني.

ثم إن الإنسان أدرك الفروق بينه وبين غيره من المخلوقات، ولفت نظره تميزه عنها بالنطق والإدراك وشعوره بنفسه وإحساسه بوجوده وإدراك ما يعتريه من تغيرات في سائر مجالات حياته خلال مراحل الحياة، لكن ظل الفهم العام للإنسان يعاني من قصور وتشويه ولم يستطع أن يقترب من الحقيقة.

لقد أعطى القرآن الكريم مجالا واسعا لمعالجة قضية الإنسان وبيان حقيقته، وتحديد مركزه وعلاقته بخالقه ومهمته في هذا الوجود، ولقد وهبه الله تعالى أمرين اثنين للقيام بتلك المهمة، أحدهما: الكون المسخر المذلل، والثانية: نفس الإنسان وما أودع الله فيها من قدرات ودوافع

---

[1]-سورة السجدة، الآيات: 7-9.

[2]-سورة التين، الآية: 4.

[3]-سورة الانفطار، الآيات: 6-8.

[4]-سورة الذاريات، الآية: 21.

واستعدادات جعلته أهلا للتكريم وحسن التقويم.

ولقد لفتت سورة الأنعام لهذه الحقيقة وحددت حقيقة هذا المخلوق –الإنسان– موقعه الحقيقي بين الموجودات، وهو ما ستوضحه المطالب الآتية:

المطلب الثاني: دلائل الخلق

الحقيقة التي يجب الإشارة إليها في مبتدأ حديثنا عن خلق الإنسان أن القرآن الكريم يقرر بوضوح أن البحث في مبدأ خلق الإنسان ليس موكولا للإنسان ولا يمكن له إدراك حقيقته، شأنه في ذلك شأن خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]. إذ هو من الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بعلمها ومنه وحده تستمد، فهو وحده "عالم الغيب والشهادة"[2].

وعليه فإن بحث الإنسان يبتدأ مما هو مشاهد له ومعلوم أما البحث فيما وراءه، فقد جاءنا الخبر الصادق بحقيقته وتفاصيله وليس للإنسان إلا التصديق به والأخذ به كما جاء، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

من الحقائق التي يقررها القرآن الكريم: أن النوع الإنساني مخلوق، فالجنس البشري ينتهي في تسلسله ولد من والد وفرعا من أصل إلى إنسان أول بخلقه بدأ وجود هذا النوع، وكشف هذه الحقيقة في القرآن الكريم يقوم على الأدلة التالية:

–قصة آدم عليه السلام: إذ هو في القرآن الكريم الإنسان الأول كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[5]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[6].

---

(1)–سورة الكهف، الآية: 51.

(2)–سورة الأنعام، الآية: 74.

(3)–سورة الأنعام، الآية: 115.

(4)–سورة آل عمران، الآية: 59.

(5)–سورة السجدة، الآيات: 7–9.

(6)–سورة الأنعام، الآية: 98.

والقرآن الكريم حين يخاطب الناس يردهم إلى أصلهم الأول كقوله: ﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2].

-دليل الحس والمشاهدة: وهو ما نبه إليه القرآن الكريم في كثير من الآيات كقوله تعالى خطابا لزكرياء: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾[3]. وقوله: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾[4]. وقوله: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[5].

فهذه الآيات صريحة في حدوث النوع الإنساني، وهذه الحقيقة يشاهدها الإنسان في حياته فهو يرى كيف يوجد الفرد بعد أن لم يكن شيئا.

أولا: الخلق الأول "آدم عليه السلام"

يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[6]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[7].

تحدد هاتان الآيتان من سورة الأنعام تحديدا واضحا أصل الإنسان ونشأته الأولى، فالآية الأولى تقرر بأن الأصل كان "طينا" أما الثانية فتقرر بأنه "نفس واحدة"، ويتفق جل المفسرين على أن المقصود بهذا الأصل المحدد في الآيتين هو آدم عليه السلام [8].

---

[1]-سورة الأعراف، الآيتان: 26-27.

[2]-سورة يس، الآية: 60.

[3]-سورة مريم، الآية: 9.

[4]-سورة مريم، الآية: 67.

[5]-سورة الإنسان، الآية: 1.

[6]-سورة الأنعام، الآية: 3.

[7]-سورة الأنعام، الآية: 98.

[8]-انظر مثلا: الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج7، ص145، ص286.

-الألوسي: روح المعاني، ج7، ص83، 222.

-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص683، وغيرهم.

إلا أن المتدبر فيهما لا يمكنه أن يصل إلى هذا المعنى، إذ من خلالهما ينشأ التساؤل: ما حقيقة كون الإنسان من طين؟ ثم ما هي أو من هي هذه النفس الواحدة التي أنشأ منها؟

وتعتبر الإجابة عن هذا التساؤل مبتورة وناقصة إذا تخلى الباحث عن الجمع بين معاني الآيات الواردة حول نشأة الإنسان، إذ جل ما يمكن أن يصل إليه هو الرأي القائل بأن الإنسان من نطفة والنطفة من دم والدم غذاء والغذاء حيوان أو نبات وهما من تراب أي أن جميع مكوناتها من تراب أو طين، كما ذهب إلى ذلك فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية[1]. وهو ما انتهى إليه العلم الحديث كما يقول ألكسيس كارل[2]: «إن أجسامنا مصنوعة من نفس العناصر التي صنعت منها الأشياء المجردة من الحياة، ومن ثم يجب ألا تستولي الدهشة علينا، مثل بعض علماء الفسيولوجيا العصريين، عندما نجد القوانين العادية للطبيعة والكيمياء تؤدي عملها بداخل أجسامنا مثلما توجد في العالم الكوني، ولما كنا أجزاء من العالم المادي، فإن اختفاء هذه القوانين أمر لا يصلح التفكير فيه» [3].

وهو قول صحيح فيه من الدلائل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته، إلا أنه لا يصل بصاحبه إلى ردّ شبهة كون هذا المخلوق ينحدر في أصله من الحيوان إلى النبات، ومن النبات إلى المادة الأولى وهو الطين، هذه الشبهة التي تروج مع بعيدا عن الفهم الصحيح لمعاني النص القرآني وعن التأويل الذي يتخذ من الفصل بين النصوص القرآنية سبيلا لتأكيد مذهبه كما ذهب إلى ذلك أصحاب نظرية التطور والمغترون بها من بعض المسلمين، فأصحاب هذه النظرية يرون بأن الخلية الأولى أساس الحياة خرجت من هذه المادة –المادة الأولى "الطين أو الحمأ المسنون"– ثم بدأت في التطور عبر مراحل المخلوقات المعروفة –من أخسّه إلى أعلاه– إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان الذي انتقل عن طريق أرفع حيوان وأقربه شبها بالإنسان وهو القرد.

إن الغرض في هذا المبحث ليس شرح هذه النظرية والرد عليها فقد كفانا العلماء "تفنيدها

---

(1)–فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، ج25، ص174.

(2)–الكسيس كارل [1873–1944] حاصل على إجازة الطب وإجازة في العلوم وعمل في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بالولايات المتحدة الأمريكية، كما عمل طبيبا جراحا بعد عودته إلى فرنسا، بأن الحرب العالمية الأولى والثانية، أشهر كتبه: الإنسان ذلك المجهول، انظر هذا الكتاب: تعريب شفيق أسعد فريد، بيروت، لبنان، ط1 مجددة، 1423هـ–2003م، ص5.

(3)–ألكسيس كارل: الإنسان ذلك المجهول، ص101.

وإبطالها[1]. فعرض المذهب بصورة مفصلة يتطلب بحثا مستقلا تضيق عنه دائرة هذا البحث، وإنما الغرض هو بيان الحقيقة القرآنية ذات التصور الكامل والتي تقدم للإنسان إجابة عن كل تساؤلاته.

إذا تدبرنا إشارات القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فإننا نجد آيات كثيرة تعددت الألفاظ المستعملة فيها للدلالة على الأصل الإنساني، إذ نجد الإشارة إلى "التراب" كما في قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[2]. كما نجد الإشارة إلى "الطين" كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[3]. وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[4]. وإلى "الصلصال" كما في قوله تعالى:﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[5]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[6].

فكل من التراب، الطين، الحمأ المسنون، الطين اللازب والصلصال مواد أرضية، وهي إشارة إلى الجانب المادي من الإنسان، إذ تمثل مراحل تمر بها مادة التراب حتى تتضح وتتصلب، فالتراب هو المبدأ الأول، والطين الجمع بين التراب والماء، والحمأ المسنون الطين المتغير بالهواء أدنى تغيير، والطين اللازب، الطين المستقر على حالة من الاعتدال تصلح لقبول الصورة، و"صلصال من حمأ مسنون" يبسه وسماع صلصلة منه، و"صلصال كالفخار" هو الذي قد أصلح بأثر

---

(1)-انظر مثلا: عبد العليم عبد الرحمن خضر: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، من 19-123، وانظر أيضا الدراسات الأكاديمية التي تناولت هذه القضية بالشرح والنقد:

-صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص316-340.

-صلاح عبد العليم إبراهيم: الإنسان في القرآن الكريم المبدأ والمصير، مطبعة الفجر الجديد، دم، ط1، 1403هـ-1982م، ص141-245.

-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط1، 1410هـ-1990م، ص59-91.

(2)-سورة الحج، الآية: 5.

(3)-سورة السجدة، الآية: 7.

(4)-سورة الصافات، الآية: 11.

(5)-سورة الرحمن، الآية: 14-15.

(6)-سورة الحجر، الآيات: 26-27.

من النار فصار كالخزف[1].

ثم إن الإشارة لم تتوقف عند هذا الحد -أي إلى الجانب المادي من الإنسان- بل تعدت إلى بيان جانب آخر من الإنسان كان الأساس في تمييز هذا المخلوق وهو الجانب الروحي كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2].وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3]. فالإشارة إلى المادة صحبتها الإشارة إلى التسوية وهي عملية احتاجت إلى مراحل حتى يستقيم العنصر المادي ويتهيأ لنفخ الروح، ثم كان نفخ الروح بصفة فجائية، وعلى هذا تكرر ذكر مراحل التسوية في تلك الآيات، أما عنصر الروح أو لحظة نفخ الروح التي تميز بها عن غيره. فقد ورد التعبير عنها بما يفيد الفجأة وعدم التطور، ولم يختلف التعبير فيها كما في التعبير عن العنصر المادي وهو ما يدل على أن هذه المرحلة مرحلة أخرى تميز بها هذا المخلوق عن غيره، وما يؤيد هذا المعنى هو قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾[4]. وهو ما يدل على أن نفخ الروح كان مباشرة بعد عملية التسوية لأن التعبير عن هذه اللحظة -لحظة نفخ الروح- كان بـ"إذا" التي هي للمفاجأة، فقوله: ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ دلالة على أن الكلام المقصود: إذا انتهى من التسوية واكتمل وتهيأ نفخ فيه من روحه في تلك اللحظة وكذا: ﴿ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾، يقول فخر الدين الرازي في بيان معنى هذه الآية: «قوله تعالى "إذا"... هي للمفاجأة، يقال: خرجت فإذا أسد بالباب، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان من تراب بكن فكان لا أنه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم إنسانا وهذا إشارة إلى مسألة حكيمة وهي أن الله تعالى يخلق أولا إنسانا فينبهه أنه يحي حيوانا ونامیا وغير ذلك، لا أنه خلق أولا حيوانا ثم يجعله إنسانا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة»[5].

فالجمع بين المادة والروح في هذا المخلوق مؤذن بالجدة في النوع، والاكتمال الروحي

---

(1)-أبـو القاسم بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1998م، ص72.

(2)-سورة الحجر، الآيتان: 28-29.

(3)-سورة ص، الآيتان: 71-72.

(4)-سورة الروم، الآية: 20

(5)-فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، مج13، ج25، ص109.

العقلي كان اكتمالا على دفعة واحدة وليس اكتمالا منضافا بالتدرج إلى العنصر المادي، وكل هذه المعاني مؤذنة من خلال مادة التكوين بأن هذا الكائن مستقل في كيانه عن غيره من الكائنات[1].

نلاحظ أن الإشارة في الآيتين السابقتي الذكر –الآية 28 من سورة الحجر والآية 71 من سورة ص– إلى المخلوق الأول كانت بلفظ "بشر" إلا أن هذه الكلمة على رغم ما تحمله من معنى[2] يوحي بتميز هذا المخلوق إلا أنها لا تحدد إن كان هذا المخلوق بشرا واحدا أم مجموعة من البشر لأن هذه الكلمة جامدة لا تتصرف تقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع[3].

وما يزيل هذا اللبس هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[4]. فهذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن هذا المخلوق هو آدم عليه السلام، والآية جاءت ردا على زعم النصارى بأن عيسى عليه السلام كان يتفرّد خلقه ومغايرته للناموس الكوني هو دليل على عدم بشريته، فردهم الله تعالى إلى الحقيقة الأولى وهي خلق آدم عليه السلام على خلاف هذا الناموس، فكليهما من غير أب ويزيد آدم بكونه من دون أم أيضا، وكان خلقه من تراب وبكلمة "كن" «وثم للتراخي الرتبي فإن تكوينه بأمر "كن" أرفع رتبة من خلقه من تراب وهو أسبق في الوجود، والتكوين المشار إليه بكن: هو تكوينه على الصفة المقصودة، ولذلك لم يقل: كونه من تراب ولم يقل: قال له كن من تراب ثم أحياه، بل قال خلقه ثم قال له كن. وقول كن تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه حيا ذا روح ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع اليد، ولا نحت بآلة، ولكنه بإرادة وتعلق قدرة وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المراد، حتى تلتئم وتندفع إلى إظهار المكون وكل ذلك عن توجه الإرادة بالتنجيز»[5].

وهو المقصود أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

---

(1)–عبد المجيد النجار: مبدأ الإنسان، دار الزيتونة، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 1417هـ–1996م، ص88.

(2)–لها معنيان: الأول: البروز في مقابل الخفاء والتستر مثل الجن والملائكة، والثاني: الاستعلاء والسيادة بما وهبه الله من القدرات والملكات المميزة له كالعقل وحرية الإرادة، فهي إشارة إلى القوة المدركة، لا إلى حركته لأن غيره من الحيوانات كذلك، والمفهومان ينطبقان على الإنسان، وهذا يعني أنه كان من اللحظة الأولى كامل الأوصاف والخصائص الإنسانية، فلم يكن أصله حيوانا ولا نباتا، وبالتالي استحق اسم الخليفة، صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص322–323.

(3)–أحمد محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير، ص31

(4)–سورة آل عمران، الآية: 59.

(5)–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص263–264.

تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

فالخليفة الأول الذي سيجعله الله تعالى في الأرض هو آدم عليه السلام، إذ جاء الخطاب في الآية التي تلتها موجها إليه عليه السلام بأن ينبئهم بما علمه من أسماء بعد أن عجز الملائكة عن معرفتها تلك الأسماء، وذلك حين استغربوا أن يكون هذا المخلوق الجديد المتميز عمن سبقه من مخلوقات خليفة في الأرض فحكموا عليه من خلال هذا التمييز الذي أهله للخلافة بأنه سيكون مفسدا في الأرض سافكا للدماء[2].

فهذه الآيات التي أوردناها تضمنت الحديث عن شخص واحد وهو الخليفة الذي سيكون في الأرض وهو الذي أمرت الملائكة بالسجود له. كما أن وجود هذا المخلوق كان في الجنة ولم يكن معه فيها إلا "زوجه" ثم هبط إلى الأرض، والأرض لم تكن إلا مذللة مهيئة لهذا المخلوق الجديد ولم تسكن إلا من قبله وزوجه كما قال عز وجل: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[3]. مثلها في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[4].وهو إعلام ببداية الحياة الإنسانية والسنة الإلهية في الإنسان والتكليف والمسؤولية الإنسانية، وهذا ما ينفي أن تكون الأرض قد سكنت قبل آدم من طرف إنسان مثله، ثم إن آدم وزوجه لما هبطا من الجنة إلى الأرض كانا كاملين في الخلق، حيث كانا صاحبا إرادة وعقل وقصد للفعل الذي كانت نتيجته معصية ثم توبة بعد

---

[1]-سورة البقرة، الآيات: 30-37.

[2]-تـرد شبهة كون هذه الآية: -29 من سورة البقرة- تدل على أن هناك أو آدم قبل آدم عليه السلام- أي أن هناك تعدد في الجنس البشري قبل هذا النسلالذي ابتدأ بآدم عليه السلام وعلى هذا حكم الملائكة من خلال معاينة هذا المخلوق قبل آدم على غير آدم عليه السلام بأنه سيكون ونسله مفسدون في الأرض كما أقصد أولئك بما أوردناه، وكذا بما أورده بعض المفسرين من رد على هذه الشبهة. انظر مثلا: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص445 وما بعدها، الألوسي: روح المعاني، ج1، ص186، وج4، ص181.

[3]-سورة البقرة، الآية: 36.

[4]-سورة الأعراف، الآية: 24-25.

ذلك، كما ينفي تعدد البشرية عبر المكان كأن تكون حياة إنسانية أخرى على كواكب أخرى كما في الأرض.

لكن ما يمكن التنبيه إليه هو أن هذا مما لا يفيد البحث فيه، والله له غيب السماوات والأرض، فرغم التطور العلمي المعاصر فإن الإنسان لم يستطع أن يكشف من الكون إلا الجزء الضئيل وفي حدود بحثه لم يعثر على ذرة من حياة في غير كوكب الأرض[1]، وهي –هذه القضية– لا تزال في علم الله الذي استأثر به، فالإنسان المخاطب بالقرآن الكريم والذي يتحدث عنه القرآن الكريم هو الذي يعيش ويستقر في هذه الأرض والذي يعود أصله إلى آدم عليه السلام.

أما عن حقيقة "زوجه" الوارد ذكرها في هذه الآيات وغيرها فقد خلقت من آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2]. وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3]."فحواء" كانت بعد أن خلق آدم عليه السلام ثم إن خلقها كان منه وهو المعنى الذي تبينه الأحاديث الصحيحة[4] وهو ما ينفي القول بأنها خلقت قبله أو أثناء خلقه، إذ لم يرد ذكرها في القرآن الكريم في سياق ذكر أصل الإنسان –كما في الآيات السابقة الذكر– إلا ما يدل على أنها كانت منه–

ثانيا: دليل الحس والمشاهدة "سلالة آدم عليه السلام"

يقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[5]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ

---

[1]–يعتبر كتاب زغلول راغب محمد النجار المعنون: "السماء في القرآن الكريم" من المراجع في هذا الموضوع، وهومحاولة لبيان حقيقة السموات والأرض من وجهة نظر قرآنية التي توصل إليها العلم الحديث، وبيان محاولات العلم في البحث والكشف عن الحقيقة وما وصل إليه من حقائق لا تخالف القرآن الكريم، ومن البحوث الواردة في هذا الكتاب: حقيقة سبع سموات وسبع أراض، حقيقة بداية الكون وانفرد الأرض بالحياة وتهيئتها لها، وغيرها.

[2]–سورة النساء، الآية: 1، انظر تفسير هذه الآية: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج4، ص 215.

–القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 314.

[3]–سورة الأعراف، الآية: 189.

[4]–رواه مسلم، في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، صحيح مسلم بشرح النووي، م ج5،ص59.

[5]–سورة الأنعام، الآية: 3.

فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[1].

تبين لنا مما سبق معنى قوله تعالى: "خلقكم من طين" وقوله: "أنشأكم من نفس واحدة" وبقي أن نعدد ونتبين معنى قوله: " ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده" وقوله: فمستقر ومستودع" لنتطلق من خلال ذلك إلى بيان حقيقته.

يتفق جل المفسرين[2] في تفسير قوله تعالى: " ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده" على أن "أجلا" الأولى بمعنى عمر كل إنسان ما بين أن يخلق إلى أن يموت و"أجل" الثانية ما بين موت كل إنسان إلى يوم البعث، ورغم الاختلافات التي وردت حول معنى الكلمتين فإنها تجتمع على معنى لا يخرج منه معنى أجل الحياة الدنيا[3]، وكل إنسان له حياته التي يحياها ثم تنتهي بالموت وعلى هذا تكون الحياة الدنيا بالنسبة لكل إنسان من بداية حياته إلى موته، ومقصود الآية الإرشاد إلى الدلائل فتكون العبرة لكل إنسان أثناء حياته حياته وحياة من سبقه من خلال سيره لينظر كيف بدأ الخلق.

أما في قوله تعالى: "فمستقر ومستودع" فقد اختلفوا بين رأيين: الأول: أن المستقر هو فوق الأرض والمستودع هو بطنها أي القبر[4]. والثاني: أن المستقر هو رحم الأم والمستودع هو صلب الأب[5]، ويجمع بعضهم بين الرأيين[6]، وسنختار الرأي الثاني في بيان وتفصيل هذه النقطة أما الرأي الأول فنختاره لبيان وتفصيل بقية النقاط المتعلقة بهذا المطلب.

وقد تبيّنا حقيقة نشأتنا من طين ومن نفس واحدة بقي لنا أن نتبين حقيقة المستقر في الرحم والمستودع في صلب الأب وحقيقة الحياة الإنسانية بعد ذلك والتي تمتد إلى أجل محدد ومعين قدره

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 99.

(2)-انظر مثلا: الألوسي: روح المعاني، ج7، ص 74.

- برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج2، ص 582.
- محمد الطاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص 131 وغيرهم.

(3)-انظر الاختلافات التي أوردها كل من الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج7، ص 146-147.
الألوسي: روح المعاني، ج7، ص 74.

(4)-انظر الآراء التي أوردها الطبري: المرجع السابق، ج7، ص 286-291.
-فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، مج7، ج12، ص109.

(5)-انظر الآراء التي أوردها الطبري: المرجع السابق، ج7، ص 286- 291.
-محمد الطاهر ابن عاشور: المرجع السابق، ج7، ص 396-397.

(6)-برهان الدين البقاعي: المرجع السابق، ج2، ص 683.
-الألوسي، المرجع السابق، ج7، ص 222.

الله تعالى لحياة كل إنسان.

أ-حقيقة الحياة الجنينية:

مما يقرره القرآن الكريم وأثبتته المشاهدة بداية الحياة الجنينية نتيجة التزاوج بين الرجل والمرأة ولم يشذ عن هذا الناموس من نسل آدم إلا عيسى عليه السلام إذ خلق من غير أب كما سبقت الإشارة إليه.

كان الإنسان يدرك هذا الناموس منذ بداية تفكره في هذه الحقيقة لكنه لم يعلم منها إلا الجزء اليسير وإن وصل إلى إجابة عن تساؤلاته فهي لا ترتقي إلى الإجابة التي قدمها القرآن الكريم. إذ كان لا يعلم حقيقة "النطفة الأمشاج" و"الظلمات الثلاث" و"الأطوار الجنينية" بالتفصيل. وقد قدم القرآن الكريم وصفا دقيقا لهذه الحياة لم يتمكن العلماء من معرفته إلا بتطور العلم في هذا العصر، وسنشرح هذه المرحلة بإيجاز من خلال الآيات القرآنية ونحاول ترتيبها مستعينين بما وصل إليه العلم الحديث على أننا نحيل القارئ خلال ذلك إلى المراجع التي تفصل القول في هذه المسألة.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1] ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2] ويقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3].

فالحياة الجنينية هي نتاج التزاوج بين الرجل والمرأة، ولقد جعل الله تعالى هذا التزاوج غريزة في كل من الرجل والمرأة كما جعلها غريزة في الحيوانات إلا أن الإنسان يختلف فيها عن الحيوان فرغم إلحاحها الشديد والمستمر بلا انقطاع عند الإنسان إلا أنه وهب الضوابط اللازمة التي تحفظه من الانصياع لها وإطلاق العنان لها كما هو الشأن عند الحيوان، فالعقل والإرادة والشرع جعل الإنسان يحدد قيمتها ومعناها ويفرق بين حقيقة "الزواج" وحقيقة "الزنا" ويدرك أهمية تنظيم إشباع هذه الغريزة وضبطها بالنكاح الشرعي الذي من ثمراته النسل المحبب إلى النفس والمرغب فيه، ولهذا حددت هذه الآيات هذه العلاقة بقوله: «ثم جعلكم أزواجا" وقوله: وجعل منها زوجها ليسكن إليها" ولا يتحقق السكن إلا بالنكاح الشرعي».

---

[1]-سورة النساء، الآية: 1.

[2]-سورة الأعراف، الآية: 189.

[3]-سورة فاطر، الآية: 11.

يبدأ تكون الجنين من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة وهذه المرحلة أشار إليها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[1] وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[3]. والنطفة الأمشاج هي المرحلة الأولى من تكون الجنين وسميت أمشاج لأنها مختلطة ومكونة من اتحاد نطفة الرجل مع بييضة المرأة وقد توصل العلم في العصر الحديث إلى أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة ليحصل الإخصاب، كما أن ماء المرأة الذي يحمل البييضة لابد أن يكون حيويا متدفقا متحركا لكي يتم الإخصاب، وكل من ماء الرجل والمرأة يحتويان على عناصر أخرى مساعدة في عملية الإخصاب[4]، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[5]، ولقد حدد العلم الحديث حقيقة هذه النطفة الأمشاج بشكل دقيق لم يكن معروفا من قبل فأمشاج من الناحية العلمية دقيقة تماما وهي صفة جمع تصف كلمة نطفة المفردة التي هي عبارة عن كائن واحد يتكون من أخلاط متعددة تحمل صفات الأسلاف والأقارب لكل جنين، وهي خلال هذه الفترة –فترة النطفة الأمشاج– تحتفظ بشكلها وحجمها ولكنها تنقسم خلال ذلك مشكلة خلايا متعددة وبعد خمسة أيام تنشطر تلك الخلايا إلى جزئين ولهذا سميت "نطفة أمشاج" لحملها أخلاطا كثيرة مع احتفاظها بشكلها الأول، فهي حاصل اندماج المنوي الذي يوجد فيه (23) حاملا وراثيا، مع البييضة التي تحمل (23) حاملا وراثيا، وحينها تكون مساوية للخلية الإنسانية باحتوائها على (46) صبغيا (كروموسومات)، وبوجود هذه الخلية الجديدة (الأمشاج) يتحقق الوجود الإنساني ويتقرر به خلق إنسان جديد، فالمراحل التالية ترتكز على هذه المرحلة وتنبثق منها[6].

ثم تأتي مرحلة الاستقرار في الرحم إذ تلتصق هذه "النطفة الأمشاج" بالرحم وتتعلق بجداره عن طريق خلايا تنشأ منها مكونة المشيمة، وطور الإنغراس في جدار الرحم عن طريق ما يسمى بالمشيمة هو آخر طور في مرحلة "النطفة الأمشاج"[7]، وحين تتمكن تلك النطفة في الرحم وتستقر

---

(1)–سورة المرسلات، الآية: 20.

(2)–سورة السجدة، الآيات: 7–8.

(3)–سورة الإنسان، الآية: 1.

(4)–هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، المجلس الأعلى العالمي للمساجد، رابطة العالم الإسلامي، مكة مكرمة، ط، د ت، ص 33–40.

(5)–سورة الطارق، الآيات: 5–7.

(6)–هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، ص 33–40.

(7)–المرجع نفسه، ص 42.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1]. تبدأ في المرحلة الثانية في الوصف القرآني، وهي مرحلة العلقة، وسميت بالعلقة لكونها تعلق بجدار الرحم لتتغذى منه كما تعلق العلقة بالحيوان عند انتقالها مع الماء الذي يشربه لتمتص دمه وتتغذى به، وهذا المرحلة التي يكون فيها الجنين علقة تكون الدماء فيها محبوسة في العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجمد[2]. ثم يبدأ بالتغذي من دماء الأم، مثلما تفعل الدودة العلقة ويستمر الدم محبوسا في هذه المرحلة حتى نهاية الأسبوع الثالث وقد أظهر القرآن الكريم التحول البطيء من النطفة إلى العلقة باستعمال حرف العطف "ثم" كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا...﴾[3].

بعد هذهالمرحلة –مرحلة العلقة– تأتي مرحلة المضغة إذ يتحول الجنين في اليومين 25-26 إلى ما يشبه المضغة وسميت بذلك لكونها تأخذ شكل وحجم ما يمكن مضغة وخلال هذه المرحلة يأخذ الجنين في التحول والتغير ولكن كل هذه التحولات لا تخرج عن الأشكال المختلفة للمضغة ثم يأخذ في الانحناء والاستدارة كاستدارة المادة الممضوغة قبل أن تبلع[4] ثم تنتهي هذه المرحلة بتميز الجنين الإنساني عن شكل الجنين الحيواني لاكتسابه حينها مميزات الإنسان[5]. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا...﴾[6].

ومن مرحلة المضغة تبدأ مرحلة العظام تقريبا في بداية الأسبوع السابع وهذه المرحلة لا تتم إلا عبر مراحل متتالية وهي المرحلة التي يظهر فيها الهيكل العظمي المميز للإنسان، ويصبح الجسم أكثر استواء في طور العظام، ويتخذ في هذا الطور مظهرا أكثرا استقامة، ثم تكسى العظام باللحم مع نهاية الأسبوع السابع تقريبا وخلال الأسبوع الثامن، ويظهر تميز عضلات الجذع والأطراف والرأس، وبهذا يصبح الجنين قادرا على إحداث بعض الحركات في نهاية الأسبوع

---

[1]–سورة المرسلات، الآيات: 20-22.

[2]–عبد المجيد الزنداني: إنه الحق، دار وحي القلم، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 21-22.

[3]–سورة غافر، الآية: 67.

[4]–عبد المجيد الزنداني: المرجع السابق، ص 25.

- هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، ص 64-68.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص 11، وغيره من التفاسير.

[5]–عبد المجيد الزنداني: المرجع السابق، ص 31، 59، 86.

[6]–سورة الحج، الآية: 5.

الثامن وهذه المرحلة متداخلة مع مرحلة نشأة العظام فلا تكاد تتميز من بعضها ولهذا جاء العطف بين المضغة والعظام بـــ "ف" في حين جاءت المراحل الأخرى معطوفة بـــ "ثم" فحروف العطف هنا تتضمن دقة لغوية وعلمية معا، ثم من مرحلة الكساء باللحم تأتي مرحلة الخلق الأخر وهو التميز التام للإنسان[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[2]، فخلال هذه المرحلة يتم التصوير الإنساني السوي المتميز يقول تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[3]. وهذا التميز والخلق السوي أشار إليه بقوله سبحانه وتعالى: "ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" وقوله: الذي أحسن كل شيء خلقه" وقوله أيضا: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[4] وقوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[5].

وحسن التقويم من أعظم دلائل التميز الإنساني وانفراده وتهيئته لوظيفته الوجودية إذ جعل له السمع والبصر والفؤاد وهي إشارة إلى الإرادة والإدراك والحرية والمسؤولية الإنسانية كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[6].

ولم يتمكن العلم من استبيان هذا التقسيم المتميز إلا من خلال القرآن الكريم، فقد اعترف علماء الأجنة بأن التقسيم الذي تقسم إليه أطوار الجنين في بطن أمه الآن في العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم، ذلك لأنه يقسم المراحل تقسيما رقميا، من المرحلة الأولى إلى المرحلة الرابعة أو الخامسة وهكذا، أما التقسيم الذي جاء في القرآن فإنه لا يعتمد على الأرقام بل يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية، فكانت سهلة و واضحة ودقيقة ونافعة وهي: نطفة- علقة- مضغة- عظام- كساء العظام باللحم- النشأة خلقا آخر، وخلال هذه الأطوار يتخذ الجنين الرحم مستقرا له، ويتمتع بحماية طوال هذه الفترة بفضل المميزات الخاصة التي يتميز بها الرحم كالتناسب مع حجم وشكل الجنين إذ

---

(1)-محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1418، 1998 ص 131.

(2)-سورة المؤمنون، الآيات: 12-14.

(3)-سورة السجدة، الآيات: 7-9.

(4)-سورة الانفطار، الآيتان: 7-8.

(5)-سورة التين، الآية: 4.

(6)-سورة الإسراء، الآية: 36.

يزداد بازدياد حجمه وكذا التلاءم مع هيكل الجسم العام، وكذا تكونه من أحجبة ثلاثة تحمي الجنين حماية تامة[1] كما قال تعالى:﴿...يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ...﴾[2].

وما يمكن الإشارة إليه هو ما نستنتجه من خلال الإشارات القرآنية إلى أطوار الجنين مقارنة مع إشارته إلى خلق آدم عليه السلام في شأن التميز الإنساني عن باقي المخلوقات فقد علمنا من خلال قصة آدم أنه لم تنفخ فيه الروح إلا بعد تهيئته عبر تلك المراحل فلما سواه الله تعالى نفخ فيه من روحه كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3]. وكذا فإن الجنين الإنساني رغم تميزه بعد مرحلة "النطفة الأمشاج" والعلقة والمضغة –أي بعد 40 و42 يوما– إلا أنه لم ينتقل مباشرة إلى مرحلة الخلق الآخر، بل يستمر نمو العظام والعضلات من الأسبوع الثامن حتى الشهر الرابع ليتم التميز الحقيقي والتام في مرحلة "الخلق الآخر" بنفخ الروح، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك. ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله تعالى الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله وشقي أو سعيد...» [4]. فهذا الإعداد عبر كل تلك المراحل وخلال تلك المدة –إلى الشهر الرابع– هو من أجل تسويته لنفخ الروح ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[5]. فالإشارة إلى التسوية مقصود بها تسوية الماء المهين[6] بجعله خلقا معتدلا ستويا كما

---

(1)–انظر تفصيل هذه الحقائق من منظور العلم: –خالص جلبي: الطب محراب الإيمان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دت، ج2، ص 241–245.

–محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، دار المكتبي، سورية، دمشق، ط1، 1425–2004، ص 161–163.

(2)–سورة الزمر، الآية: 6.

(3)–سورة ص، الآية: 71.

(4)–رواه البخاري في كتاب بدء الخلق،باب ذكر الملائكة، صحيح البخاري، مكتبة زهران،مصر، دط،دت،مج1، ج1،ص221 .

– رواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص190.

(5)–سورة السجدة، الآيتان: 8–9.

(6)–أورد القرطبي في تفسيره لهذه الآية: رأيا يقول بأن المقصود من التسوية ونفخ الروح هو ذرية آدم أي الأخبار عن الحياة الجنينية، وهو يرى بأن المقصود به هو آدم عليه السلام، إذ أخبر عن ذريته التي جعلها من ماء مهين ثم رجع إلى آدم فقال: ثم سواه ونفخ فيه من روحه، أي سوى خلقه ونفخ فيه من روحه، ثم رجع إلى ذريته فقال: "وجعل لكن السمع والأبصار والأفئدة". انظر تفسيره: الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص91. ولا يبتعد الرأي الذي أورده وأخذنا به عن معنى الآية ، إذ الإخبار عن التسوية وحسن الصورة والتركيب وردت أيضا عن ذريته كما في=

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]. ثم نفخ فيه من روحه كما قال: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾. فنفخ الروح تتم في آخر مرحلة من المراحل التي تجعل من الجنين – بجسمه وروحه– خلقا آخر مختلفا عن أي كائن حي آخر، ويستمر النمو الجسمي والنفسي والعقلي إلى ما بعد الولادة.

وعلى هذا فإن الخلق الإنساني الأول –آدم عليه السلام– تشبيه بالخلق الإنساني في مرحلة الجنين، فكما مرّ آدم بمرحلتين –تسوية المادة ثم نفخ الروح– كذا فإن الجنين يمر بمرحلتين بارزتين تظهر من خلال تلك الأطوار وهي مرحلة التسوية ثم نفخ الروح، وكما ظهر تميز آدم في المرحلة الثانية يظهر تميز ذريته في المرحلة الثانية من المراحل الجنينية، ويكتسب فيها صفة الإنسانية مع الفارق بين المرحلتين الأوليين من حيث طبيعة مادة التكوين.

ومما يمكن الإشارة إليه في هذا الجانب هو أن "الروح" التي أخبر الله عنها بأنها من أمره كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]. لا يمكن للعلم أن يقول شيئا عنها خارج حدود الإشارات القرآنية، فلا يمكنه أن يثبت كما لا يمكنه أن ينفي ولا يستطيع أن يصل إلى كيفية نفخها، إلا أنه يتضح جليا بأنها ليست الحياة فالروح شيء والحياة شيء آخر ذلك لأن مظاهر الحياة بادية على الجنين منذ بداية التخلق بل قبلها فقد أثبت العلم حياة كل من النطفة والمني، وكما أن الروح من أمر الله ومن أسرار الخلق فإن الحياة كذلك يلاحظها الإنسان لكن يعجز عن تفسير حقيقتها والوصول إلى كنهها.

ونفخ الروح يكون بعد تسوية الجسد وإذا اتحدت بالجسد أطلق عليها اسم النفس فإذا انفصلت غلب عليها اسم الروح، ويطلق اللفظان على نفس المعنى، كما أن لهما معان مستقلة فقد أطلقت الروح للدلالة على جبريل كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى

=سورة التين، الآية: 4 وسورة الانفطار، الآيات: 6–8، وعلى هذا لا يبتعد أن يكون المعنى مقصود به الإخبار عن تسوية الجنين ونفخ روحه إلى جانب الإخبار عن آدم عليه السلام ومن التفاسير التي تأخذ بهذا الرأي: تفسير ابن عباس: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص348. وتفسير فخر الدين الرازي، ج25، ص173، وتفسير الطاهر ابن عاشور، تفسر التحرير والتنوير، ج21، ص216.

[1]–سورة الانفطار، الآيتان: 6–8.

[2]–سورة التين، الآية: 4.

[3]–سورة الإسراء، الآية: 85.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]. كما تطلق للدلالة على الوحي[2]، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[3]. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]. وهذه المرحلة الأخيرة في تكامل الكيان الإنساني تؤكد صلة الإنسان بالله تعالى ومسؤوليته أمامه على ما حمله من أمانة.

وعملية التسوية ليست مجرد جمع لمواد بل تتضمن صناعة متقنة دقيقة معجزة، فهي التي وهبت العناصر المادية أهميتها الجوهرية في التكوين على أحسن صورة لهذا الكائن الإنساني، إننا نلحظ القصد والحكمة من خلال أطوار الجنين، فالنظام والتوازن والتقدير الدقيق ظاهر بشكل جلي في هذه المراحل. لقد كشف العلم هذا التقدير وهذه الحكمة وصرح بعجزه عن إدراك حقيقة التغيرات التي تحدث في الخلية الجنينية الأولى سواء عندما تنقسم أو عندما تؤدي وظيفتها الإفرازية، ولا يعرف لماذا تعمل بعض الجينات في بعض الخلايا، ويعمل غيرها في أخرى، كما تظهر العقبة عند حديثه عن التخصص في المضغة إذ هناك مرحلة مضبوطة يتحول فيها مسار الانقسام من انقسام عادي هدفه زيادة عدد الخلايا إلى انقسام متخصص هدفه تكوين أنسجة وأعضاء وأجهزة.

هذا المنعطف الكبير في سير الانقسام الخلوي يحدث دون أن يكون هناك ما يدل على أن المعلومات الوراثية الموجودة في نواة كل خلية هي السبب إذ أن هذه المعلومات عامة تتضمن تصميم الجسم كله، فالسر في هذا التخصص الذي يظهر في المضغة هو نفسه السر الذي به يستمر الجسم في المحافظة على الاختلافات القائمة بين أعضائه ووظائفه حتى الممات[5]، ليس للعلم الوقوف على كنهها لأن هذه الوظائف من أسرار الحياة، وهي من تقدير حكيم عليم الذي له الخلق والأمر، فهذا السر تكشف عنه الأحاديث النبوية الشريفة كقوله ﷺ: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب

---

(1)-سورة الشعراء، الآيات: 192-195.

(2)-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص110-140.

(3)-سورة النحل، الآية: 2.

(4)-سورة الشورى، الآية: 52.

(5)-محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، ص170-171.

انكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء»[1]، فهذا الحديث يكشف عن تدخل القدرة الإلهية بإرسال الملك والأمر بتكون الجنين واكتماله بتصييره من مرحلة إلى أخرى، كما تكشف عنه الآيات القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]. وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[3].

ب-حقيقة الحياة الإنسانية بعد الولادة:

يستمر الحمل إلى الأجل الذي يقدره الله تعالى، فإذا لم يحدث سقط للجنين خلال المراحل الأولى واستمر نموه بشكل عادي، فإنه يكتمل عند تمام الشهر السادس، فإذا قدر الله سبحانه وتعالى خروجه إلى الحياة الدنيا فإنه يعتبر مكتمل الحياة الجنينية وتعتبر ولادته عادية، وقد أثبت العلم كماله في هذه الفترة[4]، كما جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿...وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[6]. وقوله تعالى:﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[7]. فهذه الآيات تدل على أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر وبهذا أفتى الفقهاء منذ القديم[8]. ولهذا قال تعالى محددا تدخل الأمر الإلهي في تقدير أجل الجنين في بطن أمه: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[9]. ثم تتم الولادة لتتابع الحياة الإنسانية خارج الرحم فتبدأ بمرحلة الطفولة، وتستمر إلى الوفاة، ولقد حدد القرآن الكريم مراحل هذه الحياة في ثلاث مراحل أساسية كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[10]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ

---

(1)-رواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص193.

(2)-سورة يس، الآية: 82.

(3)-سورة الملك، الآية: 1-2.

(4)-هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، ص103.

(5)-سورة الأحقاف، الآية: 14.

(6)-سورة لقمان، الآية: 14.

(7)-سورة البقرة، الآية: 233.

(8)-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص188.

(9)-سورة الحج، الآية: 5.

(10)-سورة الحج، الآية: 5.

قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وتختلف هذه الحياة عن سابقتها، فهي طويلة تبدأ بمرحلة الطفولة وهي مرحلة الضعف التي يحتاج فيها الطفل إلى رعاية تامة من الوالدين ليكتمل نموه العقلي والنفسي إلى جانب النمو الجسمي، وتعتبر هذه المرحلة من أحرج المراحل وأخطرها، إذ يتوقف عليها مستقبل الإنسان، ويختلف المولود الإنساني عن المولود الحيواني إذ لا يولد حركيا كالحيوان، ولعل هذا من الحكم الكبرى من أجل توجيه السلوك الإنساني إلى الوجهة التي يحقق فيها كمال إنسانيته، إذ أن كمالها متوقف على الإنسان نفسه بما وهبه من الإدراك وحرية الإرادة.

فنمو الطفل الجسمي يصاحبه نمو نفسي وعقلي، إذ يتعرف شيئا فشيئا على نفسه وما حوله، وتساعده وسائل الإدراك على ذلك بشكل كبير، فملاحظاته التي يسجلها تكشف عنها أسئلته المختلفة واهتمامه يتزايد ويكبر شيئا فشيئا وما ذلك إلا دليل نموه العقلي.

ثم تبدأ مرحلة الأشد التي تعتبر مرحلة القوة وكمال النمو وهي مرحلة من أخصب مراحل العمر نشاطا في جميع الجوانب وخلالها يستطيع الإنسان أن يقدم إنتاجا يفوق جميع المراحل يتناسب مع التكوين العقلي والجسمي لذلك الإنسان ومع طبيعة العمل الذي يؤديه وخلال هذه المرحلة يتوقف نمو الجسم في مرحلة من العمر، إذ يصبح الجسم حينها في كامل نموه وقوته، أما النمو العقلي فيستمر إلى نهاية مرحلة الأشد التي قدرها العلم بأربعين سنة وأشار إليها قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]، ومن هذه السن ينقلب العمل الفيسيولوجي في جميع الجسم، فتصير عملية الهدم أقوى من عملية البناء والتعويض، ويبدأ هذا الانقلاب بفروق طفيفة بين العمليتين، ثم تكبر وتتسع، فتظهر أعراض العجز على بعض الغدد، كالغدد المسؤولة عن التلوين فيظهر الشيب، وغدد الدهن الجلدية فتظهر التجاعيد، وتعم حالة الضعف كافة أجزاء الجسم، فيتناقص الوزن والطول، وتفتر الحركة والنشاط ويبدو جسم الإنسان وعقله وكأنما يقومان برحلة عودة ينزلان فيها بنفس المنازل التي كانا قد مرّا بها في رحلة النمو والقوة[3]، ليصل إلى مرحلة أرذل العمر كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ

---

[1]-سورة غافر، الآية: 67.

[2]-سورة الأحقاف، الآية: 15.

[3]-محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، ص164.

بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[1]. وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2]، وهو ما يذكرنا بمنازل القمر التي قدرها الله سبحانه وتعالى والتي تبدأ بالضعف وتنتهي بالضعف كما يذكرنا بمنازل المخلوقات التي تمر على هذه السنة الإلهية المقدرة ولا يخرج عن هذه السنة أحد منها، إلا أن تقضي إرادة الله سبحانه وتعالى بقطعها قبل تمامها فينتهي أجلها قبل ذلك كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3].

خلال رحلة العمر هذه يتفاعل جانبان رئيسيان في التكوين الإنساني (الجانب الأرضي – المادي – والجانب الروحي) ولا ينفصلان إلا بالموتة الكبرى وخلال ذلك يعمل العقل والفطرة إلى جانب الشرع على تسديد المسيرة.

إذا أردنا التفصيل في حقيقة هذا التفاعل في تكوين النفس الإنسانية السوية الكاملة فإن هذا المقام لا يتسع لذلك، فمن المادة والروح يتكون الإنسان الذي يتمتع بالقوة والنشاط الحيوي الذي ينبع من الداخل، والذي له أثر كبير في توجيه وتوظيف السلوك الإنساني، للوفاء بحاجاته الجسمية والنفسية بإرادة منه، وحرية واختيار، وإذا كان الإنسان يملك التحكم وترشيد سلوكه أو تعديله فإنه لا يتحكم في الوظائف العضوية والنفسية التي تجري بداخله، فالجوع والعطش والنوم وغريزة التزاوج والخوف والحب والبغض والأمومة والأبوة وغيرها كلها دوافع نابعة من داخل الإنسان ضاغطة ومحرضة للسلوك الإنساني[4]، وللإنسان قوة العقل وسلامة الفطرة وتوجيه الشرع كما له حرية الإرادة يستطيع أن يضبطها ويعدلها ويوجهها في المسار الصحيح، كما يستطيع أن يستجيب لها استجابة كاملة ويسرف فيها، وهو يقع في ذلك بين إلحاح النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة[5]، بين نداء الفطرة ونداء الشهوات ولا يستطيع تحديد سلوكه أو ضبطه إلا بقوة الإرادة التي تلتقي مع الفطرة والعقل والشرع، وعلى هذا اختلف السلوك من شخص لآخر، وعجز العلم عن تحديده وضبطه والتنبأ به في دراساته للإنسان، فقد يسلك في لحظة ما غير السلوك الذي كان من المتوقع أن يسلكه، فقد يهم الإنسان بسوء ما لكن يصح في لحظة وفترة غير متوقعة فيتحول إلى

---

(1)–سورة الروم، الآية: 54.

(2)–سورة النحل، الآية: 70.

(3)–سورة غافر، الآية: 67.

(4)–عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص201–202.

(5)–سيأتي حديث عن خصائص هذه النفس –الأمارة بالسوء واللوامة– في الفصل الثالث.

ضده، وتفصيل الحديث عن هذا الجانب يتطلب تناول جوانب عدة لم ينته علم النفس من الحديث عنها.

وعلى الرغم مما وصل إليه العلم في شأن الإنسان إلا أنه لا زال مجهولا في كثير من جوانبه وهو ما يدل على حقيقته، إنه كون صغير اجتمعت فيه بدائع صنع الخالق سبحانه وتعالى التي بثها في جميع مخلوقاته وزاده تميزا بنفخ الروح، فكان من أغربها وأعقدها.

لقد كشفت الأبحاث التي اهتمت بدراسة الإنسان الكثير من الآيات وأكدت أنه لا يستطيع –الإنسان– أن يفعل بنفسه أحسن مما فعله الله به، وأن أقصى آمال العلم أن يوفر للإنسان الوسط الذي يحافظ له على توازنه، أو أن يرد له هذا التوازن عندما يختل، ففي الجانب النفسي يسعى علم النفس إلى التعديل من سلوكاته المنحرفة والشاذة التي تؤثر على حياته أما في الجانب الجسمي فيسعى الطب إلى محاكاة تلك الأعضاء حال فقدها ومهما حاول فإنه لا يصل إلى تعويض العضو الأصلي في مهماته ووظائفه وإن أدّى العضو المستبدل الدور فإنه بصعوبة وتعقيد.

فالعقل الذي حكم باستحالة أن يوجد الإنسان من غير خالق، يحكم باستحالة أن يوجد شيء فيه لغير حكمة، وعندما يتقصى الافتراضات التي كانت يمكن أن يكون عليها خلق الإنسان يتبين أنها كلها تكشف مستوى ما كان عليه خلقه فعلا، ولا زالت الدراسات التي تتم حول خلق الإنسان تظهر –حسب قدرتها المحدودة– أن كل شيء في الإنسان قد خلق بكافة الشروط التي تجعله في موضعه اللائق به[1]. ولقد ساهمت الأبحاث العلمية في الكشف عن مظاهر الحكمة في خلق الإنسان، فصفة الخلق لا تنفك عنها صفة الحكمة، فالخلق والنظام لا ينفكان لأن الخالق واحد والمنظم والمقدر الحكيم واحد.

وكما كان النظام والتوازن في الكون جمال وكان الجمال ينبئ عن وحدانية الله تعالى فقد كان لتميز الإنسان بخصائص الإنسانية إضافة إلى اجتماع ما بث في الكون من بدائع صنع الخالق سبحانه وتعالى فيه جمال خاص ينبئ عن حسن التقدير والتنظيم ويدل على الحكمة والعلم والقدرة بأكثر ما دل عليها الكون.

فلقد سواه الله سبحانه وتعالى جسدا متناسقا قادرا على تحمل قوة "العقل"، لقد جعله حيا متحركا متكاملا له أعضاء ظاهرة عاملة مسخرة لتلبية أوامر هذا العقل، كالسمع والبصر واليدين والرجلين، كما له أعضاء داخلية تعمل بغير إرادة منه كأجهزة التنفس والهضم وضخ الدم، ثم وراء هذا كله مدركات ومشاعر فظهر في أحسن صورة وأحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

---

[1]–محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، ص291–292.

الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]. ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[2]. فخلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل، فإن الجمال والاستواء والاعتدال يبدو في تكوينه الجسدي وفي تكوينه العقلي وفي تكوينه الروحي على حد سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء[3].

المطلب الثالث: دليل الضعف والحاجة

إن حقيقة التركيبة التي يتكون منها الإنسان جعلت منه الكائن المتميز بين جميع المخلوقات، فاجتماع المادة والروح جعلت منه الإنسان صاحب العقل والإرادة الحرة، وصاحب الوجدان والانفعالات والدوافع التي هي حاجات واستعدادات كامنة، قد لا يدركها الإنسان مباشرة، وإنما يستنتجها من الاتجاه العام للسلوك فهي قوى داخلية ضاغطة وموجهة للسلوك الإنساني، لتحقيق أهداف معينة من شأنها القضاء على حالة التوتر أو اختلال التوازن التي تحدثها لإشباع حاجاته الأساسية كحفظ الذات أو النوع، وحاجاته التي تجعله في توافق مع البيئة الخارجية، ويمثل هذه الدوافع في التعبير القرآني بشكل عام "النفس الأمارة بالسوء" و"النفس اللوامة"[4].

والناظر إلى سلوك الإنسان بعيدا عن كل ضابط يحدّ من قوة هذه الدوافع، يرى فيه القوة التي لا تقهر، ذلك حين يتحول إلى إنسان عابث لاه مستكبر ومستعل يرى من نفسه المسير والمسيطر، والتاريخ الإنساني لا زال ينقل بعضا من هذه الحقائق عن هذه النماذج، وقد سجل القرآن الكريم بعضا منها كما قال تعالى عن فرعون: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى. اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى. فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[5]. وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

---

[1]-سورة التين، الآية: 4.

[2]-سورة الانفطار، الآية: 6-8.

[3]-عبد العليم عبد الرحمن خضر: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، ص97-98.

[4]-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص202.

-عبد العلي الجسماني: القرآن وعلم النفس، الدار العربي للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1997م، ص243.

[5]-سورة النازعات، الآيات: 15-24.

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

لكن إذا نظر إلى حقيقة التكوين الإنساني كشف حقيقة ضعفة أمام أمر الله تعالى وقدرته، وكشف حاجته إلى الخالق سبحانه وتعالى في أن يحفظ له التوازن الكوني كما يحفظ له توازنه الجسمي والنفسي إذ بهما قوام حياته.

فمثلا إذا نظرنا إلى جانبه النفسي وجدنا دوافعه النفسية أو غرائزه النفسية والتي تعد المصدر المحرك للسلوك والتصرف الإنساني في المواقف المختلفة في محيطه الذي يعيش فيه، ولقد قسم علم النفس الدوافع إلى قسمين دوافع فطرية ودوافع مكتسبة، والدوافع الفطرية منها الحاجات العضوية الجسدية والتي مصدرها الجانب الجسمي من الإنسان كالنوم والتعب والتزاوج وغيرها، ومنها الحاجات النفسية وهي غير عضوية وإن كانت ترجع بطريقة غير مباشرة إلى الدوافع العضوية، كحب الخلود والتملك وحب الاستطلاع وغيرها، أما الدوافع المكتسبة فهي ما يتعلمه الإنسان عن طريق النشاط التوفيقي بين دوافعه الفطرية والاستجابة لها من جهة، والبيئة الخارجية التي تفرض عليه قيما ومبادئ وعادات وتقاليد من جهة أخرى، وذلك لتعديل سلوكه بتوجيهه وتوظيفه بما يوافق هذه الاتجاهات مجتمعة، فهي دوافع نفسية مكتسبة مترتبة على الدوافع الفطرية ومتنوعة ومشتقة منها نتيجة لتلك التفاعلات مع الاتجاهات المتعددة[2].

فهذا العدد من الدوافع يجعل الإنسان بحاجة إلى معرفة كيفية ضبطها للسير في الطريق السليم، وإذا نظر الإنسان في دوافعه الفطرية مثلا يجد بأنه لا يملك دفعها أو القضاء عليها، وإذا تمكن من السيطرة على واحد منها فإنه لا يستطيع سيطرة وقهر الباقي، فمثلا لو أراد الحد من دافع التزاوج بنزع العضو المسؤول عنه فإنه لا يمكن له السيطرة على النوم ولا أن يسخر جسده في عمل دائم ومستمر أوقاتا طويلة دون إحساس بتعب أو ملل.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة ضعف الإنسان وعجزه وحاجته المستمرة إلى التوسط والاعتدال في جميع شؤونه ليحفظ توازنه الذي فطر عليه.

وسنحاول بيان وشرح بعضا من الحقائق التي تكشف عن حقيقة هذا الضعف الإنساني وعجزه أمام إرادة الله تعالى وقدرته القاهرة والتي تكشف عن كمال التقدير والتدبير الحكيم.

---

[1]-سورة القصص، الآية: 4.

[2]-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم، ص203-207.

أولا: النوم

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

حقيقة التوفي بالليل المذكور في الآية هو النوم بالليل وقد استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وأما البعث في النهار فمعناه يوقظنا فيه، وهذه سنة الله في الإنسان إلى أن يحين أجله المقدر فيميته الموتة الكبرى وعندها لا يبعث إلا يوم البعث، هذا ما قاله المفسرون عن معنى هذه الآية[2] فما قول العلم في هذه الحقيقة؟

النوم من الدوافع الأساسية في الإنسان، فهو لا يستطيع الاستغناء عن فترة يلجأ فيها إلى النوم والراحة والاسترخاء يجدد به نشاطه وحيويته ولا يتحقق له ذلك إلا بالنوم.

والنوم من أعظم النعم التي أنعم الله بها علينا، بها يحافظ الإنسان على نشاط جسمه، ذلك أن جسم الإنسان في يقظته التي يصحبها عادة عمل ما إما فكري وإما عضلي يفرز مادة في الدم بنسب ضئيلة تزيد مع مرور وقت اليقظة، فإذا ارتفعت وبلغت حدا معينا في الدم أرسلت أمرا إلى الدماغ الذي يرسل بدوره أمرا إلى مراكز النوم في العقد العصبية، فإما أن تتباعد العقد العصبية فتنقطع السيالة الكهربائية وهذا هو النوم، وإما أن تقترب بعضها من بعض فتمر السيالة العصبية الكهربائية، لهذا فإن آلية النوم مادة كيميائية أو مجموعة مواد تفرز في بدء اليوم بنسب ضئيلة جدا، وكلما مر الوقت ارتفعت هذه النسب إعلانا بحالة الإعياء ليكون النوم، وعلى هذا لو امتد استيقاظ الإنسان يومين متتابعين أو أكثر اختل توازن جسمه ليعلن حالته المرضية التي تظهر في قلة وعي الإنسان واضطرابه[3]، ولهذا فإن استرخاء الجسم في حالة النوم يساعد على تنظيم الدورة الدموية لتستعيد نشاطها الجديد بالاستيقاظ، وهو ما يساعد على طرد ما علق في أنحاء الجسم من مواد ضارة، كان الإجهاد أو اليقظة الطويلة السبب في علوقها وترسبها، ومن عجيب ظاهرة النوم أنه عملية تتم في الإنسان بلا إرادة منه، فهو لا يملك السيطرة على النوم، فقد يريد السهر لكن يغلبه

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 60.

[2]-الألوسي: روح المعاني، ج7، ص164-165.

-برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات: والسور، ج2، ص648-649.

- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج7، ص9.

[3]-محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، ص105.

سلطان النوم، وقد يريد النوم فلا يستطيعه[1].

وتوجد في الجسم مراكز للنوم الخفيف ومراكز للنوم العميق، ومجمل عدد ساعات النوم العميق ساعتان أما باقي ساعات النوم والتي تقدر بست (6) ساعات فهي نوم خفيف خلالها يكون الإنسان على نوع من الاطلاع على ما يجري حوله من كلام أو طرق باب وغيرها، على عكس النوم العميق الذي لا يشعر خلاله بشيء[2].

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بنا أن جعل للنوم ساعات معدودة، فالإنسان يقسم يومه بين النوم واليقظة وليس أحسن من الليل للنوم والنهار للعمل والسعي وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾[3] -إشارة إلى الراحة بالنوم وطلب الرزق بالنهار-[4]. ويقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5]. فدقة النظام والتسخير الحكيم للكون قبل أن يخلق الإنسان كان من أعظم الدلائل على تمام العناية الإلهية بهذا المخلوق الضعيف -الإنسان- الذي يعجز عن التدبير أو التدخل في شيء من ذلك.

وكما أن قلة النوم تبعث على اختلال توازن الإنسان فإن كثرة النوم كذلك، فقد أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن الإنسان الذي ينام ساعات طويلة على وتيرة واحدة يتعرض للإصابة بأمراض القلب بنسب عالية جدا، ذلك لأن شحوم الدم تترسب على جدران شرايين القلب خلال النوم المديد مما يؤدي إلى إضعاف عمل هذه الشرايين وفقدها لمرونتها، فتضعف بعدها عن ضخ كميات الدم المناسبة في العروق، وهذا ما يؤدي إلى زيادة الترسبات الدهنية فيضيق قطرها مما يؤدي إلى متاعب شديدة، ولهذا ينصح الأطباء بأن يقوم الإنسان من نومه بعد أربع أو خمس ساعات لإجراء بعض الحركات الرياضية أو المشي لربع ساعة تقريبا للحفاظ على مرونة شرايين القلب وتجنب أمراضه[6]. وهذا الدور تؤديه صلاة الفجر فهي كافية لإحداث التوازن ومن هنا ندرك

---

(1)-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: براهين وأدلة إيمانية، دار القلم، دمشق-بيروت، ط1، 1408هـ-1987م، ص388-389.

(2)-محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، ص106.

(3)-سورة الفرقان، الآية: 47.

(4)-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج13، ص43-44.

(5)-سورة القصص، الآية: 71-72.

(6)-محمد راتب النابلسي: المرجع السابق، ص109-111.

قدرة الله سبحانه وتعالى في جعل النوم آلية في الإنسان ثم ضبطها وتحديدها بوقت معين يكون فيه النوم مفيدا للجسم أكثر من غيره وبساعات محددة أيضا، إذا زاد عليها الإنسان انقلبت إلى الضد، ومهما حاول الإنسان أن ينام فإن نومه يذهب ونشاط الجسد يعود تلقائيا بعد استعادة الجسد لنشاطه بعد مدة محدودة من النوم، إلا أن استمراره مستلقيا على الفراش لا يحقق النشاط الكامل، إذ يستمر ثقل الدورة الدموية ولهذا لا يحصل الاستيقاظ التام فيعود الإنسان إلى النوم مرة أخرى إلى طلوع الشمس وربما بعدها، وإذا استمر الإنسان على هذه الحال فإنه يبقى يتردد بين النوم واليقظة وتكون عادة ساعات اليقظة أطول وحينها تصبح الفائدة غير مرجوة من هذا النوم، إذ يتعطل الجسد كما يتعطل السعي للكسب.

ثانيا: الطعام

جاءت الإشارة إلى نعمة الأكل في سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، وهذه الإشارة جاءت في سياق بيان حقيقة المباح من الطعام والمحرم منه ردا على المشركين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم افتراءا على الله[2].

فالمتأمل في نفسه لا يغيب عنه إدراك حاجاتها، ومن الحاجات الأساسية للإنسان التي بها تتم حياته وتستمر إضافة إلى النوم حاجته إلى الطعام، ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن جعل هذه الحاجة يعبر عنها الجسم بصفة آلية عن طريق الإحساس بالجوع مما يدفعه إلى تلبية هذا الدافع بالأكل، ولا يملك الإنسان الامتناع عن الطعام فإلحاح الجسم الشديد على طلب الغذاء عن طريق الإحساس بالجوع يدفع بالإنسان إلى تلبيته وإن منع من الطعام مدة طويلة، فإن مصيره الضعف ثم الموت.

يتم الإحساس بالجوع عن طريق تقلصات في أعماق المعدة، ويقوم «المركز المختص في الدماغ بترجمة هذه الإحساسات، [إذ] يتم تنبيه [المركز] عن طريق درجة تركيز السكر والماء في الدم [فـ]تترجم هذه التنبيهات إلى ما يعرف بإحساس الجوع[...]، وعندما يتم الشبع [...] تصل الإشارات إلى مركز الشبع[...]فيترجمها المركز في صورة إحساس بالامتلاء، [...] وبدون هذه

---

[1]-سورة الأنعام، الآيتان: 142-143.

[2]-سبق بيان هذه الحقيقة وشرحها في الفصل الأول، انظر: ص92، 99-100 من هذا البحث.

التنبيهات لا يستطيع الإنسان معرفة حاجته إلى الغذاء وربما أهمل تلبية هذه الحاجة حتى تفاجئه مضاعفات الجوع[...] الشديدة، ولولا هذه التنبيهات أيضا ما علم حد الكفاية من الطعام [...]وقد يؤدي به الإسراف[...] إلى مضاعفات أخرى، [...] [فـ] آلية الجوع والشبع[...] تمسك الأمر بتوازن واعتدال [وهو] [...] نموذج من الآليات التي تنظم العمليات اللاإرادية»[1]، ولولا هذا التوازن بين عمليات الجسم الآلية لتعرض الإنسان إلى الاختلال الذي يؤدي به إلى الهلاك.

رغم هذه الآلية التي تميز بها الجانب اللا إرادي في الإنسان إلا أنها لا تتمتع بالضبط الدقيق الذي يجعل الإنسان ينظم تغذيته بصفة دائمة فغالبا ما يكون الإقبال على الأكل عند الإنسان هو الغالب عن الامتناع، لذلك فقد يحصل إسراف فيه لا يدرك الإنسان خطره إلا بعد أن تصاب بعض الأجهزة بالمرض لذلك يحاول الطب الوقائي دائما توجيه الإنسان إلى الاعتدال في أكله كما يوجهه إلى الاعتدال في نومه، إلا أنه –الطب الوقائي– لم يصل إلى درجة التقدير الإلهي الحكيم الذي يوجه الإنسان إلى عدم الإسراف كما في قوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

كما يوجهه إلى أحسن علاج ودواء لهذا الإسراف الذي قد لا يحد منه الإنسان وهو الصيام شهرا كاملا؛ وإذا زاد الإنسان صيام بعض الأيام من السنة فطبقه كما شرعه النبي ﷺ زادت الوقاية أكثر من الكثير من الأمراض، فمن الفوائد التي أثبتها الطب من الناحية الجسمية أن المعدة والجهاز الهضمي يستريح خلال الصوم وهو ماينظم دوران الدم فيريح القلب من الضغط الزائد الذي تسببه المعدة إذ امتلأت وبدأت في تحليل الطعام وهو ما يساعد أيضا على تنظيم عمل الكليتين، وهناك أمراض تصيب القلب والأوعية الدموية والمعدة والأمعاء والكبد وجهاز البول–الكليتان– سببها الإسراف في الأكل وإن لم يكن إسراف فإن الاستمرار على وتيرة واحدة طول العام يكون سببا في حدوثها، ولا يقي منها إلا الصوم،فعمل القلب مثلا وسلامته منوط بحجم الطعام في المعدة ونوعيته وما يحفظه هو الاعتدال في الأكل والشرب،لذلك قدر الله سبحانه وفرض شهر الصيام ليزيل كل الترسبات في الجهاز الهضمي، هذه الترسبات إن لم تزال بالصوم تؤدي إلى تعفنات تسبب المرض، كما يصلح الوزن الذي زاد على حده الطبيعي والذي هو عادة شحوم لها ثقلها على الأجهزة التي تعمل على توازن الجسم ولهذا كان الصيام وقاية من كل هذه الأمراض، ولا يفيد الإنسان شيئا أن يجعل في شهر الصيام الليل للأكل الغير منظم واللامحدود فيحول وجبات النهار إلى الليل وربما

---

[1]–محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، ص186–187.

[2]–سورة الأعراف، الآية: 31.

أسرف وزاد وحينها تقل الفائدة وقد لا يزول الخطر[1].

لهذا تظهر فائدة الجانب الإرادي في الإنسان الذي أنعم الله به عليه لتنظيم التغذية وحفظ توازن الجسم الإنساني ويستمر نشاطه لأداء وظائفه الوجودية، وهو ما يدل على دقة التقدير الحكيم من الخالق سبحانه وتعالى.

وحاجة الإنسان إلى الطعام لا تتوقف عند حد الإحساس بالجوع بل تمتد إلى حاجته إلى تأمينه وتوفيره، وهو ما يلجأ الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ليحفظ ما ضمنه له من زرق من خلال تسخير هذا الكون بكل ما فيه من أجل ضمان نبات مختلف أنواع الأطعمة والثمار، وكذا حفظ الثروة الحيوانية التي تعد من مصادر تغذيته، كما تعد من المخلوقات التي تساهم في حفظ التوازن البيئي، وهذه الحقيقة نلمسها من العديد من الآيات القرآنية كما في الآيتين 142 و143 من سورة الأنعام، وكما في قوله تعالى أيضا: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2]. ولقد امتن الله تعالى على عباده بكونه مخرج لهم الرزق ومذلل لهم سبله فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ. أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ. أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[3].

ثالثا: السمع والبصر والقلب

يقول تعالى:﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[4].

لا يستطيع الإنسان إنكار دور الحواس والتي من بينها السمع والبصر في ضمان توازنه في الحياة، فهي أساس صلة الإنسان بما حوله إذ تزوده بالخبرات المعرفية عن العالم الخارجي، وهي رغم الاختلافات الكبيرة التي توجد بينها في طريقة أدائها للوظيفة إلا أن العقل يكون من مجموعها

---

[1]-محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، ص131-142.

[2]-سورة عبس، الآيات: 24-32.

[3]-سورة الواقعة، الآيات: 63-74.

[4]-سورة الأنعام، الآية: 46.

صورة عن المحيط الذي يعيش فيه[1] وبدون هذه الحواس يصبح الإنسان في عالم مظلم لا يدرك من حقيقته شيئا.

أما القلب الوارد ذكره في هذه الآية فإنه عالم قائم بذاته اتسعت معانيه وتعددت جوانبه حتى لم يعد بالإمكان حصره في المعاني العاطفية وحدها أو في المعاني العقلية، بل يتجاوز هذا فيجمعهما معا.

وردت لفظة "القلب" في القرآن الكريم في 131 آية[2] وهي تتحدث عن جوانب كثيرة في النفس البشرية، بحيث تشعرنا أحيانا أننا أمام صورة من صور العقل، أو أمام العقل ذاته، وأحيانا أخرى نشعر أننا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانية، وأحيانا ثالثة نجد أنفسنا أمام جانب يجمع بين الجانبين العقلي والعاطفي ويزيد عليهما عمقا وبعدا آخر. ومن الآيات التي جمعت بين العقل والقلب معا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3]، وتعتبر هذه الآية أهم آية من آيات القرآن الكريم إذ تبين إلى أي مدى يلتقي العقل والقلب ويتحدان في معنى واحد يعبر تعبيرا عميقا عن حقيقة موجودة في الإنسان تقف وراء العقل والقلب معا.

ففي هذه الآية دعوة إلى السير في الأرض والذي يقوم بالتعقل هو القلب، فقد أسند إلى فعل العقل فقال: "قلوب يعقلون بها"، ثم أشار إلى شيء هام ودقيق وهو: أن العناية لا تكون إلا إلى القلب الذي يوجد في الصدر، فهناك بصر ورؤية عينية وهناك بصيرة ورؤية قلبية، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من آيات ودلائل وحدانية الله تعالى لكنه لا يردك دلالتها لأن بصيرته مطموسة وقلبه أعمى، كما قد يراها بقلبه وبصيرته التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها ودلالتها، فيكون صاحب بصيرة وقلب مبصر يعقل ويدرك، فهو إذن قوة تقف وراء التعقل والإدراك وجميع عمليات الفهم والتدبر[4]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

---

(1)-انظر: تفصيل حقيقة التركيب الذي تتميز به هذه الحواس عن بعضها وكيفية أدائها لوظيفتها:محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، ص264-

-محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان، ص241-250.

(2)-انظر مواضع هذه الكلمة في القرآن الكريم. فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص697-700.

(3)-سورة الحج، الآية: 46.

(4)-محمد علي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن الكريم والسنة، ص185-188.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

والقلب بهذا المعنى استخدم في القرآن الكريم لتحديد المسؤولية عن العمل كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2].

وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[3]، فهو يكسب العمل الصالح والإيمان كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[4]، والآية جاءت ردا على المنافقين الذين تظاهروا بأعمال تدل على الإسلام كالصلاة، ولكن في حقيقتهم أبطنوا الكفر والبغض له ولحامليه، فبين بأنّ أعمالهم تلك لا تدل حقيقة على إيمانهم وإنما تدل على أنهم مسلمون[5] فكشف الله تعالى ما أخفوه من حقد للإسلام وأهله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[6]، كما يكسب الإثم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[7]. والقلب المريض هو الذي يحمل صفات النفاق وسوء الأخلاق كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(8)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ.فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[8].

وكما استعمل القلب لتحديد المسؤولية عن العمل استعمل السمع والبصر والفؤاد لتحديدها أيضا كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[9].

---

(1)-سورة ق، الآية: 37.

(2)-سورة البقرة، الآية: 225.

(3)-سورة الأحزاب، الآية: 5.

(4)-سورة الحجرات، الآية: 14.

(5)-ولهذا فإن الحكم على من كانت أعماله الظاهرة موافقة للإسلام يكون "الإسلام" إلا" إذا ظهر منه ما يخالفه ويدل على بطلانه فحينها يكون الحكم عليه "الكفر". أما إذا ما كان ما في قلبه "الكفر" ولم يبده فإن أمره لله فهو الذي يحاسبه. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص331-332.

(6)-سورة البقرة، الآية: 204.

(7)-سورة البقرة، الآية: 283.

(8)-سورة البقرة، الآية: 8 - 10.

(9)-سورة الإسراء، الآية: 36.

والفؤاد مرادف للقلب، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في عدة آيات لتبين دوره وأهميته، وتؤكد المعاني التي يتضمنها القلب، من حيث التعبير عن العقل وارتباطه بالمسؤولية، واشتراكه مع الحواس في العمل[1] فهو يصغي للإغراء ووسوسة الشيطان كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[2]. كما يتحول عن الحق فلا يفهمه كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

وعلى هذا تكون ميزة الإنسان بهذه الأفعال الإدراكية والتي يقوم بها السمع والبصر والفؤاد -والقلب-وهي من نعم الله على الإنسان جعلها له لتحقيق المعرفة التي هي أهم شيء يحصله في حياته ليحقق توازنه في الحياة ويؤدي وظيفته بسلام، ولو سلب هذه النعم لأصبح حاله كالحيوان لا يميز بين الأشياء ولا يعي حقيقة ما حوله تدفعه غرائزه فيسعى إلى إشباعها دون ضابط، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4].

وسلب هذه النعم بهذا المعنى الوارد في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[5]. هو مما يساهم فيه الإنسان بإرادته واختياره، فهو من العقاب الإلهي على ما قدم الإنسان من عمل منحرف عن الحق[6]، فيختم الله تعالى على بصيرته ويطبع على قلبه بسبب عدم استجابته للحق وعناده ومكره بأهله فيظل في غفلته ويضيق صدره بالحق وينشرح بالكفر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[7]. وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ

---

(1)-محمد علي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن الكريم والسنة، ص240-243.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 113.

(3)-سورة الأنعام، الآية: 110.

(4)-سورة الأعراف، الآية: 179.

(5)-سورة الأنعام، الآية: 46.

(6)-سبق الحديث عن مسؤولية الإنسان في توجيه وسائل المعرفة إما إلى الطريق الحق أو إلى الطريق المنحرف الذي يؤدي إلى الطبع على القلوب. انظر: المبحث الثاني من الفصل الأول، ص 104 - 109 .

(7)-سورة الأنعام، الآية: 125.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وضيق صدر الكافر بالإيمان هو كضيق صدر من يصعد في السماء فيضيق صدره بسبب الضغط الذي يسببه قلة الأوكسجين في الطبقات العليا من الجو وهو ما يؤدي إلى ضيق التنفس[2]، وهو تصوير دقيق جدا إذ يتحول الإنسان بسبب حب وإلف أفعاله التي نشأ عليها إلى إعلان الولاء لها ولأصحابها ومعاداة من يخالفها، فيرتاح لها ولا يقبل غيرها، وهو في هذه الحالة غير فاقد لهذه النعم فقدا حسيا، وإنما هو يملكها ويستعملها ولكن فيما يضره.

وقد يكون أخذ هذه النعم بإصابتها، فيصبح الإنسان حينها فاقدا لها، ولا يمكنه تعويضها، والعقاب الأشد هو الطبع عليها، فلا يرى الإنسان الحق ولا يدركه، ويضل في غيّه وضلاله طول حياته، لتكون شاهدة عليه يوم القيامة.

فالآية إذن تحذير للكافر من تعطيل هذه النعم عن وظيفتها الأساسية والانحراف بها عما خُلقت لأجله، وهي تكشف عن ضعف الإنسان أمام قدرة الله تعالى، إذ لو شاء لسلبها منهم أو طبع عليها فتكون سببا لعذابهم.

قضية هامة لابد من الإشارة إليها ونحن نتناول حقيقة الوسائل التي يستخدمها الإنسان في الإدراك والوعي، فقد يلتبس على البعض فهمها فيتساءل عن حقيقة العضو المسؤول عن السلوك الإنساني هل هو القلب أم العقل؟ وإن كان القلب العاقل فهل معنى ذلك أن العقل هو القلب الذي محله الصدر، وقد ثبتت مسؤولية الدماغ[3] عن كثير من السلوكات الإنسانية؟

إن هذه الحقيقة تستدعي التدبر والتفكر فيها مليا، فهي أعقد ما يواجهه البحث الإنساني، وهي من دلائل قدرة الله تعالى وكمال صفاته، فهو الذي أوجد هذا المخلوق بهذا التقدير الحكيم، فكانت إرادة هذا المخلوق هي التي تحدد مسؤوليته عما يصدر منه من أعمال ظاهرة وباطنة، وهذه الإرادة والحرية في الأعمال كانت ناتجة عن التميز الإنساني في الخلق، فالإنسان مسؤول عما يكتسبه من علم ومعرفة بجميع حواسه، وبقلبه وعقله، فبها تكون المعرفة وتتحقق إنسانيته بالتوحيد الذي لا يتحقق إلا بتوجه الإنسان إلى كسبه.

---

(1)-سورة النحل، الآية: 106.

(2)-محمد زغلول راغب النجار: السماء في القرآن الكريم، ص403-404.

(3) -أنظر دور الناصية -الفصل الجبهي- في توجيه سلوك الإنسان إذ تعد المسؤولة عن ذلك. صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص299-311.

وكل هذه الأعضاء لها وظيفتها ودورها المتميز تجتمع وظائفها من أجل تحقيق الإدراك والتعقل، فكما للقلب عمل، فللدماغ عمل، وكما أن للسمع والبصر يساهمان في تحقيق العملية المعرفية فالدماغ والقلب يعملان على تمامها، وهوما يدل على وحدة الكيان الإنساني في تحقيق العلم والمعرفة وتحقيق التعقل.

فالدماغ –الناصية– مسؤول عن اكتساب الإنسان للخبرات والمعارف بما فيها الوحي، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[1]، فهي كاذبة في قولها خاطئة في فعلها وهو ما يبين حرية الإنسان في اختيار القرار، إذ لها أن تكذب كما لها أن تصدق، ولها أن تتحرى الصواب كما لها أن تخطئ، ولهذا فهو مسؤول عن ذلك كله، ولقد أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية المعاصرة الدور الكبير والخطير للفص الجبهي –الناصية– في توجيه السلوك الإنساني، حيث يعد دليلا آليا يهدي اختيارات الشخص نحو البقاء والحفاظ على حياته، ويتجلى ذلك من خلال الوظائف الحيوية التي يؤديها الفص الجبهي[2].

وكما أن العقل هو تأمل وإدراك وهو أداة المعرفة والحفظ والتذكر –ومما يدل على هذه الحقيقة هو الفرق الذي حدده الوحي بين الرجل والمرأة كما جاء في الحديث الشريف: «النساء ناقصات عقل ودين»[3] ولهذا جعلت شهادتها ناقصة تكملها شهادة إمرأة أخرى، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[4]– فإن القلب في القرآن والسنة هو قلب ملهم ومبصر، يشعر من أعماق الذات الإنسانية، ويدرك حقائق الأشياء، فهو مكان الإيمان ومكان التقوى ومكان العلم، بل هو أعظم عضو في الإنسان إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله[5]، كما قال رسول الله ﷺ:«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد

---

[1]–سورة العلق، الآيات: 15-16

[2]–صالح نعمان، منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، ص307-311.

[3]–رواه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم الباب6، رقم الحديث 304، صحيح البخاري. وفي كتاب الزكاة ،باب الزكاة على الأقارب، رقم الباب44، رقم الحديث 1462، ص255.وفي كتاب الصوم، باب الحائض تترك الصوم والصلاة، رقم الباب 14، رقم الحديث1951،ص334.

–ومسلم في كتاب الإمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطعات ، رقم الحديث79/145، صحيح مسلم، ص62.

[4]–سورة البقرة، الآية: 282.

[5]–محمد علي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن الكريم والسنة، ص276.

كله ألا وهي القلب»[1]. وعندما يتحدث النبيﷺ عن المعرفة والمسؤولية، يقول: «أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2]»[3]، فالإنسان مسؤول عما يكتسبه قلبه من المعرفة والمعرفة بالإرادة، وكان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم اجعل في قلبي نورا»[4]، وقال أيضا: «وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله شيء خرب كخراب البيت الذي لا ساكن له»[5]، والمقصود حفظ القرآن واستذكاره، والمعاصي التي يكتسبها القلب سبب في ضلاله عن الحق كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[6]. وإذا غشي على القلب الران إنعدم التعقل وأصبح الإنسان كالحيوان لا يدرك من الحق شيئا، فهو يؤدي وظائفه كإنسان من كسب وعمل، كما يؤدي عقله وظائفه الحيوية، فهو يفكر ويتذكر ويكتسب ويحفظ ويقوم بجميع العمليات التجريدية المنوطة به، ويدرك حقيقة الخير كما يدرك حقيقة الشر، إلا أنه لما احتجب قلبه وغطت عليه حجب أعماله المنحرفة، أصبح لا يدرك الحق ولا يعقله، فعقله حينها لا يتوقف عن وظيفته الحقيقية والأساسية ولكن يتعطل عن إدراك الحق كما تعطل قلبه، فأصبح لا يبصر الحق ولا يعقله ولا يقبله، ولهذا يتحول الإنسان بمعارفه ومكاسبه إلى معاداة الحق والعمل ضده، ولما كانت إنسانيته لا تكتمل إلا بالحق -التوحيد- كانت مخالفته له والعمل ضده سببا في عدم كمالها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[7]، فكل الوظائف التي تؤديها وسائل المعرفة عند هؤلاء لا قيمة لها ولا وزن لها لمخالفتها

---

[1]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، صحيح البخاري، مج 1، ج1،ص19.

-ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، رقم الحديث1599/3985،صحيح مسلم، ص783-784.

[2]-سورة البقرة ، الآية: 225.

[3]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب،صحيح البخاري، ص21.

[4]-رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل، حديث رقم: 6316، صحيح البخاري، ص1131

-ومسلم في كتاب:صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم الحديث: 763/1672، صحيح مسلم، ص350.

[5]-رواه الترمذي في أبواب: فضائل القرآن، رقم الباب: 18، رقم الحديث: 3080، سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م، مج4، ص250، وقال حسن صحيح.

-والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، رقم الباب: 1، رقم الحديث: 3306، سنن الدارمي، تحقيق، سيد إبراهيم، علي محمد علي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1420هـ-2000م، ج2، ص3002.

[6]-سورة المطففين، الآية:14.

[7]-سورة الأعراف ، الآية: 179.

التوحيد.

وهو ما يدل على تكامل هذه الوسائل في تحقيق السير السليم للإنسان، ولهذا فإن الإنسان تختلف مداخله في قبول الحق فقد ينفع مع إنسان التذكير العقلي، ولا ينفع معه التذكير الوجداني، كما قد يكون الأمر مع إنسان آخر العكس، والتذكير العقلي للعقل والقلب معا، وهو ما يوضح سر مراعاة القرآن الكريم لهذه الجوانب خلال تذكيره بالتوحيد، فهناك سننا وقوانين مشتركة وثابتة تدل على الإبداع والوحدة في الخلق. ولهذا تلتقي فطرة الإنسان التي هي حق مع تذكير القرآن الذي هو حق، فكلاهما حق واحد من الحق سبحانه وتعالى الذي لا إله إلا هو، فالتقى الخلق القيم الذي لا عوج فيه كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]، مع الكتاب القيم الذي ليس فيه إعوجاج، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا. قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[2]، فقد جاء هذا الكتاب قيما لا عوج فيه لأنه جاء بالدين القيم من عند الله سبحانه وتعالى ليذكر الإنسان بما فطر عليه، وبحقيقة خلقه كما قال تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

رابعا: الشدائد والابتلاءات وعذاب الاستئصال

مما يوقع الإنسان في التصور المنحرف لحقيقة الحياة ومن ثم لحقيقة نفسه هو استمراره على حال من القوة وبسط الرزق، لذلك تأتي هذه الشدائد والابتلاءات لتذكير الإنسان بحقيقة ضعفه وعجزه أمامها وكذا حقيقة الحياة الدنيا.

يكشف الإنسان عن ضعفه وعجزه إذا حلت به هذه الابتلاءات والشدائد، فلا أحد يستطيع أن ينكر حقيقة المرض، فهو إذا حل بالجسد أضعفه وأنهكه، لذلك يلجأ الإنسان إلى اتخاذ أسباب الشفاء بالتداوي، وقد يعجز الطب عن كشف الدواء لبعض الأمراض وهو ما يجعل الإنسان المريض يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لتيسير أسبابه، وهو ما يدل على عجزه وضعفه أمام ضمان صحته ودفع المرض عن نفسه، وكذا ضعفه أمام التحكم في أسباب الرزق، فالمطر الذي هو من أسباب الإنبات

---

[1]-سورة الفرقان ، الآية: 2.

[2]-سورة الكهف، الآيات: 1-5

[3]-سورة الروم ، الآية: 30.

وسخاء الأرض هو من تقدير الحكيم العليم سبحانه وتعالى لا يملك الإنسان التحكم فيه لأنه ظاهرة يشارك في حدوثها عدة ظواهر وهي ناتجة عن التوازن الدقيق والتقدير الحكيم الذي جعل الله سبحانه وتعالى عليه الكون، يقول الله سبحانه وتعالى مبينا هذه الحقيقة: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[2].

فهذه الآية تكشف عن مدى ضعف الإنسان أمام هذه الابتلاءات وهي تجربة يعرفها كل من وقع فيها أو شاهد المكروبين لحظة الضيق، إذ تنجلي عنهم الغشاوة ويعودون إلى صفاء الفطرة، فيقرون بالتوحيد ويتبرأون مما كانوا عليه من الغي والضلال، وهذا من طبيعة الفطرة الإنسانية أنها تلجأ إلى خالقها حين يضل الإنسان غايته ويدرك حقيقة هلاكه.

فالإنسان حينها يدعو ربه منيبا إليه وحده أن يرفع ما حاق به من ضر وشدة، وأن يهديه طريق النجاة، والله رؤوف رحيم يمهل عباده حينها ويستجيب لهم فيكشف ما بهم من ضر، وينجيهم منه ولا يسلمهم إلى اليأس والقنوط، إلا أن الإنسان قلّ ما يعتبر وقلّ ما يستمر على هذه الحال من التقوى والخوف من الله وشكر نعمه، فسرعان ما ينشغل بما أفاء الله عليه من نعمة، وينسى ما كان عليه من شدة وضيق، فينحرف إلى ما كان عليه من انحراف، ولهذا يحذّر الله سبحانه وتعالى أمثال هؤلاء من أن يعيدهم فيها مرة أخرى، وحينها لا تنفعهم توبة فيقول عز وجل: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا. أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[3]، ويوجههم إلى النظر في عاقبة من كان قبلهم ليعتبروا بما حدث لهم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، ويقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا

---

[1]-سورة الأنعام ، الآية: 17.

[2]-سورة الأنعام ، الآيتان: 63-64.

[3]-سورة الإسراء ، الآيات: 66-69.

[4]-سورة الأنعام ، الآيات:42-45

مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1].

فسنة الله في الظالمين إذا لم يعتبروا بالآيات والنذر أنه تعالى يفتح عليهم أبواب كل شيء، وييسر لهم سبل الرزق إلى أن تصل الحياة إلى غاية الإزهار والإثمار، وأقصى درجات الزخرفة والزنا، وهذا الطور الذي تبلغه الأرض له إغراؤه الشديد السيطرة على نفس الإنسان، فيصبح في حالة من الإنتشاء الذاتي المنكفئ على نفسه، فيظن أنه أصبح قادرا على إخضاع الأرض لمشيئته وفكره ليشكلها حسب هواه[2]، فإذا وصل إلى هذه المرحلة واستهوته شهوات الحياة وأعمته وأضلته عن إدراك الحقيقة والاعتبار بها لشكرها، جاء أمر الله تعالى بالهلاك في لحظة زمانية يستحيل التكهن بأوان وقوعها، لتنتهي حياة هؤلاء، ثم يخلفهم من شاء الله تعالى حياتهم لتتجدد الحياة ويعود الإعمار، وهو ما يكشف عن ضعف الإنسان أمام قدرة الله سبحانه وتعالى لكي لا يصاب بالغرور بما حققه من مكاسب في الحياة الدنيا، ولكي لا يغتر بقدرته وتفوقه.

خامسا: الموت

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3].

لقد تبين للإنسان ضعفه وعجزه عن تسيير شؤون نفسه وتنظيمها، فلولا حكمة الله تعالى وقدرته، لما استطاع أن يقدم شيئا لنفسه فيما له قدرة عليه، كتحصيل المعرفة فضلا عما لا قدرة له عليه كضمان الرزق وتنظيم حياته بتحقيق التوازن بين النوم واليقظة، والذي يساهم فيه توازن الكون وما يحدثه من تعاقب الليل والنهار.

ومن الحقائق التي عجز الإنسان أمامها وثبت بها ضعفه وعجزه وحاجته إلى الخالق سبحانه وتعالى حقيقة "الموت".

فحقيقة الموت هذه أعجزت كل حي عن دفعها عن نفسه وعن غيره، فإذا حل أجل الحي بالوفاة فإنه لا مرد لها حينها، هذه الحقيقة وقف الإنسان أمامها معلنا استسلامه وضعفه وعجزه ولم يأخذ منها العبرة إلا صاحب العقل والقلب السليم. فلو تأمل الإنسان هذه الحقيقة وحدها لكفته،

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 6.

[2]-محمد عبد الواحد حجازي: القرآن ومنهج التفكير، الزهراء للإعلام العربي، دم، ط1، 1413هـ-1993م، ص100-101.

[3]-سورة الأنعام ، الآية: 61.

فالروح التي كانت آخر ما دخل جسد الإنسان هي أول ما يخرج منه عند الموت، فبالروح كانت حياته وبخروجها تكون نهايتها ليعود الإنسان بعدها إلى أصله الأول وهو التراب، ولا يصل إلى هذه المرحلة –التراب– إلا بعد تحلل جسمه الذي انعدمت فيه الحياة عبر مراحل شبيهة بمراحل الخلق الأول التي مر بها آدم عليه السلام قبل نفخ الروح، إلا أن سيرها يكون عكسيا لينتهي إلى التراب وهذه هي حقيقة المخلوقات تبدأ من لا شيء ومن مرحلة الضعف إلى القوة، ثم تعود سيرتها إلى الزوال والعدم، يقول تعالى مبينا هذه الحقيقة بعد الامتنان على الإنسان بخلقه للأرض وتذليلها وجعلها مصدرا للرزق: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1]، وهي إشارة إلى الحياة الإنسانية الأولى في الحياة الدنيا والتي تنتهي بالموت، والثانية في الآخرة والتي تبدأ بالبعث.

فهذه الحقيقة التي يواجهها الإنسان هي من خلق القاهر سبحانه وتعالى الذي يحكم ولا مرد لحكمه ويقضي ولا مرد لقضائه، فكما خلق الحياة في الكائن الحي وقدر مدتها خلق الموت ليفنيها من أجل بعث لحياة جديدة مغايرة للأولى، كما قال سبحانه تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[2].

فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3]، إشارة إلى هذه الحقيقة.

فالآية تبين بأنه تعالى لما خلق الإنسان وبث فيه الحياة خلقه لحكمة، ولم يتركه ولم يهمل شأنه، بل جعل له ملائكة حفظة يتعاقبون عليه بالليل والنهار، يحفظونه ويحفظون أعماله ويحصونها كما صدرت منه، فإذا حل الأجل الذي قدره الله تعالى للإنسان قبضت ملائكة الموت روحه عند ذلك الأجل[4].

وهذه الآية ومثيلاتها هي إجابة عن تساؤل الإنسان وحيرته أمام هذه الحقيقة التي عجز عن تفسيرها، فهي أمر من الله تعالى ولا مرد لأمره، والإنسان أمام قدرة الله تعالى مقهور مغلوب ضعيف.

إن هذه الحقائق التي يقدمها القرآن الكريم عن الكون والإنسان تجعل الإنسان يدرك حقيقته

---

(1)–سورة طه، الآية: 55.

(2)–سورة الملك، الآيتان: 1-2.

(3)–سورة الأنعام ، الآية: 61

(4)–الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، ص216-218.

في هذا الوجود، إذ تصحح له تصوره العام لنفسه ولحقيقة الوجود ككل، مما يجعله يدرك الفارق بين الخالق والمخلوق، فيسلم تصوره وتهتدي مسيرته.

فهذه الدلائل التي يوجه إليها القرآن الكريم كاشفة للحقيقة الوجودية الكبرى –حقيقة الخلق– وكاشفة للحقيقة القرآنية، إنها تهدي الإنسان وتذكره بحقيقة ما فطر عليه وتعود به إلى حقيقة الفطرة العامة والتي تكشف عن التقاء فطرته مع فطرة الوجود من حوله، ثم مع الدين القيم لتنبئ الإنسان بحقيقة انبثاقها جميعا عن مشيئة وإرادة وقدرة الله الذي لا إله إلا هو، ومن ثم يعرف حقيقة ما يهدي إليه هذا الدين، إنه الصراط السوي والمستقيم.

ومن ثم يتساءل الإنسان: ما حقيقة الحياة التي يرشد إليها هذا الدين–دين التوحيد–. أو إذا حصّل الإنسان التوحيد واستقام تصوره فما حقيقة الحياة التي سيحياها؟.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث:

تأثير التوحيد في الحياة

التمهيد

المبحث الأول: الحياة الفردية والاجتماعية

المبحث الثاني: التعامل الكوني الاقتصادي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التمهيد

من خلال ما سبق بيانه في الفصل الأول فإن التوحيد كما بينه الوحي لا يمكن أن تتم حقيقته بغير ما يقتضيه من عمل -وبعبارة أخرى- لا يمكن أن يكون بسيطا منعزلا لا ينعكس على شيء يكفي استقراره في القلب أو الاعتراف به دون التحقق بما يقتضيه من سلوك في واقع الحياة، وعلى هذا فإن مقتضياته تمثل ضوابط لتصرفات الإنسان، ينطبع بها سلوكه العملي كله، في حياته كلها الفردية والأسرية والعامة -الاجتماعية-، ويختلف التوحيد عن حامله لذا فإن الإنسان خلال سعيه قد يخالف بسلوكه مقتضيات هذا التوحيد، فتتطبع الحياة بصورة هذا المنهج المخالف، كما حدث في العصور المتأخرة من حياة المسلمين، وهو ما أدى إلى نسبة سبب القصور إلى التوحيد لا إلى حامله، وإلى محاولة تضييق هيمنته على الحياة، وذلك بحصر مجال العمل به -التوحيد- على الحياة الخاصة دون العامة، خاصة الجوانب التي لها القيمة والأثر المباشر في تطور وتقدم حركة الحضارة -الإعمار-، سواء على مستوى التنظير أو التطبيق.

لكن المتدبر للوحي يلمس المقاصد والغايات العالية للتشريع وكذا المقاصد والغايات للخلق، والمتدبر في هذه المقاصد يلحظ التقاء مقاصد الخلق بمقاصد التشريع، ويلمس التوجيه المقصود للارتقاء بالإنسان ليلتقي بفطرته مع فطرة الوجود أي تزكيته من أجل عمارة الأرض والحفاظ على التوازن وتجنب الفساد.

ونظرا لأهمية تلك المقاصد نبه الوحي إلى ضرورتها وأهميتها ودعا إلى اعتبارها والنظر فيها وبمنظارها.

وهو ما يكشف عن أحقية هذا الوحي وعن عدل الأمر الإلهي وعن أهمية صبغ الحياة بصبغة التوحيد لتزكية الإنسان وعمارة الأرض وفق هذا المنهج -منهج التوحيد-، وتحقيق الأمن والطمأنينة التي يرجوها الإنسان. فلقد التقى في تأكيدها وكشف أهميتها تطور العلوم الكونية مع صدق الخبر الإلهي[1]، وساعد على ذلك حفظ السنن الكونية العامة واطرادها إلى جانب حفظ الذكر الإلهي الحكيم -القرآن-.

---

[1]-صالح نعمان: "دور العلوم الكونية في تجسيد المقاصد الشرعية والمحافظة عليها (الطب الوقائي نموذجا)، مجلة مخبر الدراسات الشرعية، يصدرها مخبر الدراسات الشرعية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع4، صفر 1426هـ، مارس 2005، ج2، ص620-624.

ولقد أدرك العلماء منذ القديم أهمية بيان تلك المقاصد في تحقيق الصلة بين تعاليم الإسلام وواقع الحياة، فسعوا إلى بيانها والكشف عنها لضمان تلك الصلة، إلا أنها لم تلق الاهتمام اللازم إلا على يد أبي إسحاق الشاطبي الذي يعتبر كتابه "الموافقات" أهم مصدر لفقه المقاصد ثم بنى على فكره علماء وباحثون محاولة منهم لتطويره وتفعيل تلك المقاصد في واقع الحياة، لكن لم ينطع هذا الفكر في العقل المسلم[1]، بسبب التفسير الخاطئ للأوضاع التي يعيشها المسلمون ونسبة انحطاطهم لتعاليم دينهم.

وتتعدد دوافع هذا الاتهام للدين الإسلامي، منها ما يرجع إلى طبيعة الأفكار التي اكتسبها الإنسان الأوروبي منذ العصور الوسطى بسبب هيمنة الكنيسة وحجرها على العقل الإنساني آنذاك، وكما سبقت الإشارة إليه في المبحث الثاني من الفصل الأول، فإن هذا الوضع دفع بالإنسان الأوروبي آنذاك إلى تشكيل النظرة العدائية للدين المسيحي، ثم عمم هذه النظرة على سائر الأديان بما فيها الإسلام، ومنها ما يرجع إلى النظرة العدائية للدين الإسلامي لكونه المهيمن على الحياة يفرض سيادة المنهج الإلهي على سائر المناهج البشرية، التي تيسر أسباب اللهو والعبث والطغيان والسيادة البشرية والاستعلاء في الأرض بغير حق.

وبذلك ظهرت جملة من التحديات أمام المسلمين تزيد وضعهم تدهورا وتتسبب في تأخير استعادة سيادة التشريع الإلهي على كافة ميادين الحياة لتحقيق الشهادة على الناس.

ويمكن إجمال بيان هذه التحديات كالآتي:

-فرض الحضارة الغربية لقيمها الوضعية المنافية للدين انطلاقا من تفكيك جميع المسلمات التي عرفتها البشرية، وفي مقدمتها المسلمات المتعلقة بالكون والإنسان لتنتهي إلى الليبرالية.

-الانطلاق من الليبرالية لتفكيك الذات الإنسانية نفسها.

-الانتهاء إلى تدمير القيم الحقيقية التي لا يمكن أن يحافظ على الإنسان بوصفه إنسان بدونها، وخاصة قيم الأسرة والأخلاق التي يقصد الشرع إلى المحافظة عليها وبنائها.

التوجه إلى الشريعة الإسلامية -خاصة- على أنها شريعة تشتمل على أحكام وقواعد مضادة لقيم الحداثة والليبرالية والتقدم، ولم ينج من هذه النظرة شيء من المفاهيم أو القواعد أو المصادر أو

---

[1]-طه جابر العلواني: مقاصد الشريعة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2001م، ص123.

الأصول التي قامت عليها الشريعة الإسلامية، وقد اشتد النقد على ما ينافي مسلمات التفكيك البديلة مثل: (الحرية الجنسية)، و(حقوق الإنسان)، وبدأت أسئلة مختلفة حول كل تلك القضايا[1].

ولقد تسببت هذه النظرة في تدعيم النظرة اللاهوتية التي ترى بأن الإيمان تصديق قلبي لا علاقة له بالسلوك، أي لا صلة له بالشريعة ومقاصدها، مما جعل المقاصد في نظرهم اجتهادات عقلية بشرية لا صلة لها بالأصول العقدية أو الاستدلالية (النص)، مما سهل العمل لدفع عملية التحديث وتوسيع نطاقها لتصبح المنهج السائد في الحياة واستبدال العقل بالشريعة، وذلك بفصل المقاصد الشرعية عن علم أصول الفقه، وتأسيس علم للمقاصد يكون بديلا لعلم أصول الفقه يحكم السلوك البشري بعيدا عن صيغ الأحكام الفقهية الخمسة، التي يثبت بها علم أصول الفقه المفهوم الديني للحلال والحرام، بدعوة التخفيف من حد النظرية الصارمة لأصول الفقه لأنه ساهم في دعم الفكرة القائلة بأن المجتمع لا يحسم بنفسه أي شيء من الأشياء المتعلقة بانحطاط المجتمع الأول الذي أسسه النبي ﷺ يرينون بذلك بعلم المقاصد الجديد أن ينقل السيادة من الله إلى الإنسان، بينما المقاصد عند الأصوليين تدور مع الأدلة الشرعية (النقلية والعقلية)، لأنها فرع متطور منه تدعمه وتساعده في تطور باقي فروعه، وأحد ركنيه إلى جانب ركن علم لسان العرب[2].

وعلى هذا فإن الحديث عن تأثير التوحيد في حياة الإنسان في هذا الفصل في حقيقته هو من أجل بيان حقيقة تكوينه للعقلية المقاصدية أو الفكر المقصدي الذي يعمل على وصل العقيدة بالشريعة في واقع الحياة وصبغ الحياة بصبغة التوحيد، والقضاء على مجمل الإشكالات التي سببها الفصل بين التصور والسلوك، أي الحديث عن التقاء مقاصد الشرع بمقاصد الخلق لتشكيل العقلية المقصدية التي تسلك في الحياة على أساس من التقوى والشكر لله سبحانه وتعالى، فتحقق الخلافة وفقا للمنهج المطلوب، وتأكيدا على أهمية البيان لهذه المقاصد في دفع كثير من الشبهات عن التشريع الإسلامي وإثبات ضرورته للحياة الإنسانية، على مدى المسيرة الإنسانية.

وقد كشفت سورة الأنعام عن تلازم بيّن بين طبيعة الاعتقاد وبين طبيعة واقع الحياة البشرية، والتلازم بين تصحيح الاعتقاد وبين تصحيح الواقع الذي يقوم عليه، كما كشفت عن طبيعة الحياة التي يحياها كل من الملتزم بالتوحيد والمنحرف عنه، ومن خلال المباحث التالية تتجلى لنا هذه الحقيقة التي أشارت وأرشدت إليها السورة.

---

[1]-طه جابر العلواني: مقاصد الشريعة، ص53.

[2]-صالح نعمان: دور العلوم الكونية في تجسيد المقاصد الشرعية والمحافظة عليها (الطب الوقائي نموذج)، ص623-624.

ولا شك أن الحياة الإنسانية تتمثل في جانبين، الجانب الأول هو الفرد، والثاني هو المجتمع، أي أن الإنسان يحيى حياة فردية خاصة بها يطمئن إلى كيانه ووجوده الخاص، وأخرى اجتماعية تتمثل في علاقاته المختلفة مع الناس، ولا يستطيع أن يتنكر لأحدهما لأنه لو فعل ذلك لعاش الحرمان ولأجهد نفسه في تحقيق مطالبها ولانحرف عن المنهج الصحيح للحياة، وفي ذلك عذاب للنفس وشقاء لها؛ إذ أن هناك دوافع وحاجات فطرية مركوزة فيه لا يمكنه إشباعها إلا إذا رضي بالحياة الاجتماعية مثل دافع التملك والدافع الجنسي[1].

ثم إن الاجتماع الإنساني يتوقف بناؤه على الأفراد والجماعة على حدّ سواء وأن هذا البناء يهدف إلى تقدم اجتماعي له جانبان أحدهما معنوي اجتماعي، وهو يتمثل في أساليب التعامل الاجتماعي مثل: العدالة، المساواة والتعاون والأمانة والإخلاص والعفة والاحترام للحقوق المادية والأدبية وما إلى ذلك، والآخر مادي وهو الجانب الاقتصادي، ويتمثل في الابتكارات العلمية والإنتاجات الصناعية والتقدم المعماري والفني، ولا يمكن للمجتمع الإنساني إذا أراد الترقي حضاريا وبناء حضارة يتمثلها أن يغفل في مشروعه الحضاري أحد الجانبين، وهما معا يمثلان الجانب السلوكي للإنسان الذي يقوم على أساس الفكرة أو التصور للحياة، وهو ما سنفصل بيانه في هذين المبحثين.

---

[1] -محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986م، ص158-183.

-ومقداد يالجن، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام -دراسة مقارنة-، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1392-1973م، ص336-337.

المبحث الأول: تأثير التوحيد في الحياة الفردية والاجتماعية

لبـناء المجـتمع المرغوب فيه لا بد أولا من بناء الفرد، فالفرد كما سبقت الإشارة إليه تقوم طبيعته على نزعتين فردية واجتماعية فكما أنّ الاهتمام بالنزعتين دون تغليب إحداهما على الأخرى يقوم عليه بناء الشخصيّة السويّة فإنّ بناءها له أثر أيضا في تحقيق المجتمع المنشود، وكما أنّ لبناء الفـرد أثر في بناء المجتمع فإنّ لبناء المجتمع أثر في بناء الفرد، فالأمن المنشود للفرد لا يتحقق إلاّ إذا كان المجتمع الذي يعيش فيه ويسعى لرقيه صالحا، فلا يمكن للإنسان أن يعيش متكاملا إذا كان مجـتمعه مفككا ومريضا. هذا الجانب من التقدم الاجتماعي وهو الجانب المعنوي والذي يتمثل في تحقـيق الأمـن[1] مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[2]، هو ما نهدف إلى بيانه من خلال هذا المبحث.

المطلب الأول: تأثير التوحيد في الحياة الفردية

حيـن أدرك الإنسـان أهمية السلوك السوي والقويم في تحقيق الحياة السعيدة، والصلة الوثيقة بين التصور والسلوك، ظل يبحث من أجل اكتشاف أطرافها وسبر غورها، سواء في ناحيتها العملية أو الـنظرية، وكثرت أبحاثهم في ذلك وتشعبت كتاباتهم عنها إلى أن تجسمت أمامهم مجموعة من المسـائل المـتعلقة بموضوع السلوك الإنساني، وبرز فيها عدد من النظريات المشتملة على تحديد المفاهيم الأخلاقيّة وتقرير القيم الإنسانية ووضع مقاييس نظرية يقاس بها ما يصدر عن الإنسان من أعمـال، والحكـم عليها بأنّها خيرة أو شريرة، فاضلة أورذيلة، حسنة أو قبيحة، وهو ما استدعى تحديـد معنى كل من الخير والشر والتمييز بينهما، ووضع مختلف الجزاءات للأعمال المتصفة بهما وكـذا كيف يربى الإنسان على الفضيلة فيتصف بالخلق الحسن، وكيف يربى على الرذيلة فيتصف بالخلق القبيح[3].

ولقـد توصل علم الأخلاق– وهو العلم المهتم بسلوك الإنسان– إلى أهميّة التمرين والتدريب

---

(1)–الأمن «حاجة سيكولوجية جوهرها السعي المستمر لتوفير الإحساس بالأمان وضمان الشعور بأن الفرد في مأمن مـن كـل مـا يـتهدد وجوده وما يمكن أن يجعله مضطرب النفس، مفتت الشعور، مما قد يهدد وحدته البيولوجية وكينوناته النفسية [...] ويتبع من حاجة الإنسان أنه بواسطة ذلك يستطيع الإبقاء على وجوده النفسي مضمونا ضمن وحدة نسيج المجتمع». عبد العلي الجسماني: القرآن وعلم النفس، ص79.

(2)–سورة الأنعام، الآية82.

(3)–محمد عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ص216-217.

على سلوك معين ليصبح عادة حين عرفوا بأنّ الخلق هو عادة الإرادة وتغليب ميل من الميول على غيره باستمرار، كما أكدوا على عامل البيئة وهما من العوامل التي يوجه القرآن الكريم إلى أهميتها ودورهـا في تكوين السلوك المنبثق من طبيعة الفكر الذي يحمله صاحبه، وعلى هذا فهم يرون بأنّه لكـي تحدث تعديلا أو تغييرا في شخصية إنسان ما وفي سلوكه فمن الضروري أن تقوم بتعديل أو تغيـير أفكاره واتجاهاته، ولذلك فإنّ العلاج النفسي يهدف أساسا إلى تغيير أفكار المرضى النفسيين عـن أنفسـهم وعن الناس والحياة والمشكلات التي عجزوا عن مواجهتها من قبل، وكانت سببا في قلقهـم، وعـندها تتغـير أفكاره إلى الأحسن فيصبح أقدر على مواجهة مشكلاته وأقدر على حلها، وطـريقة تغيير الأفكار والاتجاهات هي في أساسها عملية تعليم يتم فيها تعديل الأفكار والاتجاهات والعـادات والسـلوك، والعـلاج النفسي في أساسه عملية تصحيح تعلم سابق غير سليم، اكتسب به المريض أفكارا غير سليمة عن نفسه وعن غيره[1].

ولقـد حـاول الفكـر الأوربي الحديث في مجال العلوم المتعلقة بالإنسان، والتي تهدف إلى ضـمان الحـياة الطيبة التي ينشدها، لكنه قدم حلولا غير مُرضية بل مَرضية، ساهمت في زعزعة الأمـن الداخلـي للفـرد، والسـبب في ذلك أنه يبعد الغيب عن مقولاته ومناهجه وحلوله، ويكتفي بالإيمـان بـالله خارج هذا البحث، وحينها وقع في كل التعقيدات والحلول المبتورة، إذ لم يدرك بأن المشـكلة ليسـت في الإيمان بوجود إله وفقط، أو إخضاع جانب من الحياة دون آخر لمتطلبات هذا الإيمان، وإنما هي في عدم إخضاع حركة الإنسان الفكرية والسلوكية لما يتطلبه هذا الإيمان، أي في صـبغ الحياة بمنهج التوحيد، ولهذا أصبحت الحضارة الغربية بحاجة إلى كل القيم الخلقية وغيرها، كمـا أصبح كثير من العلماء أنفسهم يعلنون هذه الحاجة، فقد أعلن الكثير من الأطباء النفسانيين أن كثـيرا من مرضاهم خاصة الذين هم في النصف الثاني من عمرهم -بعد سن 35- أن مشكلتهم هي الظقـر بـنظرة دينـية إلى الحياة تزيل عنهم مشاكلهم وتملأ فراغهم الروحي، كما أعلن كثير من العلماء بأن حياة كثيرين من الناس مربكة بسبب الفجوة التي يسببها القول بانعدام الغاية[2].

ولقـد عجـز علم النفس الحديث عند هؤلاء عن علاج كثير من الأمراض النفسية، وإيجاد

---

[1]-محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط5، 1414هـ-1993م، ص280.

[2]-جعفر شيخ إدريس: الفيزياء ووجود الخالق، ص65.

-انظـر مثال كتاب: إنسانية الإنسان -نقد علمي للحضارة الغربية- لرينيه دوبو، تعريب: نبيل صبحي الطويل، مؤسسـة الرسـالة، سـوريا، ط2، 1404هـ-1984م، وهو محاولة لبيان عجز الإنسان عن إيجاد الحلول اللازمة للأزمـة التـي يعانيها بسبب إبعاد الوحي. وصاحب الكتاب رغم التزامه بالموضوعية إلا أنه يبعد الإسلام ولا يبين حقيقته ودوره في علاج مثل هذه الأزمات. انظر مثلا: ص13-15.

الحلول لهؤلاء المرضى بسبب تغييبه للنظرة الصحيحة عن الإنسان وتقديمه لحلول مبتورة وناقصة لا تفي بحاجات المريض النفسية، ولا تضمن له التكامل بين جميع ملكاته، وهذا ما يؤدي إلى تضارب بينها، وطغيان بعضها على الآخر.

وما يؤكده العلم الحديث أن السلوك السوي له أثره الطيب على النفس، وله أعمق الأثر في تحقيق الرضا والطمأنينة النفسية على عكس السلوك المنحرف المخالف للفطرة، فإنه لا يولد إلا الندم والحسرة والألم النفسي، لأنه يصادف تأنيب الضمير كما يسميه علماء النفس[1]؛ أي أنه يصادف فطرة الإنسان وتنزوعه إلى الخير. فتحقق حينها ما يسميه القرآن الكريم بالنفس اللوامة[2]. أي تعود حالته النفسية إلى اللوم والتأنيب للتوبة والتطهير من أثر الخطأ.

ولهذا فإن أهم شيء يحققه التوحيد للإنسان هو تحقيق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان، ويوحد بين قواه وملكاته المختلفة، ويوازن بينها، وبالتالي يحقق وحدة الذات الإنسانية، ولا شك في ذلك فإن الوحي الذي جاء بهذا الدين التقت تشريعاته مع فطرة الإنسان وفطرة الوجود من حوله، وهذا من شأنه أن يحدث التناغم والتناسق بينها إذا التزمت الإنسانية به.

فقد عرفنا من خلال بياننا لطبيعة الإنسان وجود دوافع ونوازع وانفعالات مختلفة ملحة توجه الإنسان وتدفعه إلى تحقيقها وإشباعها، وهناك علاقة بين الدوافع والانفعالات، فالدوافع تكون عادة مصحوبة بحالة وجدانية إنفعالية. فحينما تشتد الدوافع وتعاق عن الإشباع فترة من الزمن تحدث حالة من التوتر. وتصاحب ذلك عادة حالة وجدانية مكدرة. والإنفعال القوي الحاد يهز الذات ويفقدها القدرة على التفكير واستثمار القدرات العقلية والخبرات الإنفعالية، فيفقد الإنسان شيئاً من قدراته وإمكانياته في حل المشكل، ولهذا ينهى القرآن الكريم عن الانفعال الشديد -كالغضب والكره والفرح- ذي الدرجة العالية، الذي يفقده السيطرة على أفعاله الإرادية أو يفقده قدراته العقلية، أو يعرضه إلى آثار سلبية أخرى، ويوجه الإنسان إلى العمل على تقليل الانفعالات وجعلها تحت

---

[1]-عبد العلي الجسماني: القرآن وعلم النفس، ص88-89، 164.

[2]-يبين محمد عثمان نجاتي المفاهيم الثلاثة للنفس، كما وردت في القرآن الكريم بأنها حالات مختلفة تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان، فتنشأ تبعا لنتيجة هذا الصراع حالات النفس الثلاثة: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. انظر كتاب: القرآن وعلم النفس، ص234-235.

الشعور الواعي، تحاشيا للآثار السلبية[1].

ثم إن السلوك الإنساني لا يوجهه دافع معين ليمكن تحديد انفعاله، وإنما مجموعة من الدوافع، فقد يثيره دافع واحد، وقد يثيره دافعان أو أكثر في آن واحد. ولهذا فإننا قد نجد الدافعان يمتزجان في انفعال واحد، كالحسد الذي يمثل الشعور السلبي في الذات والغضب، وقد يكون هناك دافعان أو أكثر لكل منهما انفعاله الخاص به، يتمالك الإنسان الواحد منهما تلوى الآخر، ليشعر بالتقلب والتذبذب السريع في نفسه دون أن يستأثر به أحدهما، وإن الإنسان الذي تسيره دوافعه وانفعالاته دون تقييم وتنظيم سيكون سلوكه مضطربا لا وحدة فيه ولا استقرار، فإذا لم يكن لديه ضوابط واتجاه ثابت للترجيح والتقويم بين دوافعه وانفعالاته يصبح سلوكه متوقفا على شهواته وأهوائه، وظروفه المتغيرة، وإن مثل هذه الشخصية لا تكون لها صفة الثبات والاستقرار الذي ترجع إليه في تنظيم وضبط السلوك.

وإن لهذه الانفعالات دور في بناء الخبرات الإنفعالية الطويلة والتي تعمل على التنظيم الكلي للفرد، وتكوين نظرة للحياة تصل ماضيها بحاضرها ومستقبلها، ولذلك يجب أن تكون هذه الخبرات الانفعالية متكاملة وإيجابية كالأمل والتفاؤل والحب، إذ قد تكون سلبية كاليأس والقنوط والزهو والكبرياء، وإن تلك الخبرات الانفعالية التي تتكون لدى الإنسان مع كل مثير للانفعال كحب التملك وحب السيطرة تشكل أسلوبه وطريقته ونهجه في توظيف سلوكه، ليتصف بعدة صفات أخلاقية إيجابية كالصدق والوفاء والجد، والتواضع والصبر والقدوة الحسنة والاستقامة، والتنافس الشريف وحسن الاستماع والاقتداء والطهارة من كل وسخ مادي أو معنوي، وقد يتصف السلوك بصفات أخلاقية سلبية كالخداع والكذب والتكبر والنميمة والحسد.

وكذا فإنها تعمل على تنشيط الطاقة النفسية وتجديدها لتجعل للحياة طعما بإثرائها وتخفيف الملل، كما تعمل على تنظيم وتوظيف السلوك في بناء الهيكل الاجتماعي كالحب بين أفراد الأسرة الذي تبنى عليه الأسرة، وكذا تعمل على إثراء الحياة الاجتماعية بالخبرات المختلفة والمتكاملة لتغطية احتياجات المجتمع من الكفاءات المختلفة والمتنوعة من أفراده، كلا حسب إمكانياته وقدراته وخبراته، فنجد العالم الذي أحب علمه والمهني الذي أحب مهنته[2]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ

---

[1]-محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص71، 103.

-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص210-212.

[2]-محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص210، 215-220.

الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، فرفع درجات الناس بعضها فوق بعض هو مما قضت به حكمة الله تعالى وعلمه وقدرته وإرادته، بأن يكون هذا المخلوق -الإنسان- على هذا النحو من التركيب، فيعمل بإرادته واختياره على تحقيق الغاية من وجوده، وهي الخلافة في الأرض، ويساهم كل فرد بما منح من قدرات وإمكانيات بدنية ونفسية تمكنه من تحقيق طموحاته، ولا شك أن الطموحات مختلفة، ثم يحاسبه الله على ما قدم، فإن ساهم بخير كان جزاؤه حسن، وإن ساهم بشر كان جزاؤه على حسب ما قدم، ولا يكلفه الله إلا حسب طاقته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3]، فإرادة الإنسان وحريته ظاهرة من خلال اختياره للسلوك الذي يرغبه، لأنه لا يصبح عادة أو خبرة انفعالية سيئة أو حسنة إلا إذا انبثق عن إرادة منه وحرية، ولو انبثق عن إكراه فإنه سرعان ما يزول أو يتخلى عنه حين يزول الإكراه ويعود إلى سلوكه الإرادي.

وبهذا ندرك خطورة الخبرات الانفعالية وأن المسيرة الإنسانية تلعب دورا كبيرا في هذه الخبرات، فإن عدم الكبح والسيطرة على هذه الانفعالات، بحيث تصبح لا شعورية وغير واعية تؤدي بالإنسان إلى الانحراف، فمثلا فإن الترف الذي أشار إليه القرآن الكريم هو من الأسباب القوية للفسوق لأنه يجعل الإنسان لا يشعر شعورا واعيا بقيمة انفعالاته أو يتجاهلها، لأنّ همّة الاستزادة منه فأشبع دوافعه، مما يؤدي به إلى عدم الشعور بقيمتها فيصاب بالملل والسأم وفقر الحياة، والذي قد يدفعه إلى استغلال فعالياته الاقتصادية والاجتماعية في سبيل استثارة طاقته النفسية كمشاهدة الأفلام المزعجة أو المشاركة في الرياضات العنيفة، وربما دفعه إلى ما هو أشد من ذلك من ارتكاب الفحشاء والمنكر[4]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[5].

فالدوافع الإنسانية تمتاز بجملة من الخصائص تجعل إمكانية ضبطها وتعديلها متاحة ومن

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 165.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 160.

[3]-سورة البقرة، الآية: 286.

[4]-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص220، 222.

[5]-سورة الإسراء، الآية: 16.

أهم هذه المميزات:

-أنها ليست بدرجة واحدة من القوة.

-تختلف قوة الدافع الواحد من إنسان لآخر، وهو الذي تكون به الفروق الفردية.

-أن الدافع الواحد تختلف قوته من مرحلة إلى أخرى في حياته لدى الإنسان ذاته، فمثلا الدافع الجنسي يكون قويا في مرحلة الشباب بالمقارنة بمرحلة الشيخوخة.

-تمتاز كل الدوافع بمرونة مطاوعة وهذا هو الأساس العضوي والنفسي لنجاح عمليات الضبط والتربيّة.

-أنّها متعدّدة ومتشابكة فمنها الفطري والمكتسب ومنها الجسمي والنفسي وكلّها متفاعلة في تكوين النفس الإنسانيّة وهذا التعدد في الدوافع يكسب الحياة النفسيّة تعقيدا وعمقا وبالتالي يجعل عمليّة الضبط الذاتي والمتوازن أهم سمات الإنسان لبناء شخصيّة صحية سويّة[1].

-أن الدوافع الأولية استعداد عام وطاقة محركة لضمان سلامة الحياة الفردية وقوتها ولضمان حياة الجماعة البشرية في تجديدها عن طريقة التناسل، لذا فإن القرآن الكريم يضفي عليها سمات محببة لأن الله فطر الناس عليها، ومن هذه الصفات كونها حلالا وخير وأنها زينة الحياة.

ولهذا نجد التوحيد يحقق الشخصية السوية، لأنه يعطي للإنسان المنهج الملائم للفطرة البشرية وللنفس الإنسانية بجعله يحيى حياة أفضل، حياة حرة كريمة يضمن له السعادة في الدارين الدنيا والآخرة؛ فهو يقضي على الصراع بين الجانبين البدني والروحي في الإنسان بالتوفيق بينهما، بحيث يقوم الإنسان بإشباع حاجاته البدنية في الحدود التي أباحها الشرع، كما يقوم بإشباع حاجاته الروحية، ومثل هذا التوفيق يصبح أمرا ممكنا إذا ما التزم الإنسان في حياته التوسط والاعتدال، وتجنب الإسراف والتطرف.

فليس في الإسلام رهبانية تقاوم الدوافع البدنية وتعمل على كبتها، كما ليس فيه إباحية مطلقة، وإنما هو وسط يحقق التوازن بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التوازن بقوله تعالى:﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2]

---

[1]-عبد الحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، مكتبة رحاب، الجزائر، ط، دت، ص104.

[2]-سورة القصص، الآية: 77.

وهـذا الـتوازن هو الذي يحقق ذاتية الإنسان في صورتها الحقيقية الكامنة، كما تمثلت في شخصية النبـي ﷺ، والتوازن في الشخصية الإنسانية بين البدن والروح، ليس إلا مثالا للتوازن الموجود في الكـون كله[1]، فقد خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء بمقدار وميزان، وكما سبقت الإشارة إليه عند حديثنا عن دلائل الأنفس فإن الاتزان الحيوي في البدن. ووظيفة الدوافع الفطرية في إبقاء البدن في حالـة ثابتة من الاتزان أمر ضروري لحفظ الذات والبقاء، غير أن الاتزان في الإنسان ليس قاصرا على اتزانه البيولوجي فقط، وإنما يشمل أيضا شخصيته بأكملها، فهو يشمل أيضا التوازن بين البدن والروح. وفيما يلي بيان لخطوات هذا المنهج وبعض أساليبه في بناء الشخصية.

فمـن المشـقة والمجاهدة والمثابرة أن تنشئ إنسانا سويا حينما تبدأ معه منذ الولادة إلى أن يـبلغ أشده ويستقل بنفسه في تكوين أفكاره وتصوراته وفق المنهج الذي نشأ به، لكن الأصعب منه أن تحـول إنسـانا نشأ على منهج في التفكير يسير به حياته، والقرآن الكريم يعطي المنهج الملائم والحلـول السـهلة التـي عجز عنها الإنسان، فهو يعتمد على تصحيح الفكر وبيان الحقائق ويلفت الإنسـان إلـيها بمختلف الأساليب، ثم يقدم المنهج السوي للسلوك من خلال العبادة ليضمن الإنسان تدريب نفسه على الخلق الفاضل. فإن الإنسان لا يتمكن من القيام بتبعات الخلافة في الأرض، ما لم يخلق في نفسه ووجدانه معنى العبودية الكاملة لله تعالى.

ولا شـك أن من يتتبع مراحل الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، ويرى كيف كانت تتغير شخصيات الأفراد الذين آمنوا بالإسلام وأخذوا يتعلمونه على يد الرسول ﷺ يستطيع أن يدرك إدراكا واضحا مدى التأثير العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم ودعوة التوحيد في نفوسهم.

أولا: تصحيح الفكر

إن التفكـير معرض للخطأ. فقد يعترض التفكير بعض العوائق فتحرفه عن طريقه السوي، وتحـول بيـنه وبين الوصول إلى الحقيقة، وإذا تراكم على الإنسان كثير من عوائق التفكير أصيب تفكـيره بالجمود، وأصبح غير قادر على تقبل الآراء والأفكار الجديدة، وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالـة فقـد قيمـته العظيمة في حياته، فلم يعد يؤدي وظيفته الطبيعية في عملية التمييز بين الحق والـباطل، وبيـن الخـير والشر، واكتشاف الحقائق، واكتساب العلوم، والترقي بالإيمان في مدارج الكمال[2]. وحينها يفقد الإنسان ميزته فيصبح كالحيوان بل أضل سبيلا.

---

[1]-محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص235-236.

[2]-المرجع نفسه، ص146.

وتعد أهواء الإنسان وشهواته أخطر هذه المعوقات، لذا فإن النظرة التوحيدية تعطي للإنسان فرصة لتحقيق المعرفة الصحيحة، إذ تحرره من شهواته وتحقق التوازن في شخصيته، فلا يتعطل فكره عن اتباع المنهج السليم في التفكير، فالنماذج التي ذكرتها سورة الأنعام تبين الفارق بين الأفكار التي يمتلكها الموحد والأفكار التي يمتلكها المنحرف عن التوحيد.

فإبراهيم عليه السلام -وهو أرقى نموذج أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالالتفات إليه لمعرفة حقيقة ما يحمله حين ادعى المشركون بأنهم على نهجه وعلى دينه- حين أخلص دينه لله واستمع لما تمليه عليه فطرته تخلص مما كان يهمه ويشغله في شأن هذه المعبودات، فقد كشف ضعفها وعجزها الكامن وراء ما يظهر منها من قوة وهيمنة على الوجود حين سلم منهجه في التفكير، وعندها أعلن التوحيد موقنا به، وخلص وجهه من كل توجه لغير الله، فاطمأن وآمن، ولهذا ختم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، وبفضل ذلك استحق الدرجات العالية بين قومه بل بين الناس جميعا وطاب ذكره واستحق أن يتكلم عنه الوحي ويهدي إلى الاقتداء به كما استحق التوسعة عليه ورزقه بأجل النعم وهي الذرية الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[2].

يتميز فكر الموحد عن فكر المنحرف عن التوحيد بأسس فكرية هامة، فلأنه قام على الحق واليقين، فإنه يحمل خصائص أصوله ومصادره، فتأتي متصفة بشمول النظرة وسعة الأفق[3]، والانسجام التام مع الفطرة البشرية السوية، وهذا ما يجعل الإنسان «يملك القدرة على التمييز بين ما هو علم وما هو ظن وما هو وهم عندما يمكن أجهزته السمعية والبصرية والعقلية من أداء مهامها وتدريبها على امتلاك الكفاءة اللازمة في البحث عن الحقيقة أو الصواب، أو العمل بهما»[4].

فالأسس الفكرية التي يحملها الموحد أسس متينة وهامة، توجه إلى إشباع دافعه المعرفي المتمثل في حب الاستطلاع وتعطيه المنهج الملائم في التفكير، إذ توحد بين جميع وسائله المعرفية، ذلك لأنه تحرر من جميع المكبلات المفروضة عليه من ذات الإنسان أو من خارجه، مما يتيح له حركة واسعة تنتهي بإدراك العلل والأسباب، فيسلك التأليف والتوحيد بينهما في التعليل والتفسير،

---

(1)-سورة الأنعام، الآية: 82.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 84.

(3)-انظر تفصيل هذه الأسس: عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1413هـ-1992م، ص31-32.

(4)-الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص99.

فيـــتكون من ذلك خلق من المؤالفة ينفذ به إلى العلل الحقيقية التي تفسر الكثرة من الظواهر، ويوجه به الآراء والأحكام في تحقيق الغاية الموحدة، أما إذا كان العقل متأثرا بما يسيطر على الإنسان من الهـــوى والتقلـــيد، أو بما يتبعه في تحصيل مواد ومعطيات معينة بهدف الوصول إلى نتائج مسبقة، فإنـــه يكون محكوما بما وجه فيه، فلا يرى من الأسباب إلا ما هو قريب ومحدود بحدود المعطيات الموجهـــة، ولا يـــرى مـــن الغايات إلا ما هو كذلك، فيكون عندها متحركا في مادة النظر المتاحة، وكأنهـــا جزر منفصلة بعضها عن بعض، فلا يدرك روابطها المشتركة، ولا يقدر على توجيهها إلى الغايات المشتركة[1].

وأمـــا الأســـس التـــي يقـــوم عليها القرآن الكريم في تصحيح الفكر والوصول به إلى هذا المستوى من المنهجية الموحدة، فيمكن إجمالها كالآتي:

-تدريـــب العقـــل على التفكير بتوجيهه إلى حقائق الآفاق والأنفس ليتمكن من الوصول إلى الحق.

-تحريـــر العقـــل مـــن كل المعوقات والمكبلات الفكرية الداخلية، والمتمثلة في الشهوات، والخارجية والمتمثلة في التقليد واتباع الآباء والموروث وغيرها.

-تقديم نظام معرفي متكامل ومتوازن يحقق التوازن بين وسائل الإنسان المعرفية والتي لها الأثـــر الكبير في تحقيق التوازن الإنساني والتكامل في سبيل التعبد والتعمير. ومن ثم يعمل الإنسان علـــى تحقـــيق الغايـــة من وجوده، بناء على حقائق وليس بناء على أوهام وفرضيات، كما تقدمها النظرة المادية، التي تفصل بين وسائل المعرفة، إذ تغيب الوحي وتجعل المعرفة مادية بحتة تكرس الـــنزعة الاســـتكبارية لدى الإنسان[2]. ويتمثل هذا النظام المعرفي في ضبط مفهوم الإنسان للحقائق الشـــمولية وتثبيـــتها والتـــي تتمـــثل في مفهومه لحقيقة عالم الغيب والشهادة -حقيقة الكون والحياة والإنسان-.

ثانيا: تحقيق استقامة السلوك

يعتبر تغيير الأفكار خطوة أولى وضرورية لتغيير شخصية الإنسان وسلوكه، غير أن التعلم ســـلوك جديـــد يقتضي أيضا ممارسة هذا السلوك مدة طويلة، أي يقتضي التدريب عليه حتى يستقر

---

[1]-عبد المجيد النجار: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص52-53.

[2]-صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي والمعاصر، ص342.

ويثبـــت، وفـــي العلاج النفسي لا يكفي لشفاء المريض أن يعرف حقيقة مشكلاته وأن تتغير أفكاره عـــنها، وأن تتغـــير نظـــرته إلى نفسه وإلى الحياة، بل إنه من الضروري أن يمر المريض النفسي بخبرات جديدة في الحياة يطبق فيها أفكاره الجديدة عن نفسه وعن الناس، وأن يرى بنفسه كيف أن سلوكه الجديد قد حقق نجاحا في علاقاته الإنسانية، وأحدث تغييرا واضحا في سلوك الآخرين نحوه، وبهـــذه الممارســـة الفعلية في الحياة للسلوك الجديد المنبعث من أفكاره الجديدة، وما يؤدي إليه من نتائج مرضية، يحدث التغيير الكبير في شخصية المريض ويسير بخطى سريعة نحو الشفاء[1]، وإذا نظـــرنا في القرآن الكريم بهذا المعنى نجده يتبع في تربية الناس وفي تغيير أسلوب العمل الممارسة الفعلية للأفكار والمحافظة على ذلك السلوك والمداومة عليه، ولذلك فرض الله تعالى العبادة.

فالعـــبادة تعتـــبر أهم وسيلة تمكن الإنسان من تحقيق استقامة سلوكه إذ تساعده على ضبط دوافعـــه وتحقـــيق الاعـــتدال المطلـــوب، كمـــا تساعده على اكتساب الخبرات الانفعالية المتكاملة والإيجابية، والتي تساعده على السلوك المستقيم-تحقيق الخير والنفع-

والعبادة -كما سبق وأن بيّنا مفهومها- هي صلة بين الإنسان وربه، وهذه الصلة تشمل حياة الإنســـان كلها، وقد ضبطها الوحي وحددها وأعطى لها مفهوما واضحا، وهي بهذا المفهوم تضبط تصـــور الإنسان كما تضبط سلوكه، وتمثلت هذه العبادة في التشريع القائم على العقيدة. ثم إنه لم يقم هذا التشريع على ما لا يطاق بل جعله صلة بينه وبين الطبيعة الإنسانية فلم يكلفها بما لا تطيق، ولا بما لا تطيقه إلا بشق الأنفس كما قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّـــهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْـــتَ مَوْلَانَـــا فَانْصُـــرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3]، كما أنه لم يحرم أي دافع من الدوافع الأساسية من تحقـــيق مطالبه وإشباع حاجاته كما قال تعالى: ﴿وَابْـــتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِـــنَ الدُّنْـــيَا﴾[4]، غاية ما هنالك أنه قد اشترط أن يتم ذلك في حدود وقيود معينة هادفة إلى تحقيق سعادة الإنسان وكماله.

فالعبادة تقيم تنسيقا بين قوى الإنسان الطبيعية من ناحية، ثم بينها وبين السلوك الإنساني من

---

[1]-محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص284.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 152.

[3]-سورة البقرة، الآية: 286.

[4]-سورة القصص، الآية: 77.

ناحـــية أخـــرى، كمـــا أنها عملية تهذيب وتربية لهذه الطبيعة، ثم عملية توجيه الإنسان إلى السلوك اللائق به في الحياة كأفضل مخلوق في الأرض من أجل رسالة معينة[1].

وســـنكتفي بالإشارة إلى بعض من هذه العبادات التي شرعها الله سبحانه وتعالى لتوضيح ما أجملنا بيانه.

1-النية:

إن اشـــتراط النية في الإسلام فيما يقوم به الإنسان من عمل تقتضي الانتباه للشيء والتفكير فـــيه قـــبل القيام به، لتحقيق النضج في الانفعالات، وقد يكون هناك استجابات لا ينفذها الشخص في الحـــال، وإنمـــا تحتاج إلى بعض الوقت للتروي والتفكير، والشعور بالحرية في القيام بالعمل والعزم علـــى التنفيذ[2]، ولهذا قال الرسول ﷺ :«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجـــرته إلـــى الله ورســـوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3].

فالنـــية لهـــا دور كبـــير في أعمال الإنسان إذ تتكيف بها وتكون بحسبها، فتقوى وتضعف وتصـــح وتفسد تبعا لها لأنها انبعاث القلب نحو العمل الموافق لغرض صحيح، من جلب نفع أو دفع ضـــر حالا، أو مآلا، أو الموافق لغرض فاسد، كما هي الإرادة المتجهة تجاه الفعل لابتغاء رضا الله وامتـــثال أمـــره[4]، واستحضـــار القلب هو ملاك الأمر كله، فهو -القلب- أساس صلاح الإنسان، ومركـــز الـــذات الإنسانية، والنية تتضمن الإخلاص والتقوى لله تعالى، وقصد التوجه إليه وهو ما ينمـــي فـــي الإنســـان مراقـــبة الله تعالى وتقواه في كل عمل صغير أو كبير، خاصة حين يعلم هذا الإنســـان بـــأن الأجـــر على العمل حسب النية، وأن إخلاص النية لله تعالى وقصد وجهه بها يحول العـــادة إلى عباده، فمجرد الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته اليومية كالأكل والتعلم وغيرها، إذا نوى بها وجه الله تعالى نال عليها أجرا، وهذا من شأنه أن ينمي الرقابة الداخلية في الإنسان.

هذا الرقيب هو ما يدفع بالإنسان إلى الإكثار من عمل الخير والكف عن الشر، وهذا الرقيب

---

[1]-مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، ص193.

[2]-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص220.

[3]-سبق تخريج الحديث.

[4]-أبو بكر جابر الجزائري: منهاج المسلم، مكتبة العلوم الحكم، المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص74.

الداخلـــي يلفت إليه الإيمان، فالإنسان غير المؤمن لا يدرك قيمته وأهميته، فلا يستمع له أما المؤمن فيعلم بأن هذا الرقيب هو الواقي من الشر، وبالتالي لابد من إرضائه، وإرضاؤه معناه راحة النفس، فحيـــن يلـــتزم الإنســـان بالخير يظهر أثر التطبيق بالإحساس بالسرور والإنشراح في أعماق النفس الإنســـانية ولو قام به غير المؤمن إرضاء لما يسميه علماء الأخلاق الواجب الأخلاقي لم يصل إلى الإطمئـــنان والإنشراح الذي يصل إليه المسلم لأن المسلم يعلم بأن هذا العمل قام به لوجه الله وأن له جزاء حسنا في الدنيا والآخرة، كما يظهر أثر عدم التطبيق بالوخز والضيق والكآبة[1].

وهـــذه الـــرقابة الداخلـــية تعطي قيمة للسلوك الإسلامي، ذلك أن سلوك المنحرف تضبطه القوانيـــن الوضـــعية، فإذا ما أراد المجتمع تحقيق الالتزام بما رآه يناسب حياته الجمعية، فإنه يسلط قوانيـــنه بفـــرض الرقابة الخارجية وهذه الرقابة لا تشكل الرقابة الداخلية التي تناسب قوانينها، لأنه يـــراه نوعـــا من الإكراه وهو من أكبر دواعي التشتت والانفصام في شخصية الإنسان، على عكس السلوك الإسلامي فإنه سلوك يوحد النفس الإنسانية لأنه منبثق من عقيدة رضيت بها النفس واطمأنت إليها، ومن نية هذبتها تلك العقيدة، فمنحت لذلك السلوك قدسية مستمدة من قدسية تلك العقيدة، فحين التقـــت هـــذه العقيدة -التوحيد- بفطرة الإنسان فسحت مجالا للنفس "اللّوامة" لكي تدفع إلى السلوك الذي يوافق فطرة الإنسان وفطرة الوجود من حوله ويحقق خيري الدنيا والآخرة حين تتحقق النفس المطمئنة.

2-الصلاة:

إضـــافة إلى ما سبق بيانه في المبحث الأول من الفصل الأول، فإن الصلاة أهم عبادة تبعث في مؤديها الشعور بالصفاء الروحي والإطمئنان القلبي والأمن النفسي، فأوقاتها تحقق الصلة الدائمة بـــالله تعالى، وهيئاتها وأفعالها بأركانها وشروطها، تحقق الصلة الحقيقية بالله تعالى، لأنها توجه من الإنســـان إلـــى الله تعالى بجوارحه وحواسه، بكيانه كله، وهذا من شأنه أن يصرف الإنسان عن كل مشـــاغل الدنـــيا ومشكلاتها، ومن شأنه أيضا أن يحقق حالة الاسترخاء التام وهدوء النفس وراحتها الـــذي له أثـــر علاجـــي في تخفيف حدة التوترات العصبية الناشئة عن ضغوط الحياة اليومية وفي القضاء على القلق الذي يعاني منه بعض الناس.

فالاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمها الإنسان بالتدريب، وهو من الوسائل التي يستخدمها بعض المعالجيـــن المحدثين في علاج الأمراض النفسية، وعلى هذا فإن الصلاة تمكن الإنسان من التخلص

---

[1]-مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلامي، 122.

من التوتر والقلق، بما تحققه من استرخاء واطمئنان إذ يلقي بجميع همومه ومشاكله ويطمئن إلى الله عـز وجـل بأنه القادر على صرفها، والميسر لأسباب الخروج منها، وبذلك يقضي على الصراع النفسـي الـذي يسـتهلك جزءا كبيرا من الطاقة النفسية للإنسان، ويعطل قدراتها وإمكاناته، وتتجه طاقته إلى العمل المثمر بنشاط وحيوية وتزداد قدرته على العمل والإنتاج[1].

وكمـا تحقق الصلاة ما سبق ذكره فإن المداومة عليها تعود الإنسان تدريب نفسه على فعل الخـير واكتسـاب السـلوك الحسن، ويصبح التزامه بها أمرا ممكنا وميسورا، ويعلّم الإنسان ضبط نفسـه وحفظ توازنها، وبذلك فإن الصلاة كما تعمل على وقاية الفرد من الإصابة بالمرض النفسي، فإنهـا خـير عـلاج لمن حرم هذه النعمة ووقع أسيرا لشهواته وأهوائه، فاضطربت نفسه وشتتها الصراع النفسي والقلق.

3-الصوم:

للصـيام أيضـا فوائـد كثيرة فهو تربية وتهذيب للنفس وعلاج لكثير من الأمراض النفسية والجسـمية، فبالإضافة إلى فوائده التي ذكرناها من قبل -في المبحث الثاني من الفصل الثاني- فإنه يـدرب الـنفس ويعودها على أهم الخصال المهمة في حياته، فاستمرار الإنسان على ضبط شهواته مـدة شـهر كـامل كل عام يعلم الإنسان قوة الإرادة والعزيمة والتحكم في شهواته بصفة خاصة، وسـلوكه العام في الحياة بصفة عامة، وكذا في تقوية روح المراقبة والمحاسبة للنفس، وفي تحقيق التقوى والإخلاص.

كمـا أن الصوم يساعد الإنسان على علاج الملل والسأم، الذي يسببه الترف وإطلاق العنان للشـهوات، فإلف الإنسان للشيء وإشباع حاجته إليه باستمرار يفقد قيمته عنده، والحرمان من أكبر أسـباب إدراك قـيمة الشيء المفقود، ولذا فإن الحرمان الذي يلتزم به الصائم وهو عمل إرادي من الإنسان يهذب نفسه ويشعرها بقيمة ما حرم عنها، وقد يكون الحرمان بالإبتلاء بفقدها لتربية النفس والعودة إلى الرشد.

ومما ينشئه الصوم أيضا في الشخصية "الصبر": فالصبر له قيمة كبرى في حياة الإنسان، إذ يمكـنه مـن الصبر على الشهوات فلا يقترفها وإن كانت مذللة وميسرة وحاضرة، ومنه يعلم نفسه كـيف يقضـي على جماح إنفعالاته ودوافعه وكيف يهذبها، فينال من شهواته بقدر الحاجة إن كانت

---

[1]-محمد عثمان نجاتي: القرآن علم النفس، ص285.

مباحا وحلالا، وبمنعها عن نفسه إن كانت محرمة. والصبر ملازم للتقوى وقد حثت عليه السورة في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [2]، وهو -الصبر- من خصال الأنبياء -عليهم السلام- كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]. وقد حث عليه القرآن الكريم في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[5].

ومن أهم الخصال التي يقضي عليها الإنسان المتحلي بالصبر والتقوى: العداوة والغضب والانتقام برد الإساءة وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[6]، فلا يصل الإنسان إلى هذه الدرجة والرفعة والحظ العظيم من الخلق إلا إذا تحلى بالصبر. فلأنه اكتسب خبرات إيجابية حول الإساءة إلى حلم وإحسان، وفعل الخير إضافة إلى ما يناله من أجر وحسنات عند الله تعالى، ومثل هذا السلوك يبعث في صاحبه الأمن والطمأنينة والرضا، فالصبر رفعة في الخلق لا يتحلى به إلا مؤمن متق لله تعالى، ولذلك بشر الله سبحانه وتعالى الصابرين بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[7].

فالصبر يحقق الثبات في أشد المواقف وأعنفها، وأدعاها إلى تحريك النفس الإنسانية وزلزلتها وإفقادها رشدها وصوابها، فتظهر به النفس في هذه المواقف آمنة مستقرة مطمئنة مسلمة

---

(1)-سورة الأنعام، الآية:72.

(2)-سورة الأنعام، الآية:155.

(3)-سورة الأنعام، الآية:34.

(4)-سورة البقرة، الآية: 45-46.

(5)-سورة البقرة، الآية: 153.

(6)-سورة فصلت، الآية:34-35.

(7)-سورة البقرة، الآيات: 155-157.

أمرها الله تعالى. وكما يحقق الثبات فإنه يحقق قوة الإرادة[1] والعزيمة، التي تفيد صاحبها في إنجاز الأعمال العظيمة كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2]، فقوة الإرادة في الإنسان هي التي تحول الفكرة إلى العمل، وهي التي تحقق الأعمال وتوجد السلوك الذي بدونه تفقد الفكرة –التصور– قيمتها.

والإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه، فإذا كان الإنسان مريدا للفعل إرادة جازمة مع قدرته عليه فعله، فإذا لم يفعله مع قدرته عليه دل ذلك على ضعف الإرادة[3]، فهي جزم وعزم على الفعل إذا تحقق في الإنسان كان العمل ناتجا عنه، إلا أن يكون مانعا يمنعه منه وإلا فإنه كمن لم يرده ولم يعزم فعله.

فضعف الإرادة من ضعف الإيمان وقوتها من قوته، فالمؤمن القوي الإيمان تحققت إرادته وقويت بفضل ممارسته لمقتضيات هذا الإيمان، وأما المؤمن ضعيف الإيمان تضعف إرادته فلا يلتزم بمقتضيات ما يؤمن به وبالتالي تسيره شهواته ويقترف ما هو محظور ومحرم.

وعلى هذا فإننا نجد من يطلق على من كان منه هذا السلوك اسم "المنافق" على اعتبار أنه خرم شعبة من شعب الإيمان، ويقصدون بذلك النفاق الأصغر، كما كانوا يقسمون الشرك إلى شرك أصغر وشرك أكبر، وهذا انطلاقا من حديث الرسول ﷺ:«أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[4].

لذا فإن نفي الإيمان في بعض الآيات والأحاديث كما في قوله ﷺ :«لا يزني الزاني حين

---

[1]–تعرف الإرادة في علم النفس بأنها: العنصر الثالث المكون للنفس، وهي مكون أساسي لها بها يتفرد الإنسان، فهي تقلب الفعل الغريزي أو التعادي إلى فعل تأمل مقصود، فتسبغ عليه حلى جديدة، فحينما تكون قد انتظمت بالتربية الحسنة والتنشئة الصالحة، فإنها تنظم سلوك الإنسان بأكمله، فالفعل الإرادي فعل معقول وذاتي، لذا يتفاوت بتفاوت الأفراد، وهو يقع في نطاق قدرة الإنسان لذا تلوم النفس صاحبها: عبد العلي الجسماني: القرآن وعلم النفس، ص79–80.

[2]–سورة الأنفال، الآية:65.

[3]–ابن تيمية: الإيمان الأوسط، ص44.

[4]–أخرجه البخاري، عن عبد الله بن عمر، في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، مج1، ج1، ص15. ومسلم في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، صحيح مسلم بشرح النووي، مج1، ص322.

يزني وهو مؤمن...»[1]، هو من هذا الباب، أي أنه خرم إيمانه وأنقصه[2].

4-التزام التحليل والتحريم الذي جاء به التشريع:

يعتبر التحليل والتحريم الذي جاء به الوحي قاعدة هامة في حياة الإنسان يوجه بها سلوكه اليومي الظاهر والباطن، وبه يحقق نفعا ظاهرا قريبا يلمسه الإنسان مباشرة كالأثر النفسي الطيب للإلتزام وكذا المنافع المادية المتحققة من ذلك -كما هو الشأن في "الأنعام" وما تقدمه من منافع مادية عديدة، فالمشركون حين حرموها على أنفسهم حرموا أنفسهم منها وخلقوا بذلك الحجر والمنع عقبات صعبت عليهم المعيشة وهم في أمس الحاجة إليها، خاصة وأن تلك المنطقة وما تتصف به من العزلة تتطلب التيسير والتوفير في المأكل والمركب- وكذا ما تقدمه من منافع بعيدة لا يدركها الإنسان إلا بعد تفكر وتدبر وبحث، قد تستغرق مدته عمر أجيال متعاقبة.

وميزة هذا التشريع انه ملازم للحياة اليومية للإنسان، فما من فعل يقوم به الإنسان ظاهرا أو باطنا، سرا أو علانية إلا وله حكم معين في الإسلام، فإما أن يكون حلالا أو حرام او مباحا أو مكروها أو مندوبا، ولهذا فإن الملتزم به -التشريع- تجده في صلة دائمة بالله تعالى، لأنه يراقب نفسه وأفعاله ويحاول أن ينزلها على وفق ما يرضي الله تعالى، ولا شك ان في ذلك مجاهدة ومصابرة تقوي الإرادة والعزيمة حتى يتمكن الإنسان بعدها من اكتساب سلوك يرضي الله سبحانه وتعالى، فيصبح ذلك سجية وخلقا منه ملازم له، فيقترب شيئا فشيئا من منزلة الإحسان المشار إليه في الحديث[3] حتى يبلغها، وهذه من أعظم فوائده.

وكمثالين على هذا التشريع نأخذ تحريم كل من "الزنا" و "الخمر" انطلاقا من قوله تعالى في بيان أصول التشريع: ﴿...وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾[4]-وهو تحريم يشمل ظاهر كل فاحشة وباطنها، ويشمل هذا "الزنا" و"الخمر" على أن بعض الروايات في تفسيرها تبين بأن المقصود: ما ظهر: "الخمر"، وما بطن "الزنا"[5]- لنبين بعضا من الفوائد التي تحصل من اجتنابهما، وكذا الأضرار التي تعقب اقترافهما.

---

(1)-أخرجه البخاري في كتاب الحدود، وما يحضر من الحدود، باب لا يشرب الخمر، صحيح البخاري، مج2، ج4، ص171. ومسلم في كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، صحيح مسلم بشرح النووي، مج1، ص317.

(2)-ابن تيمية: الإيمان الأوسط، ص43، 44.

(3)-حديث: الإيمان والإسلام والإحسان، سبق تخريجه، أنظر: ص64 من هذا البحث.

(4)-سورة الأنعام، الآية: 151.

(5)-الطبري: جامع البيان عن تأويل البيان أي القرآن، ج8، ص83، 84.

أ-الزنا:

زيـادة على ما يسببه اقتراف الذنب من ألم نفسي وحسرة وتشتت بين قوى الإنسان، فإنه له أثر آخر يظهر في الجسم فيسلمه إلى الهلاك، وهو ما يورث ندما وحسرة أعظم منه.

يخـبرنا الطـب عن حقيقة ما يسببه الزنا من وهن في الجسم ويبين حقيقته التي خفيت عن الـناس إلى أن طور الإنسان في أساليب بحثه وكيفياته، إذ كان الإنسان قبلها يصاب بالأمراض ولا يعـرف حقيقتها ولا سببها، وعلى هذا فإنه إذا قيل له هذا حلال وهذا حرام لم يدرك حقيقة مضرته إلا من خلال إشارات النبي ﷺ والتي تعتبر مجملة البيان كما في حديث: «...لم تظهر الفاحشة في قـوم قـط حـتى يعلـن بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»[1].

إن الوهـن أو المـرض الـناتج عن الزنا يسمى بمرض الزهري (الإفرنجي) ووحدة هذا المـرض هـي: "اللولبـية الشاحبة" طولها من 6 إلى 14 مكرونا تشبه منظر الأفعى بطولها ودقة رأسـها، وتثنيها الذي يصل إلى حدود 10 ثنيات، تدخل هذه "اللولبية" بصمت إلى الجسم، ولا تتلقى من الجسم أي مقاومة كما جرت عادته في قاعدته عند دخول أي جسم أجنبي بإعلان إنذارات معينة كـالآلام والترفع الحروري والتوعك، ويشفع لها الدخول أنها تتظاهر بالضعف والقصور -فهي لا تعـيش خـارج الجسـم أكـثر مـن ساعات خلافا لبقية الجراثيم-فتدخل اللولبية من خلال الغشاء المخاطي، وهذا له معناه بالاتصالات الجنسية، ولذا فإن هذه الجرثومة قد تصل إلى داخل البدن بعد قـبلة بسـيطة، ومن هنا تتسلّ إلى الأوعيةاللمفاوية فتعبرها إلى الأوردة ثم إلى الشرايين، وتتمركز بعدهـا في الشرايين الدقيقة، وخلال 24 ساعة يتم التوزع في البدن كله وتقعد بهدوء، وهكذا يصاب البدن بدون أية ضجة من هذه الآفة الخبيثة التي كانت نتيجة الخبث.

تسـتمر هـذه الجـرثومة فـي صمتها ولا تظهر أعراض المرض، وتبدأ بحملة التخريب والإتـلاف، وقد تستغرق في نوم يدوم ربع قرن من الزمن لتثور بعد ذلك في صورة مرض الشلل العام، حيث يحل العطب والدمار بالدماغ وتصاب مراكز النطق والكلام، وتعطب العصب البصري، وحينها تعم الفوضى في الوظائف فيتراجع الفهم والإدراك، ويقصر العقل ويتباطئ الذكاء، وينعكس

---

[1]-أخـرجه ابـن ماجـة عن عبد الله بن عمر في باب العقوبات، رقم الحديث 3246-4019، محمد ناصر الدين الألباني: صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، المملكة العربية السعودية، ط3، 1408هـ-1988م، مج2، ص370.

ذلـــك علـــى البدن في صورة التشنج والاختلاج والاهتزاز والترنح يعبر عنه الجسم بتفكك الترابط وقصـــور الوظـــائف وتباطؤ العمل والإنتاج، بالإضافة إلى شلل العضلات فينتهي بضعف الكيان. ويُحْـــدِث الإفرنجي-الزهري مرضا آخر شبيه به وهو المسمى "بالتابس" TABES حيث تصاب حـــبال النخاع الظهري الخلفية، فيضعف الإحساس ولا يستطيع المشي في الظلام، وينتهي باختلال في وظائف الأعضاء الأساسية.

ولا يـــتوقف أثر الزنا عند هذا الحد، بل يمتد أثره ليصل إلى الذرية، فيظهر عمل اللولبية باســـقاطات متكررة في أشهر الحمل وإجهاضات متعاقبة، تتلوث المشيمة وتتخرب وتشوه الجنين، وعلـــى هذا قال الطب عنه –عن الإفرنجي– إنه المقلد الأكبر لكافة الأمراض –يقلد سرطان الدماغ والـــتهاب النخاع وخراجة الكبد، وقرحة المعدة وألم الزائدة ومغص البطن، وأمراض المثانة– فهو مـــرض خبيـــث يعـــرف جمـــيع أبواب الفساد والرذيلة، وهذه هي حقيقة الزنا، فهو جامع لأبواب الرذيلة[1].

لقـــد أرهق هذا المرض الإنسان خاصة لما انتشر الزنا ونشط، فأخذ يتخذ أسلوب الوقاية لمّا عـــرف الســـبب، لكـــن بعـــد أن اكتشـــف الدواء بفضل من الله ورحمته عادت الرذيلة مرة أخرى وانتشـــرت بشكل أفضع لاطمئنانهم للدواء، فلم يظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، فعادت الجراثيم مرة أخرى لتقوم بدورها ولكن بطريقة أخرى، فظهر مرض أخر أشد وأخطر وهو مرض "الإيدز" الذي يهدد الإنسان في هذا العصر فهو في انتشار مستمر وسريع بتسارع الإنسانية إلى الانحلال الخلقي.

وبهذا تعمل الفاحشة على زعزعة الأمن والاستقرار والتوازن النفسي والجسدي معا.

ب-الخمر:

للخمـــر أضـــرار كبيرة مثله مثل أضرار الزنا، ولكن نكتفي بنموذج الزنا في هذا المجال – مجـــال الضـــر– لنبيـــن فوائد الإمتثال للتشريع امتثالا لأمره تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[2].

فالقـــرآن الكـــريم ميز بين الضرر والنفع مراعاة لجميع مستويات الناس حتى يفهم الجميع حقـــيقة الخطـــاب ومقاصـــده كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

---

[1]-خالص جلبي: الطب محراب للإيمان، ص203-210.

[2]-سورة المائدة، الآية: 90.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [1]. فقد كان معتقد الناس قديما في نفعه، لكن لم يدركو قلته أو بعبارة أخرى لم يدركو عظم ضرره، ولجهل الناس بهذه الحقيقة جاء التحريم بالتدرج، فبدأ يحصل الإمتثال شيئا فشيئا بناء على ما يحصل لهم من العلم في شأن التحريم، فكان علمهم مبنيا على الوحي وعلى ظاهر ما يرونه وما يلمسونه من أضرار لهذا المحرم-الخمر- لكن لم يحصل لهم العلم بحقيقة مكوناته التي لا تسبب إلا الأمراض التي تؤدي بالإنسان إلى الضعف شيئا فشيئا، مع ما تسببه من ذهاب للعقل يجعل الإنسان يسلك سلوك الحيوان.

وهكذا بدأ التدرج في تغيير سلوك الإنسان وعاداته، وهكذا كان التحريم أكبر سبب لمنع أضرار كبيرة، ومع تعمق الإنسان في البحث وتطويره لأساليبه أدرك حقيقة الضر الكامن في هذه المادة وغيرها مما هو مشابه لها، وداخل تحت حكمها -كالتبغ والحشائش الضارة- لكن رغم كشف حقيقة إضرارها بالناس، ورغم تحذير الأطباء من خطرها إلا أننا لا نجد استجابة عند من لا يؤمن بالتوحيد من غير المسلمين، وكذا عند من يؤمن به ولكن لا يلتزم بمقتضياته، فالنصارى مثلا جعلوا الخمر من عقائدهم الأساسية ولم يمنع من الاقتراب منه إلا توحيد الله تعالى حق التوحيد.

فقد جاء القرآن بقاعدة هامة في الانتفاع من الشيء ترتقي بالإنسان إلى القيم الاخلاقية العليا التي تضبط علاقة الناس بربهم وعلاقاتهم ببعضهم.

ومن هذه القاعدة قاعدة الانتفاع بالحلال، والتي تدفع بالإنسان إلى الاعتدال والتوسط وقد مر بيان فائدة الالتزام به[2]

وكذلك فإن التوجيه إلى حقائق الأشياء يعلم الإنسان السعي واتخاذ الأسباب لاكتشافها، وهو ما ينمي قدرات الإنسان وإمكاناته التي تساعده على الكشف وزيادة العلم.

وبذلك يتكامل البناء الذاتي للإنسان إذ يلتقي صفاء النفس وحكمة العقل، ويتم ذلك بتوفر حقيقة الثقة بالنفس ووافر الإيمان، فالنفس إذا غالبت الهوى فإنها تصبح قرينة الإيمان فيمتزج الإيمان بالنفس، ويخالط ذات المرء وحياته، فيتحول سلوكه كله إلى منهج واقعي، فالإيمان قوة للنفس يجدد انفعالاتها التي تقضي على رتابة الحياة[3]. وتكسبها أهم الخصال كالتقوى والإخلاص والصبر وتبلغها مرتبة الإحسان والأمن والطمأنينة، فيكون أهلا للاهتداء بالقرآن الكريم كما قال الله

---

[1]-سورة البقرة، الآية: 219.

[2]-أنظر المبحث الثاني من الفصل الثاني، ص 190 - 192 .

[3]-عبد العلي الجسماني: القرآن وعلم النفس، ص183، 184.

تعالى: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فالإنسان السوي المتزن تنفتح له مجالات الهدى والمعرفة، وهو أهم شيء يحققه الإنسان في حياته.

فميزة التوجيه التربوي الذي يتحقق بالتوحيد أنه يدرب الإنسان على عملية الضبط الذاتي، ولعملية الضبط الذاتي هذه والتي تتمثل في الوازع الوجداني والضمير أهمية كبرى في تنشئة الإنسان وتربيته، وذلك لما تتميز به كونها تستند إلى عوامل داخلية عضوية جسمية، إلى جانب عوامل نفسية ذاتية تجعل عملية الضبط الذاتي التربوي عملية صحية في تكامل الفرد ونموه السوي السليم-بعكس عمليات الكبت أو الحرمان لمخالفتها للفطرة- إذ تساهم بقدر كبير في تسهيل وتيسير نمو النفس لأنها تمس الدوافع ذاتها قوة ودرجة واتجاها وهدفا لاعتمادها على أهم جهاز في الإنسان وهو الجهاز العصبي الإرادي الذي يسيطر ويضبط غير قليل من أعماله السلوكية بتوجيه من الدافع الإيماني والذي يتحقق ويكتمل بالتوحيد، فيتحقق الإشباع المنظم للدوافع. وتتمثل مجالات هذا الضبط في ثلاث مجالات أساسية:

-مجال ضبط في كيان الدافع ذاته: ويتحقق بضبط درجة القوة الطبيعية دون استثارة اصطناعية، وبضبط توقيت منظم في تحديد وقت الطعام والشراب.

-مجال ضبط وسائل الإشباع: في الالتزام الدقيق بما أحل الله، فما حرم الله طريقا ضارا للإشباع إلا وأحل معه طريقا شريفا طيبا لإشباع ذلك الدافع ذاته.

-ضبط في مجال الأهداف: حيث يتعاون إشباع الهدف الوظيفي المباشر مع الهدف الإنساني الشامل النبيل في مستوى العقيدة والخلق في مرضاة الله تعالى في الحياة الدنيا عمرانا وإصلاحا، وفي الحياة الآخرة مغفرة وثوابا[2].

المطلب الثاني: تأثير التوحيد في حياة الأسرة

يقتضي الاجتماع الإنساني أن تحدد وتضبط علاقات أفراده فيما بينهم، فاختلاف طبائع الناس وقدراتهم وإرادتهم في ضبط شهواتهم ودوافعهم يؤدي إلى تضارب تصادم في المصالح

---

[1]-سورة البقرة، الآيات: 1-5.

[2]-عبد الحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص116-122.

والرغبات والأهواء، فإذا لم تضبط حلت الفوضى والاضطراب، وانعدم نتيجة لذلك كله الأمن والاستقرار، ولذلك لم يغفل القرآن الكريم في بنائه للفرد توجيه دوافع الإنسان ذات النزعة الاجتماعية، فقد حرص على إعطاء المبادئ العالية الكفيلة بضبط علاقات الأفراد فيما بينهم من أجل بناء مجتمع آمن ومستقر، ولذلك وضع أصوله منذ البداية، فالمتأمل في القرآن المكي يلحظ التوجيهات العديدة إلى هذه الأصول، وقد حفلت سورة الأنعام بهذه التوجيهات وجاءت الوصايا العشر من هذه السورة محذرة من أسباب الاختلال وعوامل الضعف المفككة لشبكة علاقات المجتمع. فكما اهتمت بشؤون الفرد وإصلاح اعتقاده وأخلاقه اهتمت بشؤون حياة الأفراد الاجتماعية، فكشفت عن نظام يحفظ الفرد والجماعة معا.

وللفرد علاقات اجتماعية عديدة تبدأ بالأسرة مع زوجه وأبنائه ووالديه وإخوانه...الخ، ثم علاقاته بجيرانه إلى أن تتسع دائرة علاقاته لتشمل المجتمع كله، ولكل علاقة من هذه العلاقات في القرآن الكريم حدود وضوابط يلتزم بها الإنسان لتستمر وتكتمل ويحقق باكتمالها الأمن المنشود لنفسه ولمجتمعه.

وعلى هذا فإن الالتزام بهذه الضوابط التي شرعها الله سبحانه وتعالى له أكبر الأثر في توجيه الإنسانية الوجهة المحددة.

فالقرآن الكريم ينطلق بالإنسان من واقعه المعيش ومن حقيقته الفطرية ليرتفع به عن كل ما يشوب هذه الفطرة ويحرفها عن أصلها فيسلك بها الطريق الآمن الذي يضمن كمالها المنشود، ويتجلى ذلك من خلال "التحليل العميق الشامل والمتكامل وفي التوجيه الصحيح لما في واقع الناس ودعوتهم إلى تقويم حالتهم الفكرية والسلوكية وكل ماله ارتباط بالنظم الاجتماعية وأساسيات العمران البشري"[1].

وأول ما نبتدئ بيانه هو التوجيهات والضوابط التي تحدد علاقات الأفراد داخل الأسرة. ثم ننتقل بعدها إلى بيان توجيهاته للعلاقات العامة خارج حدود الأسرة-المجتمع-

يوجه القرآن الكريم الإنسان إلى ما به تحقيق حاجاته الفطرية الأساسية، فيأمره بتكوين الأسرة ثم يحيط هذه الأسرة بضوابط متينة تمنع زعزعة أمنها واستقرارها، أو هدمها، وذلك لأنها الأساس الأول للمجتمع يستقر باستقرارها ويأمن بأمنها، فهي الحاضن والمربي الأول للأفراد الذين

---

[1]-محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص312.

هم دعامته.

ومن أجل إقامة هذا الأساس-الأسرة- يوجه الإنسان إلى الزواج ثم يحدده بضوابط ومفاهيم تمنع أي تأويل أو تفسير لها يخرج بها عن حقيقتها التي توافق فطرة الإنسان وتعمل على تنميتها.

هـذه المفاهـيم تفرض الأوضاع الاجتماعية العامة السائدة في العالم اليوم، بيانها والكشف عـنها، فمما هو سائد اليوم هو الحملة العدائية ضد الأسرة والعمل على زعزعة استقراره بمحاولة الخـروج عـن الفطـرة الإنسانية وتغليب الشهوات بإيجاد قوانين دولية عامة تسود العالم الإنساني لتشـجيعها وحمايـة أصحابها، بل وتشجيع انتشارها وفرضها في الواقع كبديل عن النمط الأسري السـائد منذ نشأة الإنسان الأول، والذي يتمثل في الأب والأم والأطفال، واعتباره نمطا تقليديا ظالما للإنسانية، خاصة المرأة إذ اعتبروها المتضرر الأول من هذا النظام.

ويهـدف هـؤلاء مـن خلال مشروعهم التدميري للأسرة إلى إيجاد أنماط بديلة عنها، فبدأ هـؤلاء أولا بقضية تحرر المرأة ثم المساواة إلى أن وصلوا إلى مفهوم المساواة التماثلية مع الرجل وتبنـي مفهـوم "الجـندر" مـن قبل المراكز النسوية والهيئات والمنظمات العاملة في حقل المرأة والتنمـية، ومـن أجل ذلك عملوا على ترسيخ مفهوم "الجندر" والذي يعني تقسيم الأدوار المجتمعية بحسب النوع "الذكر والأنثى"، فهو يهدف إلى رفض الأسرة والشريعة، والدفاع عن الحرية الجنسية وحرية الجسد الأنثوي[1].

ولهـذا الهدف أضراره وخطورته الكبيرة على أمن المجتمع الإنساني وسلامته، فهو إطلاق لحرية الأفراد على حساب الفطرة العامة للخلق وأهدافها الكبرى -وهي الخلافة في الأرض بالعبادة والعمران- وهو ضرب للأخلاق والمبادئ الفطرية العامة التي تقررها الفطرة والعقل السليم، والتي يعمل الوحي على تنميتها وتوجيهها لما فيه تحقيق لوظيفة الإنسان الأساسية على هذه الأرض.

فأول ما بدأ به هؤلاء من أجل هدفهم هذا، هو تغيير المفاهيم وإعطاء المصطلحات الأساسية مفاهـيم مغايرة لحقيقتها-أي إفراغ المصطلح من محتواه المفاهيمي الأصلي ثم إحلال مفاهيم أخرى توافق أهواءهم- ومنه إعطاء بديل لتلك المصطلحات الأصلية يوافق تلك المفاهيم الجديدة، وكأن هذا

---

[1] صـالح نعمـان: "تحديـات الأسرة المسلمة -مؤتمرات وملتقيات-"، محاضرة ألقيت في ندوة بعنوان: "المرأة المسلمة وتحديات العصر"، يوم 22 مارس 2004، قاعة المحاضرات الكبرى، عبد الحميد بن باديس، جامعة الأمير عـبد القادر للعلوم الإسلامية، نظمتها الهيئة الطلابية: "الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين"، فرع جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المكتب الولائي لقسنطينة، الجزائر.

العمـــل ترويض للعقل الإنساني وتربيته على تقبل الجديد، وإن كان فاسدا أو بعبارة أخرى منحرفا، فـتظهر تلـك المصـــطلحات الجديدة وكأنها مرادفة للمصطلحات الأصلية إلى أن يصل إلى إلغاء المصطلح الأصلي.

وفـــي حقـيقة الأمر فإن هذه الحملة ضد الأسرة هي نتاج للحملة ضد القرآن الكريم واللغة العربـــية -لغـــة القرآن- أي أن المستهدف الأول هو اللغة العربية ومن ورائها القرآن الكريم، فإذا توصل هؤلاء إلى مصطلحات جديدة بديلة عن المصطلحات الأصلية سهل لهم الإنطلاق إلى القرآن الكريم لتفسيره تفسيرا جديدا بمعاني تلك المصطلحات الجديدة[1].

فهـــذه الأفكار والمفاهيم -الجندر- لها جذورها الفلسفية فهي تمتد إلى الفكر الماركسي الذي يستهدف إقامة نظام معرفي مخالف للنظام المعرفي الذي يقيمه الوحي.

فهذه الفلسفة -الماركسية- ترى بأن للإدراك والشعور علاقة بظروفه الاجتماعية، والأحوال الماديـــة الخارجـــية، فهي تؤمن بأن الحياة الاجتماعية للإنسان هي التي تحدد له مشاعره، وأن هذه المشاعر أو الأفكار تتطور تبعا لتطور الظروف الاجتماعية والمادية[2].

ولمزيد من التوضيح لهذا المفهوم -الجندر- نلخص ما كتبه أحد الباحثين في هذا المجال.

يعنـــي هـــذا المصطلح تعدد أنماط الأسرة فلا يكتفي بالنمط المعروف والسائد والذي يعني تكـــون الأســـرة من الأب والأم والأبناء، وإنما يصل إلى اعتبار أسر الشواذ نمطا من أنماطها، فقد أشار أحد مطبوعات الأمم المتحدة وهو كتاب "الأسرة وتحديات المستقبل" إلى أن هناك (12) شكلا ونمطـــا للأســـرة منها أسر الشواذ "الجنس الواحد" في حين أن مؤتمر بيكين للمرأة أقر وجود (6) أنماط للأسرة بحسب الوسط الاجتماعي خلافا للفطرة الإنسانية السليمة.

وقد عرفته منظمة الصحة العالمية بأن هذا المصطلح يفيد استعماله وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات مركبة اجتماعية لا علاقة لها بالاختلافات العضوية، بمعنى أن كون الإنســـان ذكرا أو أنثى عضويا ليس له علاقة باختياره لأي نشاط جنسي قد يمارسه، فالمرأة ليست امـــرأة إلا لأن المجتمع أعطاها ذلك الدور، ويمكن حسب هذا التعريف أن يكون الرجل امرأة وأن

---

(1)-تعـد كـتابات طه عبد الرحمن عن قضية المصطلح والتأويل والتأصيل محاولة لإعطاء بديل من المصطلحات الجديدة انطلاقا من تأويل القرآن الكريم.

(2)-انظر تفصيل هذه الفكرة. محمد باقر الصدر: فلسفتنا، ص332-344.

تكـــون المرأة زوجا تتزوج امرأة من نفس جنسها، وبهذا تكون قد غيرت صفاتها الاجتماعية وهذا الأمر ينطبق على الرجل أيضا.

ولا يبـــتعد تعـــريف الموســـوعة البريطانية عن هذا المعنى، فالهوية الجندرية (Gender Identity) عـــندها تعنـــي: شـــعور الإنســـان بنفسه بأنه ذكر أو أنثى ويوافق هذا الشعور-الهوية الجـــندرية- الخصـــائص العضـــوية فـــتكون واحدة، ولكن هناك حالات لا يوافق فيها هذا الشعور خصـــائص الإنســـان العضـــوية، وعلى هذا فإن الهوية الجندرية -أي شعور الإنسان بالذكورة أو الأنوثـــة- ليست ثابتة بالولادة، فيكون الإنسان حينها ذكرا أو أنثى، وإنما تؤثر فيها العوامل النفسية والاجتماعـــية، فتتشـــكل بســـببها وفعلها نواة الهوية الجندرية، وهي تتغير وتتوسع بتأثير العوامل الاجتماعـــية كلمـــا نما الطفل، فالطفل إذا نما في أسرة شاذة جنسيا، فإنه قد يميل إلى جنس الذكور لتكويـــن أســـرة بعيدا عـــن الإناث، ليس على أساس الجهاز العضوي، وإنما على أساس التطور الاجتماعـــي لدوره الجنسي والاجتماعي، كما أنه من الممكن أن تكون هوية جندرية لاحقة أو ثانوية للـــتطور وتطغـــى على الهوية الجندرية الأساسية-الذكورة أو الأنوثة- حيث يتم اكتساب أنماط من الســـلوك الجنســـي في وقت لاحق من الحياة، إذ أن أنماط السلوك الجنسي والغير نمطية منها أيضا تتطور لاحقا حتى بين الجنسين.

فالمجـــتمع مـــن وجهة نظرها هو المسؤول عن تحديد أدوار النوع والعلاقات الاجتماعية، وهذه العلاقات والأدوار قابلة للتغيير، فالفروق بين النوعين ليست بيولوجية وإنما تستند إلى الأدوار الاجتماعـــية التـــي يســـتعملها الفرد منذ الطفولة، ومن ثم يستطيع المجتمع تغييرها عند الاقتضاء، فللمـــرأة مـــثلا القدرة على أداء عمل الرجل مهما اختلف نوع العمل، ولذلك فإن لها أن تقوم بدور الزوج في الزواج بالمثلين.

ولذلـــك يمكن حسب هذا المفهوم تكوين أسر الشواذ، ولأجل هذا عملت منظمات الشواذ في مؤتمـــر بيكيـــن من أجل إلغاء بعض الكلمات ككلمة الزوج والزوجة، التي أصرت الدول المحافظة علـــى إدخالهـــا، لكنها لم تصل إلا إلى رفض كلمة"التقليدية" إذ اعتبرتها عودة إلى الوراء وانتكاسا للمكتسبات التي تم تحقيقها في القاهرة.

وعلى هذا عمل هؤلاء خلال مؤتمر اسطنبول للمستطونات البشرية في تركيا عام 1996 - والـــذي دار موضـــوعه حول الأسرة وكان الصراع فيه بين كونها خلية اجتماعية يجب تدعيمها أم أنهـــا الإطـــار التقليدي الذي يجب الانفكاك منه واستحداث مفهوم جديد للأسرة- من أجل استحداث

أطـــوار أو أنمـــاط جديـــدة "الأسرة"، وكان الحل الوسط تبني النص المقارب لإعلان القاهرة الذي يتضـــمن الإشـــارة إلى الزوج والزوجة مع الإبقاء على التعدد الأنماط والأنواع للأسر، وترك اللفظ على عمومه وغموضه إرضاءا للجماعات التي تطالب باستحداث زواج بين الجنسين.

وقامـــت لجنة حقوق الإنسان بتوسيع نص الاتفاقية الموقع عليها من دول العالم بما يخالف إرادة هذه الدول، لتشمل حرية الحياة الجنسية غير النمطية، وعدم جواز تدخل الدولة –أية دولة من الـــدول الموقعـــة على المعاهدة الأساسية– في الحياة الخاصة للأفراد تحت باب المصلحة العامة أو حماية الأخلاق أو منع انتشار الأمراض.

وفـــي مؤتمر روما لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الذي عقد في روما سنة 1998، حاول المؤتمـــرون إصدار توصيات ملزمة على المستوى الدولي بتجريم القوانين التي تعاقب على الشذوذ الجنسي –المضادة للشذوذ الجنسي–، إذ اوردت الدول المساندة لهذه الأفكار في النص ما معناه أن كل تفرقة أو عقاب على أساس "الجندر" تشكل جريمة ضد الإنسانية.

وعلى هذا فإن هذه المؤتمرات كانت تهدف إلى تأييد الإنهيار الخلقي وتدمير الأسرة وإقرار حقوق "اللواطيين والسحاقيات". واعتبارهمأشخاصا طبيعيين يمارسون حريتهم الجنسية خارج الإطار التقليدي، أو النمطي الذي فرضه المجتمع وهو نطاق الأسرة "الأب والأم" تحت مظلة الزواج، ومن أجل ذلك عمل هؤلاء على إقرار مصطلح "الحقوق الجنسية" وكلمة المتحدين والمتعاشين (couple) وكـــذا مصطلح "الصحة الإنجابية" والتي تعني حرية الإجهاض كخيار إنجابي تتمتع به المرأة دون عوائق، ومنه طالب هؤلاء من خلال توصيات مؤتمر لاهاي للتنمية والسكان في هولندا سنة 1999 م الحكومـــات بـــتحديد قسم من ميزانيتها لتأمين هذه المطالب وخاصة "موانع الحمل" "الإجهاض"، بحيث يتمكن الشباب من "صنع قراراتهم واختياراتهم" ثم تأتي "دورة الحكومات بنيويورك"للمصادقة علـــى مـــا انبـــثق عن هذه المؤتمرات، وإقرار إعلان القاهرة ليصبح ملزما لجميع الدول في الأمم المتحدة.

ولـــم يكتف هؤلاء بهذا الحد، فمن خلال مؤتمر التمكن والإنصاف بصنعاء (المؤتمر الدولي لـــتحديات الدراسات النسوية في القرن الحادي والعشرين)، الذي عقد في الفترة من 12–14 سبتمبر 1999م، توصـــل هؤلاء إلى طرح ورقة عمل تقول بإلغاء النص "القرآني"، عندما تكون الظروف الاجتماعـــية غـــير مواتية. كما اختتم هذا المؤتمر أعماله في عاصمة اليمن بإعلان نجاح فعاليات المؤتمـــر الذي وصل في بعض جلساته إلى الخوض في ذات الله المقدسة، والتعرض لآيات القرآن

الكريم بالتفسير الشخصي والاجتهاد مع النص[1].

هـذه المحاولات تهدف إلى تشريع جديد يوافق الأهواء والشهوات تسيرُ عليه الإنسانية وهو شـبيه بالتشـريع الجاهلـي الذي توصل إليه المجتمع الجاهلي، نتيجة إنحرافه عن الفطرة، واتباعه لخطوات الشيطان، فسار عليه إلى أن جاء الوحي الإلهي-القرآن الكريم-مصححا لهذا الوضع لينقذ الإنسـانية مـن مخاطـر هذا الاتباع، ولقد واجه المجتمع الجاهلي القرآن الكريم بمثل ما واجهه به هـؤلاء المعرضـون فـي هذا القرن، وإن اختلفت أساليب المواجهة فالهدف واحد وهو إرضاء الأهواء والشهوات والتمكين للباطل.

ولهـذا التشـريع خطورته الكبيرة على الفرد والمجتمع على حد سواء ينتهي بالإنسانية إلى الفوضـى والانحلال والتشتت وإلى الأمراض النفسية والعضوية التي تنهكها وتضعف قوتها وتنتهي بهـا إلى الزوال هذا إضافة إلى ما يؤدي إليه قتل الأولاد بالإجهاض ومنع الحمل إلى توقف النسل والقضاء على النوع الإنساني.

أما الأسرة التي يؤسسها التوحيد، فهي تختلف كل الاختلاف عن غيرها من الأسر، لأن لها مفهـومًا خاصاً، تبدأ بالميثاق الذي له قداسته ولا يفسخ بشروط يُندر تحققها في ظل التوحيد، ولذلك فهي لها قداسة مستمدة من قداسة التوحيد[2].

ومن خلال ما يأتي يتبين لنا مفهومها وضوابط أو أسس بنائها ثم الفائدة او الأثر الذي يخلفه الالـتزام بهـا-مراعاة الأسس والضوابط والعمل وفق هذا المفهوم- وذلك من خلال بيان الأصول العامة التي أشارت إليها سورة الأنعام.

أولا: مفهوم الأسرة وأسس بنائها

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

---

[1]-أنظر: تفصيل هذا الملخص، صالح نعمان: "تحديات الأسرة المسلمة -مؤتمرات وملتقيات-".

[2]-لمزيد من التفصيل ضوابط تأسيس الأسرة وضوابط علاقات أفرادها -حقوقهم وواجباتهم- أنظر محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص334-340.

-أبو بكر جابر الجزائري: منهاج المسلم، ص92-99. وغيرها من كتب الفقه التي تفصل البيان في هذه المسألة.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

تتكون الأسرة من "الوالدين" و"الأولاد"، أي من الأب والأم والأبناء. وتربط بينهم علاقة أساسها تقوى الله سبحانه وتعالى، قبل أن تكون صلة دم أو قرابة، فقد بينت الوصايا حق كل من الوالدين والأولاد بعد الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك إشارة إلى أهمية إلتزام الإنسان بتقوى الله سبحانه وتعالى خلال علاقاته داخل الأسرة.

وتتمثل هذه العلاقات كالآتي:

-علاقة الوالدين فيما بينهم، أي علاقة الأب بالأم.

-علاقة الوالدين بالأولاد والعكس.

-علاقة الأولاد فيما بينهم.

ولم يغفل القرآن الكريم توجيه الإنسان في أي من هذه العلاقات.

تبدأ الأسرة أولا بزواج الرجل بالمرأة، وقد جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى هذه العلاقة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

فعلاقة الرجل بالمرأة سنة من سنن الله تعالى، أو فطرة فطر الله تعالى الإنسان عليها، ومن أجل ألا يحيد عن هذه الفطرة أسس لهذه العلاقة فجعلها على أساس الزواج، ثم حرم كل علاقة بين الرجل والمرأة تقوم على غير الزواج كالزنا، أو الزواج المؤقت، وغيرها من أصناف الزواج التي أبطلها الوحي.

فالزواج إذن -بمفهوم الوحي- رابطة تنظم العلاقة بين الرجل والمرأة، وبه تبدأ أولى

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 152.

[2]-سورة الأعراف، الآية: 189.

[3]-سورة النساء، الآية:1.

[4]-سورة الروم، الآية: 20-21.

خطوات بناء الأسرة.

ونظرا للأهمية الكبرى التي تتمتع بها الأسرة إذ تعد المدرسة الأولى التي يتكون فيها الفرد، وجه الوحي الإنسان إلى ضرورة أن يكون اختيار كل من الزوجين لصاحبه على أساس الدين، حتى يضمن لأفرادها علاقات قائمة على أساس التقوى لله سبحانه وتعالى، فوجه الرجل بقوله ﷺ : «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1]. ثم وجه المرأة ووليها بقوله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»[2]، وأساس هذا التوجيه هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، فجعل بذلك سلامة العقيدة والصلاح والتقوى، وكرم الأخلاق، واستقامة السلوك أساس في الاختيار.

ويحدد الإسلام عدة شروط لكي يكون عقد الزواج صحيحا، وقد فصّلت كتب الفقه بيانها ومن هذه الشروط: أن لا تكون المرأة محرمة على الرجل، وأن تكون صيغة العقد مؤبدة وأن يحضر عقد الزواج ولي المرأة وشهود يمضي بهم العقد، وبهذا العقد تصبح علاقة الرجل بالمرأة محللة ولا ينفسخ هذا العقد إلا بالطلاق، وقد حدد الله سبحانه وتعالى شروط وقوعه وجعله كحل

---

[1]-رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم الباب: 16، رقم الحديث: 5090، صحيح البخاري، ص936.

-ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: تزويج ذات الدين، رقم الباب: 6، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، دم، دط، دت، مج1، ص597.

أبو داود في كتاب النكاح، باب: ما يؤمر به من تزويج ذات الدين، رقم الحديث: 2047، سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، دط، دت، مج1، ج2، ص219.

[2]-رواه الترمذي في أبواب النكاح، باب ما جاء في من ترضونا دينه فزوجوه، رقم الحديث: 1091، سنن الترمذي، مج2، ص274.

-ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: الأكفاء، رقم الباب: 6، رقم الحديث: 1967، سنن ابن ماجه، مج2، ص636، وقال: إنه حسن.

[3]-سورة البقرة، الآية:221.

[4]-سورة النور، الآية: 3.

أخير يلجأ إليه كل من الرجل والمرأة عندما يصبح استمرار العلاقة بينهما ضررا يقع على أحدهما أو كلاهما، وتطلب المرأة طلاقها من الرجل إن رأت ضررا واقعا عليها أكبر من فسخ هذه العلاقة.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الخطبة وسيلة تمكن كل من الرجل والمرأة من التعرف على الآخر ليكون كل منهما على بينة من أمره ولا يقع الظلم على أحدهما لأن الظلم من أهم أسباب فساد هذه العلاقة المؤذن بالطلاق، ثم أحاط هذه الخطبة أيضا بشروط وضوابط فائدتها أنها تؤدي إلى الزواج الذي رغب فيه الشرع، وجعلها فسحة تمكن كلا من الرجل والمرأة من التراجع إن بدا لهما خلالها ما يؤذن بعدم الاستقرار بعد الزواج[1].

وبعد أن يتم الزواج يصبح لكل منهما حقوقا وواجبات يلتزم بها كل منهما نحو الآخر نشير إلى أهمها:

-تحمل كل منهما مسؤولية وتبعات ما ينتج عن هذه العلاقة كالنفقة وتربية الأولاد وحمايتهم من كل خطر مادي أو معنوي.

-حفظ كل منهما لصاحبه وصون عرضه باجتناب الخيانة بالغيب، كإفشاء السر والزنا وغيرها.

-مساعدة كل منهما لصاحبه على أداء المسؤولية التي نتجت عن زواجهما وكذا على أداء أمانة التكليف إذ تتمثل هذه المساعدة في التزام كل منهما بواجباته تجاه الآخر والتجمل في طلب الحقوق إن غفل عنها الآخر وذلك عن طريق التزام المبدأ العام الذي حدده الإسلام للاجتماع البشري من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذا التعاون والتكافل داخل الأسرة.

-وأساس كل ذلك هو تقوى الله تعالى ومراقبته.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقوق والواجبات في كثير من الآيات منها قوله تعالى:

---

[1]-فصّل الفقهاء بيان ضوابط الخطبة وشروطها، وكذا شروط عقد الزواج وضوابطه لا يتسع المقام لذكرها، وعلى هذا نكتفي بالإحالة إليها. أنظر مثلا: السيد سابق: فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1403هـ-1983م، مج2، ص7 وما بعدها.

-عبد الرحمن الجزيري: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، د.د، د.م، د.ط، د.ت، ج4، ص1 وما بعدها (كتاب النكاح).

-ومن الكتب الحديثة: نصر سلمان، سعاد سقحي: أحكام الخطبة والزواج -دراسة مقارنة مع قانون الأسرة- دار السلام، د.م، د.ط، د.ت.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]، وتستمر هذه الحقوق والواجبات مادام عقد الزواج قائما وإن انفسخ لضرورة أدت إليه فإنها لا تسقط إلا بإتمام العدة أو وضع الحمل إن كانت المرأة حاملا، لتظهر بعدها واجبات أخرى متمثلة في حفظ وصيانة الولد الذي نتج عن زواجهما، كالنفقة والاهتمام بشأن تربيته ورعاية صحته النفسية والجسمية وغيرها.

وإشارة هذه الآية إلى حقوق وواجبات كل من الرجل والمرأة هي تأكيد لمبدأ هام تقوم عليه الأسرة وسائر العلاقات الاجتماعية، وهو مبدأ العدالة والمساواة بتكليف كل نفس وسعها، وبمجازاة المرأة على ما قدمت بمثل ما يجازى به الرجل على ما قدم كما قال الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]. وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

وتقرير هذا المبدأ –العدل والمساواة– هو إنصاف لكل من الرجل والمرأة على حد سواء، وهو إنصاف لم يتحقق في غير هذا التشريع، "إذ المساواة بينهما كاملة في نظر القرآن، وأن على كل واحد منهما للآخر واجبات متساوية من حيث القيمة، والمردود المعنوي، وإن اختلفت أحيانا من حيث الذات فلا يعطي هذا الاختلاف امتيازا تشريفيا، ولا يمنح أفضلية أدبية باعتبار أن كلا منهما إنسان، وأن ما يعمله كل منهما مكمل ومتمم بما يعمله الآخر. ومعلوم طبعا أن المساواة لا تعني: أن يتقمص الرجل شخصية المرأة أو تتقمص المرأة شخصية الرجل، لأن تغير الملامح الطبيعية والتنكر للطبيعة–وإن كان اليوم ظاهرة مشاهدة– فإنه انحراف وشذوذ، وقد ثبت أن النبي ﷺ: «لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»[5]، وفي رواية: «لعن الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[6]"[7].

فقد جاء الإسلام بإصلاح النوع كله –جميع البشر– وجاء بشريعة سواء بين الناس ولم

---

[1]–سورة البقرة، الآية: 226.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 152.

[3]–سورة النحل، الآية: 97.

[4]–سورة الأنعام، الآية:160.

[5]–رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب: لباس النساء، رقم الحديث: 4097، مج2، ج4، ص60.

[6]–رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب: لباس النساء، مج2، ج4، ص 60.

[7]–محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص337.

يفصل فيها بين أفراد النوع وصرح بالتعميم في كثير من الآيات وهذا العموم تابع لمعنى الفطرة المؤسس عليه الإسلام، فاستواء البشر في أصل الفطرة يقضي أن يستووا في الدعوة والتشريع الفطري، ولكن إذا دخل على الفطرة شيء من الاختلاف ظهر لذلك الاختلاف أثر في التشريع، وذلك يتوقف على اعتبار الشريعة لمقدار الاختلاف، فتفرض بحسبه أحكاما خاصة فإن كانت دائمة لدوام فروقها فهي الأحكام الخصوصية الدائمة، مثل بعض أحكام النساء، وإن كانت عارضة لأحوال طويلة المدة فهي المستثنيات كأحكام العبيد، وإن كانت عارضة في أوقات غير طويلة المدة فهي الأعذار كأحكام المرضى، وعلى هذا الأساس فإن الأحكام العامة الثابتة واضحة بيّنة لا يتطرق إليها خلاف العلماء في تحديد عمومها ودوامها، أما أحكام الخصوصيات والمستثنيات والأعذار مجال الاجتهاد بين علماء الأمة في أصل إخراجها من العموم أو في مقداره أو في توقيته ودوامه، وهو من مظاهر تميز الإسلام على غيره من الشرائع.

فلقد أهان العرب في الجاهلية المرأة وجعلوها منعزلة عن التكاليف ومنحطة في القربات[1] كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2]، كما منحوا للأب حق قتل البنت إن رأى أنها ستجلب له العار بالزنا والسبي مثلا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[3]، وفي العصر الحاضر أرادوا الرفق بها بالتشريع لحريتها ومنحها ما للرجل من إرث وقوامة الأسرة وتعديد الرجال كما يعدد الرجل النساء، وأخيرا ما وصلت إليه مؤتمراتهم في شأن اختيار شريك الحياة -الزوج- وإن كان امرأة مثلها، وهو تشريع يهدف إلى استثنائها من التكاليف على اعتبار أن الإسلام ظلمها ولم يعطها حقها، ولكن هذا الاستثناء لا يقل ظلما عن الإستثناء الذي أهانها به العرب قبل الإسلام، لأنه دعوة للخروج عن فطرتها وطبيعتها الأنثوية التي تقتضي التخفيف في كثير مما يتحمله الرجل من أعباء كوجوب النفقة والسعي خارج البيت لتحصيل الرزق، وكالتخفيف في أمور العبادة كالصلاة والصيام وما إلى ذلك، وهو أيضا قضاء على أهم دافع ناتج عن طبيعتها، وهو دافع الأمومة، وكما سبقت الإشارة إليه فإن حرمان الدوافع أو الانحراف في إشباعها -كما هو شأن "اللواطيون" و"السحاقيات"- يؤدي إلى الاضطراب النفسي وعدم الاستقرار.

---

[1]- محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي، الشركة التونسية للتوزيع، الدار العربية للكتاب، تونس، دط، 1979م، ص96-98.

[2]- سورة الأنعام، الآية: 139.

[3]- سورة الأنعام، الآية:140.

فحقها كأنثى والذي تكتسبه منذ أن كانت جنينا في بطن أمها يستلزم ان يراعي التشريع طبيعتها ولو حملها ما حمل الرجل من تكاليف لما تحملته، فمنذ أن تبدأ أعضاؤها الإعلان بأنها أنثى تجند طاقتها وعملها الطبيعي -الفيسيولوجي- ليفرض نفسه ويكسب بذلك حقوقا لأجلها كان ذلك الإعلان، إذ يستمر في هذه المطالبة والإلحاح إلى أن ترتد المرأة إلى أرذل العمر، وكذا الشأن بالنسبة للرجل، ولم نجد يوما رجلا أعلنت أجهزته العضوية حقها في الحمل كما تحمل الأنثى فحمل إثرها، وكذا لم نجد امرأة أعلنت أجهزتها العضوية حقها كرجل فتخلصت فيسيولوجيا -طبيعيا- من كل أجهزتها الأنثوية لتتحول رجلا له كامل خصائص الرجولة.

ففي الجسم الإنساني كما يبن العلم الحديث -علم الأجنة- توزيعا للمهام منظما تنظيما دقيقا، وهذا التوزيع مرتبط بتوزيع الخلايا -وظائف الأنسجة- وتتشابك وظائف الأنسجة المكونة للأعضاء ومنه تتشابك وظائف الأعضاء، وهو ما يبين أيّ تعقيد ودقة تسير فيه عملية الخلق في الرحم لتمسك تكوين كل عضو وكل نسيج، وكل خلية خلال عملية التكوين، وعمل هذه الأجهزة لا إرادي، تتكامل فيما بينها لتوفر للجسم أمرين هامين: الأول: توفر كل مقومات الحياة التي تسمح له بالاستمرار، والثاني: تمكن الاجهزة الإرادية من القدرة على الحركة الاختيارية التي تخضع لتوجيه العقل والإرادة، وفي سبيل تحقيق هذين الأمرين نجد صنوفا من التصرفات، وأشكالا من العمليات تبين الإصرار العجيب لهذه الأجهزة اللاإرادية والأمانة التي تتسم بها وهي تقوم بمهامها[1]، ومن هذه الوظائف تحديد جنس الجنين بالذكورة أو الأنوثة .

فلا يمكن للإنسان أن يتنكر لطبيعته، فالإنسان -كما سبقت الإشارة إليه في الفصل الثاني عند الحديث عن حقيقة الحياة الجنينية- هو نتاج لالتقاء ماء الرجل بماء المرأة ولا يمكنه طلب الزواج والولد بغير هذا المسلك الفطري، فالمتدبر لهذه الآية -الآية 152 من سورة الأنعام- يجد الدعوة صريحة لا إلى تأسيس الأسرة وتحديد ضوابط علاقات أفرادها فقط، وإنما الإشارة إلى مفهومها وبيان حقيقتها أيضا، فقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾، دعوة إلى نبذ كل الفواحش الظاهرة والباطنة بما فيها الزنا[2]، ومن باب أولى السحاق واللواط، وتوجيه من خلالها إلى الحلال بتكوين الأسرة، ولهذه الأسرة دعائم أساسية تضبط مفهومها وأول هذه الدعائم: الوالدان اللذان التزما بضوابط الشرع فاجتنبا الفواحش وامتنعا عن الزنا بالزواج، فكانت نتاج

---

[1]-محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس في القرآن الكريم والعلم الحديث، ص168،

[2]-سبقت الإشارة إلى آراء المفسرين وتفسيرهم لهذه الآية، أنظر المطلب الأول من هذا الفصل، ص 224.

علاقتها دعامة الأسرة الثانية وهي الأولاد، وقد ضبطت هذه الآية عند النهي عن الفواحش رغبة الإنسان في الإنجاب، بأن لا يطلبها بغير الحلال.

" فالوالدان" و"الأولاد" تحديد واضح لمفهوم الأسرة: إنها تتأسس بزواج الرجل بالمرأة ليكون لهما بعد ذلك أولاد يجتهدان في حمايتهم وتربيتهم وتحمل مسؤوليتهم، وهو من حق الأولاد على آبائهم، ثم طاعة الأبناء للوالدين بالإحسان إليهم وعدم عقوقهم وطاعتهم في كل أمر، إلا أن يكون أمرا بمعصية الله تعالى، فحينها فلا طاعة لهم في ذلك، وقد فصل الوحي –القرآن والسنة– الحديث عن هذا الأصل –علاقات أفراد الأسرة فيما بينهم– الذي أشارت إليه الآية.

ثانيا: أهداف بناء الأسرة

يهدف القرآن الكريم من وراء بناء الأسرة إلى إقامة المنهج الإلهي في الضمير الإنساني وفي سلوكه، ولهذا فهو يربط بين أحكام الأسرة وبين الأصل الأول للإيمان، وهو أن أصل هذه الأحكام صادرة من الله سبحانه وتعالى، وأنها مقتضى ألوهيته، فكما سبقت الإشارة إليه فإن أحكام الأسرة لا تذكر مجردة ولكنها موصولة بتوحيد الله تعالى بقصده والتوجه إليه وإخلاص العمل له عز وجل.

وللالتزام بهذه الأحكام فوائد وآثار جليلة لا تتحقق بدونها، إذ تمكن الفرد والمجتمع من بلوغ درجة الأمن والاستقرار الذي هو من أهم الأسباب المساعدة للإنسان على الخلافة في الأرض –عبادة وعمارة– ومن أهم هذه الفوائد والآثار:

1–المودة والرحمة والسكن النفسي:

أشارت الآيات القرآنية إلى هذا الأثر الجليل الذي يتحقق نتيجة التزام الإنسان بالتوجيهات الإلهية بضبط الدوافع الإنسانية وتعديلها بحفظ العرض والتوجه إلى الزواج وبناء الأسرة على وفق هذه التوجهات فقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فقد جعل الله سبحانه وتعالى السكن النفسي في علاقة الرجل بالمرأة بالزواج، ولا يمكن للإنسان أن يطلبه في غيره، وقد تبين لنا من خلال المطلب السابق الأثر الطيب الذي يتحقق للإنسان عند تعديله لدوافعه وضبطها بالشرع.

---

[1]–سورة الروم، الآية: 21.

وكون السكن النفسي لا يتحقق بغير الزواج، لأن الزواج ميثاق غليظ فرضه الله سبحانه وتعالى لهدف تنظيم العلاقة بين الجنسين، والتزام الزوجين بهذا الميثاق يتطلب رعاية كل واحد منهما لحقوق صاحبه، بدءا من حق المعاشرة والمباشرة وما ينتج عنه من كسر للشهوة[1]، ثم الحفظ بظهر الغيب -حفظ العرض- وهو أهم ما يقصد الشرع إلى حفظه، وأداء ما يعجز الفرد عن القيام به منفردا وغيرها، ولاشك في أن هذا الاجتماع الطيب القائم على تقوى الله سبحانه وتعالى من أكبر البواعث على الثقة والرحمة والمودة التي هي من أسباب الاستقرار والسكن النفسي.

2-الذرية والنسل:

فالتناسل محبب لنفس الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2]، فهي غريزة في الإنسان جعلها الله سبحانه وتعالى من أجل حفظ النوع الإنساني -التكاثر وعمارة الأرض- ويختلف الناس في اعتبارها وتقديرها، فمنهم من يطلبها بغرض الحماية وتعزيز الجانب، ومنهم من يطلبها لأجل الفخر بها وإعلاء شأنه وذكره بين الناس وغيرها، وقد يغالي بعضهم كما فعل العرب قبل الإسلام فيعزز جانبه ويعلي شأنه وذكره بالحرص على حياة الذكور ومنعها عن الإناث -بالوأد- أو يدفعه حبه لهم إلى قتلهم خشية الفقر، وهو منهج في الحياة يؤدي إلى ضررين بالغي الخطورة: الأول: الاعتداء على حقوق النفس بقتلها، والثاني: قطع النسل.

وقد تدفعه غريزة حب الولد والإكثار منه إلى طلبه بغير الزواج الذي حدد الإسلام مفهومه، وهو ما يؤدي إلى ضرر آخر وهو اختلاط الدماء-الأنساب- المؤدي إلى الوقوع في المحرم بالزواج بمن يحرم عليه، إضافة إلى الانحلال الخلقي والاعتداء على أعراض الناس، لذا خصص الوحي الحديث عن هذا الجانب من أجل تعديل هذا الدافع فدعا إلى الزواج من أجل ضبط الأنساب ومنع اختلاط الدماء. والثاني: ضمان استمرار النوع الإنساني، وهو من أهم ما يقصد الشرع على تحقيقه، ثم دعا إلى ضبط العلاقات داخل الأسرة بحفظ الحقوق ومنها حق كل نفس في الحياة فأوجب حفظها كما قال تعالى: ﴿و... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾[3].

ويعتبر حفظ "النسب" ذو أهمية قصوى في قوة العلاقة بين أفراد الأسرة وهو ما بينه محمد

---

[1]-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص20.

[2]-سورة آل عمران، الآية: 14.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 151.

الطاهر بن عاشور بقوله:«ولا شك عندي في أن حفظ النسب الراجع إلى صدق انتساب النسل إلى أصله سائق النسل إلى البر بأصله، والأصل إلى الرأفة والحنو على نسله سوقا جبليا، وليس أمرا وهميا فحرص الشريعة على حفظ النسب وتحقيقه ودفع الشك عنه ناظر إلى معنى عظيم نفساني من أسرار التكوين الإلهي، علاوة على ما في ظاهره من إقرار نظام العائلة، ودرء أسباب الخصومات الناشئة عن الغيرة المجبولة عليها النفس، عن تطرق الشك من الأصول في انتساب النسل إليها والعكس...» [1]، على عكس ما توصلت إليه المجتمعات الإباحية إذ أصبح مألوفا عندهم الشك في النسب، وهو من أسباب تفكك علاقات أفراد الأسرة.

ولقد أشار محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير إلى أهمية غريزة حب الولد فقال: «ومحبة الأبناء -أيضا- في الطبع: إذ جعل الله في الوالدين من الرجال والنساء شعورا وجدانيا يُشْعِرُ بأن الولد قطعة منها، ليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة على الولد الذي هو الجيل المستقبل، وببقائه بقاء النوع، وحفظه من الاضمحلال المكتوب عليه، وفي الولد أيضا حفظا للنوع من الاضمحلال العارض بالاعتداء على الضعيف من النوع، لأن الإنسان يعرض له الضعف بعد القوة، فيكون ولده دافعا عنه عداء من يعتدي عليه، فكما دافع الوالد عن ابنه حال ضعفه، يدفع الولد عن الوالد في حال ضعفه»[2].

فتأكيد الآية -152 من سورة الأنعام- على العناية بالوالدين -برهم-إشارة إلى حاجتهم إليها حين انقلابهم إلى مرحلة الضعف خاصة، وكذا فإن التأكيد على حماية الأفراد إشارة إلى حقيقة هامة وهي حاجة الذرية الضعاف إلى عناية الكبار.

وكذا فإن النسل تحقيق لدافع أخر وهو حب الخلود[3]، وتوجيه له، فقد عدّل الوحي من هذا الدافع وصحح تصور الإنسان للحياة ببيان حقيقتها، فهي لا تنتهي بالحياة الدنيا وإنما لها امتداد آخر يملك الإنسان أن يحياها سعيدا، كما يملك أن يحياها شقيا، ولذلك فإن سعيهم في الحياة الدنيا له أثره فيما بعد، وله أيضا أن يحقق امتدادا لحياته الدنيا الفانية بالذرية الطيبة والأسرة الطيبة، فيخلف وراءه من يكون سببا في زيادة حسناته التي بها سعادته في الحياة الثانية، كما قال رسول الله ﷺ:

---

[1]-محمد طاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة، الشركة التونسية للتوزيع، ط، 1985م، ص162.

[2]-محمد طاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص180.

[3]-يعتبر علماء النفس أن هذا الدافع من أهم الدوافع التي يجدها كل إنسان في أعماق ذاته وأنه اتجاه طبيعي غير منقطع يسير به دائما إلى الأمام في طلب المزيد من الحياة، للتفصيل أنظر: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم، ص288-294.

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

3-الالتزام بالمسؤولية:

فالمسؤولية تكليف وتكريم، فالإنسان الذي يلتزم بالمسؤولية يرتفع بنفسه عن الدركات ويمنع نفسه بكل ما من شأنه أن يحفظ له كيانه الذاتي المتميز، ويضمن له السير المهتدي الآمن المطمئن، فالإنسان المسؤول هو من يحقق التقوى والمراقبة لله تعالى، ولا يتحقق الإنسان بهذه الدرجة إلا بالالتزام بالتوحيد، وتتميز هذه المسؤولية عن غيرها من المسؤوليات التي تحددها أو تهدف إلى تحقيقها بحوث الإنسان في هذا المجال -كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع- لأنها مسؤوليات جزئية تتضمنها المسؤولية الحقيقية وهي مسؤوليتنا تجاه الأمانة التي حملناها قبل وجودنا على هذه الأرض[2].

والمسؤولية بهذا المعنى تقتضي أن يلتزم الإنسان بها في حدود قوته وقدرته وأن يبتعد الإنسان عن كل ما يؤدي إلى الإخلال بها أو الغفلة عنها، سواء في ذلك المؤدية إلى ضعف الفرد أو الجماعة وقد حدد الوحي هذه العوامل والأسباب المؤدية إلى ذلك[3].

وقد حذر القرآن الكريم من الأفكار التي تدعو إلى التحرر من تبعات التكليف وإلى التشريع البشري خارج إطار الوحي، لأنه إرهاق للإنسانية ولطاقتها المادية والمعنوية على حد سواء، فقد فشلت جميع المناهج المؤسسة من قبله -الإنسان- في إيجاد نمط الحياة الذي يحقق للإنسانية السعادة المنشودة وخسر بذلك ثروة عقلية ومادية هائلة بتسخيرها في غير المطلوب، والمؤتمرات السابقة الذكر نموذج لهذا الفشل.

---

(1)-رواه مسلم في كتاب الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث: 1631/4114، في صحيحه ص75، 76.

-الترمذي في أبواب الأحكام، باب ما جاء في الوقف، رقم الحديث: 1390 في سننه، مج2، ص414 وقال حسن صحيح.

-النسائي في كتاب الوصايا، باب: فضل الصدقة على الميت، سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، مج3، ج6، ص251.

(2)-أبو اليزيد العجمي: حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم، دد، دم، دط، دت، ص122.

(3)-أنظر المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث، ص 101 - 120 .

ونموذج آخر بين الوحي حقيقته وهو تشريع العرب قبل الإسلام الذي جنى على الإنسانية في ذلك الحين، فالقتل الذي لجأ إليه الآباء آنذاك بدافع حب الولد والخوف عليهم من الفقر ما هو إلا دليل على عجز العقل الإنساني في الوصول إلى المنهج السليم، فترك السعي والجد في الطلب لإيجاد الحلول التي ترتقي به من ذلك الوضع ليلجأ إلى حل زاد وضعه تأزما، ولو أنهم اتبعوا الحق لضمنوا الأمن والاستقرار، كما قال الله تعالى مخبرا عن أحوال الأقوام السابقة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، أي أنهم لم يلتزموا بالإيمان الذي هو من أكبر أسباب السعي الجاد وتحمل مسؤولية تبعات أعمال الإنسان، ومثالها ما أشارت إليه الآية 152 من سورة الأنعام: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾، إذ ظنوا بالله ظن السوء وقعدوا عن طلب ما يحقق لهم ضرورات العيش، ولذلك ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾والتعقل المطلوب هو طلب الإيمان وتحمل المسؤولية للسعي الجاد مع الثقة بالله تعالى ميسر الأسباب. هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن التقوى كما سبقت الإشارة إليه في الفصل الثاني من أهم أسباب نزول بركات السماء –المطر– ولذلك فإن التحرر أو التنصل من تبعات التشريع الإلهي لا يؤدي إلا إلى الفساد في الأرض وإلى الظلم وانعدام العدل والأمن.

فبالتوحيد يحقق الإنسان تعديل دوافعه فالخوف من الفقر يوجهه الإيمان إلى الخوف الحقيقي من الله، وكذا دافع حب الولد في الحقيقة هو من أجل الحفاظ على حقوقهم ورعايتهم وتنشئتهم التنشئة الصالحة، أي تحمل مسؤوليتهم كاملة.

يضبط القرآن الكريم مفهوم الإنسان للحرية ومن ثم المسؤولية: فهي الإلتزام بنتائج أعماله التي كانت ناتجة عن اختياره وإرادته رحمة بالإنسان، ذلك أن الإنسان إذا لم يضع في حسابه هذه المسؤولية فإنه يطلق العنان لنفسه وهو ما يؤدي إلى ظهور نتائج أكبر من العمل، ومن ثم يعجز الإنسان عن تحمل تلك النتائج فيؤدي ذلك إلى الظلم والفساد في الأرض.

وكمثال ما فعله ابن آدم بأخيه فحين لم يضبط سلوكه ولم يزنه بميزان الشرع لم تنفعه صلة القرابة –النسب– فاعتدى على أخيه بإزهاق روحه وبعدها أدرك عظم ما فعل إذ ظهرت حينها نتائج عمله أكبر وأعظم مما فعله، فارتد خاسئا مهموما عاجزا عن حل مشكلته التي أوقعه فيها عمله، وهنا تأتي الهداية الإلهية لإرشاد الإنسان إلى الطريق الأسلم الذي يقيه شر عمله وهو

---

[1]–سورة الأعراف، الآية: 96.

التشريع لضبط أعمال الإنسان مسبقا، حتى تأتي نتائجها ميسورة بل تأتي نتائجها خيرة طيبة بتحويل عمل الإنسان من شر إلى خير عن طريق ذلك الضبط. ويقرر معنى الحرية الإنسانية ومن ثم المسؤولية الإنسانية، ومنها يقرر حقوقا لكل إنسان في حياته ابتداءً من حرمة نفسه ومن يوم نفخ روحه وانتهاء إلى حقه وهو ميت، صونا لكرامته على مدى المسيرة الإنسانية.

يقول الله سبحانه وتعالى مبينا حقيقة هذا التشريع: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1]، فلقد تمثلت النتائج الخطيرة في الخسران والندم، وهما صفتان «برزتا بكل وضوح في شخصية الأخ العدواني القاتل لأخيه، وهاتان الصفتان إذا استحضرهما الإنسان العاقل فإنهما يساعدان على كظم غيظه، والابتعاد عن مزالق الحقد ومساقط الحسد اللئيم، قبل أن ينحدر إليها، الصفة الأولى برزت بعد تنفيذ قتل أخيه [...] (فأصبح من الخاسرين) خسرانا متعددا شاملا: فهو خاسر لنفسه في إجرامه وخاسر لأخيه، فالأخ معين وناصر، وخاسر في الدنيا فحياة القاتل إن سلمت من الثأر أو الجزاء فلا يسعد معها القاتل، ثم هو خاسر للآخرة يوم العدل والجزاء. أما الصفة الذميمة الثانية (فأصبح من النادمين)»[2]، والندم من الصفات التي تنفع صاحبها لأنها ما هي إلا قلق واضطراب وحسرة على ما فعل خاصة وأنه قد تحمل إثمه وإثم المقتول ثم إثم كل من اتبع هذه السنة السيئة من بعد.

فقد غاب عن هذا القاتل باتباعه لهواه أهم قاعدة يسير بها في حياته الخاصة والعامة وهي تقوى الله وتوحيده، فغاب عنه حينها التفكير المقصدي الذي يزن الأعمال ويعطيها قيمتها الحقيقة بإدراك نتائجها البعيدة والقريبة، فيضبط سلوكه بما يحقق طمأنينة الدنيا والآخرة وذلك عن طريق وزن الأعمال بميزان الشرع وضبطها بضابط الشرع.

فالشرع يهدي أعمال الإنسان إلى ما يوافق فطرته وفطرة الوجود من حوله، ومن ثم فإن

---

[1]-سورة المائدة، الآيات:27-32.

[2]-عبد الحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص147-148.

المسؤولية التي يقررها الإسلام هي ضبط لمفهوم الحرية: إنها الالتزام بنتائج أعماله حتى يضبط الإنسان قبلها أعماله أو بعبارة أخرى إنها ضبط لأعمال الإنسان بضوابط الشرع التي تؤدي إلى النتائج العادية الموافقة للفطرة العامة، لهذا ففي مقدوره الالتزام بها، أما عدم الضبط والالتزام يؤدي إلى الفساد لأنه عمل لا حدود له وبالتالي نتائج لا حدود لها، تنتهي بالإنسان إلى عدم القدرة على تحمل نتائجها لأنها تصطدم بفطرته وفطرة الوجود من حوله.

فالفساد الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[1]، هو من هذا القبيل.

وتبرير العرب في الجاهلية لعملهم بخوفهم من الفقر الذي سببه إكثار الولد –الذي رغب فيه الوحي– ليس له أساس لأن الفقر يساهم في وقوعه عوامل كثيرة، أولها: تخلي الفرد عن السعي وآخرها غفلة المجتمع عن واجباته تجاه الفقير –كالصدقة والزكاة والتكافل وغيرها– وبعبارة أخرى غياب النظرة المقاصدية التي يؤسس لها الوحي، ومن ثمة فإن حرية الإنسان في ظل الفطرة العامة للوجود –الإنسان والكون– التي يُبَيِّنها الوحي هي ضمان لنتائج أعماله بالسعادة دنيا وآخرة.

فالحرية «ليست مطلقة، بل لها وظيفة اجتماعية، وهذا هو منهج الإسلام الوسط الذي عبر عنه ابن عاشور إذ عرف الحرية بأنها تمكن الشخص من التصرف في نفسه وشؤونه كما يشاء دون معارض في الحدود التي يخولهم الشرع التصرف فيها، وأوضح مظاهر ذلك من حرية اعتقاد وحرية الأقوال وحرية الأعمال سواء في خويصته أو فيما يتعلق بعمل غيره، ثم بين أن للشريعة حقوقا على أتباعها تقيد حرية تصرفاتهم بقدرها، وأن الاعتداء على الحرية نوع من أنواع الظلم، يختص ولاة الأمور المنصوبين لفصل القضاء دون المظلوم بتمحيص مقدار ما يخول للمرء من حرية في نظر الشريعة، كما أن الشريعة حاطت في كثير من تصاريفها حرية العمل بحائط سد ذرائع خرم تلك الحرية.

ذلك هو مفهوم الحرية في الشريعة وقد اعتبره ابن عاشور ناشئا عن الفطرة، واعتبره علال الفاسي ملازما للمسؤولية والتكليف، وجميعها منبثق عن التوحيد الذي يحرر الإنسان من العبودية لغير الله، وفرع عن هذا المفهوم صور الحرية المختلفة من حرية الإيمان، والحرية الوطنية

---

[1]–سورة الروم، الآية: 41.

والحرية الفردية والحرية السياسية، وحرية البحث العلمي وحرية العمل.»[1].

4-تنشئة الأبناء وحفظ كرامتهم وحريتهم:

تعد الأسرة المؤسسة الأولى لحفظ حقوق الإنسان وكرامته وحريته إذ تحدد لكل فرد من أفرادها حقوقه وواجباته في إطار الانضباط الشرعي الذي يحدد مفهوم الحرية والمسؤولية كما سبق بيانه، ولأجل ضمان هذه الأهداف لم يترك للناس وضع أصولها وقواعدها وأحكامها.

فهي -الأسرة- أهم جماعة مرجعية تشكل سلوك وشخصية الأفراد، لأنها تنمي وتجدد الوسائل العديدة لخبراته وهي التي من خلالها تتم عملية التنشئة الاجتماعية، وهي الممثلة الأولى للثقافة، وأقوى الجماعات تأثيرا في سلوك الفرد[2].

فالوليد البشري يمتاز بما وهبه الله تعالى من طاقات وراثية فطرية، وهي كامنة فيه على شكل طاقة عامة، تدفع به إلى السلوك العشوائي، فإذا لم توجه تلك الطاقات الفطرية الكامنة إلى سلوك إنساني، وإذا لم يتيسر لذلك الوليد البشري حياة إنسانية من حوله تعمل على ضبط طاقاته وعلى حسن توجيهها، فإنه يفقد إنسانيته المدركة والناطقة، فعملية الضبط التربوي هي التي تساعد الوليد لينمو بالتدرج إلى أن تكتمل شخصيته، وتتميز هذه الطاقات الفطرية نفسيا بالآتي:

-عجز عضوي يحتاج لضمان حياته إلى معونة الكبار.
-مرونة مطاوعة للضبط والتوجيه لكل طاقاته.
-طفولة إنسانية طويلة تسهل عملية الضبط التربوي في التقبل والتدريب والسلوك.
-حاجات نفسية تتطلب الرعاية والاهتمام من أهمها المحبة والعطف من الوالدين[3].

فلضمان نمو الوليد نموا سليما يوافق فطرته[4] وجه الوحي إلى ضرورة رعايته وحفظ حقوقه، وبيّن أهمية أن يكون الوالدان ومن يقوم مقامهما عند فقدهما ذوا صلاح وتقوى لله تعالى،

---

[1]-جمال الدين عطية نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، رجب 1422هـ، أيلول (سبتمبر)، 2001، ص103-104.

[2]-رشاد عبد العزيز موسى، إحسان خليل الآغا وآخرون: علم النفس الديني، دار عالم المعرفة، القاهرة، مصر، د.ط، 1413هـ-1993م، ص134-135.

[3]-عبد الحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص110-113، 122-123.

[4]-سبق بيان حقيقة هذه الفطرة، ودور التنشئة من الوالدين والمجتمع في استقامة الإنسان أو انحرافه. انظر المبحث الثاني من الفصل الأول، ص 114 -117 .

حتى لا ينحرف الطفل بعدها عن المنهج السليم فيصطدم بالفطرة العامة التي جاء الوحي لبيانها، وعلى هذا وجه الزوجان قبل الزواج إلى أهمية أن يكون الاختيار على أساس الدين والتقوى والصلاح من أجل حفظ استمرارية هذا الدين عبر الأجيال ليضمن للإنسانية الهداية والاستقامة.

المطلب الثالث: تأثير التوحيد في حياة المجتمع

تصور الإنسان لحقيقة النظام الاجتماعي متفرع عن تصوره لماهيته، فعلاقاته الاجتماعية مبنية أساسا على تكوينه الذاتي -النفسي- والذي يساهم في تمام تكوينه بالاستقامة أو الانحراف الجانب الفطري والمكتسب على حد سواء. وعلى هذا فإن الإنسان «المتحرر من كل قيد يضع برنامجا اجتماعيا متناغما مع ذلك التصور ومحققا لأهدافه، ومن تصور ماهيته من خلال مركزية المجتمع (من الناحية النظرية على الأقل)، تلبست وظيفته الاجتماعية بذلك التصور، وهكذا دواليك، مما يؤكد أن للوظيفة الاجتماعية أو الموقف الاجتماعي صلة وثيقة بالماهية في إطار التصور المختار»[1].

ولكي يكتمل تصور الإنسان لوظيفته الاجتماعية المنتظرة منه من يوم وجوده على الأرض لا بد له من صورة واضحة عن الجانب الثاني لهذه الوظيفة، وهو سلوكه الاجتماعي العام خارج الأسرة، إضافة إلى الجانب الأول وهو سلوكه داخلها.

تعتبر هذه العلاقات امتدادا طبيعيا لحقيقة الجانب الفطري الاجتماعي لدى الإنسان، وعلى هذا اهتم القرآن الكريم بتربية هذا الجانب وتوجيهه إلى ما يوافق فطرته وفطرة الوجود من حوله، وحقيقة هذا التوجيه والتربية هو من أجل استكمال بناء الفرد ومن ثمة البناء الاجتماعي، من أجل هدف أساسي وأولي وهو تحقيق العبودية لله تعالى -التوحيد- ومن ثمة عمارة الأرض على هذا الأساس.

يختلف المجتمع عن الأسرة من حيث طبيعة العلاقات وحجم الوظائف، وتتميز الأسرة عن المجتمع بطبيعة الاتحاد على وجه الخصوص، كونه يقوم على المبدأ العاطفي كالمودة المتبادلة بين الزوجين، وحنو الآباء على الأبناء، في حين أن المجتمع يرتكز على الناحية العقلية بدرجة أولى[2].

---

[1]-عمار جيدل: ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور -دراسة تحليلية نقدية-، شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، استنبول، ط1، 1422هـ-2001م، ص58.

[2]-محمد التومي: المجتمع الإنساني من خلال القرآن الكريم، ص268، 273.

وعلى هذا فإن العلاقات الاجتماعية العامة تحتاج إلى تأسيس أكثر من علاقات الأفراد داخل الأسرة حتى تستقيم تلك العلاقات بالتزام الأفراد بما تقتضيه تلك الأسس.

ويقدم الوحي أسسا متينة تضمن التزام الإنسان بتلك الضوابط التي تحقق السلوك المناسب في الوسط الاجتماعي، ويعطي معها بيانا لثمرة الالتزام أو عدمه سواء في ذلك الثمرة القريبة الملموسة الظاهرة في الحياة الدنيا أو الثمرة البعيدة وهو الجزاء أو العقاب الأخروي، ونظرا للخطر الكبير الذي يؤدي إليه عدم الالتزام بما يسبب للاجتماع البشري من هلاك، والذي يتنافى مع المقصد الأساسي من وجود الإنسان على هذه الأرض، أعطى الحق للسلطة التي تفوضها الجماعة للحد من سلوك الفرد، إذا لم يعط قيمة لمعنى الحرية التي يضبطها له الشرع، وبالمقابل يعطي حدودا لتلك السلطة حتى لا تتجاوز بحقها فتمس بحرية الأفراد أو الجماعة التي فوضتها.

وعلى هذا يضبط الشرع مفهوم المسؤولية الفردية والجماعية على حد سواء، وهو ما بينه الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

وبشيء من التفصيل يتبين حقيقة هذا المجمل من القول:

أولا: أسس بناء العلاقات الاجتماعية

فالتشريع الذي جاء به الوحي -قرآن وسنة- توجيه للفطرة الإنسانية أو -بعبارة أخرى- حافظ للفطرة الإنسانية وضمان لها من الانحراف والفساد، فهو يحفظ الجانب الجسمي من الإنسان ويضمن له سلامته من الأمراض العضوية، وهذه الوظيفة تؤديها العبادة كالصلاة والصيام، وكذا التزام الحلال واجتناب الحرام -كما سبقت الإشارة إليه-، كذلك تحفظ الجانب النفسي من الاضطراب والنمو غير السليم، عن طريق تعديل سلوك الإنسان بما يوافق الفطرة الإنسانية والفطرة العامة للوجود ككل، كما أنه يحفظ العلاقات الاجتماعية العامة ويقيم توازنا يلائم فطرة الإنسان

---

[1]-رواه البخاري في كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، رقم الباب: 91، رقم الحديث: 5200، ص956، وفي كتاب الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن، رقم الباب: 11، رقم الحديث 893، ص159. وفي كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، رقم الباب: 32، ص224. وفي كتاب الأحكام، باب: قول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، ص1268.

-ومسلم في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، رقم الحديث: 1829/4617، ص930.

الاجتماعية، ليكتمل بذلك كله بناء الإنسان ويحقق التوافق والتناغم والانسجام مع فطرة الوجود، مما يعينه ويساعده على الخلافة في الأرض وتحقيق الأمن والطمأنينة المرجوة.

وعلى ذلك فإن الأسس التي يقدمها الوحي والتي تضبط العلاقات الاجتماعية العامة وتضبط سلوك الإنسان مع نفسه ومع أخيه هي في حقيقتها تعبير أو بيان لحقيقة فطرة الإنسان العامة التي تحدد ماهيته، وتضبط تصوره لحقيقة وجوده، وعلى أساسها يكون سلوكه، فهو ينطلق من فطرة الإنسان إلى ما يوافق هذه الفطرة، وأول هذه الأسس:

1-وحدة الخلق:

يعطي الوحي للإنسان صورة واضحة عن أصله ونشأته، ويبين له وحدة هذا الأصل الذي إنسابت منه السلالة الإنسانية بصورة موحدة لم تختلف منذ أن خلق الإنسان الأول -آدم عليه السلام-، ويقرر ذلك من خلال بيان ثبات السنة الإلهية وعدم تبدلها وتغيرها، ويلفته إليها عن طريق دلائل وحدانيته عز وجل، فمن خلال ما سبق بيانه عن الدلائل اتضحت حقيقة نشأة الإنسان الأول -آدم عليه السلام- من مادة الكون، ثم ظهرت هذه الحقيقة في نسله إذ تبين بأن جسم الإنسان يحتوي على مواد هي في أصلها من مادة الكون، ولقد بين الحديث الشريف هذه الحقيقة ولخصها بقوله ﷺ: «...والناس بنو آدم وخلق الله آدم من التراب»[1].

وهذه الوحدة لا تظهر من خلال حقيقة مادة التكوين الأول فقط، بل تتجلى أيضا في سلالة آدم عليه السلام من خلال سنة الله في التوالد وتكاثر النوع الإنساني من الماء المهين -ماء الرجل وماء المرأة- ولم تتخلف هذه السنة منذ بداية الأسرة الإنسانية الأولى إلا مع عيسى عليه السلام ، وكذا في التركيب وطريقة النمو الفيسيولوجي للإنسان بدءا من النطفة الأمشاج إلى خروج الجنين إلى الدنيا ثم إلى أن يرتد إلى أرذل العمر، وكذا في الاستعداد الفطري للنمو النفسي وللاكتمال الخلقي بالاستعداد للمعرفة وللاكتساب المعرفي لدى جميع البشر عن طريق وحدة وسائلها التي زود بها الإنسان، وبفضل هذا التوجيه يعطي الإنسان اعتبارا للناس على أساس أنهم تربطه بهم رابطة الأخوة الإنسانية.

---

[1]-رواه الترمذي في كتاب التفسير، سورة الحجرات، رقم الحديث: 3324، سنن الترمذي، مج5، ص65.
-وأبو داود في كتاب الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب، رقم الحديث: 5116، مج2، ج4، ص331.

2-وحدة الغاية:

الغاية النهائية من حياة الإنسان هي العبادة، وعلى هذا يوجه الإنسان ويحثه من أجل أن تكون هذه الغاية هدفا ومقصدا نهائيا[1]، يتجه إليه في أعماله كلها، صغيرها وكبيرها الظاهرة منها والباطنة، وأن يتجاوز جميع الأهداف الجزئية، بل يجعلها وسائل مساعدة ومحققة لهذا الهدف الكبير.

وجميع الناس يولدون مزودين بهذا الشعور مصداقا لقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه»[2]، ويبقى هذا الشعور في نفس كل إنسان يدفعه ويحثه على استكماله، ويتجلى هذا من خلال بحث الإنسان وسعيه من أجل المعرفة، وإن انحرف الإنسان عن الطريق بعامل من العوامل كما بيّن الحديث، فإن هذا الشعور يظل حيا، ويظهر في صورة قلق عام وعدم اطمئنان، لما هو عليه إلى ان يتيح الله له سببا من الأسباب يدفعه إلى الطريق السليم ليحقق كمال تلك الفطرة.

وهذه النقطة هي التي تحدد الاختلاف بين بني البشر، فمن التزم في مسيرته الحياتية بتربية هذه الفطرة على وفق المنهج الذي يحقق كمالها وهو المنهج الذي أرشد إليه الوحي -القرآن والسنة- يكون بذلك قد حقق كمال ماهيته الإنسانية، وكان بذلك مسلّما وجهه لله، وبهذا تظهر الأخوة الدينية بينه وبين كل من سار على هذا المنهج والتزم به، إذ تكون بينه قرابة أو أصرة دينية تجمعهم على حقوق وواجبات مختلفة كل الاختلاف عن الحقوق والواجبات التي تكون مع من يخالفهم في هذا المنهج، لأن هؤلاء المخالفون في حقيقة أمرهم لا يملكون ماهية إنسانية كاملة بالتوحيد، بل ماهيته ناقصة تنتظر سعيهم وجدهم في طلب هذا المنهج لاستكمالها، ولهذا فمن خالف هذا المنهج فهو مخالف لمن اتبعه.

وحقيقة هذه الآصرة أنها تجمع الأفراد وتؤلف بين الجماعة، إذ تظهر على شكل شعور مشترك وإدراك متبادل يوحد الهدف والمسيرة.

ولقد أدرك الباحثون في علم الاجتماع البشري أهمية هذا الشعور المشترك والإدراك المتبادل وضرورته للاجتماع البشري، لذا نبهوا على أهمية وضرورة تكوينه، ولم يوجد مجتمع من

---

[1]-بيّن علماء الأصول -أصول الفقه- بأن التعبد هو المقصد الأساسي من الخلق، وهو أيضا مقصد من المقاصد العالية للشريعة. جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص107-110.

[2]-سبق بيان حقيقة الفطرة من خلال شرح هذا الحديث. انظر المبحث الثاني من الفصل الأول، ص 89 - 90.

المجتمعات البشرية منذ القديم خال من هذه الرابطة والشعور المشترك، وقد أثبت القرآن بأن الأنبياء ما بعثوا لإنشاء العقيدة، لأنها موجودة ولكنها منحرفة، ولا لتكوين الباعث لأن الباعث موجود، ودليل وجوده هو المظاهر التعبدية –إلا أنها منحرفة –، وإنما بعثوا لتصحيح العقيدة، وتخليصها من الوثنية والشرك، ووضعها في مسارها الصحيح، وذلك بتركيز التوحيد حتى تكون العقيدة منسجمة مع الباعث الفطري من ناحية، ومتناسقة مع وظيفتها الاجتماعية المتمثلة خاصة في الوحدة الانتمائية، لأن التعدد فضلا عن كونه انحرافا يحدث بالضرورة مفارقة، ومن المفارقات ألا يكون الناس في منزلة واحدة من حيث القيمة الإنسانية، ومن حيث الحقوق والواجبات، ومن حيث التوفيق والملاءمة بين مصلحة الأفراد ومصلحة المجموعة، إذ يحدث الطبقية ويحافظ على بقائها، كما يؤكد المذهبية الضيقة التي ترفض أن يكون إلى جانبها طبقة لا تساويها جاها ونفوذا، ولم يرفض المشركون دعوة التوحيد التي جاء بها الرسول ﷺ، إلا لأنها لا تستجيب للمفارقات التي أحدثها التعدد، وتدعو إلى الوحدة العامة بين البشر[1]، ولا تفرق بين حاكم ومحكوم، أو بين أبيض وأسود أو بين غني وفقير وتجعل الجزاء على قدر العمل.

يقول محمد الطاهر بن عاشور مبينا قوة الأصرة الدينية بعد بيان ضعف ما عداها وعدم صلاحيتها وتعرضها للاضمحلال كأصرة العائلة، والصهر، والخئولة والقبيلة والأمة وغيرها: «ووراء هذه الأواصر أصرة مغفول عنها وهي أصرة تمت إلى جانب الإنسانية وهي أيضا واسعة جد الاتساع ألا وهي أصرة الدين الذي هو مجموع التفكير الصحيح والعمل الصالح، فجعل الإسلام جامعة الدين هي الجامعة الحق للمسلمين وأبقى ما عداها من الجوامع جوامع فرعية تبعية صالحة ما لم تعد على الجامعة الكبرى بالانحلال، فالجامعة الدينية لما كانت راجعة إلى الجانب العقلي المحض وهو الجانب الأقوى الذي به كان الإنسان إنسانا، كانت هي أولى الجوامع بالاعتبار، وكانت هي الأولى بأن يدعو إليها دين جاء لعامة البشر، وجاء باقيا إلى منتهى هذا العالم، وهي أيضا الجامعة الفطرية لأنها تعتزى إلى الناحية الإنسانية المحضة التي لا يخلو عنها بشر، والإنسانية هي فطرة البشر، أما بقية الجوامع فهي جوامع جعلية إصلاحية وهي وإن كانت تميل إليها الفطرة وتعضدها إلاّ أن للإصلاح فيها حضا عظيما [...] لذلك جعل الإسلام رابطة دينه الحق رابطة مقدسة تصغر أمامها الروابط كلها، ودعا الناس لاتباعه ليكونوا أمة واحدة تجمعها وحدة الاعتقاد والتفكير والعمل الصالح حتى يستتب للمسلمين إقامة هذه الجامعة، فلا تخرقها جامعة أخرى تثلمها قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2]. وأمر

---

[1]–محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص290–293.

[2]–سورة الشورى، الآية: 13.

يدحض بقية الجوامع إذا كانت مضادة لهذه الجامعة، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[1]، »[2].

فالوحدة الدينية التي يدعو إليها الإسلام ويؤسسها التوحيد تجمع الناس وتؤلف بينهم عن طريق الشعور الواحد، بغائية الحياة الإنسانية، وهدفها العال، وهي التوجه إلى الله تعالى وقصده بالعبادة، فتكون أخوة دينية بين المسلمين وتبعث على الأخوة الإنسانية من خلال تأكيد قيمة الإنسان وكرامته منذ بداية الوجود الإنساني على الأرض لتضمن للإنسانية جمعاء حقوقها الفطرية، وتدفعها إلى الالتزام بواجباتها الفطرية ثم حقوقها وواجباتها التي تكتسبها بعد أن ترتضي منهج التوحيد، وتعمل به فتكتسب بذلك أصرة جديدة وهي أصرة الدين بعد إيمانها وإسلام وجهها لله تعالى.

3-وحدة المصير:

وحقيقة هذه الوحدة التي يلفت إليها الوحي نابعة ومتفرعة عما سبقها، فالوحي يلفت إلى أن بداية الخلق الإنساني ونهايته واحدة، وكما أن للبداية هدف وغاية وهي العبادة، فإن للنهاية هدف وغاية هو من جنس ذلك الهدف الذي خلق من أجله الإنسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾[3]، وقد سبقت الإشارة إلى حقيقة هذه النهاية-الموت[4]- بأنها سنة الله في خلقه لا يفلت منها مخلوق.

وما يميز هذه العقيدة التي يلفت إليها الوحي ويكونها التوحيد أنها تشعر الإنسان بقيمة حياته حين تشعره بأن موته لا يعني العدم، وإنما هو مرحلة انتقال إلى حياة أخرى خالدة تكون فيها السعادة على قدر العمل في الحياة الدنيا[5].

ولا شك أن مثل هذا الشعور يبعث في الإنسان الإحساس بالمسؤولية تجاه التكاليف الشرعية، ويدفع به إلى الالتزام بالضوابط التي يحددها الوحي بما فيها علاقاته الاجتماعية، ويبعده

---

[1]-سورة المجادلة، الآية: 22.

[2]-محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص107-108.

[3]-سورة الملك، الآية: 2.

[4]-انظر: المبحث الثاني من الفصل الثاني، ص201 - 202 -

[5]-عبد المجيد النجار: قيمة الإنسان، دار الزيتونة للنشر، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 1417هـ-1996، ص46-50.

عن الانشداد إلى الدنيا وشهواتها التي هي أهم أسباب الظلم والفساد.

كما أن هذا الشعور من أكبر البواعث على احترام الناس وإعطائهم قيمتهم الحقيقية بأنهم اخوة له، لا يفضل عليهم ولا يتميز عنهم إلا بمقدار التزامه بالمسؤولية التي يضبطها الشرع، كما قال رسول الله ﷺ: «ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى...» [1]، وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه، وماله ودمه، التقوى ها هنا، بحسب امرئ من الشر أو يحقر أخاه المسلم»[2].

فهذه الأسس عبارة عن قواعد فكرية ينشئها التوحيد تضمن علاقات الأفراد الاجتماعية على الوجه الذي يحقق التوازن الاجتماعي والأمن والاستقرار داخل هذا المجتمع، وفيما يلي بيان لبعض المبادئ التي ترشد إليها سورة الأنعام في شأن العلاقات الاجتماعية.

وهذه المبادئ في حقيقتها هي مظاهر للأخوة التي تجلت من خلال تلك الأسس -سواء الأخوة الإنسانية أو الدينية-.

ثانيا: مبادئ العلاقات الاجتماعية

المتدبر لسورة الأنعام يلمس تذكيرا بأهم المبادئ التي تضبط تصرفات الإنسان الاجتماعية وترشدهم من خلالها إلى تحقيق البعد الإنساني في مطلق هذه التصرفات، وقد ارتقى القرآن الكريم بهذه المبادئ فجعلها أصولا ثابتة حتى يضمن للفطرة الإنسانية استقامتها على مر الأجيال، ثم ارتقى بها إلى أن كانت من أهم ما يتعبد به الفرد في علاقاته الاجتماعية، وانبثاقها من الأسس السابقة الذكر يؤكد هذه المرتبة، وقد أشار الحديث الشريف إلى هذه المرتبة التي تتميز بها هذه المبادئ، فقال رسول الله ﷺ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما

---

[1]-رواه أحمد بن حنبل في مسنده، ج5، ص411.

[2]-رواه الترمذي في أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم الباب: 18، رقم الحديث: 1992، سنن الترمذي، ج3، ص218.

تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»[1]، وقال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولو»[2].

فرعاية حقوق الناس بالعدل والقسط وأداء حق الأخوة وحفظ أعراض الناس اتقاء لله تعالى ترفع صاحبها إلى منزلة الأمن في الدنيا وفي الآخرة والنجاة من هول يوم الحساب.

ولا شك في أن من لم يتخلق بالأخلاق[3] الحسنة فلم يعامل الناس معاملة حسنة، ولم ينزلهم منازلهم فاستهان بحقوقهم له إثم كبير يعرض صاحبه إلى اكتساب السيئات التي تنزل به عن مرتبة الإيمان، وتعرضه للعقاب الأخروي كما جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[4]، كما نفى الإيمان عمن لا يعطي للجوار حقه، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[5]، واعتبر إخلاف الوعد وعدم حفظ الأمانة والكذب من علامات النفاق، فقال رسول الله ﷺ: «أية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[6]، وقال أيضا عن الغش: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش

---

[1]-رواه البخاري في كتاب الآذان: باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم الباب: 36، رقم الحديث: 660، ص124، وفي كتاب الزكاة، باب: الصدقة باليمين، رقم الباب: 16، رقم الحديث: 1423، ص248.
-ومسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، رقم الحديث: 1031/2269، ص468.

[2]-رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، رقم الحديث: 1827/4614، ص929.
وأحمد بن حنبل في مسنده، ج2، ص160.

[3]-الأخلاق هي: "أنماط سلوك الإنسان في الحياة سواء كان هذا السلوك ظاهرا أو باطنا يصدر من الإنسان بإرادة، ويهدف إلى تحقيق غاية". مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (دراسة مقارنة)، ص55. والتأكيد على الإرادة في هذا التعريف، وكذا عند علماء الأخلاق المسلمين لكونها من أهم أعمال النفس ومبدأ أفعالها، فلا يعد السلوك أخلاقيا إلا إذا تضمن إرادة وقصدا. انظر: أحمد بن عبد العزيز بن محمد الحليبي: المسؤولية الخلقية والجزاء عليها -دراسة مقارنة-، مكتبة الرشد، شركة الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1996م، ص18-19.

[4]-رواه أحمد بن حنبل في مسنده، ج3، ص135، 154، 251.

[5]-رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، مج2، ج2، ص53. ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان تحريم إيذاء الجار، صحيح مسلم بشرح النووي، مج1، ص292-293.

[6]-رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، رقم الباب: 24، رقم الحديث: 33، ص24. وفي كتاب الشهادات، باب: من أمر بإنجاز الوعد، رقم الباب: 28، رقم الحديث: 2682، ص466. ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، رقم الحديث: 59/115، ص57.

لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة»[1].

فالإنسان الذي يؤمن بالله تعالى تجري أعماله بما يقتضيه ذلك الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان»[2]، وقد تبين لنا من خلال الفصل الأول حقيقة هذا الإيمان، فمن عرف بأنه عبد الله تعالى وأقر بوحدانيته تعالى بإسلام وجهه إليه ﷻ لم يأت بعمل صغير أو كبير يخالف أمره ﷻ، أو يمتنع عن عمل صغير أو كبير أمر الله تعالى به، وقد قال رسول ﷺ في شأن التخلق بالأخلاق الحسنة «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله»[3].

فهذه الأحاديث تؤكد قيمة الأخلاق التي يأمر بها الوحي وأهميتها، كما تؤكد حرص الوحي على أن يتربى بها الناس، فتجري أعمالهم بها، وأول المبادئ التي أمر الله تعالى بها في سورة الأنعام:

1-تقرير مبدأ الحرية:

يقرر القرآن الكريم بأن الحرية هي المقوم الرئيسي للوجود الإنساني والأساس في تحمل التكاليف[4]، وعلى هذا الأساس فإن الإنسان مسؤول عما تحمله من تصور وما بدر منه من سلوك، وكما سبقت الإشارة إليه، فإن الوحي يضبط مفهوم الإنسان للحرية لتكون المسؤولية على قدر الاستطاعة وطاقة النفس، حتى لا يظلم الإنسان نفسه فيكلفها بأعمال لا تتحمل نتائجها، ذلك حين لا تتوافق مع الفطرة التي خُلق عليها الوجود -الإنسان والكون-.

فالحرية أهم ما يملكه الإنسان بها يحقق الأسلوب الذي يراه حسنا وملائما للحياة السعيدة

---

(1)-رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب: من استرعى رعية فلم ينصح، رقم الباب: 8، رقم الحديث: 7150، ص 1270. ومسلم في كتاب الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم الحديث: 142/259، ص87. وفي كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، رقم الحديث: 4622/(142م)، ص198.

(2)-رواه ابن ماجه في المقدمة، باب: في الإيمان، رقم الباب: 9، رقم الحديث: 65، مج1، ص26. وقال في الزوائد: إسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي الصلت الراوي.

(3)-رواه الترمذي في أبواب الإيمان، باب: في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، رقم الحديث: 2743، مج4، ص122. وقال حسن صحيح، وأبو داود في كتاب السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم الحديث: 4682، مج2، ج4، ص220.

(4)-محمد عبد الواحد حجازي: القرآن ومنهج التفكير، ص31-33.

التي يبتغيها كل إنسان، فإن لم يوافقه اختياره في الوصول إلى ما يريد بحث عن اختيار آخر وحل جديد إلى أن يركن إلى ما يناسبه وما يسعده، وهذا ما نلاحظه في تاريخ الحياة الإنسانية، فلا تزال المجتمعات إلى الآن تتخير المناهج والأساليب للحياة .

والوحي -قرآن وسنة- ينطلق من هذه القاعدة أو الحقيقة الإنسانية فيمنح الإنسان الإختيار ولا يجبره على الالتزام بتشريعاته وإنما يقدم نموذجا لحياة إنسانية سعيدة، ثم يحف هذا النموذج بقواعد ومبادئ تصورية وعملية ليضمن الالتزام به وعدم الانحراف عنه، ويبين فوق هذا نتيجة الالتزام ومغبة الانحراف.

وما يتميز به هذا النموذج أنه لا يغفل الواقع الإنساني فطريا كان أم عارضا[1]، ويتجلى ذلك من خلال توجيه الإنسان إلى ضبط مفهومه للحرية والمسؤولية.

وعلى هذا فإن المتدبر لسور القرآن يلمس توجيها للنبي ﷺ وللمسلمين لمراعاة الفطرة الإنسانية، ومنح الناس حقوقهم الفطرية، بأن لا يكرهوا أحدا على الإسلام، ومن هنا قرر حقوق غير المسلمين داخل المجتمع المسلم ووضع قواعد وضوابط التعامل معهم[2]، تحفظ الدين -الإسلام- وتراعي الفطرة وتعطي كل ذي حق حقه، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة بقوله في سورة الأنعام: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ. وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وعلى هذا حدد المفسرون من خلال هذه الآيات بعضا من قواعد التعامل معهم، فقالوا: للمسلم أن يعرض دينه ويدعو إليه الناس من غير إكراه، بل باللين والمجادلة بالتي هي أحسن، وأن ينظر خلال ذلك إلى المصلحة، فمن المصلحة إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى في مقام المجادلة، إذ به يتميز الحق من الباطل، وينهض به المحق ولا يستطيعه المخالف، وهذا ليس من السب الذي تنهى عنه الآية، أما السب فإنه لا

---

[1]-عبد المجيد النجار: العقل والسلوك في البنية الإسلامية، مطبعة الجنوب، مدنين، تونس، دط، 1400هـ-1980م ص55-70.

[2]-محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص317.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 106-108.

تترتب عليه مصلحة دينية، لأنه مقدور للمبطل، كما هو مقدور للمحق، وربما تغلب المخالف على المحق، فيظهر بمظهر المنتصر والغالب، ثم إن سب آلهته ومعبوداتهم يزيد غيظهم ونفورهم وتصلبهم، وهو ما يتنافى مع مراد الله تعالى ومقصود البعثة، فأصبح السب مفضيا للمفسدة ولم يكن مشوبا بمصلحة[1].

وقد توصل العلماء أيضا من خلال هذه الآية إلى إثبات أهم قاعدة في أصول الفقه عند المالكية وهي سد الذرائع[2]، فالذرائع هو كل عمل ظاهر الجواز يتوصل به إلى محظور، ومعنى سد الذرائع حسم مادة وسائل الفساد، وهذه القاعدة تندرج تحت قاعدة الوسائل والمقاصد، فهي – قاعدة سد الذرائع– شعبة من قاعدة إعطاء الوسيلة حكم المقصد خاصة بوسائل حصول المفسدة[3]، وهو باب له أهميته إذ يمكّن العالم به من التمييز بين الوسائل والمقاصد، ومن ثم السلوك المقصدي –الذي لا يحول الوسائل إلى مقاصد لذاتها، منبتة الصلة بمقاصدها الأصلية التي جاءت الشريعة لحفظها– خاصة في مجال العلاقات الاجتماعية.

وعلى هذا فإن معاملة المسلم لغير المسلم قائمة على أساس ما يقصد الشرع إليه، وهو: أولا: حفظ الدين، وثانيا: على أساس الحرية الإنسانية، وثالثا: على أساس الصلاح العام للفرد والمجتمع[4]، وهي من الأسس التي تضبط مجال التعامل بما تقتضيه الأخوة الإنسانية كما سبق بيانه.

ومنه فإن الحرية التي يقررها الوحي –القرآن والسنة– تفرض على المجتمع أن يكفلها بدءا من الحرية الدينية ثم ما تبعها من الحريات[5]، بحيث يضمن للفرد وللمجتمع أهم مقوم من مقومات وجوده، ليكون بعدها الجزاء العادل يوم القيامة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[6]، «فلا يحق لها

---

[1]–القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص62.
–محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص429–431.
–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص663–666.

[2]–القرطبي: المرجع السابق، ج7، ص62.

[3]–محمد الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج7، ص431–432.

[4]–جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص123–127.

[5]–محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص317.

[6]–سورة الأنعام، الآيتان: 131–132.

أن تسام بقيد إلا قيد يدفع به عن صاحبها ضررًا ثابتا أو يجلب به نفع، حيث لا يقبل رضى المضرور أو المنتفع بإلغاء فائدة دفع الضرر وجلب النفع، وذلك حين يكون لغيره معه حظ في ذلك، أو يكون في عقله اختلال يبعثه على التهاون بضر نفسه وضياع منفعتها»[1].

2-حفظ الأمانة:

ترشد سورة الأنعام إلى هذا المبدأ من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[2].

وحقيقة هذا الحفظ له جانبان، الأول متعلق باليتيم حتى يبلغ أشده، والثاني متعلق بماله، فاليتيم آمانة في عنق كافله، وحفظ النفس أولى من حفظ المال، فالإرشاد إلى حفظ ماله والاعتناء به إشارة إلى أن حفظ صاحبه هو الأصل، ثم يأتي حفظ ماله، وكما بين علماء أصول الفقه فإن حفظ المال من أهم ما يقصد الشرع إلى حفظه، إلا أنه تسبقه من حيث الأهمية مقاصد تفرض حفظها قبل حفظه[3]، خاصة وقد تعلق الأمر بحق ضعيف وهو اليتيم.

والضعيف يحتاج إلى النصرة والرعاية والحماية والحفظ ولا يكون ذلك إلاّ بمراعاة حقوقه كاملة، المادية والمعنوية، ولا شك في اعتبار المقاصد خلال ذلك.

فالمعنوية بضمان كماله النفسي بتربيته وتنشئته وحفظ كرامته وحريته وجميع حقوقه.

والمادية بضمان ما يحقق له نموه الجسمي وتوفير ما يحتاجه الجسد من طعام وشراب، ولباس ومسكن ووقاية من الأمراض والمخاطر وجميع الوسائل التي تضمن حفظ هذه النفس في جانبها المادي[4].

وعلى هذا فإن كافله إذا اضطر إلى الأخذ من ماله لأجل تحقيق هذا المقصود كان له ذلك "بالتي هي أحسن" وفي تفسير العلماء لقوله تعالى: ﴿بالتي هي أحسن﴾: «أنّ يأكل بالمعروف إن افتقر وإن اشتغنى فلا يأكل»[5].

---

[1]-محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص163.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 152.

[3]-انظر: تفصيل ترتيب مقاصد الشريعة: جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص28-48.

[4]-جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص142-143.

[5]-الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص84.

أما حفظ المال وهو الجانب الثاني من حفظ الأمانة الذي أرشدت إليه الآية فهو من أهم ما يقصد الشرع لحفظه -كما سبقت الإشارة إليه- أي حفظه «بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه»[1]، وهو ما ذكره الطبري في بعض الروايات، وفي رواية ذكرها أيضا أن لا يأخذ من ربحه شيئا[2].

فحفظ الأمانة أساس العلاقات الاجتماعية، وهي واجب الفرد والمجتمع، ومفهومها واسع لا يتحدد بالاستئمان على أشياء معينة يضعها صاحبها تحت يد غيره كالمال ونحوه، وإنما يشمل مفهومها كل ما يقع تحت يد الإنسان وإن كان ماله أو ابنه أو زوجته، وقد أشار الحديث الشريف إلى مدلولها بقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»[3]، ثم هي لا تتوقف عند هذا الحد بل تشمل أيضا أمانة التكليف التي قال عنها الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[4]. وليس أوسع من هذا المفهوم الذي أشارت إليه الآية، فيدخل تحته كل ما يتعلق بمفهوم العبادة والعمارة، وكذا كل ما أمر الوحي بحفظه ورعايته، وعلى هذا استمد قداسته من قداستها واستحق المحافظ عليها الدرجات العالية والثناء من القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... [الآيات]... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [5] كما استحق مضيعها النزول عن هذه المرتبة واعتبار فعله من علامات النفاق كما في الحديث السابق الذكر.

ومنه يكون هذا المعنى لحفظ الأمانة متضمنا لمعنى "التكافل".

فالتكافل هو قيام الفرد والمجموعة في المجتمع مقام الكفيل على قدر الوسع[6]، والكفيل كما بين معناه محمد الطاهر بن عاشور هو: «الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعي لتحقيق الغرض منه»[7]، فهو -التكافل- علاقة اجتماعية تقوم على أساس رعاية ذوي القصور والعجز

---

(1)-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص193.

(2)-الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص84.

(3)-سبق تخريجه.

(4)-سورة الأحزاب، الآية: 72.

(5)-سورة المؤمنون، الآيات: 1-11.

(6)-عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 59.

(7)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج14، ص 262.

والحاجة من قبل أفراد أو جماعة من المجتمع، بهدف تمكينهم والارتقاء بهم إلى حال القدرة على أداء مهامهم[1].

وقد أكد الحديث الشريف على أهمية تحقيق هذا المبدأ من أجل حفظ المجتمع من الاختلال والضعف فقال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2]، ومن خلال قوله ﷺ: «ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان وجاره جائع إلى جنبه»[3]. نلمس خطر التهاون بشأن هذا المبدأ الذي قرره الوحي، واعتباره من الواجبات التي يقتضيها التوحيد.

3- العدل والقسط:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[4].

والقسط هو العدل[5].

فهذه الآية تضمنت جميع معاملات الناس الفعلية وهو ما أشار إليه قوله تعالى: «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط"، والقولية وهو ما أشار إليه قوله تعالى: «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى».

فمنع الله سبحانه وتعالى الغش وبخس الناس أشياءهم بالتطفيف وغيره، وكذا منع الظلم في كل ما يتحمله اللسان -بالكلام- مثل: «الشهادة والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة والصلح بين الناس، والاخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات والمؤجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف، فكل ذلك داخل فيما

---

(1)-عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، ص 59-60.

(2)-رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، مج2، ج2، ص 53.

-ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم: 2586، صحيح مسلم، مج1، ص 384. واللفظ لمسلم.

(3)-علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، رقم الحديث: 24929، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1413هـ-1993م، ج9، ص 58.

(4)-سورة الأنعام، الآية: 152.

(5)-الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص 86.

يصدر عن القول، والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق بإبطالها أو إخفائها...»[1].

فالعدل بهذا المعنى -شموله لأفعال الناس وأقوالهم- إذا تحقق في المجتمع كان له أكبر الأثر في تحقيق التوازن الاجتماعي لأنه أساس إحقاق الحق وإبطال الباطل وجلب النفع ودفع الضر، لأنه -كما قال ابن عاشور- ملكة[2] تمنع من قامت به من الاقتراب من الباطل.

ونظرا لهذه المكانة التي يتميز بها هذا المبدأ فقد أولاه علماء الأصول في هذا العصر الأهمية القصوى بمحاولة إدراجه ضمن المقاصد العليا للشريعة[3]، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[4].

4-الوفاء بالعهد:

ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية -152 من سورة الأنعام- بالأمر بالوفاء بعهد الله فقال عز وجل: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[5]. لبيان قيمة تلك المبادئ السابقة ومنزلتها في بناء المجتمع وحفظه، فالوفاء بالعهد المأمور به في هذه الآية هو حفظ تلك الوصايا والعمل بها وطاعة أوامر الله تعالى وحمل أمانته -أمانة التكليف-، يقول الطبري: «(وبعهد الله أوفوا) يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله»[6].

والوفاء بالعهد بهذا المعنى يتضمن حفظ العهود التي تنعقد بين الناس سواء بين المسلمين بعضهم مع بعض أم بين المسلمين وغير المسلمين، يقول محمد الطاهر بن عاشور مبينا معنى الوفاء بالعهد المضاف إلى اسم الجلالة في هذه الآية: «وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر

---

(1)-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص 166-167.

(2)-محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 133.

(3)-جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص 99-101. فمن هؤلاءالذين أشار إليهم صاحب الكتاب: يوسف القرضاوي وأحمد الخمليشي.

(4)-سورة الحديد ،الآية: 25.

(5)-سورة الأنعام،الآية: 152.

(6)-الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص 86.

إلى الفاعل، أي ما عهد الله به إليكم من الشرائع، ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أي ما عاهدتم الله أن تفعلوه، والتزمتموه وتقلدتموه، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي العهد الذي أمر الله بحفظه، وحذر من خترة، وهو العهود التي تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد، ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عُدِل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل، بأن يقال: وبما عاهدتم الله عليه، أو نحو ذلك، مالا يحتمل إلا معنى واحد، وإن كان الخطاب بقوله: "تعالوا" للمشركين تعين أن يكون العهد شيئا قد تقررت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاة والصلح أو نحو ذلك فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه، وأضيف إلى الله لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد ولذلك يسمون العهد حلفا...» [1].

واحتمال هذا الأمر –الأمر بالوفاء بعهد الله– لهذه المعاني التي بينها محمد الطاهر بن عاشور لا يبتعد عنه المعنى الذي أشرت إليه من قبل.

ومنه فقد اتضح لنا حقيقة القول بأن هذه الآية –152 من سورة الأنعام– تضمنت الأصول والقواعد الضابطة لعلاقات المجتمع، فقد تأكد لنا شمول معاني تلك المبادئ لأعمال الإنسان كلها، القولية والفعلية التي تخص الفرد والمجتمع معا. فقد ضُبِطَت معانيها بما يحقق مقاصد الشرع ومقاصد الخلق[2] –كما في معنى الحرية– ولهذا فمن الضروري اعتبار مثل هذه المبادئ من المقاصد كما نظّر لذلك العلماء في هذا العصر.

فمما يفيده القصص القرآني أنه ما من نبي إلا دعا قومه إلى الإصلاح الاجتماعي[3] و إلى حفظ هذه المبادئ والأصول كما قال تعالى عن رسالة شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

---

[1]–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص 168–169.

[2]–بين علماء أصول الفقه بأن المقاصد لها أنواعها ومراتبها، فالمقاصد نوعان: مقاصد الخلق، ومقاصد الشرع، وكل نوع له مرتب ثلاث، للتفصيل ينظر: جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص 107.

[3]–محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص 94 –96.

وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، كما قال عن رسالة صالح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]، كما قال في سورة الشعراء: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[3]، وعن رسالة لوط عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[4].

ثم إن هذه المبادئ كانت تحمل في ذاتها قوة الالتزام بها لما تضمنه من معان قيمة ومفيدة تدفع إلى الالتزام، إلا أن الاجتماع البشري لا يخلو ممن لا يعطي لهذه المسؤولية حقها، فيقع الظلم من بعض الأفراد. فإذا لم يؤخذ الحق لصاحبه ربما دفع به إلى التمادي في ظلمه وإلى اغترار بعض ضعاف الإيمان به وهو ما يتطلب إقامة السلطة[5]. التي تحفظ بأجهزتها أمن المجتمع واستقراره، كما يتطلب حرص المجتمع بأكمله بأفراده ومؤسساته على الالتزام بما يضمن الأمن والاستقرار لهذا المجتمع وذلك بالتزام كل طرف بمفهوم المسؤولية التي يضبطها له الوحي –القرآن والسنة– فأساس هذه العلاقات القائمة بينهم هو رد الحكم إلى الله سبحانه وتعالى كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[6]، وكذا ما بينه الحديث الشريف من خلال قوله ﷺ: «ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم، ولا ينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»[7]، وقال ﷺ أيضا في شأن الطاعة لأولي الأمر: «على المرء المسلم السمع والطاعة في ما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية

---

(1)–سورة الأعراف،الآيتان: 85–86. ونظير هذه الآية في سورة الشعراء الآيات: 181–183، وسورة هود، الآيات: 83–86.

(2)–سورة الأعراف،الآية: [illegible].

(3)–سورة الشعراء،الآيتان: 151–152.

(4)–سورة الأعراف، الآيتان: 80–81.

(5)–محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، ص 154، 383.

(6)–سورة الأنعام، الآيتان: 114–115.

(7)–رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب من استرعى رعيته فلم ينصح، رقم الباب: 8، رقم الحديث: 7150. ص 1270.

ومسلم في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل...، رقم الحديث: 4624، /(000)، ص 931، وفي كتاب الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم الحديث: 142/262، ص 88، واللفظ لمسلم

فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

ولهذا خصص العلماء قديما وحديثا الحديث عن هذا الجانب بالتأليف فظهرت كتب السياسة الشرعية المعروفة في تراثنا الفكري. ولم يغفل المجتمع الإسلامي في أوائل قيامه الاهتمام بإقامة هذه السلطة لأنها تضمن حفظ المقاصد التي نبه الشرع إلى حفظها ابتداء من حفظ كرامة الفرد وحريته من خلال تطبيق «العقوبات والتعازير والحدود لردع الاعتداء على الذات البشرية بما يؤدي إلى اتلافها أو إعاقتها عن تأدية دورها»[2]، وانتهاءا بحفظ كيان الأمة وضمان أدائها لرسالتها –الشهادة على الناس– كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[3]. وقد «كان الشيخ ابن عاشور أول من نبه بشكل صريح إلى أن الكليات الخمس مراعى فيها مصلحة الأمة إلى جانب مصلحة أحاد الناس، ولم يكتف ببيان ذلك في الضروريات، وإنما أوضحها كذلك بالنسبة للحاجيات وكذلك بالنسبة للمصالح التحسينية»[4].

ثالثا: أهداف إقامة مبادئ العلاقات الاجتماعية

تتجلى أهداف إقامة الحياة الاجتماعية وفقا للمبادئ التي أمرت بها سورة الأنعام من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5].

بين الطبري معنى هذه الآية بأنها بيان بأن تلك الوصايا المتلوة هي الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج به عن الحق واتباعه يعصم من التفرق والتشتت التي تحدثه الأديان والملل الأخرى

---

[1]–رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم الباب: 4، رقم الحديث: 7144، ص 1269.

ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، رقم الحديث: 4656/ 1839، ص 936، واللفظ لمسلم.

[2]–عبد المجيد النجار: قيمة الإنسان، ص 42.

[3]–سورة البقرة،الآية: 143.

[4]–جمال الدين عطية: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، ص 154–155. وينظر تفصيل مجمل قوله هذا –بيان مقاصد الأمة– الصفحات التي بعدها. ومجمل هذه المقاصد التي بينها صاحب الكتاب هي كالآتي: 1– التنظيم المؤسسي للأمة، 2– حفظ الأمن، 3– إقامة العدل، 4– حفظ الدين والأخلاق، 5– التعاون والتضامن والتكافل، 6– نشر العلم وحفظ عقل الأمة، 7– عمارة الأرض وحفظ ثروة الأمة.

[5]–سورة الأنعام،الآية: 153.

وعبادة الأوثان وغيرها من البدع والضلالات وهي وصية من أجل تقوى الله تعالى التي تنجي من الهلاك وعذاب الله ونقمته[1].

فالأسس الفكرية التي قامت عليها هذه المبادئ هي أسس قائمة على التوحيد لذا فإن سلوك الجماعة يكون على وفق ما يقتضيه ذلك الفكر فتظهر الجماعة بمظهر الوحدة وتنعدم كل ألوان التفرق والتشتت. فكما يوحد التوحيد كيان الفرد ويوازي بين ملكاته و يوحد دورها ويقضي على عوامل التفرقة بينها ويحقق التكامل بين الروح والجسد، فإنه يوحد كيان الأمة بالقضاء على الطبقية وتحقيق الوحدة بين أفرادهم فتكون بذلك: «على أتم انسجام في ترابطها، وعلى أتم اتحاد في جهودها وغاياتها، ذلك لأن الإيمان بالله الواحد إذا كان عقيدة مشتركة فإنه يلقي في العقل الجمعي للمتحققين به أخلاقا عامة في الفكر والسلوك تستمد من معنى وحدانية الله، ولا تلبث أن تصير سيرة للجماعة تجري عليها حياتها كلها»[2]. ومن أهم مظاهر هذه الوحدة التي تتحقق بها الأمة الإسلامية: غياب الطبقية بالقضاء على النظرة الاستعلائية وتحرير الفرد والجماعة.

فالمجتمع الذي ينعدم فيه الظلم ويسود فيه التكافل من شأنه أن يرتفع بالمحرومين والضعفاء إلى المنزلة التي تتحقق لهم فيها كرامتهم وإنسانيتهم ويثمر جهودهم بما فيه صلاحهم وصلاح الجماعة.

وكذا فإنه يقضي على الطبقية المترفة بتحقيق العدل بين أفراده وفتح الفرص للجميع، وهو ماينبه في النفوس كوامن الخير والعطاء و الإبداع، فيساهم في العمل الذي يقدر عليه ويرغب فيه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]. وحقيقة هذا الاختلاف الذي أشارت إليه الآية هو من أجل التكامل، فهو اختلاف ناتج عن التقاء قدرات الإنسان الفطرية مع سعيه لتنمية هذه القدرات، ولاشك أن الناس مختلفون في ميولاتهم ورغباتهم -كما سبقت الإشارة إليه- وعلى هذا ينتج الاختلاف الذي هو اختلاف تنوع فمنهم من يكون ميله إلى المساهمة في العمل اليدوي والإنتاج المادي أكثر من الإنتاج الفكري وهكذا، وبهذا يكون المزارع والعامل في المصنع والطبيب وما إلى ذلك، فهذا الاختلاف هو اختلاف في الدرجة لا في الطبقة[4]، وهو اختلاف للابتلاء والعدل في

---

(1)-الطبري: جمع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص 87-88.

(2)-عبد المجيد النجار: الإيمان وأثره في الحياة، ص 197.

(3)-سورة الأنعام،الآية: 165.

(4)-محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار الصحوة، القاهرة، ط7، 1407هـ-1987م، ص 26 -27.

الجزاء.

وأساس هذا الابتلاء أن يحاسب المرء لا على درجته ومنزلته بين الناس وإنما على أساس انتفاعه واستثماره لمواهبه الفطرية وعلى أساس سعيه بما أوتي –على قدر الوسع– وعلى أساس تقواه لله في عمله وابتغائه لوجهه وشكره لنعمه فقد قررت كثير من الآيات بأن الدرجات في الجنة على قدر العمل لا على قدر المواهب الفطرية كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ولو لم يكن الجزاء على هذا الأساس –التقوى– لما نال الدرجات العالية في الجنة المجاهد في سبيل الله وكافل اليتيم رغم اختلاف عملهم كما بين ذلك الحديث فقد قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى»[2].وعن التاجر الصدوق: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»[3]. وكذلك حديث السبعة اللذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله السابق الذكر، فرغم اختلاف اعمالهم إلا أنهم تساوت درجة الجزاء عند الله بالأمن من هول يوم الحساب.

وهو ما يؤكد بأن القصد في العمل والنية هي روح التكاليف ولب الأعمال.

ومن شأن هذا الفكر أن يحرر الفرد والجماعة معا ويقضي على روح العبودية لغير الله تعالى من جهة وعلى النظرة الاستعلائية من جهة أخرى التي تنشئها الرؤية المنحرفة لحقيقة الذات، فمن غابت عنه هذه الحقيقة فإما أن يرى من نفسه إلا الضعف والحقارة فيعيش في ظلها ويقعد عن أي سعي مهم ويظل في عبودية ممقوتة لكل من تصور طغيانه وقوته وإما أن يرى من نفسه التميز

---

[1]–سورة الأنعام،الآية: 132.

[2]–رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: من يعول يتيما، صحيح البخاري، مج2، ج2، ص 52.

–والترمذي في أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم، رقم الباب: 14، رقم الحديث: 1983، سنن الترمذي، مج3، ص 215.

[3]–رواه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب: الحث على المكاسب، رقم الباب: 1، رقم الحديث: 2138، سنن ابن ماجه، مج2، ص 723.

–والترمذي في أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياه، حديث رقم: 1227، سنن الترمذي، مج2، ص 341.

–وينظر أيضا حديث أجر المجاهد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ الذي روي في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، صحيح البخاري، مج1، ج2، ص 136، وكتاب الإمام،باب: الجهاد من الإيمان، مج1، ج1، ص 16.

والقوة فلا يجعل لشهواته حدا ولا لسلوكه ضابطا فيعيش في ظل غرائزه ودوافعه يشبعها دون أدنى مسؤولية أو يجعل من نفسه المتكبر والمسطير والمستعلي الذي لا تقهر كلمته، وهذا ما حدث في المجتمع العربي قبل الإسلام[1]. قال تعالى مبينا حقيقة هذا الاختلال والفرقة داخل المجتمع: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

ولقد نقل القرآن الكريم نموذجا آخر وهو نموذج قوم موسى الذين ألفوا الذل والخضوع والهوان في ظل سيطرة فرعون واستعلائه، وصعب عليهم التخلص من هذا الوضع فلم يخرجهم منه إلا قوة البرهان والحجة وصحة العقيدة وثبات الإيمان ولم يعالج هذا الوضع إلا لما صحا كل طرف إلى ذاته وتعرف على حقيقة نفسه، كما قل تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى. قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا. وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾[3]. وقال أيضا في سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[4].

---

[1]-سبقت الإشارة إلى حقيقة النظرة الاستعلائية، وكيف تسببت في قهر المستضعفين ورفض الإسلام خوفا عن المكانة والمنزلة والحرمان من الشهوات، ينظر المبحث الثاني من الفصل الأول، ص113 - 114.

[2]-سورة الأنعام،الآية: 123.

[3]-سورة طه،الآيات: 69-76.

[4]-سورة القصص،الآيتان: 4-5.

المبحث الثاني: تأثير التوحيد في التعامل الكوني الاقتصادي

المطلب الأول: التعامل الكوني

فعل الإنسان وسلوكه لا يقتصر على حد التعامل مع بني جنسه في الأسرة والمجتمع، وإنما يمتد وتتسع دائرته لتشمل الكون بما فيه من موجودات، وعليه فإن التوجيه للسلوك الإنساني ضمن هذه الدائرة ضروري، لأن له صلة وثيقة بأمنه ورفاهيته واستقراره، وضمان حياته، سواء في مستواها الأدنى من تحقيق ضرورات الحياة –المقاصد الضرورية– أو في مستواها الأعلى بتحقيق الرخاء والرفاه –المقاصد التحسينية–.

وعلاقة الإنسان بالكون –والتي كانت أساسا في بناء تصوراته عن الوجود والحياة، وكذا في مقدار رفعة التصور وسلامته في تحقيق الفعل المناسب له، إما اعتدالا وإما إسرافا، وإما تخل وترك نهائي عن التوجه إليه– هي التي خصها الوحي بالبيان في كثير من آياته عن طريق تصحيح التصور وبناء المنهج وتحقيق الفعل السليم.

وتوجيه الوحي للإنسان خلال التعامل الكوني هو من أجل استكمال عناصر التربية في بناء الإنسان من أجل ضمان ما يحقق المقاصد الأساسية من الخلق والتشريع، ذلك لأن طبيعة الإنسان وما تتميز به من إرادة حرة وقدرة على التعلم واكتساب المعارف وكذا دوافعه الفطرية للتدين –قوة التوحيد الفطرية– إذا لم توجه وتضبط خلال هذا التعامل ينتهي به إلى الانحراف عن الوظيفة الأساسية في هذا الكون، كما هو شأن الحضارات القديمة والحضارة الإغريقية، فقد كشف لنا تراثها الفلسفي الذي مثلته عدة مدارس مختلفة عن «أسس ربما تكون متباينة في نظرتها إلى الحياة وفي تقديرها للعالم، فقد كان من هذا التراث:

–الاتجاه الطبيعي وهو ذلك الاتجاه الذي يقوّم الطبيعة ويقدر وجود المادة، ولذا يحكم ببقاء العالم وأزليته كما يحكم بقدمه...

–وكان منه الاتجاه الإلهي: الذي يعترف بما بعد الطبيعة، وهو ذلك الاتجاه الذي ينقل مصدر العالم المشاهد فيما هو خارج عنه...

–وكان منه الاتجاه الصوفي: وهو الذي يرمي إلى التقليل من قيم العالم الحسي أو إنكارها، ويحمل النفوس من أجل ذلك على الهرب منه والفرار إلى عالم آخر يرى فيه السعادة التامة

والحرية المطلقة لها، بعد أن كانت مقيدة بقيود المادة في هذا العالم وشقية بها..

-وكـان منه الاتجاه المنطقي، أو الاتجاه الإنساني: وهو القائم على اعتبار الإنسان وتقويمه في كسب المعرفة، وجعل عقله معيارا لاختبار الحقائق[...] ومذهب سقراط والسفسطائيين قبلهم-مع ما بينهما من قرب- يحكيان هذا الاتجاه»[1].

ولقـد كـان لهـذه الفلسـفة تأثر بالديانات البدائية القديمة، والتي ساد فيها اعتقاد التعدد في مصـادر التأثير في الكون وفيما يجري فيه من أحداث واعتبار القوى الطبيعية منفصلة عن بعضها البعض، كل ظاهرة لها إلهها المؤثر فيها، وكذا اعتبار بعض القوى في حد ذاتها آلهة كما هو الشأن فـي اعـتقاد ألوهية النار، وإن لم يبرز التأثر بصفة جلية ومباشرة فإننا نعثر عليه خفيا مستورا[2]. وكـل هـذه التصـورات كـان لها أثرها السيئ في التعامل الكوني لدى الإنسان، ظهر من خلال الحضـارات التـي شهدها التاريخ الإنساني وآخرها الحضارة الغربية الحديثة، والتي كشفت قصور التصور للكون والحياة والإنسان الذي بنى عليه منهجها والذي تمثل في فصل عالم الغيب عن عالم الشـهادة ثـم الاعتبار الكلي لعالم الشهادة -المحسوس-، وإبعاد عالم الغيب عن دائرة الاهتمام كما سبق بيانه.

كما تأثرت الثقافة الإغريقية القديمة بثقافة التعدد التي سبقتها وتأثرت الثقافة الغربية الحديثة بالـثقافة الإغريقـية، تسـربت هذه الثقافة إلى الفكر الإسلامي فظهرت آثارها واضحة عند بعض المسـلمين الذي انتهى بأصحابه إلى اعتزال الحياة والتوجه إلى العبادة الفردية أملا في تزكية النفس والارتقـاء في مدارج الكمال. وكذا في الاتجاه العقلي لدى المعتزلة، وفي الفلسفة الإسلامية -والتي مـثلها فـي بداياتها الكندي (ت: 260هـ-870م) والفارابي (ت: 339هـ-950م)، إذ ظهر تأثر أصحابها في محاولاتهم التوفيقية بين الدين والفلسفة[3]، وإن كانت بدايات التأثر عبارة عن محاولات لـرد الشـبهات وتنقـية عقيدة التوحيد ببيان خصائصها، إلا أنها آلت إلى جدال فلسفي عقيم، رغم المحـاولات التأصـيلية من القرآن الكريم أدى إلى انتشار ثقافة تفصل بين العقيدة والسلوك، وغاب بذلك تأثير التوحيد في كثير من مجالات الحياة، مما أدى إلى غياب الفعل الحضاري لدى المسلمين

---

(1)-محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ص109-110.

(2)-المرجع نفسه، ص107-108.

(3)-ينظر للتفصيل: محمد البهي: الجانب الإلهي للتفكير الإسلامي، وكذا عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص79 وما بعدها.

-عبد المجيد النجار: الإيمان وأثره في الحياة، ص17-29.

انـــتهى بهم إلى جانب عوامل خارجية أخرى –سيطرة الاستعمار الحديث ومحاولة فرض ثقافته – إلى وضعهم الحالي بين الأمم والشعوب غير الإسلامية.

وعليه فإن التزام الإنسان بالتوحيد خلال تعامله الكوني هو ما يثمر علاقة سليمة قائمة على العـــدل والاعتدال، تجمع بين الجانب الروحي والمادي ويحقق توازنا حقيقيا يوافق فطرة الخلق لدى المخلوقـــات، انطلاقـــا مـــن الإنســـان الذي هو محور وأساس تحقق هذا التوازن لمساهمته الحرة والإراديـــة فـــي هـــذا العمل، وتحقق الموحد بهذا المستوى من التوازن والاعتدال لم يكن إلا نتيجة لتربـــية إرادتـــه الحـــرة ببناء تصوراته وتوجيه سلوكه وضبطها بما يقتضيه التوحيد، ودفعها إلى المحافظة والمداومة، فالمحافظة والمداومة هو ما يوصل الإنسان إلى هذه الدرجة، أما الإخلال فإنه يحـــول دون بلوغ الأهداف والمقاصد العالية، التي بيّنها الوحي ووجه إليها كما أشار إلى ذلك قوله تعـــالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. فمـــن مـــنزلة الأمـــن والطمأنينة التي يبلغها الموحد –كما في الآية التي قبلها–: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُـــوا إِيمَـــانَهُمْ بِظُلْـــمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[2]. ينحدر بالشرك إلى ظلام الشرك وآثاره الســـيئة، وعلى هذا يوجه الوحي الإنسان إلى أهمية هذا المنهج في الحياة، ويتخذه كأساس في تربية الإنسان والسير به إلى بلوغ تلك المقاصد.

ومـــن خلال الآتي تتضح لنا الصورة التي يكونها الموحد عن الكون، والتي هي عبارة عن أســـس يقوم عليها توجيه الفكر والسلوك، وكذا تتضح لنا الضوابط التي يلتزم بها خلال ذلك، والتي تضمن التحقق الفعلي لمقتضيات التوحيد.

أولا: أسس التعامل مع الكون

المـــتدبر في توجيهات الوحي إلى النظر في الكون يلمح جملة من الأسس تشكل في مجملها صورة عن حقيقته، توجه الفكر وتضبط السلوك العملي بما يتلاءم مع نظامه، وتعصم من الانحراف المؤدي إلى الفساد، فمن خلال ما سبق بيانه في الفصل الثاني –حقيقة الدلائل– يتبين الآتي:

1–الإنسان والكون مخلوقان لله تعالى، يتحدان في المبدأ والمصير، وكذا في كثير من السنن الحاكمـــة لكلـــيهما، كالوحدة في مادة التكوين، وفي قانون الزوجية كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 88

[2]–سورة الأنعام، الآية:82.

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[1]. والإنسان جزء من الكون خاضع لقانونه العام: فالتوحيد هو محور العقيدة وأساسها، تندرج تحته سائر أصولها من الإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر... ومنه يقوم تصور الإنسان على أن الوجود له طرفان: الله سبحانه وتعالى وهو الخالق المتعالي الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة، وكل ما سواه مخلوقات له –بما فيها الكون والإنسان– ووجود هذه المخلوقات ليس دائم، وإنما له نهاية، وخلال هذه الرحلة يسير وفق سنن وقوانين مطردة تضمن للإنسان نتائج أعماله إذا أحسن التعامل معها –في كشفها ومراعاتها– لأنها تمثل في مجملها فطرة الخلق الدالة على خالقها، تنتهي بالإنسان إلى تمكينه وتحقيق أمنه وطمأنينته.

2–الكون مثل الإنسان يشتمل على البعد الغيبي، الذي هو دلالة على عالم الغيب، وهو جانب له دور في علاقة الإنسان الروحية به، وفي إشباع وتغذية هذا الجانب عند الإنسان، وكذا تعبير عن الوحدة الروحية بينهما، والتي تكمل الوحدة المادية، وهذا الأساس أو التصور حسم لجميع الاختلافات التي حدثت في تاريخ الفكر الفلسفي في تفسير الوجود.

3–الكون مسخر للإنسان، والإنسان الكائن المكرم المتميز عنه المستخلف فيه.

4–الإنسان بحاجة إلى التوجيه –التعليم، التزكية– ليحقق ويؤدي مهمته وفق المنهج المطلوب، وهو قابل لهذا التوجيه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾[2]، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، ﴿الرَّحْمَانُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[4].

5–التعلم لا يتوقف على الوحي، وإنما يكتمل بالسير والنظر في الكون والنفس، وللنظر المتكامل أهميته في اكتشاف الحقائق وزيادة العلم –مثالها الجانب الجمالي من الكون الذي انتهت البحوث في هذا المجال لدى علماء الغرب إلى كشف أهميته في المعرفة–.

6–ومنه: شدة الصلة بين الإنسان والكون تفرض المنهج القائم على هذه الأسس، ومنه تظهر ضرورة الوحدة والجمع بين العلوم الإنسانية والطبيعية بذلك المنهج الموحد الذي يؤسسه التوحيد ليسلم الإعمار وتتحقق الخلافة في أرقى مستوياتها.

---

[1]–سورة الذاريات، الآية: 49.

[2]–سورة البقرة، الآية: 31.

[3]–سورة العلق، الآية: 5.

[4]–سورة الرحمن،ا لآيات:1–4.

ثانيا: توجيه الفكر

تحـــدد الفكرة التي يحملها الإنسان نوع المنهج[1] الذي يسير وفقه في حياته، وعلى هذا فإن الصورة التي يؤسسها التوحيد لها أهميتها في توجيه الفكر الإنساني إلى تحقيق المنهج الذي يدفع إلى السـلوك الـذي يقتضيه، فلا يمكن للإنسان أن يضمن سلوكا موافقا لتصوره إلا إذا انتهى إلى منهج مبني على الأسس الاعتقادية التي يحملها، وتكمن أهمية المنهج في أنه يمكن للفكرة التي انبنى منها من التحقق الفعلي في الواقع الإنساني.

وإضافة إلى ما سبق بيانه في المبحث السابق عن أهمية الفكرة التي يكونها التوحيد والمنهج الـذي يصحح به الأفكار والضوابط التي يحددها من أجل أن تكون تلك الفكرة سلوكا واقعا فعلا في الحـياة في جانبها الفردي والاجتماعي، فإن النضج الحقيقي لهذا الفكر لا يتم إلا من خلال توجيهات الوحي للتعامل الكوني –التصور والأسس– إذ يتوقف عليه كمال الصياغة المنهجية لأساليب الحياة،

---

(1)–يعرف المنهج بأنه الطريق الواضح البيّن، المنهاج: الخطة المرسومة. ابن منظور: لسان العرب، مج6، م–ي، ص4554. إبراهيم أنيس، عبد الحليم منصور وآخرون: المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف، مصر، ط2، 1393 هـ–1973م، ج2، ص957.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، [المائدة: 48]، أي طريقا واسعا واضحا في الدين. الألوسي: روح المعاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1414هـ–1993م، مج4، ج6، ص224.

–محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج6، ص223. والسنة أو السبيل التي تسهل على الإنسان السير نحو غاية دون زيغ أو انحراف. محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـ–1981م، مج1، ص524.

–محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج6، ص413.

وتنتهي معاني المنهج المذكورة إلى معنى جامع: "الطريق أو السبيل أو الخطة المحددة للوصول إلى غاية معينة". الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص69، والمعنى الذي نقصده من خلال هذا البيان هو ما يراد به عند إطلاقه في إطار معرفي: «قانون ناظم ضابط يقنن الفكر ويضبط المعرفة، التي إن لم يضبطها المنهج فقد تتحول إلى مجرد خطارات انتقائية مهما كانت أهميتها لا يمكن تحويلها إلى ضوابط فكرية وقوانين معرفية تنتج الأفكار والتولد المعارف وتضبط حركاتها وتميز بينها، فبالمنهج يمكن أن تتجدد طبيعة المعرفة وقيمتها، وحقل عملها واتجاهها وكيفية البناء عليها والتوليد منها [...] من خصائص المنهج أن يرد الكثرة الفروعية إلى القلة الأصولية، والأجزاء الكثيرة المتنوعة إلى الكليات المحددة وينفي التعارض والتناقض والتضاد، والتنافي والتعاند بين المدركات [...] [و] أي فكر تتضارب مقولاته وتتناقض يعتبر فكر لا منهجيا حتى لو تمكن أصحابه من تقديم مختلف التأويلات التوفيقية...». تصدير: طه جابر العلواني لكتاب الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص36–37.

وبالتالي لنوع الحضارة المبتغاة.

ولتوضيح هذا القول، فإنه وكما سبق بيانه عما وصلت إليه الحضارة الغربية في شأن البحوث الطبيعية من فكر وضعي في المعرفة أثر سلبا على النسق الحضاري، فرض عليها الوضع إعادة الصياغة المنهجية لحضارتها صياغة تستند إلى التطور العلمي المعاصر بكل جوانبه، فالمحاولة الفلسفية لإيجاد هذه الصياغة في إطار نفي البعد الغيبي الفاعل في الوجود، وحركته أثبت التطور العلمي بطلانها[1]، وسقطت بذلك كل مقولاتها التي تدعي التناقض بين الوحي والعلم، ولم يكن هذا العجز الذي حدث للمنهجية الغربية في هذا العصر، ونقول العجز لأن مظاهره بادية ويصرح به فلاسفتها، والذي تجلى في أشكال الفساد في البر والبحر -ثقب الأزون التلوث البيئي، الحروب المدمرة، انتهاك حقوق الإنسان وحريته باسم منع الإنسان المتخلف من التحكم في مصيره لأنه معطل عجلة النمو الإنسانية...- [2]، إلا لما لم يضبط التعامل الكوني بإرشادات الوحي وتوجيهاته واستغرق استغراقا كليا في المادية وفقد العلاقة بالله وتجاهل الغيب فطبع نتائج بحثه في الوجود بطابعه الخاص -تفسيرات لنتائج البحث توجهها الأهواء والشهوات-، وانتهى القول باستحالة الربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة[3]. ثم تناسي عالم الغيب ليستمر الكون بعدها فاعلا ومنفعلا بشكل آلي كان الإنسان في البداية عنصر أو كائن طبيعي لا يمكنه أن يفسر حياته أو يصنع منهاجا لحياته إلا انطلاقا من هذا الفكر، ثم غيب الغيب تماما، فلم يعد يرى إلا كونا مستقلا عن أي امتداد وهو -الإنسان- الفاعل المبدع، المتعدد القدرات، المسيطر على كل شيء، وبذلك فهو مستغن بنفسه يستطيع أن يجعل بقدرته وإبداعه من علاقته بالكون علاقة قهر وتسلط وصراع[4].

ولم يكن هذا الانحراف النفسي وكذا الحضاري إلا نتيجة زرع لنقيض كوني داخل المنهج، فقانون الصراع ينتهي بالدمار كالحروب والاستلابات النفسية المختلفة[5]، فكانت التركيبة النفسية التي فرضت تأويلاتها وتفسيراتها المناقضة للقوانين الكونية أخطر بذرة داخل المنهج أدت إلى ذلك الوضع.

---

(1)-ولذلك وقع الغرب في التناقضات حين غيبوا نصف الحقيقة واضطروا إلى إعادة الصياغة للمنهج.

(2)-للتفصيل ينظر: أبو يعرب المرزوقي: "العولمة الكونية"، مجلة التجديد، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، س2، ع4، ربيع الثاني 1419هـ، أغسطس 1998، ص16 وما بعدها.

-عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص15، 48-65، 204.

-روبارت م. أغروس، جورج ن. ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ص102-114.

(3)-انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني: ص 129 - 133 .

(4)-طه جابر العلواني: التوحيد والتزكية والعمران، ص98.

(5)-أبو القاسم حاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، ص 38 .

وعلـــى هـــذا، فحين بدأ العنصر الغيبي والجانب الروحي يفرض نفسه في بحوث الإنسان، اضـــطر إلـــى التخلي عن إقحام التأويلات والتفسيرات الذاتية المتأثرة بالثقافة المكتسبة في كثير من نـــتائج بحوثـــه، وهو ما أدى إلى الإجابة عن كثير من التساؤلات بصفة مقنعة موافقة لحقيقة الكون وتغيـــير الـــنظرة القديمـــة إلى نظرة جديدة تتوافق مع تلك النتائج، فهذه الرؤية الجديدة فتحت أمام الباحـــث آفـــاق جديدة، فكشف عن حقائق لم يكن بإمكانه اكتشافها في ظل الرؤية المادية الأولى[1]، وهـــذا التغـــير في التفسير بناء على تلك الحقائق أدى إلى محاولة بلورة المناهج والصيغ بما يناسب هـــذه الحقـــائق، ويخـــدم الإنســـانية فـــي مسيرتها الحضارية، لأن المناهج القديمة بدأت تعلن عدم صلاحيتها لذلك.

أمـــا الـــرؤية التي يقدمها الوحي والتي تمثلت في أسس بنيت على حقيقة الفارق بين الخالق والمخلـــوق –التوحـــيد– فإنها تحدد الغاية من الخلق وتدفع إلى بحث ينتهي إلى الحقيقية التي انطلق منها، إذ يجعل التوحيد دافعا وهدفا، فمن شأن هذه الرؤية أن تختصر للإنسان الوقت والجهد ليثمره في تحقيق الهدف الأسمى والمقصد الأعلى –التوحيد بكل مقتضاياته–.

الوحي يهدي إلى التوحيد، والكون يهدي إليه أيضا، والتوحيد يجمع بينهما، فبالتوحيد يصحح الإنســـان نظـــرته إلى الكون، ومن خلالها تتوطد علاقاته به، ومن خلال هذه العلاقة الوطيدة يزداد يقيـــنه وإيمانه حين يكشف عن دلالته عن خالقه، وحين يكشف عن نظامه ووحدته وتناسقه واتزانه والتكامل بين ظواهره وبين عمل الأحياء فيه، لتنتهي كل تلك الوظائف إلى غاية واحدة وهدف واحد وهو خدمة الإنسان وتيسير مهمته فيه.

فـــأهم شـــيء يكشـــف عنه الوحي ويؤكد عليه ويدفع الإنسان إلى اكتشافه هي حقيقة غائية الخلق، فالخلق ليس عبثا ومجرد قوانين وإنما هو قوانين وحركة باتجاه غاية، ولهذه الحقيقة أثرها:

1–كـــل جـــزء وكل حقيقة فيه دالة على مخلوقيته ودالة على خالقها بما فيها حقيقة الجمال، مما يؤكد أهمية اعتبار كل تلك الحقائق لتحقيق المنهج المتكامل[2].

2–الانـدمـــاج في الكون وكشف سننه لأن النتائج مضمونة وكل الحقائق «المتصلة بالمادة أو بمـــا وراءهـــا هي في متناول فهم ووعي هذا الإنسان المستخلف يستطيع أن يتوصل إليها الإنسان

---

[1]–انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني: ص 129 - 133 .

[2]–فقد كشف العلماء أهمية اعتبار حقيقة الجمال وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية. ينظر: المبحث الأول من الفصل الثاني، ص: 153 - 154 .

بمداركـــه العديدة المدرجة، أو الكامنة فيه، المستند بعضها إلى بعض، في غير تناثر ولا تدابر»[1]. ولـــو لا ثقـــته بتلك القوانين والسنن والنظام لما أضاع الناس أعمارهم في بحث لا يضمنون نتائجه وبدون هذا النظام والقوانين الثابتة والمطردة وبدون الثقة فيها صار يقينه بأن بحثه لا طائل وراءه، لأنـــه لا يمكـــنه بســـبب المصـــادفة الوقوف على نتائج حقيقية مكملة لبعضها البعض، ولما أمكنه الحصـــول علـــى التراكمات المعرفية التي تكمل بعضها البعض لتدفع بالإنسان إلى التطور والتقدم ولما تجاوز خطوة في هذا المجال نتيجة البدايات الصفرية التي تلغي النتائج[2].

3-العمـــل وفق تلك السنن: ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفتها، ومعرفتها تتطلب البحث، والبحث لـــه شـــروطه وهـــي الجمع بين كل الحقائق واعتبارها خلال مسيرة الباحث المعرفية وعدم تغييبها والاهـــتداء والاسترشـــاد خلال ذلك كله بالوحي حتى لا يقع في التأويلات الخاصة المتأثرة بالثقافة الكسبية، فقد دعا القرآن الكريم إلى هذا النوع من المعرفة من خلال بيان خطورة المعارف الكسبية كتأثير ثقافة الآباء على العمل العقلي السليم، الذي يوصل إلى الحقيقة، ومن خلال دعوته إلى التخلي عـــن هـــذه الثقافة أثناء ذلك لكشف الحق، ويجعل المسؤولية ملقاة على الإنسان، ولا يتحمل نتائجها غيره، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[3].

وهـــذا الحياد المطلوب من الباحث لكشف هذه السنن ومعرفتها هو ما تتطلبه خصائص تلك الســـنن، فإلى جانب كونها: ربانية أي مخلوقة لله تعالى له كمال التصرف فيها، فلا تعمل باستقلال وإنمـــا بإرادتـــه ﷻ. وليس لأحد القدرة على تغييرها، وليس لها أن تخرج عن إرادته ﷻ ولا أن تستغني عنه في اطرادها[4]، منقادة إليه طوعا أو كرها كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

---

(1)-تصدير: طه جابر العلواني لكتاب: الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص30.

(2)-يثبت علماء الكيمياء أن بحوثهم تطورت بسبب التخلص من القول بالمصادفة، وأن المادة في المختبر تثبت وتفرض القوانين التي تسير عليها وتنفي العشوائية وتفرض الثقة بالنظام والسنن. للتفصيل ينظر:جون كلوفر مونسيما: الله يتجلى في عصر العلم، ص39-41، 104، 109، 117، 171-172.

(3)-سورة الإسراء، الآية: 36.

(4)-الاطراد أحد خصائص السنن إلى جانب الربانية والحياد، ومعناه: «حدوثها، وتتابعها، وعدم تخلفها إذا توفرت شروطها، ولم يكن ثمة ما يحول دون تحقيقها». كمال جحيش: معرفة الآفاق وأثرها في تحقيق الاستخلاف، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1426هـ-1427هـ/2005م-2006م، ص168، ص168.

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]، مبدؤها ونهايتها تعود إليه ﷻ وأنها تشمل الإنسان لكونه جزء من الكون، ورغم إرادته الحرة، فإن خروجه عنها ومخالفتها ينتهي به إلى الاصطدام بها فيرتد عمله عليه فيهلكه، مما يؤكد اندراجه ضمنها وعدم القدرة على الخروج عنها لأنها في مجملها تعبير عن الفطرة العامة في الخلق، وهذه أحد خصائصها.

فإلى جانب هذه الخاصية فهي تتميز وتتصف بالحياد، فلا تتكشف بمجرد الإيمان دون سعي، فهي تتطلب السعي لكشفها واتباع المنهج السليم في ذلك، فلو أغفل الإنسان الأسباب اللازمة والشروط الكافية أغلقت عنه وكانت معرفته ناقصة، مما يؤدي إلى الانحراف في المنهج والاصطدام بها، وأهم هذه الشروط لأنها تكتمل به[2]، وهو ما أكدته الآية الكريمة في شأن دعوة نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا.وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا.مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا.وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا.أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا.وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا.وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا.ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا.وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا.لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[3]. فهي واضحة في ربط عنصر الإيمان –الاستغفار وتوقير الله تعالى أي توحيده[4]–، بالتمكين في الأرض، إذ من مظاهر التمكين كثرة الولد والمال، ورغد العيش، ولا شك في أن كل ذلك مقرون بعمل الإنسان وسعيه لتحصيل ذلك بأسبابه، وأسبابه بينتها الآيات بالإشارة إلى سنن الله تعالى وتسخيره للكون، فهي لفت إلى مراعاتها، إذ ختمتها بالتنبيه إلى السعي بقوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، وافتتاح الدعوة بالتنبيه إلى عنصر الإيمان دلالة على أن السعي لا يكتمل ولا يثمر إلا به، ولقد هلكت أقوام، فعلى الرغم أنهم متعوا بوسائل النظر والتعقل والمعرفة[5]، ولكن حين لم يتوفر شرط الإيمان انحرفوا عن المنهج السوي، ولم يكتمل لهم التمكين الذي من مظاهر كماله دوامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا

---

[1]–سورة فصلت، الآية: 11.

[2]–كمال جحيش: معرفة الآفاق وأثرها في تحقيق الاستخلاف، ص174، 176.

[3]–سورة نوح، الآيات: 10–20.

[4]–القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص291.

[5]–يقول محمد طهر بن عاشور: «وفائدة قوله: وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، أنهم لم ينقصهم شيء من شأنه أن يخل بإدراكهم الحق لو لا العناد، وهذا تعريض بمشركي قريش، أي أنكم حرمتم أنفسكم الانتفاع بسمعكم وأبصاركم وعقولكم كما حرموا، والحالة متحدة والسبب متحد فيوشك أن يكون الجزاء كذلك». تفسير التحرير والتنوير، ج26، ص53.

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]. وهذا الشرط –الإيمان– تفرضه أول خاصية –وهي الربانية– فكونها ربانية تتطلب هذا الشرط.

وفقه هذا الهدف –العمل وفق السنن– معناه فقه التسخير الذي أرشدت إليه كثير من الآيات القرآنية، أي أنه شرح وبيان للمستوى الثاني من التسخير –التسخير الكسبي– الذي يزداد ويمتد بازدياد العلم بسنن الله في مخلوقاته، وهو سر التفاوت بين الناس، والتفاوت بين الأمم والشعوب إذ على قدر كشفها للسنن وعملها وفقها يزداد تفوقها وتمكينها، فالمستوى الأول من التسخير يشترك فيه جميع الناس، لأنه لا يتطلب بذل الجهد ينتفع منها الإنسان انتفاعا مباشرا[2]، مثل الانتفاع من الظواهر الكونية العامة، نتيجة تكاملها في أداء وظائفها[3]. أما الثاني فبه يترقى الإنسان، وأفضله ما كان منضبطا بالإيمان –التوحيد– لأنه ضمان لدوامه وضمان لسعادة الإنسان في الدنيا، وبالفوز يوم القيامة بالجنة إذ يحقق من خلاله الترقي المادي إلى جانب الترقي الروحي.

وعلى هذا فإنه بالتوحيد يمكن للإنسان أن «يجمع خيوط السببية ويرجعها إلى الله وفي هذا الإرجاع تنظيم للأسباب وترابط لها يمكن الباحث من استقصائها واكتشاف علاقاتها، وذاك هو العلم بها والتمكن منها، وهما الشرطان اللازمان للانتفاع بها واستثمارها»[4]، فالأسس التي بنى عليها منهجه كفيلة بأن تجمع بين جميع مداركه المُحصِّلة للنظر وتوحد عملها لتنتهي به إلى الغاية التي قصدها.

والفكر مبني على "النظر"، فإذا كان "النظر" –الذي يتيحه الوحي ويوجه إليه، إذ يتيح للإنسان جميع الإمكانات المعرفية التي يستطيع تحصيلها عن الكون والتاريخ والغيب والإنسان، كما يوجه الإنسان إلى الحرص على تحقيق سلامة وسائله أو قواه "السمع والبصر والفؤاد" ليحقق من خلال ذلك النظر المطلوب– وظيفته ترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج، فإن الفكر عبارة عن حركة الذهن وجولاته فيما هيأه "النظر" من المقدمات المدركة لتحصل من خلال ذلك على معقول أو مدرك لا تجده بذاته بارزا أو ظاهرا في أية مقدمة من تلك المقدمات، لكن تولد عن تلك الجولات

---

[1]–سورة الأحقاف، الآية:26.

[2]–كمال جحيش: معرفة الآفاق وأثرها في تحقيق الاستخلاف، ص193–194.

[3]–انظر المبحث الأول من الفصل الثاني، ص151–153.

[4]–إسماعيل الفاروقي: "جوهر الحضارة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر"، تصدرها مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع27، شعبان، رمضان، شوال، 1401هـ، يوليو، أغسطس، سبتمبر، 1981م، ص16، 17.

الذهنـــية التي أطلق عليها "الفكر"، وعليه فإن توجيه الوحي للإنسان ليحقق النظر والفكر هو ضمان لسلامة فطرته التي يدل على سلامتها الفكر الصحيح[1] الذي تشمل حركته جميع ما يتحصل بالنظر الشـــامل، فإذا لم يحقق الإنسان النظر المطلوب لم يتحصل له المدركات اللازمة للفكر، لينتهي إلى النتائج السليمة والمضمونة التي تضمن سلامة سيرته في الحياة كما هو مطلوب منه.

فتوجـــيه التوحـــيد للفكر هو تحقيق لهذا المطلوب، لأنه يجمع بين معارف الوحي ومعارف الكـــون، وبيـــن عـــالم الغيب وعالم الشهادة، فتكون حركة الإنسان الفكرية من خلالها حركة شاملة تنطلق من الحقائق لتنتهي إليها.

فالحـــركة الفكـــرية للإنســـان في ظل تلك المقاصد –غائية الخلق– التي يهدي إليها الوحي ويوجه إليها هي التي تهدي سبله خلال مسيرة حياته، وتنتهي به إلى تحقيق الغايات التي أسندت إليه مهمة تحقيقه.

فهو –التوحيد– يدفع بالإنسان إلى العمل العقلي الصحيح بربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمـــات، وبهذا فإن الإنسان لابد له أن يستثمر كل طاقاته، أي تمكينه والإنسانية كلها من تجنيد طاقاتها لتحقيق الأهداف التي لا تتحقق إنسانية الإنسان بدونها، فالإنسان بنظر القرآن لا يتفاعل مع الخـــوارق والغيوب، بل هو يتفاعل مع العالم الطبيعي ومع الواقع المنظور، لأنه يتعامل بقوى وعيه التي زود بها: السمع والبصر والفؤاد مع العالم الطبيعي والسنن والقوانين التي تحكمـــه[2].

وهـــو مـــا يكشـــف عـــن دور التصور لقيمة الفكرة ومقدار صلاحها ومناسبتها للحياة في اعتبارها والتحقق بما تقتضيه من سلوك.

وهـــذا ما أثبته التاريخ الإسلامي أيضا، فلما كان نظر الإنسان إلى الكون مبني على أساس مـــن الـــتقرب إلى الله تعالى وعلى أساس توجيه الوحي ومزيد معرفة به ﷻ توصل إلى معارف ومـــنـــاهج[3] تمكـــن الغـــرب من استثمارها وتطويرها بعد ذلك، وهو ما دفع به إلى التطور الذي يعيشه اليوم، إلا أن معارفه حين لم تضبط بالوحي أثناء المسيرة خالفت المقاصد التي قصدها الوحي من وراء التوجيه، وحولت الوسائل إلى مقاصد، فانتهت إلى الأزمة التي تعيشها الإنسانية اليوم.

---

[1]–تصدير طه جابر العلواني لكتاب الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص28–32.

[2]–طه جابر العلواني: مقاصد الشريعة، ص156.

[3]–عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي صادق، ص116.

وكـــذا فإن إبراهيم عليه السلام كما حدثنا عنه القرآن الكريم لما انطلق في تعامله مع الكون على أساس عقدي وتصور لأبعاد غيبية وراء مظاهره المحسوسة انتهى إلى إدراك حقيقته وكشف دلالته علـــى الخـــالق سبحانه وتعالى، ولولا منهجه التأملي السليم الخالي من الحكم المسبق لما توصل إلى الحقـــيقة، فزاده تأمله يقينا وتقربا إلى الله تعالى، ولولا تعامله مع الكون لما تمكن من كشف بطلان أفكـــار قومه عنه،وبناء على ما حصل له من تصور حدد وجهته وسلوكه، وهي الانطلاق في حياته علـــى أساس توحيد الله تعالى، وبالتالي يمكن القول بأنه وصل إلى معرفة سليمة أدت به إلى السلوك السليم.

ومـــن هنا تبرز أهمية التصور الذي يؤسسه الوحي عن الكون في دفع الإنسان إلى تأسيس المـــنهج المـــليم في التعامل معه –الكون– إذ يركز على الجانب الغيبي ويؤكد على أهمية التوحيد كأســـاس لهـــذا التعامل، ويرشد من خلال ذلك إلى أسس المنهج الواجب اعتبارها فيه لضمان السير السليم والتعامل السليم الذي ينتهي إلى الغاية الأساسية من الخلق –عباد الله سبحانه وتعالى–.

ثالثا: توجيه السلوك

ســـلوك الإنسان في الكون في حقيقته هو من أجل الانتفاع، وهذا الانتفاع له جانبان: الأول: انـــتفاع روحي، والثاني انتفاع مادي، فهذا السلوك بجانبيه والذي هو تعبير عن التسخير في مستواه الثاني، يتأسس على الأسس السابق ذكرها، والتي تمثل الجانب التصوري للتعامل الكوني، وقد شمل التوجـــيه القرآنـــي كـــلا الجانبين من أجل الاعتدال وعدم الإسراف، ومن أجل ألا يطغى على هذه العلاقـــة توجـــيه الشهوات والأهواء، فيطبعها بطابع مادي صرف، ويغيب بذلك جانبها الروحي أو العكـــس، وهـــو مـــا يؤدي إلى مخالفة فطرة الإنسان التي تتطلب التوازن بين بعد الإنسان الروحي وبعده المادي.

1–توجيه الانتفاع الروحي:

الانـــتفاع الروحي هو الانتفاع الذي يفي بمطالب الإنسان الروحية، ويجد في إشباعها متاعا معـــنويا، وهو علاقة روحية بالكون قائمة على ما يتضمنه الكون من بعد روحي –دلالاته العقدية–، يجد من خلالها الإنسان تنمية لعقله ومشاعره وعواطفه وما يقتضيه ذلك الانتفاع من تعامل يتصف باللين والمودة والقربة وغيرها من المعاني التي يقتضيها التواصل الروحي، ولا يكون فيها للتواصل

المادي الصرف مكان[1]، وهذا النوع من الانتفاع ذو وجهين: انتفاع معرفي، وانتفاع جمالي.

أ-الانتفاع المعرفي: توجيهه هو من أجل بناء المنهج ووضع الأسس للانتفاع السليم، وهو الذي تحددت ضوابطه من خلال تلك الأسس التي بينها الوحي كما مر بيانه في النقطة السابقة – التوجيه الفكري-فتسخير الكون معرفيا تكشف عنه دلالته على وحدانية الله تعالى، إذ ظهرت إمكانية معرفته من خلال توقف انبنائها على نظامه وسننه، وتسخير الكون معرفيا هو من أجل تطور تلك المعرفة، وتعمقها لتنتقل من مستواها الأول الذي يتطلبه بناء المنهج وتحديد الأسس للتسخير إلى مستواها الثاني الذي يشبع الفضول المتنامي لدى الإنسان نحو المعرفة[2]، والذي يرتقي بالإنسان في درجات العلم للإطمئنان وأرقاها وأفضلها معرفة الله.

إلا أن الفضول المتزايد لدى الإنسان للمعرفة قد ينتهي به إلى الانحراف عما يحقق الفائدة، فيوقعه في الضرر، لذا فإن سلوك الإنسان في هذا الجانب يحتاج إلى توجيه من الوحي، فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كل فضول معرفي يؤدي إلى الإخلال بالتوحيد أو يؤدي إلى الإخلال بالأخلاق، كمحاولة معرفة كنه عالم الغيب بتجاوز البحث في دلائله وآثاره لزيادة الإيمان إلى البحث في حقيقته، أو محاولة علم الغيب بالتطلع على السحر وتعلمه والاستعانة بالشياطين والجن في ذلك، وهو فضول مخل بالتوحيد، وينتهي بالإنسان إلى الشرك، وكالاتجاه إلى محاولة معرفة أحوال الناس بالتجسس. وسنكتفي بذكر مثالين من هذا التوجيه.

يقول تعالى موجها إلى مسلك العلم الصحيح والنافع بالنهي عن الظن والتجسس ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا...[الآية]....﴾[3]، فقد يلتبس على البعض أن النهي عن الظن والأمر باتباع الحقائق يتطلب عند التعامل مع الناس أن يطلب الحقيقة عنهم بالتجسس[4]، فنهى عنه، لأنه إخلال بالأخلاق يعود على العلاقات الاجتماعية بالضرر، والنهي عن التجسس هو توجيه للفضول المعرفي إلى ما يحقق النفع للإنسان، وذلك بالاستزادة من علم دلائل وحدانيته تعالى.

---

(1)-عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص110، 120.

(2)-وهو ما يمثله دافع حب الاستطلاع، انظر: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص317.

(3)-سورة الحجرات، الآية:12.

(4)-التجسس طلب عيوب الناس والبحث عنها للاطلاع عليها ونشرها بعد أن سترهم الله. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص317.

والمـــثال الثاني هو التوجيه من خلال قصة إبراهيم عليه السلام،فرغم أنه كان عليه السلام مؤمنا بالله تعالى لا يشرك به شيئا، طلب زيادة العلم للاطمئنان، فقال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وطلبه لهذا الـــنوع من المعرفة لا ينافي التوحيد، وقد أكرمه الله تعالى واستجاب لطلبه، إذ وجهه إلى أن يجعل أربعة من الطير أجزاءً فوق جبال متفرقة بعد أن يتأمل أحوالها حتى يتأكد بعد إحيائها أنها هي كما كانـــت قبل موتها[2]، وهذه الكرامة من الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام تحقق له من خلالها الاطمئنان بـــالوقوف علـــى حياة الطير بعد موتها، ولئن كانت هذه الكرامة خصّ الله بها إبراهيم عليه السلام، فإن ورودهـــا في سياق بيان دلائل وحدانية الله تعالى -قدرته على الإحياء الأول والثاني بالبعث- يلمس مـــنها التوجـــيه والإرشاد للإنسان ليشبع فضوله المعرفي بما يضمن له سلامة توحيده، ويؤدي إلى زيادة العلم للاطمئنان، وأفضله معرفة آثار ودلائل وحدانيته تعالى.

ب-الانـــتفاع الجمالـــي: فالانتفاع الجمالي الذي يهدف الوحي إلى تحقيقه هو الانتفاع الذي ينـــتج عـــن العلاقة المعرفية بحقائق الكون، والتي تنتهي به إلى إدراك ما وراءها، وبعبارة أخرى إدراك ســـر وجودهـــا، فـــتلك العلاقـــة المعرفية بحقائقه هي التي تنتهي به إلى إدراك حقيقة جانبه الروحي الدال على خالقه، ومنه يصبح وسيلة ينتهي من خلالها إلى التوحيد.

فمعـــرفة الإنســـان لحقيقة الجمال ودلالته على الخالق سبحانه وتعالى من شأنها أن «تنمي مشـــاعر الحـــب كوسيلة اتصال عاطفي مستمد من تركيب الظواهر الكونية المتفاعلة بالاتصال في إطـــار جمالي منسق ومنسجم»[3] يكشف عن الغائية، وتلك الغائية في الوجود التي يدركها الإنسان مـــن خلال الاندماج السليم في الكون الناتج عن المعرفة السليمة التي يوجهها الوحي هي التي توجه العاطفـــة الإنســـانية وتهذبها، وتنتهي بالإنسان إلى الارتفاع عن مجرد التمتع الجمالي المسرف إلى الاعـــتدال، إذ يعطـــي الوحـــي بيانا مهما عن حقيقة الوسائل والغايات -المقاصد-، ويجعل الغايات أهدافا بعيدة سامية تستحق السعي واستثمار الوسائل لبلوغها.

وفـــي غياب هذا التوجيه، فإن حاسة الإنسان الجمالية وشوقه الجمالي من شأنها أن تدفع به إلـــى تمـــتع مســـرف يغيب خلالها المقاصد والغايات ليتحول التمتع الجمالي -الذي هو وسيلة لتلك

---

[1]-سورة البقرة، الآية:260.

[2]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص39-40.

[3]-أبو القاسم حاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، ص63.

المقاصد والغايات- إلى مقصد وهدف يستنفذ الإنسان من أجله جهده ويحول علاقته بالكون علاقة انتفاع مادي مسرف في سبيل الحصول على ما يحقق له تلك الغاية، كما حدث في الحضارة الرومانية من نزوع الفن -كوسيلة من وسائل التمتع الجمالي- إلى إثارة غرائز الإنسان الحسية، انتهت إلى الإغراق في الاستهلاك المادي لإشباع تلك الغرائز، مما أدى إلى هبوط إلى دركات الحيوانية بدل السمو إلى الآفاق العليا التي يتوق إليها الإنسان، وهو ما يتكرر في الحضارة الغربية المعاصرة بمزيد استهلاك بالنفقة على الإشهار من أجل إبراز الجمال في الإنسان، وفي مظاهر الطبيعة دفعا للمضي في طرق المتعة الحسية على حساب القيم الإنسانية[1].

ففي ظل هذا الانتفاع تغيب الحقائق والأبعاد العقدية والروحية التي يكشفها الإنسان من خلال التوجيه القرآني إليه بطريق الحث على الإندماج السليم في الكون، وبطريق بيان حقيقة الانتفاع الجمالي لكونه وسيلة تمكن الإنسان من الترقي الروحي ومن تحقيق الإطمئنان والتوحيد، باعتبار أن ذلك التمتع ابتغاء من فضله تعالى ونعمة من النعم التي تستحق الشكر، لما تحقق له من غذاء روحي.

وما يكشف عن واقعية التوجيه القرآني وأهميته هو التطور العلمي المعاصر، فقد كشفت البحوث العلمية المعاصرة -كما سبق بيانه في الفصل الثاني- عن دلالة الجانب الجمالي من الكون على وحدانية الله تعالى، وكذا التقاء جمال الكون بالحاسة الجمالية للإنسان وهما أمران أساسيان يقررهما القرآن، لهما أثرهما في التوجيه لهذا الجانب.

فالبيان القرآني لحقيقة الجمال من خلال هذين الأمرين، لم يكن على سبيل التصوير المجرد لذلك الجمال، وإنما هو عرض فيه توجيه للإنسان على سبيل الحث، إلى أن يتوجه إلى مشاهد الكون توجها قاصدا لمزاولة الانتفاع الروحي والتمتع بنعمة الجمال فيها ابتغاء من فضل الله، شكرا وتقربا إليه سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2]. والنظر إليه يشمل ما في هذا المنظر من جمال وبهجة[3] تغذي حاسة الإنسان الجمالية وتنمي عواطفه ومشاعره، وتدفع به إلى التوحيد. لأن النظر كما هو انتفاع، فهو

---

[1]-عبد المجيد نجار: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص99-100، 108-109.

[2]-سورة الأنعام، الآية:99.

[3]-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص400.

مـــن أجـــل إدراك دلالـــتها علـــى وحدانيته عز وجل، وبهذا النظر تصير البروج زينة في السماء «وزينـــتها مستمدة من أشكالها المؤولة إلى صور يقبلها المنطق العام بين الناس، ليزدادوا ألفة معها من دون المبالغة في تعظيمها، لأنها لم تصنع نفسها بنفسها، بل هي آية لهم أثنى الله بها على نفسه[...] إذ جعلها دائمة مع الإنسان تذكره بخالقها وحافظها وجاعلها زينة لهم، لأن الإنسان كشف عنها مـــنذ القديم إلا أنه انحرف في طريقة التعامل معها في أجيال عديدة وعصور كثيرة، فأدخلها جزءا من طقوسه العبادية على صور مختلفة ثم صارت من تقاليده الاجتماعية العامة في كل مكان»[1].

ومـــثل هذا التوجيه له أثره البالغ في التعامل الكوني والبناء الحضاري، إذ يرتفع بالإنسان مـــن مجرد الانتفاع المادي المسرف بالإغراق في إشباع الشهوات إلى العمل الصالح الذي وجه إليه الوحي، وتجنب الفساد -الابتغاء من فضله تقربا وشكرا- وما يؤكد هذا هو تقرير مسؤولية الإنسان عـــن هـــذا الجانب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]، وتأكـــيد القـــرآن على هذه المسؤولية هو من أجل أن «يرفع من أثر ذلك الجمال في النفس إلى ما يناســـب قيمته الروحية المتعالية، ويحول دون أن يبتذل بأيلولته إلى سبب لمجرد إشباع شهوة مادية هـــي من خصائص الحيوانية[...] فالجمال قيمة روحية فعلها الطبيعي في النفس الإنسانية أن تغذي الروح بمتعة معنوية تسموا بها إلى أفق عليا من الإنسانية»[3].

وتنمـــية الحاسة الجمالية وتهذيبها بالتوحيد يظهر من خلال توجيه الفنون والآداب والثقافة، لـــتخدم هذا الجانب[4]-الجمال- في العمل الحضاري، كما ظهر ذلك من خلال رفض الفنان المسلم لكـــل أشـــكال الفـــن التي تمس بما يقتضيه التوحيد من تنزيه[5]، ومن أخلاق وحياء واتجه إلى كل

---

(1)-حميد مجول النعيمي: الكون وأسراره، ص147.

(2)-سورة الكهف، الآية: 7.

(3)-عبد المجيد النجار: قضايا قرآنية من منظور إسلامي، ص103.

(4)-تعمل الفنون الأدب ومقومات الثقافة على تحريك الوجدان وتشكيل الدواعي وبناء الضمير ليلتقي مع العقل الذي عملت على تحريكه العلوم والمعارف في شخصية متوازنة الدقيقة، منضبطة تتسم بالفاعلية والدافعية العمرانية للقيام بمهام الاستخلاف، طه جابر العلواني: التوحيد والتزكية والعمران، ص112-113.

(5)-وردت أحاديث نبوية شريفة تعتبر توجيهات مهمة للفن، وللتمتع الجمالي وتقييدا للفنان بالقيم القدسية كما في قوله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل». أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، صحيح البخاري، مج1، ج2، ص213-214. وفي كتاب اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، مج2، ج2، ص45.

وسيلة رآها مناسبة لتحقيق الفكرة الجمالية التي أراد أن يطورها ويعبر عنها بما يحقق أهدافه ومقاصده التي أسسها له التوحيد، وبذلك تمكن من إشباع حاسته الجمالية بتدعيم فكرة التوحيد من خلالها لتصبح وسيلة تعبر عن التوحيد كما تصبح وسيلة لترسيخ هذه الفكرة، وربطه بمشاهد الكون التي توصله إلى وحدانية الله تعالى، فأبدع فن الزخرفة وطور الكتابة العربية، فقد«تطورت أكثر من أي لغة أخرى معاصرة لها، و[...] بلغت من الجمال قدرا يضارع، وأنها فوق هذا كله قد ألبست بأعلى القيم –أعني القيم الدينية– كأداة حاملة للحكمة الإلهية ومعبرة عنها»[1].

وبهذا أصبح الوعي الجمالي لدى المسلم –الموحد– أصيلا وواقعيا، فعبر عن واقعية الجمال المطبوع به الكون وكافة الموجودات بمنهج تنزيهي توحيدي ينقل الإنسان إلى إدراك حقيقة بأنه أثر من آثار الكمال الإلهي والجمال الإلهي، وهو أسمى ترق روحي يحققه الإنسان بهذا العمل، حين يتمكن من رفع قيمة هذا العمل ومن القيم الجمالية الدافعة فيه[2].

2–توجيه الانتفاع المادي:

يوجه القرآن الكريم الإنسان إلى أن يكون انتفاعه المادي من الكون قائما على علاقة روحية أي يكون قائما على أساس ابتغاء وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، ولا شك أن أساس كل ذلك هي معرفته، وعليه فإن الأمس السابق ذكرها هي أهم موجه لهذا الانتفاع.

فمشاهدة دلائل وحدانيته تعالى من خلال الكون والإيمان بها وكذا معرفة غايات الخلق التي يكشف عنها النظام والتوازن هي أهم موجه للسلوك الإنساني إلى أن يسلك فيها بمسلك الاحترام لتلك الصنعة والشكر لله تعالى على تسخيرها له، فيعمل من أجل حفظها والانتفاع بالوجه المطلوب[3]

والترمذي في كتاب أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ولا كلب، رقم الحديث: 2959، سنن الترمذي، مج4، ص200.

النسائي في كتاب الصيد والذبائح، باب امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب، سنن النسائي بشرح الحافظ لال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، مج4، ج7، ص185.0

(1)–إسماعيل الفاروقي: "نظرية الفن الإسلامي"، مجلة المسلم المعاصر، ع25، ربيع الأول، ربيع الثاني 1401هـ يناير، فبراير، مارس، 1981، ص162.

(2)–المرجع نفسه، ص160.

–إسماعيل الفاروقي: "جوهر الحضارة الإسلامية"، ص22.

(3)–عبد المجيد النجار: قضايا البيئة من المنظور الإسلامي، ص74.

وقــد وردت في سورة الأنعام بعض من التوجيهات التي تضمن سلامة الانتفاع من الكون، وتحقــيق الاعــتدال المطلوب فيه وتنتهي بالإنسان إذا التزمها إلى التسخير، كما تبين معناه سابقا نكتفي بذكر مثالين من هذا التوجيه، وتعتبر هذه التوجيهات هي بمثابة التذكير بتلك الأسس.

أ-توجيه الانتفاع من الحيوان:

يقــول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُــنْ مَيْــتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فلقد انحرف الإنسان قبل البعثة إلى تشريع ظالم في شأن الانتفاع من الحيوان، فجاء الوحي بالتوجيه إلى تسخيرها ومنه الانتفاع منها، فقال ﷻ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيــنٌ. ثَمَانِــيَةَ أَزْوَاجٍ مِــنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَــيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْــتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2]، إلا أصنافا منها فلا يشــملها التسخير في مستواه الثاني -الانتفاع- كلحم الخنزير، إذ يندرج تسخيرها ضمن المستوى الأول مــنه، لــذا وجــه إلى تحريم أكلها لما فيه من أضرار تتنافى مع حقيقة التسخير في مستواه الثانــي، فقال عز وجل: ﴿قُــلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًــا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

وخــلال هــذا التوجيه حدد ضوابطه لئلا يؤول أمر الإنسان فيه إلى ما ينافي الغرض منه بقوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾، وهو إشارة إلى ما من شأنه أن ينحرف بالإنسان عن المنهج الذي حدده التوحيد للتسخير، إما امتناعا ومنعا وإما إسرافا وتبذيرا.

ولئــن كــان مآل هذا الحيوان إلى الانتفاع به -كالأكل والركوب- فإن السورة يستنبط منها توجــيه إلى معاملة أخلاقية في مسيرته الحياتية، توحي بمعاني الشكر لله تعالى وقوة الصلة به عز وجــل، وابــتغاء وجهه ومرضاته جل جلاله، إذ يقول سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ

---

[1]-سورة الأنعام، الآية: 139.

[2]-سورة الأنعام، الآيتان: 142-144.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 145.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

ولئن تعددت أقوال المفسرين في بيان معناها وما تحمله من أوجه انطلاقا من موقعها في السياق، فإنها تنتهي عند معنى واحد وهو دلالتها على وحدانيته تعالى[2]، وهو المعنى الذي يستنبط منه دلالتها في التوجيه إلى المعاملة الأخلاقية.

و يتفق هؤلاء المفسرون -الوارد ذكرهم في الهامش- على شمول معناها كل أصناف الحيوان، أي جميع ما تشتمل عليه الأرض من أصنافه، إذ دلت عليه عبارة "ما من دابة"، وكذا السماء وهو ما دلت عليه عبارة "ولا طائر يطير بجناحيه".

وما يوجه أيضا إلى هذه المعاملة هو كونها أمما مسبحة -وإن كنا لا نفقه تسبيحها- فقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3]، وكما في الأحاديث النبوية الشريفة، كما قال رسول الله ﷺ:«قرصت نملة نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح»[4]وهو ما يؤكد ويوثق صلة الإنسان بها لما تشتمل عليه من جانب روحي يرتبط بها، ويصله من خلال معاملتها بالله سبحانه وتعالى.

وكمثال آخر من القرآن الكريم يشير إلى حقيقة هذا المخلوق -الحيوان- وتهدي الإنسان من خلالها إلى هذه المعاملة هو نموذج أمة النمل في مقابل قوله تعالى: "وما من دابة"، ونموذج الهدهد في مقابل قوله تعالى: "ولا طائر يطير بجناحيه".

فقد كان كل من النمل والهدهد تحت سلطان سليمان، فمن خلال قصة النملة يتبين حقيقة

---

[1]-سورة الأنعام ، الآية: 38.

[2]-أنظر تفصيل هذه الأقوال: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج7، ص187-189.

- الألوسي: روح المعاني، ج7، ص135-139.

-محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص389-402.

-محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص213-218.

[3]-سورة الإسراء، الآية: 44

[4]-أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب أحرقت أمة من الأمم تسبح، صحيح البخاري، مج1، ج2، ص172-173.

-والنسائي في كتاب الصيد والذبائح، باب قتل النمل، سنن النسائي، مج4، ج7، ص210.

كونهـــا أمة مثل الإنسان في اتخاذ المساكن، وكذا في التناصح والإرشاد والتوجيه، والذي يدل على مـــا في مجتمعهم من علاقات تحفظه وتنتهي به إلى الغاية من وجوده، فقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، ومن خلال قصة الهدهد يتبين لنا أنه كان مسبحا عابدا لله تعالى، ولم ير شركا بالله تعالى في مملكة سليمان، لذلك استغرب حين وجد قوما يعبدون غير الله تعالى، واستنكر أن يكـــون علـــى الأرض من يخالف نظام المخلوقات ووظيفتها الأساسية التي وجدت لأجلها، فالكل يعـــبد الله-يسبح- لكن قوم المرأة خالفوا هذه الحقيقة، فسجدوا لغيره عز وجل، وهذا ما أثار عجب الهدهـــد فجاء بالخبر إلى سليمان، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[2]، واستغرابه دليل على أنه لم يألف هذه المخالفة لحقيقة العبادة

ب-توجيه الانتفاع من نبات الأرض:

يقـــول الله تعـــالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[3].

تبيـــن هـــذه الآيـــة حقيقة تسخير الأرض للإنسان وتوجه من خلال ذلك إلى الانتفاع السليم بالاستثمار والتنمية وبالأكل.

فقد أشارت هذه الآية إلى التسخير المباشر الذي لا يحتاج إلى جهد من الإنسان بقوله تعالى عن إنشاء الجنات "غير معروشات" إذ فسرت بأنها ما خرج في البر والجبال من الثمرات وهي التي لا يـــتدخل الإنســـان عـــادة فـــي إثمارها وتنميتها، وإلى التسخير الذي يتطلب بذل الجهد بالإثمار

---

[1]-سورة النمل ، الآيات: 17-19.

[2]-سورة النمل، الآيات: 20-26.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 141.

والتنمية بقوله ﷻ:"معروشات" وهي ما يحصل في البساتين والعمرانات مما يغرسه الناس[1] وبقوله ﷻ: "والزرع مختلفا أكله" «وهو النبات الذي يكون بحرث الناس، وهو عام لكل ما يزرع على القول بالعموم فيما قبله، وأما على القول بتخصيص الجنات بالكرم، فينبغي أن يخص بما يأتي منه القوت كالقمح والشعير ...»[2]، ثم وجه بعدها إلى الأكل بقوله عز وجل: "كلوا من ثمره إذا أثمر" للدلالة على أن ما أنشأ سواء بتدخل الإنسان في إثماره وتنميته أو دون تدخل منه هو لأجل الإنسان مسخر له مباح الانتفاع منه بالأكل وليس له أن يضع له تشريعا خاصا به فيحرمه عن نفسه كما فعل العرب قبل البعثة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ....[الآية]...﴾ [3]. والحرث إشارة إلى نبات الأرض، وعلى هذا جاء بيان تسخيرها للإنسان وتوجيهه إلى الانتفاع منها، ثم ضبط هذا الانتفاع بقوله عز وجل: "ولا تسرفوا" حتى لا يخرج الإنسان عن المقصد الأساسي من الانتفاع فيحوله إلى هدف ويغفل عن حقيقة كونه وسيلة يبلغ بها مقاصد شريفة وغايات سامية وهي الخلافة في الأرض[4].

جـ-ضوابط الانتفاع:

من خلال توجيه الوحي للإنسان في سلوكه وعلاقته بالكون يمكن تبين أهم الضوابط التي إذا التزم بها الإنسان حقق المقصود من التوجيه، وهي: "الاعتدال" و"التقوى".

فالاعتدال كما تبين لنا معناه من خلال ما سبق يضمن عدم اعتزال الكون إذ يدفع بالإنسان إلى التسخير، كما يضمن عدم الإسراف الذي هو إرهاق للموارد والطاقات والجهد إرهاقا ينتهي بالإنسان إلى الفساد، ولذا فهو ضابط له أهمية قصوى في تحقيق التسخير وضمان سلامة الإعمار

---

(1)-الرواية عن ابن عباس في تفسير "معروشات" و"غير معروشات". أنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، ص52.

- الألوسي: روح المعاني، ج8، ص281.

(2)-رشيد رضا: تفسير المنار، ج8، ص133.

(3)-سورة الأنعام: الآية 139 .

(4)-بين رشيد رضا بأن قوله تعالى: "ولا تسرفوا" له ثلاثة أوجه: الأول: في الأكل، الثاني: في الصدقة حتى لا يفقر والثالث: عام يشمل جميع أنواع الإنفاق والأكل، تفسير المنار، ج8، ص138-139. والأوجه الثلاثة داخلة تحت معنى الانتفاع، لأن توجيه الانتفاع بعدم الإسراف هو من أجل حصول النفع العام دون التمييز، وهو ما تحققه النفقة والصدقة والزكاة -والتي يكون من خلالها الانتفاع، دون بذل جهد لمانع يمنعه كقلة الخبرة أو انعدام وسائله أو ضعف وغيره- إلى جانب الأكل والانتفاع من ثمرة الجهد، وهو ما له أثره في التوازن الاجتماعي، كما سنبينه في المطلب الآتي.

وتحقيق الخلافة.

أمـا الـتقوى فقـد أمر الله بها في جميع أفعال الإنسان وجعلها ضابطا يضمن الإستقامة والالـتزام ، إذ هـي مـن مستلزمات العبادة، فالمقياس الوحيد للسلوك الإنساني هو التقوى، التي تقتضـي الالتزام بأوامر الله ونواهيه، في علاقة العبد مع ربه، وعلاقته مع الناس وفي علاقته مع بقية المخلوقات[1]، وقد أشارت إليها سورة الأنعام خلال التوجيهات المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية[2] لبيان أهميتها وضرورتها لتلك العلاقات.

وهـي أهـم مرتكـز وضابط يضمن سلامة التعامل الكوني ومقصديته، فبها تتحقق الهداية ويضـمن الإ نسـان الاستقامة والصلة الدائمة بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[4]. وقال عز وجل: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[5]. وقال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[6].

وفـي سـورة الشعراء إشارة واضحة إلى أهمية هذه الضوابط –الاعتدال والتقوى– إذ أنه حين لم يلتزم بها قوم نبي الله هود عليه السلام انتهى أمرهم إلى الفساد في الأرض بالإسراف في الانتفاع مـن مـوارد الكون اتباعا للهوى وطلبا للخلود، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[7]، وأمرهم بالتقوى يتضمن الأمر باتباع الهدي الذي جاء به هود عليه السلام والإيمان بالله تعالى، وشكره على هذه النعم بالانتفاع على الوجه المطلوب.

---

[1]–صالح نعمان: "أبعاد التوحيد وفاعليته عند محمد عبده"، مجلة المعيار، كلية أصول الدين والحضارة الإسلامية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع2، ربيع الأول 1423هـ، جوان 2005، ص124

[2]–أنظر المبحث الأول من الفصل الأول، ص 64

[3]–سورة النحل، الآية: 128.

[4]–سورة الأنفال، الآية:29.

[5]–سورة البقرة، الآيتان:1–2.

[6]–سورة البقرة، الآية:282.

[7]–سورة الشعراء، الآيات: 123–135.

رابعا: أهداف توجيه التعامل الكوني

يهدف الوحي من خلال توجيه تعامل الإنسان الكوني إلى أن يحقق فيه السمات الإنسانية المتميزة لتمكينه في الأرض على الوجه المطلوب، ولضمان دوام هذا التمكين –الخلافة بشرطيها: العبادة والعمارة– فيتحقق له من خلاله الطمأنينة والأمن على هذه الأرض –سعادة الدنيا– والفوز بالآخرة بالنعيم الدائم –سعادة الآخرة– وأهم هذه السمات:

1-العلم:

وهو أهم صفة تُميز الإنسان، به يحقق إنسانيته وعليه يقوم العمل الصحيح، وبفضل تطور العلم وازدياده يزداد التمكين والخشية لله، فعمارة الأرض تقوم على العلم، والعلم يهدي إلى الإيمان ويقويه، ويصل بالإنسان إلى الخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وبازدياد العلم وتطوره في ظل خشية الله يتم تحقيق المقاصد الأساسية الضرورية[3]. ويرتقي من خلاله إلى تحقيق المقاصد الحاجية ثم التحسينية، والتي تتجلى في مظاهر الرخاء والرفاه.

فالعلم بالوحي وبالكون ينتهي بالإنسان إلى تحقيق ما يهدف إليه الوحي ويقصده ومنه تحقيق الغاية من الخلق كما سبق بيانه

2-قوة الإرادة:

فالإرادة التي تقوى بالمجاهدة والصبر والمداومة على التكاليف، لها أهميتها في دفع الإنسان خلال التعامل الكوني والإعمار إلى المداومة والالتزام بما يقتضيه ذلك الإعمار من ضوابط وإن في هذا الالتزام والمداومة أثر في قوتها ودفع الإنسان إلى الوصول إلى درجة التزكية والتحقق بالنفس المطمئنة، لأن هذا الجانب من التعامل الكوني له اعتبار في التكاليف الشرعية إذا ضيعها الإنسان أخل بتوحيده، لأنه يؤدي إلى الفساد الذي نهى عنه الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة، والفساد يتنافى مع مقاصد الشرع إذ ينعكس سلبا على وجود الإنسان فردا ومجتمعا.

---

[1]-سورة فاطر، الآية: 28.

[2]-سورة الزمر، الآية: 9.

[3]-صالح نعمان: "الاستنساخ البشري وآثاره على الأسرة"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ع4، ربيع الثاني 1422هـ، جويلية2001، ص110-111.

فأصـــل ذلك العمل مجاهدة للنفس تتضمن العمل على التخلص من الصفات السلبية والتحقق بالصـــفات الإيجابـــية وإعلائهـــا، ولهذا أجر وأثر في رفع الدرجات كما مر بيانه، وهذا هو معنى مسؤولية الإنسان على نفسه، فهي مجاهدة من أجل الخلافة وفق تلك الضوابط، ولا تتطلب الخلافة إلا هذا الجهد المستمر بالمداومة والمحافظة.

3-التوكل والذكر والاطمئنان إلى الرزق:

علم الإنسان بحقيقة التكامل بين ظواهر الكون ودلالتها على وحدانيته تعالى، وعلى التسخير منه سبحانه وتعالى، يترك في الإنسان أثرا تربويا هاما، يدفعه إلى احترام تلك السنن إذ يدرك أهمية تتـــبع أو الـــتزام مـــراحل السير واحترام خطواته المهمة وعدم إغفال أي منها في تحقيق النتيجة المبتغاة أو الوصول إلى المقاصد المرجوة.

وكـــذا فـــإن إدراك قـــيمة كل ظاهرة والتمييز بين حقائقها له أكبر الأثر في فهم معنى رفع الـــناس درجات بعضهم فوق بعض -الذي أشارت إليه الآية الأخيرة من سورة الأنعام- وضرورة الـــتكامل بينهم[1] بقيام كل فرد بوظيفته على أكمل وجه، كما قال رسول الله ﷺ:«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[2]، وهذا هو معنى الإيمان بالقضاء والقدر: أن يتخذ الإنسان الأسباب الكاملة ويلجأ إلى الله تعالى بالدعاء ليحقق بعلمه وقدرته تعالى النتيجة التي فيها خير للإنسان.

وكذا فإن علم الإنسان بأن حصول المطر والإنبات متوقف على إذن الله تعالى، وعلى أمره وإرادته، وعلمه بأن الاستغفار والدعاء من أسباب الرزق والتمكين، فإنه لابد أن يجمع بين السعي والدعـــاء وذكره عز وجل، والتقوى كضابط للسلوك في حقيقتها تحمل معنى الذكر والصلة الدائمة بـــالله تعـــالى والاطمئنان للرزق، وبذلك يتجنب الإنسان المسالك المنحرفة في طلب الرزق، كالتي انحرف إليها المشركون قبل البعثة فطلبوها من غير الله وخضعوا من أجلها لغيره ﷻ.

---

[1]-أنظر المبحث الأول من هذا الفصل، ص 267 - 269 .

[2]-رواه البخاري في كتاب التفسير، باب "فنيسره للعسرى" رقم الباب:7، رقم الحديث: 4949، صحيح البخاري، ص911، وفي كتاب التوحيد باب قوله تعالى: "ولقد يسرنا القرآن بالذكر" رقم الباب: 54، ر قم الحديث: 7552، ص1343، وفي كتاب القدر، باب "وكان أمر الله مقدورا"، رقم الباب:4، رقم الحديث: 6605، ص1175.
-ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم الحديث: 2647/6628، صحيح مسلم، ص1303.

4-المسؤولية:

يكشف التعامل الكوني وفق الضوابط والتوجيهات عن المكانة الحقيقية للإنسان في الكون ويثبت له أثر فعله فيه، إذ يلاحظ نتائجه فإذا أحسن ظهرت آثار إحسانه وإذا أساء ظهرت آثار الإساءة، وأهم مظاهرها الفساد، وحين يحصل للإنسان العلم بمكانته الحقيقية ويثبت له الحقيقة من خلال فعله وسلوكه فإنه يكشف حقيقة مسؤوليته عن ذلك كله، ويتبين له أنه المسؤول الحقيقي والمشرف الحقيقي في هذا الكون، وهو ما يدفع به إلى التحقق بروح المسؤولية التي تدفع به إلى البحث عما يضمن له الإشراف السليم -زيادة العلم بأسباب التمكين-وإلى الالتزام بما يحقق ويضمن له نتائج أعماله -التوحيد-.

فالمسؤولية التي يتحقق بها كنتيجة من نتائج التزام ضوابط الوحي وتوجيهاته للتعامل الكوني، تعني تحقيق التعادلية والتكامل والاتزان في نفسه وفي الكون، لأن «التكليف الإلهي للإنسان يشكل منهجا عمليا له [...] لأنه يتناسب مع خصائص الإنسان وما سخر له»[1].

ولذلك فإن التكليف الإلهي توجيه للإنسان ليحقق التوازن والتكامل أولا في نفسه، وثانيا بينه وبين الكون، وثالثا في الكون، وليضمن نتائج أعماله حينها، بما يحققه ذلك التوازن من أمن واستقرار.

ومنه يتضح المفهوم الكامل للمسؤولية والتكليف والحرية الإنسانية التي هي من مقومات إنسانيته، إذ لا يمكن فصل تعامله الكوني عن تعامله الاجتماعي.

فأساس التعامل الكوني هو تلك الدوافع الفطرية والمكتسبة إلى جانب الخبرات الجديدة المكتسبة[2]، لذلك فإن تعديلها وضبطها بالتكليف هو ما يحقق التوازن والاعتدال الذي يضمن السير السليم، فالبخل والشح والاستحواذ -التملك- وغيرها وما ينتج عنها من ظلم كلها تنتج عن تعامل الإنسان الكوني وسعيه لإشباع دوافعه، ولو لم تضبط لأدت إلى الفساد في الكون والمجتمع بما ينتج عنه من التباغض وقطع الصلات، وإذا زاد أدى إلى الإستعباد وإلى القتل وهما من أكبر مظاهر الفساد.

فالمسؤولية إذن بهذا المعنى لها جانبان، الأول: مسؤولية على الكون، تضمن الانتفاع السليم

---

(1)-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص374.

(2)-سبق بيان حقيقة هذه الدوافع والخبرات لدى الإنسان في المبحث الأول من هذا الفصل، ص 214-211 .

-التسـخير- ومسؤولية على المجتمع تضمن شمولية الانتفاع المادي لكل أفراد المجتمع، وهو الذي دلـت عل يه الآية 142 من سورة الأنعام كما سبقت الإشارة إليه عند بيان توجيه الانتفاع من نبات الأرض.

ومـن خـلال المطلـب الآتي يتبين حقيقة الربط بينهما وكيف يتحقق الانتفاع لجميع أفراد المجتمع وأثر هذا التوجيه لمثل هذا الانتفاع في تحقيق التوازن الاجتماعي.

المطلب الثاني: توجيه الاقتصاد

الحديـث عن توجيه الوحي للتعامل الكوني وعن توجيهه للعلا قات الاجتماعية كضرورة يتطلـبها الارتقـاع بالإنسان إلى تحقيق إنسانيته يتطلب الحديث عن توجيه الاقتصاد[1] باعتبار ذلك تكملـة لبيان حقيقة التوجيه للتعامل الكوني من جهة ولحقيقة التوجيه للعلا قات الاجتماعية من جهة أخـرى وكضـرورة يتطلـبها أيضـا أهميته كونه المجال الحساس في كيان كل مجتمع وكل أمة وحضـارة، وقـد ازدادت أهميته في عصرنا الحاضر بسبب التطور العلمي المعاصر الذي شهدته الإنسـانية فـي القـرون الأخـيرة، فأصبح بذلك موضع اهتمام العائلة الإنسانية، وأصبحت القوة الاقتصادية من أكبر القوى الاجتماعية التي تدخل في تقييم المجتمعات وتحديد قوتها وصمودها أمام غيرها[2]، وما وصل به إلى هذه المنزلة هو إطلاق العنان للقيم المادية لتوجه الإنسان على أساسها، وبذلـك ظهـرت فلسفته بنزعة مادية مخالفة لما يهدف إليه الوحي -القرآن والسنة- إذ ظهر النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي الذي يعتبر كخطوة إلى الشيوعية كأنظمة من بين الأنظمة الاقتصادية الوضعية التي تهدف إلى إيجاد قواعد وأسس تنظم علاقة الإنسان بالمال وحقه في تملكه، إلا أنها تطرفت في الحلول فمالت الرأسمالية إلى اعتبار الفرد وإطلاق حر يته في التملك والتصرف وقامت على أساس التنافس الغير محدود الذي يحكمه البقاء للأقوى والأغنى، ومالت الشيوعية إلى النقيض فاعتبرت الجماعة وألغت حقوق الفرد وجعلت جهده ضمن جهد الجماعة ولأجلها.

والمتتبع لفلسفة هذا العلم عند هؤلاء يلحظ استمدادها وانبنائها على الفلسفة الكونية التي بنى

---

[1]-الحديث عن حقيقة النظام الاقتصادي الإسلامي لا يسعه هذا البحث وعليه نكتفي بالإشارات المجملة التي توضح حقيقة شمولية التوحيد لهذا الجانب وأهمية توجيهه لأنه تعبير عن حقيقة الملكية التي جاء الوحي لتحديد مفهومها كجزء من بيان حقيقة خلافة الإنسان في هذه الأرض.

[2]-محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، دط، 1410هـ-1990م، ص59.

عليها الغرب منهجه وفلسفته للحياة.

فهـذه الأنظمـة رغم تناقضها فهي تحمل أهدافا وقيما مشتركة تكرس النزعة المادية، إذ تعتـبر الـثراء والقوة أهدافها الأساسية تبذل من أجلها كل الوسائل، كما يظهر ذلك من خلال توجه الـدول التـي تتـبع هذه الأنظمة الاقتصادية إلى توجيه سياستها الداخلية والخارجية بما يخدم هذا الهدف، وكذا توجه بعض الدول الغربية إلى فرض هيمنتها على الدول الأقل قوة ومحاولة السيطرة عليها ونهب ثرواتها وإذلالها وإن على حساب الحرية والقيم الإنسانية[1].

وقـبل أن نبيـن حقـيقة توجيه الوحي لهذا الجانب نحدد أولا المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة "اقتصاد" لنوضح من خلاله المجال الذي نسير فيه.

أولا: مفهوم الاقتصاد

1-المفهوم اللغوي:

يعـود معـنى كلمـة "اقتصاد" إلى المعنى الذي يدل عليه جذرها، ففي معاجم اللغة نجد أن المعـنى الذي دل عليه جذر هذه الكلمة -اقتصاد- هو: الاستقامة وكذا التوسط في الأمور من القول والفعـل، وهـو مـا بين الإسراف والتقتير، أي بين الإفراط والتفريط. والقصد في المعيشة ان لا يسرف ولا يقتّر، يقال فلان مقتصد في النفقة، وقد اقتصد، واقتصد فلان في أمره أي استقام[2].

وفـي "المفـردات فـي غريـب القرآن" أن: «الاقتصاد على ضربين أحدهما محمود على الإطـلاق وذلك فيما له طرفان إفراط وتفريط كالجود فإنه بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة فإنها

---

[1]-محمد باقر الصدر: فلسفتنا، ص12-32.

-محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص59.

-أبو يعرب المرزوقي: "العولمة الكونية"، مجلة التجديد، مجلة فكرية نصف سنوية، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، س2، ع4، ربيع الثاني 1419هـ/ أغسطس 1998م، ص19-22.

-عماد الدين خليل: "حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية"، مجلة التجديد، س4، ع8، جمادى الأولى، 1421 هـ-أغسطس 2000م، ص48-50.

-عمر عبيد حسنة: مقالات في التفكير المقصدي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م، ص117-118.

[2]-ابن منظور: لسان العرب، مج5، [غ-ل]، ص3642.

-إبراهيم أنيس، عبد الحليم منصور وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص738.

بين التهور والجبن ونحو ذلك، وعلى هذا قوله [تعالى]: ﴿واقصد في مشيك﴾[1] [...] والثاني يكنى بـــه عما يتردد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم كالواقع بين العدل والجور والقريب والبعيد»[2].

2-المفهوم الاصطلاحي:

المفهـــوم الأول: أنه «ذلك العلم الذي يتعلق بدراسة تصرفات الفرد في نطاق أعمال حياته اليومـــية، وأنـــه يتناول ذلك الجزء من حياة الإنسان الذي يتصل بكيفية حصوله على الدخل وكيفية استخدامه لهذا الدخل»[3].

المفهـــوم الثانـــي: أنـــه العلم «الذي يدرس سلوك الإنسان إزاء حاجاته المتعددة ووسائله المحدودة ذات الاستعمالات المتنوعة»[4].

وطبقا للتعريف فإن العديد من الأنشطة الإنسانية تخرج من دائرة اهتمام هذا العلم، إذ حوى الجانـــب المادي فقط منه، وقصر الأمر على كيفية الحصول على الدخل وكيفية استخدام الإنسان له كمـــا هو شأن المفهوم الأول، وكذا جعل علم الاقتصاد علما محايدا يقتصر دوره على شرح وتحليل الظواهـــر الاقتصـــادية دون أن يتجاوز إلى وضع الأحكام والسياسات والإجراءات الواجبة الاتباع إزاء هذه الظواهر الاقتصادية كما هو في المفهوم الثاني[5].

ولـــذا جاء **المفهوم الثالث** وهو: أن الاقتصاد «علم اجتماعي موضوعه الإنسان ذو الإرادة يهـــدف إلى دراسة العلاقة بين الحاجات المتعددة والموارد المحدودة بغرض تحقيق أكبر قدر ممكن مـــن إشـــباع الحاجات عن طريق الاستخدام الكفء للموارد المتاحة، مع العمل على إنمائها بأقصى طاقة ممكنة»[6].

---

[1]-سورة لقمان، الآية: 19.

[2]-الراغب الأصفهاني:المفردات في غريب القرآن، ص405 .

[3]-أحمد محمد العسال فتحي أحمد عبد الكريم: النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه،مكتبة وهبة ، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، ط3، ربيع الثاني1400- مارس 1980م،ص6.

[4]-المرجع نفسه، ص7.

[5]-المرجع نفسه، ص6-9.

[6]-مصطفى كامل السعيد: مبادئ علم الاقتصاد، دار النهضة العربية، دم، دط، 1970م، ص169، نقلا عن أحمد محمد العسال، فتحي أحمد عبد الكريم، النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه، ص8.

وفي هذا المفهوم ركز صاحبه على قضية الندرة والمحدودية للموارد المتاحة، والتي هي من المقولات الأساسية للأنظمة الوضعية[1].

وكما يلاحظ فإن هذه المفاهيم تناولت الاقتصاد بمعنى "علم الاقتصاد" وهو يختلف في مفهومه عن المذهب الاقتصادي أو النظام الاقتصادي الذي ينبني عليه علم الاقتصاد في مقولاته ودراساته، ولذلك جاءت المفاهيم السابقة للاقتصاد محدودة ومعبرة عن طبيعة المذهب الذي صيغة بناءا عليه، وهو الذي يعتبر سر اختلافها وتركيزها على جوانب دون أخرى.

ولذا فإن الانتهاء إلى المفهوم المتكامل للاقتصاد متوقف على طبيعة المذهب أو النظام الاقتصادي الذي ينطلق منه أو يعبر عنه، وبناءا على ذلك جاءت عدة من المفاهيم، كل مفهوم ينقلنا إلى حقيقة المذهب الذي انطلق منه، ويدل دلالة واضحة على الأهداف الأساسية التي يحملها المذهب.

وعليه فإن بيان حقيقة كل من "علم الاقتصاد" و "المذهب الاقتصادي" يعين على جلاء واتضاح المفهوم المتكامل للاقتصاد.

أ-مفهوم علم الاقتصاد:

المفهوم الأول: هو «الدراسة العلمية لإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات لتحقيق رفاهية الأفراد»[2].

المفهوم الثاني: هو«العلم الذي يتناول تفسير الحياة الاقتصادية وأحداثها وظواهرها، وربط تلك الأحداث والظواهر بالأسباب والعوامل ا لعامة التي تتحكم فيها»[3].

المفهوم الثالث: أن علم الاقتصاد يهتم «بمشكلة الاختيار في المقام الأول نظرا لتعدد وتنوع الحاجات الإنسانية، وما يقابلها من ندرة نسبية في الموارد المتاحة لإشباع هذه الحاجات، ووجود تخصيص هذه الموارد وتوزيعها بين استعمالاتها البديلة، ويشتمل العلم على نظريات متعددة لتفسير

---

[1]-إبراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية. رؤية إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1413هـ-1992، ص22.

[2]-أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاقتصادية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، دت، ص89

[3]-محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف، بيروت، دط، 1411هـ-1991م، ص26.

الحـياة الاقتصـادية مثل قوانين الطلب والعرض والغلة والتكاليف وغيرها، والتي تقوم على أساس الاستقراء والملاحظة للظواهر المختلفة»[1].

ب-مفهوم المذهب الاقتصادي:

المفهوم الأول: المذهب الاقتصادي أو النظام الاقتصادي هو:«الطريقة التي يفضل المجتمع اتـباعها في حياته الاقتصادية، وحل مشكلاتها العملية»[2]، «ولهذا فهو يشمل مجموعة الإجراءات المؤثرة على الاختيار الاقتصادي الذي يهدف إلى توجيه الموارد نحو تحقيق الأهداف»[3].

المفهـوم الثانـي: هو «مجموعة القواعد ونمط الضوابط التي تتبعها جماعة من الناس في اسـتخدام مواردهـا لتحقـيق غاياتهـا وفـي تحديـد الأولويات واتخاذ القرارات الخاصة بالسلع الاقتصادية»[4].

المفهـوم الثالـث: هو «نسق الأدوار الاجتماعية والمعايير التي تنظم بشأن إنتاج وتوزيع واستهلا ك السلع والخدمات ووظيفة النظام الاقتصادي هي توفير حاجات وطلبات أعضاء المجتمع ابتداءا من الحاجات الأساسية للمعيشة إلى سلع الاستهلاك التفاخري»[5].

ومـنه فإنه يتبين اختلاف علم الاقتصاد بتعريفاته السابقة عن المذهب الاقتصادي في كون علـم الاقتصـاد يمـثل دراسة تحليلية وتفسير للحياة الاقتصادية، أما المذهب الاقتصادي أو النظام الاقتصادي فإنه يمثل مجموعة دلائل العمل ترتبط بمفهوم المجتمع للعدالة الاجتماعية في ما يختص بالملكـية ووسـائل الـتملك، والحـرية كما أنه يتطلب مجموعة من القواعد، وعقيدة لدى الأفراد والمجتمع تجعلهم يطبقونها، كما أنه -المذهب الاقتصادي-ليس اقتصاديا بحتا وإنما تؤثر فيه عوامل غـير اقتصادية، لذا فإن التحليل الاقتصادي لا يوصلنا وحده إلى الصورة الدقيقة للنضم الاقتصادية المخـتلفة[6]، لأن دراسـة أي مذهب اقتصادي يجب أن يتناول من ناحية: طريقته في تنظيم الحياة

---

(1)-محمد عبد المنعم عفر: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الاقتصادي المعاصر، قبرص، ط1، 1408هـ-1988م، مج1، ص13.

(2)-محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص27.

(3)-محمد عبد المنعم عفر: المرجع السابق، مج1، ص13.

(4)-أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاقتصادية، ص82.

(5)-المرجع نفسه، ص79-80.

(6)-محمد عبد المنعم عفر: المرجع السابق، ج1، ص13-14.

الاقتصادية، ومن ناحية أخرى: رصيدهم من الأفكار والمفاهيم التي يرتبط المذهب بها ويحدد على أساسها ارتباطه بتلك الطريقة المعينة في الحياة الاقتصادية، بدل غيرها من الطرق[1].

ومـــا يجـــب تأكيده في هذا المجال هو كون قوانين علم الاقتصاد لا تنف صل عن المذاهب والأنظمـــة الاقتصـــادية، رغم ما يبدو من خلال المفاهيم السابقة لكل من "علم الاقتصاد" و"المذهب الاقتصـــادي" مـــن حـــياد علم الاقتصاد وإمكانية تطبيق قوانينه على سائر المجتمعات عبر المكان والـــزمان، ذلك لأن القوانين العلمية تفسر الحياة الاقتصادية في المجتمعات ذات النظم المختلفة، أي أنهـــا ترتبط بمجتمع معين في مكان أو زمان معينين، لذا فإن بعض هذه القوانين ينطبق على بعض المجتمعات دون البعض الآخر فمثلا فإن قوانين النظام الرأس مالي كقانون العرض والطلب يقتصر مجـــال العمل به على المجتمعات الرأسمالية دون المجتمعات الاشتراكية التي تكاد تنعدم فيها حرية السوق.

وتقـــوم علـــى الـــنظم الاقتصادية سياسات اقتصادية لها أهدافها الرئيسية وحدودها العامة تســـتلزم وضع سياسات اقتصادية في حدودها لعلاج المشكلات الاقتصادية داخل المجتمع وفقا لهذه الـــنظم التي قامت عليها السياسات الرئيسية، تنتهي بالدولة إلى تحقيق أهدافها وعلا ج مشكلاتها في ذلـــك الإطـــار، وتشـــتمل هـــذه السياسات على الوسائل والأهداف، وترتبط فيها الوسائل بالأهداف المطلـــوب تحقـــيقها في إطار المذهب الذي قامت عليه، أي أنها تنتهي إلى الأهداف الأساسية لذلك المذهـــب، كمـــا تقـــوم هذه السياسات الاقتصادية على المعلومات التي يقدمها علم الاقتصاد، وإلى جانـــب قـــيامها على هذا الأساس الاقتصادي، فإنها تعكس جوانب غير اقتصادية كالقيم الاجتماعية والجوانـــب السياســـية، وتتوافق مع نظام المجتمع، وتعمل في إطار المفاهيم والإجراءات التشريعية السائدة وتستند إلى الجهاز الإداري المتاح للدولة[2].

لـــذا نجد تعدد المحاولات لضبط وإعطاء مفهوم للاقتصاد، والناظر فيها يكشف عن سر هذا الاختلاف، وهو تعبيرها عن نوع المذهب وعن الفترة وحتى المكان –المجتمع– الذي ساد فيه ذلك المذهب أو النظام.

وليتضـــح معـــنى هذا القول ننقل المفهوم الذي جاء في معجم المصطلحات الاقتصادية عن "علـــم الاقتصاد"، والذي يكشف عن تطور المفهوم مفهوم الاقتصاد–واختلافه من مرحلة زمنية إلى

---

[1]–محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص27.

[2]–محمد عبد المنعم عفر: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الاقتصادي المعاصر، ج1، ص14–15.

أخـــرى، يقـــول صـــاحب المعجم: «علم الاقتصاد: الدراسة العلمية لانتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمـــات لتحقـــيق رفاهـــية الأفـــراد، وكان يطلق فيما مضى على الاقتصاد "الاقتصاد السياسي" (Political economy) بمـــا يفـــيد أنـــه يبحث في موضوعات خاصة بالدولة، غير أنه لما تناول الكُـــتاب هـــذا الموضـــوع في العصور الحديثة لاحظوا أن إيراد الدولة يتوقف على إيراد الأفراد، فـــتحول اهتمامه إلى البحث في الوسائل التي تؤدي إلى زيادة ثروة الشعوب، ثم ما لبثوا أن اهتدوا إلـــى أن الثروة الا قتصادية تتوقف على جهود الأفراد في حياتهم الاجتماعية، فأصبح موضوع هذا العلم البحث في هذه الجهود، وهو موضوع اجتماعي يختلف عن موضوعه السابق، الذي سمي من أجلـــه بالاقتصـــاد السياسي، والنشاط الاقتصادي بطبيعته نشاط اجتماعي ذلك لأن الناس لا يبذلون جهودهـــم الاقتصادية في عزلة من بعضهم البعض، إذ يفتقر كل منهم إلى الآخر في مختلف أوجه النشاط الاقتصادي، وتنشأ عن هذا بين الأفراد علاقات متشعبة لا يمكن حصرها، فمن علا قات بين أصـــحاب العمـــل إلـــى علاقات بين البائعين والمشترين إلى أخرى بين المنتجين وبعضهم البعض، ويؤثر التنظيم الاجتماعي من ناحية أخرى على نمو النشاط الاقتصادي، كما يؤثر هذا النشاط بدوره على التنظيم الاجتماعي»[1].

ومـــن خلال هذا النص نلحظ التركيز على الجانب الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي، وهو ما يكشـــف عـــن قصور المفاهيم السابقة، لإغفالها كثير من الجوانب، إذ أن إدراج الجانب الاجتماعي معناه حضور كثير من المعطيات التي يجب مراعاتها، والتي لها الصلة المباشرة وغير المباشرة في هـــذا الجانـــب –الاقتصـــاد–فعلى الرغم من تفاوت تعريفات الاقتصاد كما سبق، فإنها تنحصر في الجانب المادي فقط للحياة الإنسانية، والمتعلقة بالمشكلة الاقتصادية، فهو لذا يعد قاصرا لعدم إحاطته بجوانب أخرى تؤثر وتتأثر في الجانب الاقتصادي.

فقـــد جـــرت العـــادة على أن تكون الدراسة الاقتصادية بعيدة عن مجال الدراسة الأخلاقية والدينـــية، والاهتمام بالحاجات الإنسانية ووسائل إشباعها، والنظر إلى الأهداف في هذا الإطار مما سبب إغفال حرمتها وضررها[2]، وهو ما أدى إلى عجز في كشف الحلول وعلا ج المشكلات التي يعانيها الإنسان اليوم.

---

[1]–أحمد زكي بدوي: معجم المصطلحات الاقتصادية، ص89–90.

–محمد شوقي الفنجري: المذهب الاقتصادي في الإسلام، شركة مكتبات عكاظ، الرياض، ط1، 1401هـ–1981م، ص48–49.

[2]–محمد عبد المنعم عفر: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الاقتصادي المعاصر، ص15، 16.

وعلى هذا فإن المفهوم الذي يعد شاملا لتلك الجوانب التي تتصل بالاقتصاد وكان معتبرا لها ولأهميتها في تمام المعنى مقارنة بما سبق، هو المفهوم الوارد في "قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية"، إذ يقول صاحبه:«الاقتصاد هو: علم تدبير الثروات والأموال، الفردية والاجتماعية إدخارا وتنمية وتوزيعا على نحو من الاستقامة والتوازن الذي يتوسط بين الإسراف والتقتير، وبين المغالاة والتقصير وبين الإفراط والتفريط»[1].

ولعل ما يؤكد قصور تلك المفاهيم هو مقارنتها بما هو سائد في المجتمعات الإسلامية من نشاطات وسلوكات يقتضيها الإسلام، والتي تتنافى معها كثير من المقولات والمفاهيم وكذا الوسائل والأهداف التي تحملها تلك المفاهيم، والتي تعد انعكاسا لسلوك بشري ساد مجتمعات غير إسلامية لذا فقد جاءت بعض المحاولات لصياغة مفاهيم عن الاقتصاد يناسب الدراسة الاقتصادية الإسلامية في مفاهيمها وأساليبها وسلوك مجتمعاتها، كأفراد ومجتمعات، لأن الإسلام يضع الاقتصاد في إطاره الصحيح، ويجعل الرابطة وثيقة بينه وبين القواعد القيمية التي يلزم توفرها في الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي، ويحقق التكامل بين الجوانب الروحية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية، إلا أن هذه المحاولات لازالت في بدايتها شأن أي دراسة أو عمل في بدايته يحتاج إلى التنقيح والتعديل لتصل إلى الثمرة المرجوة[2]، ومن أهم هذه المفاهيم التي تبين حقيقة الاقتصاد الإسلامي الآتي ذكرها:

جـ-مفهوم الاقتصاد الإسلامي:

المفهوم الأول: هو «المذهب الاقتصادي للإسلام، الذي تتجسد فيه الطريقة الإسلامية في تنظيم الحياة الاقتصادية، بما يملك هذا المذهب ويدل عليه من رصيد فكري، يتألف من أفكار الإسلام الأخلاقية، والأفكار العلمية الاقتصادية أو التاريخية التي تتصل بمسائل الاقتصاد السياسي أو بتحليل تاريخ المجتمعات البشرية»[3].

ويبين واضع هذا المفهوم الأساس الذي انطلق منه في وضع هذا المفهوم فيقول: «وهكذا فنحن نريد بالاقتصاد الإسلامي: المذهب الاقتصادي منظورا إليه في إطاره الكامل، وفي ارتباطه

---

(1)-محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1413هـ-1993م، ص59.

(2)-محمد عبد المنعم عفر: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الاقتصادي المعاصر، ج1، ص15-17.

(3)-محمد باقر الصدر: إقتصادنا، ص29.

بالرصيد الفكري الذي يعتمد عليه، ويفسر وجهة نظر المذهب في المشاكل التي يعالجها»[1].

المفهوم الثاني: هو «مذهب ونظام يشمل مجموعة الأصول والمبادئ والقواعد الاقتصادية العامة، المستخرجة من القرآن والسنة النبوية، والبناء الاقتصادي المقام على هذه الأصول والمبادئ والقواعد مراعى فيه مقتضيات المصالح المتغيرة والمتطورة بحسب الزمان والمكان»[2].

المفهوم الثالث: هو «علم دراسة كيفية استخدام الإنسان للمواد المختلفة لسد حاجات أفراد المجتمع الإسلامي وجماعاته المعيشية والدينية على مر الزمن»[3].

ويلاحظ على هذه المفاهيم أنها ركزت على عنصر الزمان والمكان انطلاقا من خصوصية يستمدها الاقتصاد الإسلامي من طبيعة الإسلام، وهي كونه يتكون من قسمين: الأول: ثابت يشتمل على مجموعة المبادئ العامة المنصوص عليها في الوحي-القرآن والسنة- في هذا الشأن مثل الأصل في طريق الكسب الإباحة، وحل البيع وحرمة الربا وغيرها من المبادئ الأساسية، وهو يمثل الأصول أو المذهب الاقتصادي، والثاني: متغير: وهو مجموعة التطبيقات والحلول الاقتصادية التي يتوصل إليها بالاجتهاد تطبيقا للمبادئ العامة وإعمالا لها، مثل العمليات التي يصدق عليها الربا، وحد الكفاية بالنسبة للزكاة، وكيفية تحقيق التوازن داخل المجتمع وهو ما تعلق بالتطبيق أو النظام[4].

وعلى هذا فإن السياسة الاقتصادية المتبعة في ظل الاقتصاد الإسلامي يشترط فيها مشروعية وسائلها وأخلاقيتها ويترك للسلطة الاقتصادية حرية اختيار الأنسب منها، وهذا المبدأ يمثل عنصر مرونة كبير يتجاوز الظرفية الزمنية والمكانية[5].

ثانيا: أسس النظام الاقتصادي

باعتبار الاقتصاد تعبير عن وجه الانتفاع من الكون واستغلال موارده وثرواته -الإنتاج-

---

(1)-محمد باقر الصدر: إقتصادنا، ص29.

(2)-محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ص59.

(3)-محمد عبد المنعم عفر: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الإقتصادي المعاصر، مج1، ج1، ص18.

(4)-محمد حسن أبو يحي: اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة، دار عمار، عمان، ط1، دت، ص13.

-محمد شوقي الفنجري: المذهب الاقتصادي في الإسلام، ص25.

(5)-عبد الجبار حمد عبيد السبهاني: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي، ص282-283.

وكـــذا تعبير عن وجه العلاقة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان خلال هذا الانتفاع، فإن أسسه وكذا توجـــيهاته قا ئمة على أسس وتوجيهات التعامل الكوني من جهة، وعلى أسس وتوجيهات العلا قات الاجتماعية من جهة أخرى.

فـــلا يتوقف العمل الاقتصادي على فقه التعامل الكوني، وإنما يحتاج إلى جانب ذلك إلى فقه بـــالواقع الإنســـاني وإلـــى فقـــه بالمقاصد واعتبارها خلال ذلك كله، لأنه فقه يضبط حد الاعتدال والإسراف في الانتفاع وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة والوقائع، فقد يحتاج جيل إلى نسبة من الانتفاع تـــتحقق له مـــن خلالها الرفاه-المقاصد التحسينية- في حين لا تكفي هذه النسبة من الانتفاع الجيل الذي يليه لسد حاجاته الضرورية، بسبب زيادة عد أفراده، فتصبح بذلك الزيادة على تلك النسبة التي كان يتمتع بها الجيل السابق من الاعتدال، في حين كان يعد عند سابقه إسرافا.

وعلـــيه فإن الاقتصاد يقوم على العلم وتطوره وزيادته كما سبق بيانه لضمان تعامل كوني سليم، إلى جانب ثبات القيم وهو ما يضمن التوحيد تحققه، فهو الموجه الأساس لسلوك الإنسان كله، وهـــو المصـــدر الأساس الذي يستمد منه الإنسان تصوراته كلها، والخيط الرابط بينها جميعا، تعود كلها إلى الخالق سبحانه وتعالى.

فمفهـــوم المســـؤولية الـــذي يحققه الإنسان من خلال التزامه بالتوحيد كما سبق بيانه يعطيه مجـــالا واســـعا للعمـــل الاقتصادي المسؤول الذي يتحرك في ظل المقاصد، ومن أجل تحقيق تلك المقاصـــد، وهـــي مسؤولية تضبط علاقاته بالكون كما تضبط علاقاته بأخيه الإنسان، وتوجهه إلى تثمير ما يملك بما يحقق نفعه ونفع الجماعة.

فإذا كان الجانب الذي يربط الإنسان بالكون خلال تعامله الاقتصادي والذي يهدف إلى الإنتاج قائم على أساس الانتفاع المادي، فإن مثل هذه العلاقة إذا لم توجه توجيها عقديا وأخلاقيا تصبح سببا من أسباب الفساد في الكون، لأنه ستطغى عليها حينها النظرة المادية وتغيب المقاصد الموجهة فتصبح حينها هدفا في حد ذاته، بكونها جانب يحقق للإنسان شهوته في التملك والسيطرة والغنى الذي يتوجه به خلالها إلى الاستعلاء على غيره، وعنصر الإنتاج في الاقتصاد لا ينفصل عن التوزيع والتبادل، وهو أهم جانب يربطه بأخيه الإنسان، لأنه السبب الثاني الذي يكتمل به الغنى والسيطرة والاستعلاء، فإذا تحولت هذه الشهوات إلى مقاصد لتبع الإنسان حينها كل الوسائل للحصول على مزيد من الإمتلاك والثراء، فيصبح الربا والغش والاحتكار والإكتناز وسائل مشروعة لديه، مادامت تحقق له أهم أهدافه ومقا صده كما ساد ذلك في ظل الأنظمة الاقتصادية

الوضعية السابق ذكرها.

وهـو مـا يبيـن أهمية إبناء الاقتصاد على تلك الأسس المنبثقة من التوحيد والالتزام بما تقتضيه.

ومـنه يصبح للملكية وللمال[1] مفهوم خاص منبثق من تلك الأسس، يختلف عن المفاهيم الو ضعية، ويوجه العمل الاقتصادي إلى أن يكون وسيلة تمكن الإنسان من الخلافة في الأرض. ويتحدد مفهومه من خلال جملة من الأسس الآتي ذكرها:

-المـالك الحقيقـي للمـال هو الله سبحانه وتعالى، خلق الكون كله واستخلف الإنسان فيه، والاستخلاف يقتضي أن يتصرف الإنسان فيه بأمانة ومسؤولية -كما سبق بيانه-.

-وللإنسان أن يكتسب ويملك، ولكن بالطرق المشروعة، ووفق الضوابط التي حددها الشرع لذلك كالإرث والعمل.

-للإنسان أن يكتسب ويملك بالطرق المشروعة ما يشاء، أو دون حدود، ولكن في هذا المال حق لغيره لابد من أدائه.

-المـال مـن أهـم المقاصد التي جاء الشرع لحفظها كونه عصب الحياة، وعليه لابد على الإنسان أن يحفظه كما حفظه الشرع، وأن يلتزم الضوابط الشرعية التي تمكنه من ذلك.

-المال ليس مقصدا في ذاته، وإنما هو وسيلة في يد الإنسان تمكنه من بلوغ الهدف الأساس في حياته عبادة لله وعمارة لأرضه -الخلافة- ومنه لابد من تثميره وعدم اكتنازه.

-مسـؤولية الإنسـان وتكلـيفه في هذا المجال ترتفع بالإنسان إذا التزم الضوابط والحدود الشـرعية، وتهـبط به إذا خالف، فهو من مجالات تزكية الإنسان أو تدسيتها[2]، والتمايز بين الناس علـى أساس مقدار الالتزام وعدمه، لا على أساس مقدار ما يملك، فالأصل التساوي بين البشر في

---

(1)-المال: اسم للقليل والكثير من المقتنيات من كل ما يتمول ويملك. ويغلب إطلاقه على النقد ذهبا أو فضة أو العملات التي تقوم مقامهما، ويطلق أيضا، ويراد به الأرض، وما يخرج منها من طعام وشجر ومرعى، وجمي الحيوان، وكل ما يباع ويشترى. محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ص503.

(2)-عبد النعيم حسنين: الإنفاق والمال في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1407هـ-1986م، ص122.

-محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص63

-محمد المبارك: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعده، دار الفكر، بيروت، ط3، دت، ص37، 72-76.

الحقوق والحريات.

ومن خلال هذه الأسس يتحدد أيضا دور الفرد ومسؤوليته ودور الجماعة ومسؤوليتها، ومنه العلاقة الوثيقة بينهما، والتكامل الذي تفرضه تلك المسؤولية من أجل الوصول إلى الغرض الحقيقي من ملكية المال.

فمن أجل أن ينتهي المجتمع إلى الغرض الأسمى من الاقتصاد فلابد له أن يتبع ضوابط الوحي في تقرير حقوق الفرد في الملكية وعدم الحد منها، وكذا في تقرير حقوق الجماعة والملكية الجماعية.

وإقرار الإسلام لأنواع الملكية أمر مهم «لأن الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي يقوم أساسا على تعدد أنواع الملكية، وليس على النوع الواحد، كما في الأنظمة الاقتصادية الوضعية، ولأن تعدد أشكال الملكية الاسلامية هو هدف في ذاته وسبيل إلى غيره،من أجل تضافر الأشكال جميعها في تحديد سمات ووجهة وهيكل الاقتصاد الاسلامي من ناحية، وتأدية دورها في حياة المسلمين الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من ناحية أخرى»[1].

فحق الفرد المخصص له في الملكية بنتيجة سعيه وكسبه أو بحكم الله تعالى بتخصيصه لحكمة ومصلحة كتملك الوارث ما يملكه بالوراثة هو حق منبثق ومؤكد من تقرير القرآن للمسؤولية الفردية، وبأنه المخاطب من الله والمسؤول، وبهذا فإنه لا فرق بين البشر في هذا الحق -التملك الشخصي- الذي ينفرد به من غير منازع أيا كان الفرد كبيرا أم صغيرا، ذكرا أم أنثى، إذ من خلاله تتحقق فرديته وذاتيته، ومن خلالها تتحدد حقوقه وكذا واجباته نحو الله، ونحو الجماعة، ونحو تحقيق ذاتيته الفردية المسؤولة، فقد روعيت في هذه الملكية مصلحة الجماعة وروعي فيه حسن تصرف الفرد فيما استخلفه الله فيه من ملكه، وعلى هذا فمراعاة حق غيره فيه ملزم لا تطوعا، فإذا انحرف به عن مقصده أثم، وحكم عليه الشرع الإسلامي بما يستلزمه الحال، كأن يحجر عليه أو يُمنع من سوء التصرف عن طريق القاضي أو المحتسب، وهي أحكام يحدد الشرع شروط تطبيقها حتى لا تصبح ذريعة للقضاء على الملكية الفردية[2].

وكذا حق الجماعة، فإنه لا يلغى ولا يجب أن يطغي عليه حق الفرد، لذلك فقد قرر الإسلام

---

[1]-عبد الله مختار يونس: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، دد، دم، دط، دت، ص15.

[2]-محمد المبارك: نظام الإسلام الاقتصاد الإسلامي مبادئ وقواعد عامة، ص74-80.

-عبد الله مختار يونس: المرجع السابق، ص14، 16-20.

الملكـية الجماعية وأثبتها، فهو حق منبثق من مسؤولية الجماعة في القيام بمهمة الاستخلاف، وكذا تحقـيق للتسخير الذي يتطلب اشتراك الناس في الانتفاع من الكون. ورغم أن هذا النوع من الملكية يكـون تحت يد الدولة، إلا أنه لا يسمح لها بالتصرف في رقبة المال نفسه لورود حق عام للأمة أو الناس جميعا على هذه الأموال يفرض الانتفاع به مع الاحتفاظ برقبته ليكون الانتفاع لمجموع الأمة دون أن يخـتص بها أحد منهم، فدور الدولة هنا هو حفظه من أجل النفع العام، أما النوع الثالث من الملكـية وهـو ملكـية الدولة –بيت المال–، فيختلف عن هذا النوع من الملكية –الملكية العامة أو الجماعـية– وإن كـان بينهما تداخل لإشراف الدولة عليه بالحفظ والمراقبة، إذ يبقى لها –رغم هذا الـتداخل– صـفة المـالك الحقيقي لبعض الأموال العامة، تنفق منها في وجوه الإنفاق العام، وكذا اسـتثمارها فـي العمليات الإنتاجية من أجل نفع المجتمع، وهذا النوع من الملكية له دوره في حفظ التوازن بين أفراد المجتمع وجماعاته، وإعادة هذا التوازن إن اختل لسبب من الأسباب[1].

وفـي ظـل هـذا المفهوم للملكية يتحدد التوزيع الذي هو أهم عامل في الحركة الاقتصادية والإنماء الاقتصادي[2].

ثالثا: مميزات الاقتصاد الإسلامي

مـن خلال تلك الأسس التي ينبني عليها الاقتصاد في ظل التوحيد، فإنه يمكن القول بأن هذا الاقتصـاد له ممـيزات وأهداف تفرض تمييزه باسم "الاقتصاد الإسلامي" وإن كان لفظ "الاقتصاد" يحمـل من الدلالة ما يكفي للتعبير عن كونه إسلامي، لأنه متى أُطلقت هذه الكلمة أوحت بالاعتدال وعدم الإسراف –كما سبق بيانه–، إلا أن استعمال هذه اللفظة وتعميمها لتشمل الأنظمة الوضعية هو ما يفرض تقييدها بالإضافة:

–فالنظام الاقتصادي الإسلامي يختلف اختلافا جذريا عن الاقتصاد الذي تهدف إليه الأنظمة الوضعية انطلاقا من أسسه، ثم ما تقتضيه هذه الأسس من ضوابط ومن مفاهيم.

–والاقتصاد الإسلامي له قاعدة عقدية متينة، هي مصدر المفاهيم والتشريعات جميعا، يرتبط مـن خلالهـا بجميع جوانب ومجالات الحياة الإنسانية، ويكون إلى جانبها وسيلة إلى تحقيق غايات ومقاصـد شريفة، ولهذا فإن وحدة المصدر في الأسس والتشريعات –وهو الله سبحانه وتعالى– هي

---

[1]–عبد الله مختار يونس: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، ص21-27.

[2]–محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص288.

التي تجعل منه حلقة مكملة من حلقات المنهج الإسلامي في الحياة.

-تعكس مفاهيمه وجهة النظر الإسلامية في تفسير الأشياء على ضوء الأسس العامة المبنية على التوحيد، فمثلا مفهوم الملكية فقد عبر تعبيرا دقيقا عن حقيقة التسخير، وعن معنى مسؤولية الإنسان وخلافته في الأرض، وكذا فإن مرتكزاته تقوم على نبذ "دعوة الندرة" في الأرزاق أو اعتبارها محورا للنظر الاقتصادي كما هو شأن الأنظمة الوضعية، إذ تجعلها من مقولاتها الأساسية.

-يعكس العمل الاقتصادي في الإسلام القيم العليا، وينزلها على أرض الواقع، يتوجه بها، ويهدف إلى تحقيقها على عكس الأنظمة الوضعية فإنها تلغي معظم تلك القيم إن لم تتماشى مع مصلحتها ومقاصدها. وكمثال على ذلك: "العدل" و"الحرية" و"التكافل الاجتماعي"، وهي أهم المقاصد -كما سبق بيانه- وأهم موجه للعمل الاقتصادي بتحقيقها يضمن العمل الاقتصادي سلامته وبالحفاظ عليها ينتهي إلى تحقيق التوازن الاجتماعي، ويتجلى ذلك من خلال نظام الملكية: إذ يقوم توزيعها على العدل، ومن خلال ضوابط وتوجيهات تنميتها والانتفاع منها يتحقق العدل في الانتفاع ليشكل كافة أفراد المجتمع، وهو مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، ولا يتحقق هذا المستوى من التعامل الاقتصادي إلا إذا كان على أساس من الحرية في التملك والإنتاج والتوزيع، وكذا الاستهلاك[1]، ومفهوم الحرية -كما سبق بيانه-هي الحرية المسؤولة أي القائمة على روح المسؤولية التي يتحلى بها المسلم والتي وصل إليها بالتزامه بمبادئ الشرع وتوجيهات الوحي وهو ما يضمن له نتائج أعماله، وقد حدد لهم مسؤولياتهم جميعا بما يتناسب وإمكاناتهم وقدرتهم من خلال قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ ...[الآية]...﴾[2]، فالمحاسبة والمسؤولية على ما أتاهم على قدر ما حملوه، والمطلوب تقوى الله والتزام أمره بحسن تدبير وتسيير ما بين يديه ووضعه الوضع المناسب الذي ينفعه وينفع المجتمع.

-الجمع بين الثبات والتطور: وعلى هذا فإن العمل في الاقتصاد الإسلامي والبحث فيه يختلف عما هو سائد في الاقتصاد الوضعي، لأنه مقيد بنصوص القرآن والسنة، وبأن يتوصل إلى الحلول بالطرق الشرعية المقررة من قياس واستصحاب واستحسان وغيرها.

-يتميز الاقتصاد الإسلامي باصطلاحاته ذات المفهوم الإسلامي تختلف عن المصطلحات

---

[1]-محمد باقر الصدر: اقتصادنا، ص286-288.

-إبراهيم أحمد عمر: فلسفة لتنمية رؤية إسلامية، ص22.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 165.

الاقتصادية في الاقتصاد الوضعي، فلكل علم ومجال لغته واصطلاحاته، ولكل مذهب ونظام فلسفته ولغته المشهورة في ذلك المجال، وعليه فإن كثيراً من المصطلحات تختلف في مفهومها عن المفهوم الذي تحمله عندما تطلق عند أصحاب المذهب الاقتصادي الوضعي، إذ تعود المصطلحات في الاقتصاد الإسلامي إلى اللغة التي جاءت بها أصوله –الوحي: القرآن والسنة–[1].

–يتميز النظام الاقتصادي الإسلامي عن غيره من الأنظمة الاقتصادية الوضعية أنه يهدف إلى تكوين البيئة الحرة وحفظ الكرامة والحرية الإنسانية، والارتفاع بالإنسان إلى إنسانيته، وذلك من خلال:

–تقرير الملكية الفردية: فقد أشارت كثرا من الآيات إلى حق الفرد في الملكية وإلى حريته وكرامته الفردية التي تتطلب عدم الاعتداء على ماله، وإلى ضرورة تنمية ذلك المال في حالة إذا كان المالك ضعيفا لا يقدر على تنميته، فليس للجماعة أن تتصرف في ذلك المال إلا من هذا الباب وهو التنمية، وهو ما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]. فنسبة المال إلى اليتيم تقرير لحقه في الملكية، التي وجبت له بطريق الإرث، وقد سبق بيان وتوضيح دلالة هذه الآية على الحرية والكرامة الإنسانية، وعلى ضرورة تصرف الكفيل والوكيل في مال الضعيف بما يحفظ كرامته ويحفظ ماله، وهو ما يكشف عن ضرورة اعتبار المقاصد والعمل في ظلها والتوجه إلى حفظها، ومنه فتنمية المال والتصرف فيه مبني على فقه بالمقاصد وفقه بالواقع الإنساني لتحدد مقدار التصرف في مال الضعيف وحدوده، فيتحقق الغرض من قصد الشارع إلى حفظ المال بالنظر إلى حال الضعيف وما يتطلبه، لينتهي به إلى حفظ كرامته وإنسانيته –بالتعليم وحفظ صحته وغيرها–، وكذا لينتهي بماله –إن أمكن– إلى أن يكون مساهما في تحقيق النفع العام.

–تقرير الملكية الجماعية: وذلك بفرض العدل والمساواة والتكافل، وتقوية الصلة بين أفراده وفرض احترام الحقوق والواجبات، ومنع كل ما يعرض المجتمع للأزمات كالاحتكار والربا، وبمنع إذلال الغني للفقير وغيرها، وكذا من خلال إيجاد السلطة المسؤولة التي تضمن له هذه الكرامة بحفظ أملاكه وتوجيهها في الأزمات، والحفاظ على مستواها الذي لا يطمع بها الأعداء[3]، وكذا

---

[1]–محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص106–112.

–محمد شوقي الفنجري: الوجيز في الاقتصاد الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1414هـ–1994م، ص39.

–إبراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية رؤية إسلامية، ص13، 24–25.

[2]–سورة الأنعام، الآية: 152.

[3]–محمد الغزالي: المرجع السابق، ص106–112.

بمـــنعها من الفساد الذي تصل إليه بالترف، وذلك بقطع أسبابه ودفعها إلى الاعتدال والتوازن، وهو الذي يحققه العمل الاقتصادي وفق توجيهات وضوابط الوحي، وتحقيق التوحيد والتزام مقتضياته.

فجميع الآيات التي تتحدث عن التسخير تعتبر تقريرا للملكية الجماعية، وبأنها جُعلت للناس جمـــيعا، ولهـــم حـــق التصرف فيها وتملكها والانتفاع منها، وما يؤكدها هو قوله ﷺ: «المسلمون شـــركاء في ثلاث، في الماء والكلأ والنار»[1]، فهذا الحديث يقرر أن هذه الأشياء لا يجوز وقوعها تحـــت التملك الفردي، لأن المنفعة التي تؤخذ منها لا تتناسب مع الجهد المبذول في سبيل اكتسابها، ولأنهـــا تتعلق بمنفعة ضرورية لمجموع الأمة، فوجب أن تبقى شركة بين جميع الناس ينتفعون بها جمـــيعا، دون ضـــرر مـــن أحد لأحد، وفي زيادة "الملح" في رواية أخرى ما يدل على أن المعادن الظاهـــرة والباطـــنة داخلة في هذا النوع من الملكية وهو الذي تتوجه الدولة بالحفاظ عليه وتحقيق النفع العام منه الذي يصل إلى الجميع دون استثناء[2].

وقـــد تبين لنا كذلك من خلال تفسير كلمة "غير معروشات" عند الحديث عن توجيه الانتفاع مـــن نبات الأرض أنه مقصود منه ما خرج في البر والجبال من الثمرات مما يعني أنه لا يتعلق به بـــذل الجهد والعمل الذي تتحقق به الملكية الخاصة، كما في "معروشات"، لذلك فهو ملك عام ينتفع منه جميع الناس، ولم يخصص بجهد أو عمل أو غيرها، فهو ملك مبني على التسخير المباشر الذي يتطلب أن يعم النفع ولا يخصص ليحقق الغرض منه.

-**تنظـــيم الملكية**: يعتبر تنظيم الملكية أهم عامل يحقق التنمية الاقتصادية والاجتماعية معا، وذلـــك مـــن خلال تحقيق الإنتاج وزيادته، وتحقيق التوزيع العادل لكل الموارد الإنتاجية، وكذا من خـــلال إحاطة هاتين التنميتين بسياج متين من الضمانات التي تتيح لهما دواما في التطبيق واطرادا فـــي التقدم لخدمة العنصر البشري وتنميته دوما، وتحقيق الكفاية له، وجعل حق الاستهلاك والإنفاق حقا ثابتا لكل فرد في المجتمع المسلم[3].

ونكتفـــي بالإشارة إلى نموذج من هذا التنظيم من أجل الكشف عن حقيقة النظام الاقتصادي الـــذي يهـــدف الإسلام إلى تحقيقه والأهداف والمقاصد التي ينتهي إليها من خلال هذا التنظيم، وهو

---

(1)-أخرجه أبو داود، في كتاب البيوع، باب في منع الماء، رقم الحديث: 3477، سنن أبوداود، مج2، ج3، ص278

(2)-عبد الله مختار يونس: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، ص22-25، 49.

(3)-المرجع نفسه، ص27.

تنظـــيم الاستهلاك أو تحقيق الاعتدال الاستهلاكي[1]، أي تحقيق النفع العام لكل أفراد المجتمع غنيهم وفقـــيرهم بـــناء على المقصد الذي وجدت عليه هذه المنافع، وهو كونها وجدت لجميع الناس دون تمييز.

فتوجـــيه الإنســـان إلـــى الانتفاع وإباحة الطيبات وتقرير الملكيات هو أهم تنظيم يحقق هذا المقصد، إلا أنه لا يكتمل دون ضوابط وتوجيهات ترشد هذا الاستهلاك، فضعف الإنسان قد ينحرف بـــه عـــن تلـــك المقاصد لذلك وجد إلى جانب ذلك توجيه هام يضبط ذلك الاستهلاك ويوجهه وهو "الزكاة" وهو ما أشارت إليه الآية 142 من سورة الأنعام.

ولقـــد اهتم بها القرآن الكريم اهتماما كبيرا يوحي بقيمتها وأهميتها ودورها، ورفعها إلى أن أصـــبحت ركـــنا مـــن أركان الإسلام وفريضة من فرائضه لئلا يتهاون في أدائها ويقصر في حق مســـتحقيها، وقـــد جعلت من إيرادات الدولة يمكن لها تولي جمعها وهو أهم ضامن ينظم ويضمن أداءها.

ولقد تميزت الزكاة بعدة مميزات جعلتها الأقدر على تحقيق الهدف من التنظيم المالي، وأهم هذه المميزات: الشمول، العدالة، الدورية والاقتصاد.

فالشمول سواء كان في الخاضعين لها، أو كان الشمول في الأموال التي تجب فيها الزكاة أو كان الشمول في الأفراد أو الجهات التي تصرف فيها الزكاة، وهو ما يبين قدرة الزكاة على تطهير جمـــيع أنواع المال، إذ يدخل فيها كل نوع جديد لم يكن معروفا في عهد النبي ﷺ تحقق فيه معنى الـــنماء والشـــروط التـــي ذكرها الفقهاء، وكذا قدرتها على تحقيق الضمان الاجتماعي في المجتمع المســـلم بتغطـــية حاجات المحتاجين[2] إلى جانب موارد أخرى إلزامية كالخراج والجزية والغنيمة

---

[1]–وهو ما يسمى في لغة الاقتصاد الحديث "ترشيد الاستهلاك"، عبد الله مختار يونس، دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، ص57.

–يهدف الاقتصاد الوضعي إلى تحقيق هذا التنظيم، إلا أنه لم ينته إلى حد الآن إلى الصيغة النهائية التي تضمن تحققه الفعلي، وذلك بسبب إغفال كثير من الأسس والقواعد والمبادئ التي تقدم النظرة التكاملية التي تجمع بين تقديم التفسير الحقيقي للوجود وبين فقه الواقع الإنساني والفطرة الإنسانية، وكذا بسبب ضعف الضمانات والالتزامات التي ترشد المسيرة الاقتصادية.

[2]–حدد القرآن الكريم من تصرف لهم الزكاة لأجل تحقيق الهدف من تشريعها، وهو ما يبين أهميته ومكانته، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.[سورة التوبة، الآية 60].

وغـيرها، وكـذا مـوارد اختـيارية كالوقف والوصية والعارية والمنيحة والقرض الحسن والهبة وغيرها.

والعدالـة كإعفـاء مـا دون النصـاب وكاخـتلاف مقدارها باختلاف الجهد كما هو شأن المنتوجات الزراعية التي يبذل فيها الجهد والمال بالسقي وغيرها، والتي لا يبذل فيها أي جهد.

والدوريـة: بأدائهـا كـل حول كما هو الحال في الثروة النقدية والتجارية والحيوانية، وكل موسم كما هو الحال في الثروة الزراعية وما أُلحق بها مما يعني أنه مورد دائم ومتجدد.

والاقتصـاد: بالابتعاد عن تجاوز الحد في جبايتها[1] لأن تجاوز الحد يخرج بها من وظيفتها ودورها.

فعند تقرير هذا الحق بقوله ﷻ: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[2] ضبط هذا الانتفاع بقوله ﷻ: "ولا تسرفوا"، وكما سبق بيانه فإن هذا الضابط شمل الأكل كما شمل النفقة والصـدقة –الزكاة–، وهو تقرير للملكية وأهمية إغناء النفس والحفاظ على مستواها من الغنى الذي يمـنع عـنها النزول إلى درجة العجز الذي يؤدي به إلى أن يكون مستحقا لها، وهو ما يتنافى مع تقريـر الوحي للملكية وتنظيمها، فكما تهدف الزكاة إلى إغناء الفقير بالانتقال به من مستوى العجز إلـى أن يكون دافعا لها بإنماء ما تملكه من الزكاة[3]، فإنه يمنع ويدفع عن المزكي ما يؤدي به إلى هذا العجز، وما يدل عليه هو اشتراط النصاب واشتراط أن يكون «فاضلا عن الحاجات الضرورية التي لا غنى للمرء عنها كالمطعم والملبس والمسكن، والمركب، وآلات الحرفة»[4]. وهو شرط يمنع أن تنزل الزكاة إلى أقل من هذا المستوى فتضر به.

وهو ما يؤكد ضرورة اعتبار هذا الحد من المستوى المعيشي –الذي عبر عنه علماء أصول الفقـه بالضروريات– في الإنفاق وفي الزكاة، أي أن لا تتسبب الزكاة في منع المالك من تحقيق هذا الحـد الأدنـى من مستوى المعيشة، كما يؤكد ضرورة العلم بحد الإسراف الذي ينتقل بالمباح إلى

---

(1)–أحمد يوسف: أحكام الزكاة وأثرها المالي والاقتصادي، دار العلوم، جامعة القاهرة، دار الثقافة، دط، 1990م، ص73–79.

–عبد الله مختار يونس: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، ص54–56.

(2)–سورة الأنعام، الآية 141.

(3)–أحمد يوسف: المرجع السابق، ص134.

(4)–السيد سابق: فقه السنة، مج1، ص253.

الحـــرمة ســـواء فـــي الإنفاق على نفسه أو عند أداء حقوق غيره، وهذان الحدان -تحقيق المستوى الأدنى من الضروريات بعدم الامتناع أو منع الغير منه وعدم الخروج بحد الانتفاع إلى الإسراف- اللـــذان يضـــمنان التمتع بالمباح من أهم الضوابط التي تضبط انتفاع الإنسان وتوجه الاقتصاد إلى تحقـــيق غاياته وأهدافه، ومنه ضرورة الفقه بالواقع الإنساني، وكذا الفقه بالشريعة ومقاصدها خلال ذلك كله «حفاظا على العنصر البشري من الهلاك من ناحية، وحفاظا على المال من الضياع فيما لا فـــائدة مـــنه من ناحية أخرى[...] [ومنه] يتضح لنا دور الملكية الإسلامية في وجوب تطبيقها، فإن الحـــد الأدنى للاستهلاك مكفول وثابت لكل محتاج لا يستطيع توفيره لنفسه يتولى الأفراد كفالته من خـــلال مـــا له مـــن حقـــوق في أموالهم، تتمثل في وجوب إيتاء الزكاة، والإنفاق بمختلف صوره ومجالاتـــه، ومـــا يـــتعلق في ذمة الأغنياء من حقوق غير الزكاة في أموالهم، وما قد نهوا عنه من إسراف وتبذير في استهلاكهم الخاص»[1].

-يقـــوم الاقتصـــاد على العمل التنموي، وما يميز الاقتصاد الإسلامي هو أن التنمية فيه لا تقتصـــر على الجانب المادي -كما هو الشأن في الأنظمة الوضعية- وإنكار الغيب، وهذه الخاصية مســـتمدة مـــن خصـــائص الـــرؤية الإسلامية، إذ ينبغي على المسلم أن ينظر إلى الأشياء التي هي خاضـــعة للتنمية بمنظور إسلامي، ومن منطلق إيماني، وعلى هذا فبما أنها مخلوقة لله تعالى، وبما أن وجهـــته وقصـــده الله تعـــالى فعليه أن يأخذ طبائع الأشياء الحقيقية مما وصفها بها الخالق، وأن طرق تنميتها كذلك تؤخذ أولا مما هدى إليه الخالق وأذن به، إذ حدد سبحانه طبائعها وكيفية تنميتها وهـــدى إلى ذلك، لذا ينطلق من مفاهيم الإسلام التي ترتبط بالخلق والزيادة والنماء، والتعرف على طبائع الأشياء، والسنن التي أودعت فيها، وجعلها الله لزيادتها ونموها[2].

-يتمـــيز الـــنظام الاقتصادي الإسلامي بكون كل من الملكية الخاصة والعامة التي يقررها الإســـلام ويعمـــل على تنظيمها، أصل يكمل إحداهما الآخر، وكلاهما ليس مطلقا، بل مقيد بالصالح العام، وكلا منهما له وظيفة اجتماعية[3].

-ومـــنه فـــإن هذا التنظيم هو إقرار للتفاوت الفطري بين الناس في المجتمع، وهو لا يعني إقرار نظام الطبقية الذي أحدثته الأنظمة الاقتصادية الوضعية، ولا يعني إقرار الفقر الذي يؤدي إلى رذائـــل يمقتها الشرع وتتنافى مع التوحيد، وإنما يعني تحقيق التكامل وضمان ذلك بالتنظيم والتوجيه

---

[1]-عبد الله مختار يونس: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي ، ص62.

[2]-إبراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية، ص40.

[3]-عبد الجبار حمد عبيد السبهاني: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلام، ص132-133.

الاقتصـــادي، فقـــد لاحظـــنا ذلك بوضوح تام في «نظام التوزيع الذي جرد أعمال القوة والاستيلاء والاســـتئثار مـــن كـــل مســـحة حقوقية، ولم يقر بالمشروعية إلا للعمل الاقتصادي المنتج، وضمن الضوابط الشرعية كما اتضح في مراحل التوزيع وأسسه الحقوقية»[1].

رابعا: أهداف الاقتصاد الإسلامي

تبين لنا من خلال ما سبق أن الاقتصاد الإسلامي جزء من النسق والمنهج الإسلامي، ولذلك فهـــو يحمل خصائصه، من مثل التوازن والاعتدال في مراعاة الحاجات الإنسانية وتحقيقها، ولذلك فإن أهدافه هي من التشريع الإسلامي، وغاياته تنتهي إلى تحقيق الغايات والمقاصد الكبرى للرسالة الخاتمة، ويمكن إجمال هذه الأهداف كالآتي:

-بناء الشخصية الإنسانية، والعمل على الارتفاع بالفقير إلى المستوى الذي يمكنه من تحقيق إنســـانيته، والـــنزول بالغني إلى المستوى الذي يحفظ له إنسانيته، فتلك التوجيهات هي في حقيقتها اعـــتراف بفطرة الإنسان وميولاته إلى الشهوات، وكذا هي دفع إلى تحقيق فطرة الإنسان وميولاته إلـــى التديـــن، إذ تلتقـــي بالتوجـــيه دوافعه الفطرية المادية مع فطرته وميولاته إلى التدين، فيتحقق الاعتدال.

-تحقـــيق الـــتكامل بين الملكية العامة والخاصة والانتهاء بها إلى أداء وظيفتها الاجتماعية والمتمثلة في التنمية.

-تحقـــيق مســـتوى من العلم والوعي والتمييز بين الوسائل والأهداف لدى الأفراد والمجتمع ككـــل، من خلال بيان المبادئ والتوجيهات والضوابط، ينعكس في السلوك الاجتماعي، ومنه الحفاظ على القيم العالية في المجتمع أهمها: "العدل" و"التكافل" و"الحرية والكرامة الإنسانية".

-حل المشكلة التي تعانيها الإنسانية، والمتمثلة في عدم اهتداء الإنسان إلى الصيغة المرضية لإقامـــة الحياة على الأرض، تلك الصيغة التي لا يمكن أن يبلغها الإنسان إلا من خلال التزام الدليل المفصـــل للعمـــارة ولتنظـــيم الحياة الاجتماعية الذي يقدمه الوحي، ولقد اشتدت الضرورة إلى هذه الصيغة بسبب الخلل في النظم الاقتصادية والاجتماعية التي تتضمن ميولات أصيلة نحو التمايز[2].

-الارتفاع بالتنمية الاقتصادية إلى مرتبة العبادة، وهو أكبر ضمان لنجاح التنمية الاقتصادية

---

[1]-عبد الجبار حمد عبيد السبهاني: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلام، ص286.

[2]-المرجع نفسه، ص304.

-إبراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية رؤية إسلامية، ص16.

واستمرارها[1].

-غايـــة وهـــدف التوجيهات في هذا المجال -الاقتصاد- هي الإنسان نفسه ليكون خليفة في الأرض.

ومـــن خلال هذه التوجيهات -التي تم بيانها من خلال مطالب هذا المبحث- تكتمل العناصر الأساســية والقواعــد والضــوابط التــي تنتهي بالإنسان إلى تحقيق الترقي المادي والمعنوي، وهو مســتوى مــن التحضر يكشف عن تميز الإنسان الباني له، وهو أرقى مستوى وأرقى نموذج ينشده الإنسان من خلال محاولاته التأسيسية للحضارة، إذ الهدف الوحيد المنشود الذي كان ولا يزال محل خــلاف بين الحضارات هو الصورة النموذجية للإنسان، والتحضر كان ولا يزال يتجلى من خلال هذيــن المظهريــن -الترقي المادي والترقي المعنوي- وملامح كل حضارة كانت ولا تزال تتحدد بموقفها منهما، وخصائصها ومميزاتها كانت ولا تزال تتشكل من هذا الموقف[2].

وهــو تمــيز نابع عن عقدية المبدأ -يتجلى من خلال الأسس- وعقدية المنتهى -يتجلى في الغايات والأهداف المنشودة-، ينطلق من العبودية لله لينتهي إليها، والعبودية مقتضى من مقتضيات وحدانيــته تعالى، ومن خلاله يتحقق الإنسان بأشرف الصفات والمميزات التي تمكنه من الخلافة في الأرض، إذ الخلافــة في جوهرها قائمة على العبادة، والعبادة هي غاية حياة الإنسان، ذلك أن هذه الغايــة «في نطاق عقيدة الخلافة أن يقوم بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه، بحيث يكون في كل منشط مادي أو معنوي متجها إلى الله يستجلي مراده ويتحراه، ويبتغي مرضاته، ويجد في الفوز بها، وبهذا المعنى تكون حركة الإنسان على الأرض في كل اتجاهاتها الفردية والجماعية، والماديــة والمعــنوية حركة عبادة لله تعالى، ويصبح بالتالي مفهوم التحضر الذي هو الطور الراقي مــن حــركة الإنســان مفهومــا مشــربا معــنى العبادة لله؛ إذ هو وجه من وجوه الإنجاز لمهمة الخــلافة»[3].

لكــن إذا تحققت هذه الحضارة بهذا المستوى، فكيف يضمن الإنسان استمراريتها ودوامها، لــيحقق من خلالها دوام هذا التمكين، وقد لاحظنا أنه لم تنشأ حضارة إلا وانتهى بها التطور إلى أن تندثر وتزول، أو تتدهور وتتخلف وتقعد دون بلوغ المقاصد التي استهدفتها تصوراتها ومناهجها؟

---

(1)-من الترقي المعنوي ما يتحقق من منجزات تتعلق بالآخرين من بني البشر من سائر الأمم والشعوب، وهذا الجانب من الترقي المعنوي سيتم بيانه خلال الحديث عن الوسطية والاعتدال التي تعتبر أهم عوامل الاستمرارية.

(2)-أبو يعرب المرزوقي: "العولمة الكونية"، ص17.

-عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، ج1، ص45-48.

(3)-المرجع نفسه، ص52.

فهـذا التساؤل هو ما سيتم الإجابة عنه من خلال المطلب الآتي، وهو مطلب يتم به ويكتمل مـا اسـتهدفناه فـي هـذا الفصل من بيان يكشف عن ميزة الحياة التي يستهدفها الوحي من خلال توجـيهاته وضوابطه، ومن خلال تقريراته لحقيقة وحدانيته تعالى، كما تجلى ذلك من خلال سورة الأنعام.

المطلب الثالث: عوامل الاستمرارية وعوامل التمكين

تعتـبر الحضـارة ثمرة جهد بشري ينتهي إليها الإنسان بجهده وسلوكه، لذلك فهو معرض للفشل إن لم توجه تلك الجهود إلى المنهج الذي يحفظها ويضمن لها الاستمرارية، ولقد اتسمت جميع المحـاولات البشـرية التي اهتمت بدراسة التاريخ البشري من أجل تحقيق الوعي التاريخي وإرساء مـنهج عـام يمكن الإنسانية من حفظ منجزاتها الحضارية، والدفع بها إلى الأمام بالسطحية وانعدام العمق بسبب الانصياع لمنطقها الذي آمنت به، ووثقت فيه، والالتزام بوجه تحدده للتحليل والتعليل، وإن اعترفـت بأوجـه أخـرى فـإن اعـترافها لا يبتعد بها كثيرا عن منهجها المحكوم بخبراتها ومكتسباتها المعرفية التي حددت منطلقاتها ووجهتها.

ومـن خلال توجيه القرآن الكريم إلى السير والنظر في عاقبة الأمم السابقة وإعطاء نماذج لعاقـبة ونهايـة بعض منها، يتبين تميز الاجتماع الإنساني عن الواقع المادي الذي تحكمه القوانين الصـارمة والمنضـبطة، فطبـيعة السلوك الإنساني أنه غير منضبط، إذ العنصر الروحي والإرادة الحرة التي تميز بها الإنسان جعلته يتصف بكثير من الخفاء والغموض، مما يجعله عصيا عن الفهم اليقينـي، ولـيس معنى هذا أن حركته تسير بشكل عبثي، بل لأن القوانين العامة التي تحكمه تسير بـبطء شـديد يجعـل من الصعب التعرف على اتجاهاته بدقة في الزمن الحاضر، ما لم يستصحب الماضـي الـذي يعطي الحقائق الثابتة التي تفيد في فهم الحاضر مما يساعد على تضاءل الأخطاء وإمكانـية تجنبها، وقد أكدت التجارب البشرية المتطاولة والنتائج التي انتهت إليها تواريخ كثير من الشـعوب، ومنها تاريخ الأمة المسلمة هذه السنن والقوانين الاجتماعية، وبأنها ليست قانون إجباري وصـارم، وإنمـا هي تفاعل مع إرادة وفعل البشر يتمكن من تغييرها وتحويل نتائجها[1]، كما قال

---

[1]-محمد عبد الواحد حجازي: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1971، ص190.

-عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن-فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دت، ص21-23. =

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، مما يؤكد أهمية التوحيد في توجيه تلك الإرادة وضمان نتائج أفعالها.

تتميز الحضارة التي تؤسس بالتوحيد بكونها تضمن استمراريتها ودوامها، وذلك لما يقدمه التوحيد من عوامل تحفظ منجزاته الحضارية، وتضمن دوامها، فالمعرفة أهم سبب يحقق العمل والتصور أو العقيدة السليمة أهم دافع إليه، والأسس إلى جانب الضوابط أهم ضامن لسلامة المسيرة وتحقيق الهدف، لكن تحقيق الفعل بالمستوى المطلوب -تأسيس حضارة إسلامية- هو جزء من الإنجاز، ذلك لأن استمراريتها ودوامها هو الهدف الأساس، لأنه الخلافة الحقيقية في أرقى مستوياتها. وللاستمرارية عوامل أهمها:

أولا: قوة الفكرة التي يكونها التوحيد

تتميز الفكرة التي يكونها المسلم عن حقيقة الوجود وغاية الحياة بالقوة الدافعة إلى تحقيق مقتضياتها، فلا يزال الفعل البشري في الحضارة الإسلامية محكوما وموجها بها، لا يثني عزمه شيئا عن بلوغ أهدافها وغاياتها البعيدة[2].

فالفكرة التي أدت إلى ضبط مسيرة الإنسان المسلم في الحضارة الإسلامية لتحقيق ذلك الإنجاز الحضاري تفرض عليه الاستمرارية، لأنها -الحضارة- ليست الغاية النهائية التي انطلقت من أجلها، وإنما من أجل تحقيق الأهداف والغايات البعيدة، وهي تحقيق العبودية لله تعالى، وضمان السعادة الأخروية إلى جانب السعادة الدنيوية، ولا شك فإن شرف هذا المقصد يتطلب السعي المستمر والدؤوب، ولم يحقق هذه الفكرة ويضمن استمرار فاعليتها إلا قوة المصدر وثباته، فوجود «المعايير الثابتة والمعصومة الضابطة لمسيرة العقل الإنساني والفعل البشري من خلال معرفة الوحي في الكتاب والسنة كقيم معيارية خارجة عن وضع الإنسان، غير منحازة لفعله أو تبريره، وغير متأثرة بتكوينه وظروفه، والتي يمكن من خلالها تبين المنطلقات، والمقاصد، والأهداف،

- -تقديم عمر عبيد حسنة لأكرم ضياء العمري: "قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي"، كتاب الأمة، سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ع39، ط1، رمضان 1414هـ، ج1، ص30-31.
-عماد الدين خليل: "حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية"، ص11.

[1]-سورة الرعد، الآية 11.

[2]-عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي، ص45-48.
-محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص161-162.

والممارسات للفعل الإنساني، والتبصر ببعض النماذج من الوسائل المشروعة كدليل عمل، كما يمكن من خلالها تحديد مواطن الخطأ والصواب، والسداد والانحراف والتعرف إلى أسبابهما، وكيفية التعامل مع آثارهما، لذلك تأتي الدراسة والتقويم من خلال قيم الكتاب والسنة، عملية منهجية لا تتأثر نتائجها ولا مناهجها بالإنسان صاحب الفعل الذي ينحاز بطبعه إلى فعله، ويحاول الدفاع عنه، أو التستر عليه. إنها دراسة منهجية محكومة بقيم معصومة ثابتة، وليست محاولة مذهبية، تتحكم فيها فلسفات الإنسان نفسه، بحيث يصبح فعله هو محل بحث، ويصبح هو وسيلة هذا البحث وأداته»[1].

ومنه يمكن إجمال عوامل قوة الفكرة في عاملين مهمين هما: أولا: قوة المصدر والمتمثل في الوحي –القرآن والسنة– وثبات القيمة المستمدة منه، وثانيا: شرف المقصد والغاية والمتمثل في تحقيق العبودية لله تعالى، وابتغاء مرضاته كما قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2].

فهذه الآية تبين أن غاية التمكين العبادة، والانتهاء إلى هذه الغاية –إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– يتطلب المحافظة والمداومة عليها حتى يفي بحقها، وهو ما يتطلب المحافظة على المنجزات التي تمكنه من ذلك، ومنه دوام التمكين واستمراريته.

ثانيا: قوة الضوابط

تستمد هذه الضوابط قوتها من قوة مصدرها، وهو الوحي –القرآن والسنة– وتوجه الإنسان في سلوكه وعمله وجهة عقدية من خلال المقاصد والأهداف التي يرشد إليها الوحي، وهو ما يحمل الإنسان على الالتزام بالضوابط والتشريعات التي جاء بها لتحقيقها والانتهاء إليها، فالتوحيد يحمل قوة للتحقيق، فكما هو فكرة فهو عمل، وهذا العمل محدد بضوابط تضمن سلامة التحقق كما مر بيانه في الفصل الأول، وقد بينا أيضا من خلال المطالب السابقة من هذا الفصل كيف يعمل التشريع الإسلامي وكيف تعمل العبادة على تقوية التصور الذي يعمل على قوة الفكرة لتحقيق الدافع إلى العمل والاستمرار عليه، إذ يحقق المسلم بالتزامه أهم الصفات، وهي صفة "المحافظة" وصفة "المداومة"، وكذا في تحقيق روح المسؤولية وقوة الإرادة وغيرها من الصفات التي تدفع بالإنسان إلى القوة في الإنجاز والاستمرار عليه.

---

[1]–تقديم عمر عبيد حسنة لأكرم ضياء العمري: "قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي"، ج1، ص15–16.

[2]–سورة الحج، الآية 41.

فـــالإرادة التي تقويها التكاليف -كما سبق بيانه-هي التي تترتب عليها المسؤولية في توجيه الســـلوك لانبنائها على أسس من الحرية والاختيار إذا حل بها الضعف نتيجة عدم الالتزام بالتوحيد فـــإن ذلـــك له أثره في إدارة السلوك وتوجيهه وفق الأحكام والقواعد والضوابط، التي تنبني عليها جميع أفعاله وإنجازاته، وهو ما يؤدي إلى عدم اعتبار «المسؤولية في الانضباط والانتظام في إدارة السلوك وفق أصول وقواعد وأحكام تتناسب معه في تفاعله الداخلي وتفاعله»[1] مع غيره.

فالمحافظـــة على الإنجاز والمداومة على ضوابطه أهم شرط وأهم عامل للاستمرارية على الفعـــل الحضـــاري، فمجـــرد غـــياب شروط الفعل الحضاري، أو فقدانها الحد الأدنى من التفاعل المطلـــوب تكون عرضة لتحديات التدهور والانهيار، وليس ثمة حصانة إلهية مسبقة لهذه الحضارة أو تلـــك بسبب نزوعها الديني أو الإيماني، فإن استمرارية الحضارة رهن بما يصنعه أبناؤها أنفسهم فـــي ضوء جملة من الضوابط والمعايير والعوامل التي إذا أسيء التعامل معها سيقت الحضارة إلى مصيرها المحتوم، فليس في سنن الله في الخلق ونواميسه في العالم محاباة، وإنما هي الأسباب التي تنتهي إلى النتائج المنطقية العادلة، ولذلك تأتي التوجيهات الإلهية من خلال التربية بالتاريخ من أجل الدفع إلى التحقق بالفعل والاستمرار والمحافظة عليه، يتجلى ذلك من خلال استهداف القرآن الكريم لبـــيان حقيقة التمحيص للجماعات البشرية، والتأكيد على سنة المداولة، الأمر الذي يبعث على إيجاد الفعـــل التاريخي وعلى الحركة الدائمة والتجدد والأمل، إذ الفعل والحركة من اختيارهم[2]، والتغيير مـــنوط بأنفسهم وبلوغ القمة متوقف على ذلك كله كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[3]، فإذا حدث التخلي عن أهم العوامل والأسباب وعن روح ذلك الإنجـــاز، وهدفـــه بطل عملهم وأنبأت أعمالهم بنهاية أجل ما أنجزوه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4].

ومـــن أهم ما يحفظ لهذه الضوابط قوتها وفاعليتها ويجنب ضعفها "**الأمر بالمعروف والنهي عـــن المـــنكر**"، فلهـــذا الضابط قوة الدفع إلى المراقبة والكشف عن الأخطاء وتقويمها، فهو تكليف

---

(1)-عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي: الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، ص364.

(2)-عماد الدين خليل: "حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية، ص12-13.

(3)-سورة آل عمران، الآية 137-141.

(4)-سورة الأنعام، الآية88.

شرعي قائم على التبصير بالسنن والتنبيه إلى تجنب ما يوقع في الهلاك، أي إصلاح الحياة وترقيتها، فقد رتب الله تعالى حصول التقوى على القيام بالإنذار فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

ومنذ أن جاء البيان الإلهي لحقيقة هذا الواجب وأهميته من خلال هذه الآية وكثير من الآيات الأخرى في غير هذه السورة -سورة الأنعام- لم يتوقف القيام به لحظة واحدة إلى أن وافاه ﷺ الأجل، فقد كانت الفترة النبوية أرقى نموذج تحقق خلالها الحفاظ على هذه القيمة وتأكدت أهميتها، وهو ما يكشف عن طبيعة الواقع الإنساني وأهمية توجيه مسيرته في جميع الأحوال حتى في مواقف النصر -كما تكشفه الآيات التي تحدثت عن غزوة بدر، إذ قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. وقال ﷻ: ﴿...وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]. وهو أرقى أنواع التقويم، ووضع الضوابط، وتعمير النفوس والعقول بالإيمان في حالات الظفر ونشوة النصر لضمان سلامة القيم وحفظ الضوابط، وتحقيق فاعليتها-، وكذا يؤكد استغلال جميع الوسائل لتحقيق هذه القيمة وتجنب غيابها وضعفها وتراجع دورها، وتوجيه هذا العمل من خلال الاقتداء بسيرته ﷺ لأنها تعتبر فترة القدوة، أو المعيار العملي لتوجيه الواقع بالوحي، ووسيلة الإيضاح المعينة على هذا التوجيه[4].

ثالثا: وحدة العمل والسلوك

ثبات القيم ووحدة مصدرها، ووحدة التوجيهات والتشريع يدفع إلى الوحدة والتكامل في عمل الجماعة، والتوجه نحو تحقيق المقصد والهدف يحول دون الانقسامات والانشطارات التي تفرق الجهد، وتضيع المقصد وتجعل الوسيلة مقصدا، لأنه دفع لجميع الجهود إلى الائتلاف والاتحاد، والدفع إلى الأمام نحو المقصد والغاية المرسومة، والاختلاف المشار إليه في سورة الأنعام هو اختلاف من أجل التكامل والانتهاء إلى المقصد الأساس وهو الخلافة، وابتلاء الأفراد والجماعات بمدى التزامهم بالمنهج المحقق لتلك المقاصد، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا

---

[1]-سورة الأنعام، الآية 51.

[2]-سورة الأنفال، الآية 18.

[3]-سورة الأنفال، الآية10.

[4]-تقديم عمر عبيد حسن لأكرم ضياء العمري: "قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي"، ج1، ص16-26.

حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

إلا أن هذا الائتلاف والوحدة التي تكمن وراء الاختلاف في قدرات الناس والجماعات، وإمكاناتهم قد يتحول إلى تفرق ولا يفضي إلى الوحدة التي تنتهي بالجماعة إلى تحقيق الغاية، ذلك حين يتخلى هؤلاء عن المنهج الذي يفضي إلى تلك الوحدة، أي حين يختل الالتزام بمقتضيات التوحيد، وتغيب المقاصد خلال الفعل الإنساني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[2]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3]. وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[4].

ولا تتوقف هذه الوحدة على جيل معين كي تحقق دوام التمكين، وتنتهي إلى المقاصد، وإنما لابد منها بين الأجيال، أي لابد من التواصل بينها وانتفاع كل جيل بسابقه في ظل واقعه وزمانه، وعدم تفلت الجيل اللاحق من الضوابط والتشريعات والكليات والمقاصد التي يعمل في ظلها كل جيل، إذ به يظهر الإبداع والتطور المرغوب، الذي يخدم المقاصد وينتهي إليها، وفي ظل المقاصد يعذر الآباء الأبناء عند إضافتهم على تراثهم، ويطمئن الآباء على الأبناء لضمانهم السير السليم في ظل تلك المقاصد وانتهائهم إليها[5].

رابعا: شكر النعمة

جعل الله سبحانه وتعالى شكر النعمة أساس السعي الإنساني، وروحه التي يحقق دافعيته، وغايته التي ينتهي إليها، فهو من أهم أسباب وعوامل دوام التمكين واستمراريته، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿...قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

---

[1]-سورة آل عمران، الآية 103.

[2]-سورة الأنعام، الآية65.

[3]-سورة الأنعام، الآية 159.

[4]-سورة المائدة، الآية 14.

[5]-طه جابر العلواني: مقاصد الشريعة، ص161-163.

-محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، ص161 وما بعدها.

-أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي،ج1، ص94-96.

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1]. وقال أيضا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

فالتمكين والقوة نعم ينعم الله بها تعالى على عباده، وهي أعظم النعم التي تستحق الحمد والشكر، إلا أنه قد يحدث أن ينزع الله سبحانه وتعالى هذه النعمة من بين أيديهم رغم أنه تعالى يدفع إليها ويرغب في تحقيقها، والسبب في ذلك أنهم انتهوا بها إلى ما يخالف مقاصدها، فبدل أن يشكروها بزيادة الالتزام والحفاظ على روحها وهو التوحيد كفروها وحولوها إلى ذرائع للباطل والبغي والكفر والفسوق والعصيان، وهذا السلوك في حقيقته مخالفة لسنة الخلق، وانحراف بالفطرة عن المنهج الذي يبلغ بها كمالها.

فالشكر -كما سبق بيانه-[3] هو في حقيقته توجه وسلوك من الإنسان يظهر من خلاله اعتراف الإنسان بالنعمة، فيحافظ عليها ويعمل على دوامها، وأهم نعمة هي نعمة التوحيد، والشكر في حقيقته توحيد لله تعالى.

فغياب الشكر هو بداية تخل عن مقتضيات التوحيد ينتهي بالمجتمع أو الأمة إلى ضعف تأثير المبادئ الأخلاقية، ثم إحلال ضدها، فيعمّ الظلم والطغيان والجور والفساد، «وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له الاستمرارية»[4]

فالفرد الذي تمت تربيته والمجتمع الذي تم بناؤه بالتوحيد هو المساهم الأول في هذا الفساد، فإذا سمح لنفسه بالمخالفة وأطلق غرائزه وشهواته دون ضابط عادت إلى الظهور، وطبيعي أن لا تنطلق دفعة واحدة، وإنما بقدر ما يضعف الالتزام بالتوحيد، وهكذا إلى أن يبلغ المرحلة التي يستحق فيها العقاب وزوال التمكين.

ولقد نقلت سورة الأنعام نماذج من العقاب الإلهي للأقوام الذين كثرت ذنوبهم وانحرفوا عن التوحيد بينا حقيقته فيما سبق[5]، وكشفنا على أن هذه الإشارات في هذه السورة مبينة لسبب

---

(1)-سورة النمل، الآية40.

(2)-سورة إبراهيم، الآية 7.

(3)-انظر المبحث الأول من الفصل الأول، ص

(4)-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، دت، ص49.

(5)-انظر المبحث الثاني من الفصل الثاني، ص 58 - 60 .

الهـــلاك، وهـــو كثرة الذنوب والانحراف عن التوحيد وقسوة قلوبهم وعدم التوبة والاستجابة لدعوة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

كما جاءت إشارات في سور أخرى إلى نماذج من هذا العقاب كان سببه انعدام الشكر، نشير إلـــى نموذج منه وهو الذي بينته سورة سبأ[1] عن أمة "سبأ"، فقد كانت هذه الأمة كما حدثنا القرآن عـــنها أمة ذات مدنية زاهرة مستكملة الأدوات، تمكنت من استغلال ما تملكه في تحقيق التعمير في الأرض، بـــدءا من بناء السدود، وهو عمل يدل على أنه كان ثمرة علوم فكرية كثيرة، وأنشأوا بها جـــنات منظمة عن اليمين وعن الشمال، سهلت طرق السير بينها، وقد كان عمرانهم متصل بعضه ببعض لا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى يبدو له أعلام الأخرى، يسيرون فيها الأيام والليالي آمنين، كمـــا قـــال تعالى: ﴿...سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[2]، وهو ما دل على أن العمران اكتمل وبلغ غايـــته بتحقق الأمن، لكن خالفت هذه الأمة أمر الله وانحرفت عن المنهج الذي يضمن لها مكاسبها، ويديم لها النعم التي تمتعت بها، فكفرت هذه الأنعم ولم تشكرها، فانتهى بها الأمر إلى أن جعلها الله "أحاديث"، وعبرة للأمم والأقوام التي بعدها[3].

ولقد كثر في القرآن الكريم ذكر تاريخ الأمم وخاصة المرحلة التي يعم فيها الفساد، وتستحق بسببه العقاب، للتحذير من سوء العاقبة والحث على تجنب أسبابها وتدارك الأمر قبل وقوعه.

خامسا: التوبة

قـــيام الحضـــارة على الفعل البشري يكشف عن طبيعتها، فلا يمكن أن توجد مسيرة إنسانية دون أخطـــاء وعـــثرات، وعلى هذا تأتي التوجيهات والضوابط لتجنب الإنسان شر زلاته وأخطائه، وتقرير مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حقيقته هو إقرار لتلك الطبيعة البشرية وتوجيه لهـــا وتبصـــير بالأخطـــاء والعـــثرات لتجنبها والكف عنها، إلا أن لهذه العثرات والأخطاء عواقب وخـــيمة، فقد تنتهي بالإنسان إلى اليأس والقنوط الذي يسببه فرط الإحساس بالذنب، وهو داء إذا حل بالإنسان أسلمه إلى الصراع النفسي، وفكك قواه وأضعف قدراته وأثنى عزمه عن مواصلة المسيرة لـــبلوغ الأهـــداف التـــي كان قد حددها في بدايتها، لأنه في نظره لا فائدة ترجى من وراء بلوغها

---

[1]-أنظر: سورة سبأ، الآيات: 15-21.

[2]-سورة سبأ، الآية 18.

[3]-عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1402هـ-1982م، ص435-437.

وأعمالـــه كلهـــا لا وزن لها ولا قيمة، مقارنة مع ذنوبه التي ارتكبها، كما قد يدفع به إلى الانسحاب مـــن العمـــل الجماعي الموحد، وإذا أصيب المجتمع بمثل هذا الداء تفككت روابطه وقلت إنجازاته، خاصة إذا كان الإصرار على الذنب هو الحل الذي ينتهي إليه المذنبون نتيجة يأسهم وقنوطهم، لذلك جُعلـــت "الـــتوبة" كأســـاس فـــي المســـيرة لتجنب مثل هذه العواقب، وجُعلت كعلاج لتلك الهفوات والعثرات، ومن أجل أن تدفع بالنفس اللوامة لدى كل فرد لترتقي إلى النفس المطمئنة.

فلا تتوقف أهمية التوجيه التربوي بالتوحيد عند حد تحقيق الضبط الذاتي كما سبق بيانه عند الحديـــث عن توجيه السلوك الفردي، بل يعمل على تحقيق عوامل تجديده وتنميته كلما طرأ ضعف إنساني بين حين وآخر في تدرج متناسب متوازن.

فـــإلى جانـــب عامل التذكير بالسمو الإنساني وكرامته بصلته بالله عن طريق إيقاظ الفطرة بمختـــلف وســـائل التذكـــير كالإلفـــات إلى النظر والتدبر، وكالابتلاءات، والتي تجتمع في الآيات المقـــروءة –الوحـــي– والمشاهدة –الآفاق والأنفس–، فلا ينحدر بعيدا، بل يعود إلى جوهره، تكون الـــتوبة كعامل أساسي مكمل له يجدد الحياة الإنسانية، ويستعيد بها الإنسان صحته الروحية والنفسية والسلوكية[1].

فالتوحـــيد يعمل على إبعاد المسلم «عن التذكر للحياة ويحفظ له حسن تفاؤله رغم كل ما قد يعـــتري حياته من وهن ومصائب»[2]، ويجنب المجتمع التقصير بين أفراده، فهذا التقصير هو الذي ينتهي بالمجتمع إلى فساد علاقاته وضعف روابطه، وإذا استمر على هذه الحال وغابت التوبة انتهى أمره إلى الفساد.

وهلاك الأمم السابقة –كما سبق بيانه– كان سببه غياب هذا العامل –التوبة–، إلا قوم يونس عليه السلام، فـــإنهم لما وفروا هذا الشرط استمر عمرانهم وتمتعوا بالتمكين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[3].

ولذلك حين أشار الله عز وجل في سورة الأنعام إلى حقيقة الخلافة، ربط بها "الابتلاء" و"العقاب"

---

[1]–عبد الحميد محمد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم، ص124.

[2]–إسماعيل الفاروقي: "جوهر الحضارة الإسلامية"، ص15.

[3]–سورة يونس، الآيتان: 96–98.

و"المغفرة" و"الرحمة" تقريرا لأهمية هذا العامل –التوبة– في تحقيق الخلافة، فقال ﷻ:﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

سادسا: الوسطية والاعتدال

الوسطية أهم ميزة يتميز بها الإسلام، فهي أهم ما يدفع إليه التوحيد ويوجه إلى تحقيقه من خلال مبادئه وتوجيهاته، وقد تبين لنا من خلال ما سبق كيف تعمل مقتضياته على تحقيق الاعتدال والتوسط، وكيف تتحقق الشخصية المعتدلة والمتزنة بتوجيه سلوكها الفردي والاجتماعي، وكذا بتوجيه علاقاتها مع الكون، فتكون بذلك شخصية إيجابية تعمل عملها «الأخلاقي وتحقق به الجانب الأعلى من الإرادة الإلهية، فالإنسان مكلف بإشباع غرائزه وحاجاته، بتوفير هذا الإشباع لبني البشر أجمعين، وهو مكلف بتنمية مواردهم الإنسانية إلى أقصى ما يمكن، تحقيقا لجميع طاقاتهم، وهو مكلف أيضا بتحويل الأرض كلها إلى رياض وجنان [...] فعليه إدراك سنن الطبيعة، وسنن النفس وسنن المجتمع، وعليه أن يصنع ويصنع ويحول الدنيا إلى جنة تعلو فيها كلمة الله»[2].

فهذه الوسطية والإيجابية هي التي تنشئ الحضارة وتحافظ عليها، وهي التي تمكن للإسلام وتسعى إلى دوامه، وجميع الأزمات والمشاكل التي وقع فيها الإنسان كان بسبب انحرافه عن هذا المنهج إما تخل وإما مبالغة وإسرافا، إما تقديسا للفرد أو تقديسا للجماعة.

فالوسطية هي التي تحقق الفطرة وتنتهي بها إلى الاكتمال، أي هي المنهج الذي تخرج به الفطرة من قوة إلى الفعل، وشمولها –الوسطية– لجميع أفعال الإنسان هي التي تحقق للفطرة قوة الانتشار، إذ تثبت قدرتها على تحقيق سلامة الإنسان وأمنه وسعادته، فجميع البشر يملكون تلك الفطرة التي تنتظر خروجها إلى الفعل، وفي «فطرة البشر أجمع ما يؤهلهم لمعرفة الدين الحنيف القيم وإدراك أوامر الله وإرادته»[3]، والموحد –المسلم– نموذج تمكن من تحقيقها بمنهج اقتضاه توحيده، والحضارة المبنية على التوحيد حضارة تكفل جميع الحقوق والحريات، لأنها قائمة في

---

[1]–سورة الأنعام، الآية: 165.

[2]–إسماعيل الفاروقي: "جوهر الحضارة الإسلامية"، ص18.

[3]–المرجع نفسه، ص15.

–وانظر أيضا تفصيل مميزات الماهية الإنسانية: عمار جيدل: ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور، ص65 والتي بعدها.

أساسها على هذا الأصل –الحرية والحقوق الإنسانية– الذي هو فطرة للإنسان لا تكتمل ولا تتحقق بمعناها الحقيقي إلا بالوسطية فتكون بذلك حضارة الحرية والحقوق الإنسانية، لذا فإن للإنسان أن يختار التوحيد ويضمن سلامته وسعادته بكمال فطرته، وإن أبى أن يسلم فقد اختار شقاء نفسه، فإن الإسلام لا يفرض عليه ذلك، ويبقى في ظل هذه الحضارة تكفل حقوقه الفطرية وتفرض عليه واجبات تكفل لغيره حقوقهم الفطرية أيضا، والتي من بينها تدينهم الذي ارتضوه.

فالتوحيد يقضي على جميع الإشكالات المطروحة والتي يمكن أن تُطرح في شأن العلاقات الإنسانية[1] –بين المسلم وغيره–، فأساس العلاقات مهما كان وضع الأمة المسلمة بالنسبة لغيرها هو العدل والقسط والبر، وفي ظل التوحيد تتجلى مظاهر الوحدة الإنسانية، لذلك فإن الأرض كلها أرض التوحيد والإسلام، وموقف المسلم والحضارة الإسلامية تقرير المصلحة وإقامتها وإنكار المفسدة وإزالتها، ولهذا فإنه يعطي قيمة لكل البشر وفي جميع أنحاء الأرض، وله في ذلك مجال عمل بما يقتضيه التوحيد، وما يؤسسه من مبادئ يسير بذلك وفقا لتلك المبادئ والمقاصد والغايات، يقيم المصلحة ويزيل المفسدة، ويتتبع مواضع الحكمة[2] ليعمل بها وينشرها، ومن الحكمة تقرير كل تلك المقاصد والغايات والعمل في ظلها، وتحقيق انتشار هذه الحضارة بهذه المبادئ والمقاصد أعظم إنجاز تقوم به الحضارة الإسلامية لسائر الأمم والشعوب مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[3].

ومنه فإن هذه العوامل في حقيقتها هي تعبير عن سمات التوحيد ومميزاته وقوته في تحقيق تلك الآثار،إذ يوحد بين ملكات الفرد ويوحد بين أفراد الأسرة وبين الفرد والمجتمع، ويوحد بين الأسرة والمجتمع،وبين الإنسان والكون مما يحقق وحدة كاملة تعمل في تناسق وانسجام كما هو شأن التوازن والتكامل بين ظواهره أو التكامل في العمل الفيزيولوجي لدى الإنسان وتمامه أو استمراره بتحقيق التوازن بينه وبين الجانب الروحي، إذ يعطي لنا فردا متوازنا سليما من كل الأمراض العضوية والنفسية، –كما سبق بيانه في المبحث السابق من هذا الفصل–، وقد مثل لنا الرسول ﷺ

---

(1)–مثل المسألة المطروحة حاليا، وهي: "وضع الأقليات" و"تقسيم الأرض"، أي باعتبار المسلمين وغير المسلمين. انظر للتفصيل: طه جابر العلواني: مقاصد الشريعة، ص55–58، 102–111.

(2)–مصداقا لقوله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها». أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب: فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث 2828، سنن الترمذي، مج4، ص155، وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

–وابن ماجة في كتاب الزهد، باب الحكمة، رقم الباب: 15، رقم الحديث: 4169، سنن ابن ماجة: مج2، ص1395.

(3)–سورة البقرة، الآية 143.

هذا التكامل بقول جامع ومختصر لما فصلناه، فقال ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[1].

ولا شك أن الخلل في أحد هذه الجوانب له أثره على هذه الوحدة والتكامل، وعدم تداركه ومعالجته معناه إصرار على انحراف عاقبته إن لم تظهر في حينها فعلى المدى البعيد، بل عبر الأجيال، ولا شك أن هذا الخلل هو مظهر أو نتيجة لتخل عن مقتضيات التوحيد، فتكون معالجته بالتوبة والمغفرة من الله تعالى، فتستمر الخلافة وتتحقق العبادة والتعمير، وهي تنفيذ لإرادة الله تعالى كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...[الآية]...﴾[2].

ولهذا تتميز الحضارة الإسلامية التي تقوم على أساس التوحيد عن غيرها كونها تستمر في النمو بتكامل لأن بانيها يحمل خصائص اكتسبها من التصور الذي يحمله، لا يفتأ يطلب التقرب من الله سبحانه وتعالى إخلاصا وتزكية إلى أن يصل إلى درجة الإحسان، وهو ما تحقق في الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها[3]، وكان يمكن لها أن تستمر على ذلك المسلك لولا تخلي المسلمين عن معظم مقتضيات التوحيد.

فلابد من التوحيد ليتحقق التناسق والتوازن والتناغم في الحياة الإنسانية لتتمكن من المحافظة على التوازن والتناغم الكوني، ولكي تستمر المسيرة سالمة، فيكون الإنسان مأجورا على انخراطه بفعله ضمن هذا النظام الذي خلق بالحق، ورفضه لهذا الفعل يستحق العقاب العادل بإنهاء أجلهم واستخلاف غيرهم حفاظا على هذا النظام، وهي سنة الله في الخلق كما قال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[4]. فلم تحفظ إلا أمة واحدة من هذا الهلاك العام، وهي أمة التوحيد، وإن تدهورت ونزلت عن منزلة القيادة

---

(1)-رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، صحيح البخاري، مج2، ج2، ص53.
-ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث: 66 (2586)، صحيح مسلم بشرح النووي، مج1، ص384.

(2)-سورة الأنعام، الآية165.

(3)-فقد أثر عن المسلمين أنهم خلال محاولتهم لنشر التوحيد وتعريف الناس به منعوا القتال والتخريب والحرق، وما إلى ذلك من أصناف الفساد، ولم يأملوا إلا بمقاتلة من يشهر السيف في وجه هؤلاء الفاتحين، وذلك قمة التحقق بمقتضيات التوحيد وإدراك ضرورة معرفة الناس لمبادئه ومقتضياته لما يحمله من مقاصد سامية تحقق الخير للإنسانية. الأثر عن أبي بكر الصديق ﷺ، رواه مالك بن أنس، في كتاب الجهاد، باب: ما تؤمر به السرايا في سبيل الله، رقم الحديث: 918، الموطأ، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م، ج1، ص358.

(4)-سورة الأنعام، الآية: 133.

البشرية فإن لها إمكانية العودة والرجوع إلى هذه الصدارة.

وهـو مـا يستحق الحمد والشكر لله تعالى، إذ الشكر والحمد غاية السعي الإنساني وثمرته، فـأعلى درجـات التزكية الإنسانية أن يصل إلى درجة الحمد والشكر، تمجيدا وثناءً كما افتتحت به السـورة "سورة الأنعام"، فقال ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1]. حمدا على نعمة الخلق والتسخير، وحمدا على نعمة التكليف التي تحفظه بتوجيه إرادته إلى تحقيق فطرته لتلتقي بفطرة الوجود وتتحقق الخلافة وفق هذا المنهج، كمـا أشارت إلى ذلك خاتمتها، فقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

---

[1]-سورة الأنعام، الآية1.

[2]-سورة الأنعام، الآية165.

خـــــاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مـــن خـــلال دراســـة موضوع "دلائل التوحيد وتأثيره في الحياة في القرآن الكريم –سورة الانعام نموذجا–" يمكننا القول أن هذه السورة اشتملت على موضوعات كبيرة الأثر في حياة الناس، ففـــيها إخبار عن خلق الكون والإنسان، وإخبار عن أجيال بشرية تعاقبت على إعمار الأرض وفق ســـنن الله تعـــالى في الاجتماع البشري، وبيان لقصة الصراع بين الحق والباطل، والتي من خلالها تمـــيزت نمـــاذج المتحققيـــن بالتوحيد وهم الرسل عليهم السلام، ودورهم في الكفاح والدعوة بقيادة البشرية في طريق الهدى والنور، وكذا من اتبعهم من المسلمين وصدقوا الله فيما عاهدوا عليه، وفيها من العظات والعبر في شأن هؤلاء الملتزمين، وفي شأن أولئك المنحرفين.

وقـــد كـــان محـــور ذلـــك كلـــه وجوهره هو "التوحيد" الذي انبنت عليه وانتثقت منه سائر التصورات والأعمال، فكان المحك الذي تتحدد به درجات الناس عند الله سبحانه وتعالى، ويتميز به الملـــتزم بـــه من المنحرف عنه، لأنه فعل اختياري يقوم على الاقتناع واليقين القلبي لسائر قضاياه التصـــورية لتنبثق منه سائر الأعمال التعبدية، التي تتحقق وتكتمل بها حقيقته –التوحيد– لذلك يعتبر المحـــور الـــذي تدور حوله أفعال الإنسان كلها بدءا من المعرفة، والضابط الأساس الذي به يضمن الإنسان سلامة مسيرته في هذه الحياة وتحقيق خلافته في الأرض.

وعلـــيه فمن خلال عرض حقيقة التوحيد والاستدلال عليها وبيان تأثيرها في حياة الإنسان، كمـــا تـــم في هذه الدراسة تكون قد تجلت واتضحت جملة من الحقائق كانت بمثابة النتائج لها يمكن تلخيصها فيمايأتي:

–تنطوي عقيدة التوحيد على الإيمان بالله تعالى وتوحد بين غايات الإنسان وآماله، وتقدم له التفسير الحقيقي لهذا الوجود، وموقعه وأهدافه وطموحاته، وتنتهي به إلى تحقيق التحرر من عبودية أي شيء في الكون وإلى الخضوع والعبودية لله تعالى.

–حقيقة العمل التعبدي هو الذي ينطلق من الإيمان بالله، ويصب في إطار شريعة الله تعالى، فالعبادات توجه إلى الله تعالى لها أبعادها الفردية والاجتماعية والكونية.

–يعمـــل التوحيد على تحقيق وحدة الذات الإنسانية، وذلك بتحقيق التوازن بين جانبه المادي وجانبه الروحي، والتوحيد بين قواه وملاكاته المختلفة.

–تشـــكل العبادة عنصرا أساسيا في عناصر الشخصية الإنسانية، فالإنسان العابد لا ينسحب من الحياة، وأعمال الإنسان كلها تمارس في إطار العقيدة، وهذا القول هو انطلاق من معنى الفطرة

التي فطر الله الناس عليها.

-تحتل العبادة الركن الأساس والهام في بناء علاقات الإنسان الكونية والإنسانية.

-انطلاقا مما انتهيت إليه من أن العبادة ضبطها الوحي وحدد معناها، يمكن القول بأنها تتأسس على العلم والمعرفة، فمعرفتها تكون من الوحي وتتعضد وتثبت بالدلائل.

-يضع القرآن الكريم الإنسان في المسار الصحيح، الذي ينتهي به إلى اليقين، وذلك من خلال ربطه بالكون وبالحقائق والواقع، ومنه تتأسس العقلية الإسلامية العلمية والواقعية.

-المعرفة التي يهدي إلى طرقها وأساليبها الوحي معرفة شاملة محيطة بجميع ما يمكن أن يساهم في سلامة المنهج الذي يبنيه الإنسان عليها، تتظافر في سبيل تحصيلها جميع قوى الإنسان الإدراكية.

-من خلال ما سبق بيانه في مفهوم الاقتصاد نجد أن النظر في إطار مذهبية وفي إطار إشباع الحياة المادية أدى إلى العجز عن كشف الحلول للمشكلات التي تعانيها الإنسانية.

-المعرفة بالآفاق والأنفس والوقوف على السنن وتحقيق الإجابة على التساؤلات الكبرى لها آثارها السلوكية، فإلى جانب تحقيقها لاستقامة التصور وثباته ، فإنها تحقق استقامة الفعل الإنساني، لذا يركز القرآن الكريم على بيانها والتوجيه إليها، ومنه يمكن القول بأن مقاصد الخلق تلتقي مع مقاصد التشريع لتتحقق استقامة الإنسان وتكتمل إنسانيته.

-ينعكس التوحيد على أهم مجالات المعرفة والأخلاق والسلوك، لذا فهو مصدر حرية الإنسان، فمن خلال معرفة الإنسان لمركزه في هذا الوجود ومكانته بين الموجودات جميعا، ومن خلال أثر الفعل الإنساني وسلوكه يتضح له مفهوم المسؤولية والحرية، فالإنسان يسلك بحرية واختيار، وهو مسؤول عن كل فعل يقوم به، لذا فهو مسؤول عن نفسه، وعن المجتمع، ومسؤولا أيضا عن المخلوقات الأخرى غير الإنسان التي يتعامل معها ويسيطر عليها.

-تميز الإنسان بخصائص أهلته للخلافة في الأرض، اقتضى ضرورة التوجيه له، والتربية بالوحي ليتمكن من تحقيقها على أكمل وجه.

-أولى القرآن الكريم اهتماما بالغا ببيان حقيقة التركيب المادي للإنسان، وبتتبع نصوص الوحي -قرآنا وسنة- نكشف عن التوجيهات إلى حقيقة النظام والتعاون الذي تعمل به أعضاء

الجسد أثناء الصحة والمرض، مع التوجيه إلى أن هذا التعاون والتكامل هو الذي يقوم عليه المجتمع الإنساني من أجل أن يعتمده الإنسان كأساس جوهري يقيم على نسقه بناءه الاجتماعي في لحظات الصحة –الاستقامة والاستقرار–، وفي لحظات المرض –الانحراف–.

–الاهتمام ببيان تأثير التوحيد في حياة الإنسان وتحقيقه لوظيفته في هذه الأرض، ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو من أجل بيان ما به يضمن حياته الأخرى، وتكتمل سعادته بالفوز بنعيم الجنة ورضوان الله تعالى، ومنه الربط بين الدنيا والآخرة، فالتوجيه الذي يحث عليه القرآن الكريم إلى الدنيا ليس مطلقا رغم جوهريته، وإنما ضبط من أجل أن يصب في الآخرة كغاية نهائية.

–العمل والسلوك يتوقف عليه مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، ولذا ركز عليه القرآن الكريم وجعله من قضاياه الجوهرية إلى جانب الإيمان.

–العناية بالمصير النهائي للوجود الإنساني في القرآن الكريم منبثق من النظرة الشمولية المتكاملة للوجود الإنساني التي يقدمها للإنسان.

–يربط القرآن الكريم حين يحدد مفهوم العلاقة ما بين الإنسان وأخيه الإنسان بين هذه العلاقة وعلاقته بالطبيعة، ويبين بأنها تتداخل معها، فكلما نمت قدرة الإنسان على الطبيعة واتسعت سيطرته عليها ازدادت ثروته ونمى إنتاجه، تمكن بذلك من توسيع علاقاته بأخيه الإنسان، فإذا أحسن وشكر الله تعالى توثقت علاقاته وتمتنت، وإن انعدم الإيمان والشكر وحلت الشهوات حصل الاستغلال والاستغناء والاستعلاء.

–كما أن علاقة الانسان مع الكون لها تأثيرها على الطبيعة –الكون والبيئة–، ففي حالة الاستغلال والاستغناء والاستعلاء تسوء العلاقة مع الطبيعة، وفي حالة الإيمان والشكر تزدهر علاقة الإنسان بها، ومنه يحصل التطور وازدهار الحياة، وهذه سنة من سنن الله تعالى أن أمة الظلم والشرك والجور لا تدوم على عكس أمة التوحيد، فإنها تحمل عوامل دوامها واستمراريتها.

–طبيعة الحياة البشرية من حيث هي تفاعل الإنسان مع ما حوله من مخلوقات الله من خلال الروابط والعلاقات التي تحدد طبيعة سلوكه تتطلب التوجيه والاستعانة بسنن السابقين، لأنها لا تتخلف، فقد حوت سورة الأنعام المرتكزات التي تقوم عليها الروابط وأسس تعامل الإنسان مع ما حوله.

–اكتشاف السنن له أهمية كبرى في الانتفاع بالكون على الوجه الصحيح، وهو ما يوضح

أهمـــية الدلائـــل في معرفة حقيقة الكون وفي تكوين التصور الصحيح عنه، وأهمية التوجيه القرآني في هذا الجانب.

-يتبيـــن لـــنا مـــن خلال البحث أن التاريخ أو بمصطلح القرآن الكريم "القصة القرآنية" لها مغـــزاها الروحـــي والمعنوي، مما يجعلنا نقول أنها وسيلة تربوية تعليمية تساعد على فهم وتقرير العلاقـــة التـــي تـــربط الإنســـان بالله تعالى، وكذا عل فهم حقيقة العلاقة التي تربطه بأخيه الإنسان وبالكون من حوله، وهو ما يوضح أهمية النموذج في استجلاء وبيان الحقائق، فقد اتضح من خلال عرض هذه النماذج -نموذج الإنسان أو الجماعة الملتزمة، ونموذج الإنسان أو الجماعة المنحرفة- المفهـــوم القرآنـــي لحقيقة مسؤولية المجتمع الإنساني عن مصيره ومستقبله، وهو ما تأكد من خلال مبحث الأنفس خاصة، ثم من خلال فصل تأثير التوحيد في الحياة.

-ومن هذه النتيجة تتضح لنا حقيقة أخرى وهو أن التوحيد هو القاعدة والأساس الذي يحتكم إلـــيه فعـــل الإنســـان وسلوكه من حيث مقدار القرب أو البعد من المطلوب -من حيث الالتزام أو عدمـــه- وأن التطبـــيق يساعد على فهم هذه القاعدة، أي أنه لا يصبح التاريخ الحاكم على التوحيد، فيترتب عليه القول بأن الإنسان خلال حركته انتهى إلى التوحيد، بل التوحيد هو الحاكم على التاريخ الإنساني -الفعل الإنساني- في تمييز الفترات المزدهرة عن غيرها، وفي التمحيص والبناء من أجل الاستمرارية، وتتأكد مسؤولية الإنسان عن ذلك، وتتضح آثار عدله تعالى ورحمته.

-من سمات المجتمع المتحضر غياب نزعة الاستكبار والتفاخر والإسراف والترف والتسلط والظلـــم واتـــباع الأهـــواء وحلول التكافل والعدل والقسط والإحسان والتوسط والاعتدال في الأمور كلها.

-تقـــوم الخلافة على العبادة وبقدر زيادة الصلة بالله تعالى وتحقيق أرقى مستويات العبودية تتحقق أرقى وأعلى المستويات الممكنة والمستطاعة من الاستخلاف.

-الخلافـــة التي هي الوظيفة الأساسية للإنسان في الأرض هي تشريف وتكريم للإنسان لأنه من خلالها يرتفع إلى أرقى الدرجات وبها تتحقق إنسانيته.

-الخلافة ليست مهمة جيل معين، والحضارة لا تبنى بجيل واحد وإنما هي استمرارية عبر الأجيال واستلام مهام من جيل إلى جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

-التوحيد منهج للحياة يستجيب لطموحات الإنسان وواجباته الاستخلافية.

-المحافظة على الإنجاز أهم المقاصد التي يوجه القرآن الكريم الإنسان إليها كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]، ونجاح العمل الحضاري منوط بمدى الالتزام بالمنهج من جهة، وبمدى تحقيق الأهداف والمقاصد من جهة أخرى.

-كل حضارة تحمل بذور فنائها في المنهج الذي أسست عليه، إلا أمة الإسلام فإنها تحمل عوامل استمراريتها في المنهج الذي يتأسس على التوحيد.

-مما تقدم فإن الإنسان يحتاج في فهمه للقرآن الكريم إلى علوم ومعارف ذات قواعد ومناهج سليمة، لأن العلوم التي تؤسس على غير المنهج السوي تنتهي بالإنسان إلى الانحراف عن فهم الحق، وكذا يحتاج الإنسان في فهمه للقرآن الكريم، بالإضافة إلى ذلك إلى التخلي عن كل ما من شأنه أن ينحرف به عن الحق من الثقافات والمفاهيم التي ساهمت في تشكيل أفكاره ومفاهيمه، وقد تبين لنا أن الراسخين في العلم ينتهون إلى معرفة الحق على عكس من انحرف بفطرته بانحراف أسس وقواعد الفهم.

-بما أن هذه المرتبة من العلم -الرسوخ في العلم- ليست ممتنعة، وإنما ينتهي إليها كل من سلمت مناهجه وأسسه وسلمت مسيرته، وقد حث عليها الوحي ورغب في بلوغها، وهو المنطلق الذي انتهى من خلاله العلماء في دراساتهم في علوم القرآن إلى أن آيات من القرآن الكريم لا يفهمها إلا الراسخون في العلم، فإنه تتأكد ضرورة اعتبار مثل هؤلاء العلماء المرجعية عند ما لا يؤتمن الانحراف عن الفهم الصحيح لنصوص الوحي، ومن ضرورة البناء على ما خلفه الآباء لا إلغاؤه، وينتفي بذلك القول بأن هذا يؤدي إلى أن يكون غير الراسخين في العلم عالة على هؤلاء العلماء وتبعا له مقلدون لهم، وأنه لا بد من إبطال القول بالمرجعية للعلماء، وإنما هو ضامن وضابط يمنع الانحراف والزيغ عن الحق، ويعين على العمل المنهجي السليم في النقد والتمحيص دون تحامل وإلغاء كل التراث الفكري الإسلامي، فقد كانت لأصول الفقه مثلا آلياته وطرقه للفهم حددها العلماء للتعامل مع نصوص الوحي تجنب الانحراف عن مقاصدها وغاياتها ودلالاتها الحقيقية وتضبط الواقع بما تقتضيه، كما كان لعلم المقاصد الدور الكبير في تحقيق ذلك.

-توسيع فهم الآيات والتعمق فيها ضروري في هذا العصر، وقد ثبت لنا في هذا البحث أن

---

[1]-سورة النحل، الآية92.

القديم كمفهوم "الرتق" و"الفتق" في الآية 30 من سورة الأنبياء، كما أكدت أهمية علم المقاصد وضرورته للإنسانية في هذا العصر، كما في قضية "الخمر" و"لحم الخنزير" و"الزنا"، ومنه تأكيد ما سبق ذكره عن الاستفادة من التراث.

-وكما تعمق العلوم الكونية مفهوم ومدلول بعض الآيات ويعضد ويوسع مفاهيم السلف، فإنها تصحح المعلومات التي اعتمدها بعض المفسرين القدامى، والتي أثبتوها كمعان لبعض الآيات القرآنية والتي تسببت في إخراج النصوص عن معانيها الحقيقية، مما سهل على المتحاملين على الدين الإسلامي التشكيك في الأصول وكذا في التراث الفكري للمسلمين.

-ومنه فإن تغير نتائج العلوم واختلاف التفسير وتعدد المفاهيم يؤكد ضرورة عدم اعتبار هذه النتائج هي المفهوم الذي لا يتغير لآية معينة حتى لا نعرض النصوص القرآنية للشبهات كلما بطلت تلك النتائج العلمية.

-تقوم الرؤيا الإسلامية إلى الخلق على صدوره عن الإرادة الإلهية مباشرة من العدم، ومن هذا المنطلق تختلف عن الرؤية التي يقدمها الفكر الوضعي الذي يتجاهل صدور الموجودات عن الإرادة الإلهية مباشرة، وهو ما يوضح اختلاف الأسس التي تقوم عليها الفلسفة والمعارف الإسلامية عن الأسس التي تقوم عليها الفلسفة والمعارف الوضعية ومنه اختلاف المناهج التي تبنى عليها.

-سورة الأنعام حافلة بالسنن الاجتماعية العامة مثالها زوال القوم بسبب أفعالهم.

-القرآن الكريم مصدر التوجيه والتربية ومصدر لعلاج الأزمات التي تقع فيها الإنسانية مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، صدق الخبر الإلهي، وعدل التشريع الإلهي في تحصيل المنفعة ودفع المضرة، وفي تحقيق الأمن والطمأنينة.

-يعمل التوحيد على وضع الأسس الفكرية المتينة لكل مجال من مجالات الحياة، ومن هذه الأسس تنبثق المبادئ والتوجيهات التي توجه كل مجال إلى ما يحقق الغاية منه.

-تعتبر تلك الأسس التي يقدمها التوحيد بمثابة الخيط الرابط الذي يجمع تلك المجالات لتصب في وجهة واحدة، وتحقق التكامل الذي ينتهي إلى المقاصد والغايات الشريفة، الخلافة في الأرض عبادة وعمارة ثم الفوز في الآخرة بوراثة الجنة.

---

[1]-سورة النحل، الآية115.

-ومنه فإن التوحيد يقضي على كل الاختلافات التي تؤدي إلى الانفصال والتناقض بين تلك المجالات والتي تسبب في حدوثها الفكر البشري بعيدا عن التوحيد ومقتضياته.

التوصيات

مـــن خـــلال دراســـة هذا الموضوع، ومن خلال نتائجه نجد أن هذه الدراسة قد فتحت آفاقا لدراســـات أخـــرى هامـــة لم نتمكن من تناولها، لذا فإن هذه الجوانب تطرح كموضوعات من أجل دراستها دراسة توضح حقيقتها وتثبت أهميتها، ومن هذه الموضوعات:

-دراسة الأبعاد الوظيفية -الواقعية- للتوحيد: الاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

-حقيقة النبوة والرسالة في القرآن الكريم وأهمية الوحي في تحقيق الحلول لمشاكل العصر.

-حقيقة الإنسان وماهيته ووظيفته في هذا الوجود من خلال القرآن الكريم.

-حقيقة المصير الإنساني وأثره في تحقيق الفعل الحضاري.

-توجـــيه الـــبحوث والدراسات العقدية إلى الدراسات الميدانية بتتبع حياة الناس وسلوكاتهم للكشـــف عن الهوة الحقيقية والثغرات التي منعت من صبغ حياتهم بما تقتضيه عقيدة التوحيد للتمكن من العلاج بما يتطلبه الوضع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــــارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
-البقرة-		
﴿ الم ﴾.	1	64، 228، 291
﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ... ﴾.	2	64، 65، 228، 291
﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ... ﴾.	3	64، 228
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ... ﴾.	4	64، 228
﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ... ﴾.	5	64، 228
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ... ﴾.	6	112
﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ... ﴾.	7	112
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ... ﴾.	8	194
﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا... ﴾.	9	194
﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ... ﴾.	10	194
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ... ﴾.	21	142
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا... ﴾.	22	142
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ... ﴾.	30	171، 172
﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... ﴾.	31	172-173
﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا... ﴾.	32	172
﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ... ﴾.	33	172
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... ﴾.	34	172
﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... ﴾.	35	142، 172
﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا... ﴾.	36	142، 172
﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ... ﴾.	37	172
﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا... ﴾.	38	91، 120
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا... ﴾.	39	91، 120

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا... ﴾.	45	222
﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ... ﴾.	46	222
﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ... ﴾.	130	88
﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ... ﴾.	131	88
﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ... ﴾.	132	88
﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ... ﴾.	133	88
﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴾.	134	88
﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى... ﴾.	135	88
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا... ﴾.	143	266، 326
﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ... ﴾.	153	222
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ... ﴾.	155	222
﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ... ﴾.	156	222
﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ... ﴾.	157	222
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا... ﴾.	170	102، 109
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾.	171	102، 109
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ... ﴾.	204	194
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ... ﴾.	219	226، 227
﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ... ﴾.	121	236
﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ... ﴾.	225	194، 198
﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ... ﴾.	226	238
﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ... ﴾.	233	182
﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ... ﴾.	248	126
﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ... ﴾.	252	125
﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴾.	256	58
﴿ ... وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ... ﴾.	259	125
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ... ﴾.	260	283
﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾.	282	197، 291

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ... ﴾.	283	194
﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ... ﴾.	285	54
﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... ﴾.	286	213، 218
-آل عمران-		
﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ... ﴾.	7	125
﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ... ﴾.	13	126
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ... ﴾.	14	242
﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ... ﴾.	27	145، 146
﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ... ﴾.	59	166، 171
﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا... ﴾.	103	321
﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ... ﴾.	137	319
﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى... ﴾.	138	319
﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا... ﴾.	139	319
﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ... ﴾.	140	319
﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾.	141	319
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾.	190	145
-النساء-		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ... ﴾.	1	173، 175، 235
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ... ﴾.	48	79
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ... ﴾.	116	118
﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ... ﴾.	116	79 ، 118
﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ... ﴾.	117	118
﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ... ﴾.	118	118
﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ... ﴾.	119	118، 161
﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ... ﴾.	120	117، 118
﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ... ﴾.	155	112

الدعوة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-المائدة-		
﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...﴾.	14	321
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ...﴾.	27	246
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي...﴾.	28	246
﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي...﴾.	29	246
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ...﴾.	30	246
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ...﴾.	31	246
﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾.	32	246
﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾.	90	226
﴿...أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ...﴾.	104	109
﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾.	120	18، 19
-الأنعام-		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾.	01	25، 29،58، 86، 125، 136، 137، 143، 147، 328.
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ...﴾.	02	25، 50، 86، 107، 125، 136، 137.
﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ...﴾.	03	25، 167،
﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ...﴾.	04	31، 95، 107
﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ...﴾.	05	85، 107
﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ...﴾.	06	48، 200، 201
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ...﴾.	07	95، 107
﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...﴾.	08	96
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا...﴾.	09	108، 137
﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾.	10	95، 100، 108، 137
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا...﴾.	11	55، 95، 100، 108، 137
﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾.	12	35، 39، 50، 55، 137

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... ﴾.	13	31، 35، 36
﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا... ﴾.	14	24، 30، 38، 45، 4، 73، 87
﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ... ﴾.	15	24، 40، 60، 61، 73
﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ... ﴾.	16	24، 40، 61، 73
﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... ﴾.	17	24، 33، 40، 60، 200
﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ... ﴾.	18	24، 34، 36، 60
﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً... ﴾.	19	24، 26، 38، 34، 49
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى... ﴾.	21	27، 63
﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا... ﴾.	22	37
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... ﴾.	25	97،96،95، 107، 112، 113، 120
﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ... ﴾.	26	97، 107
﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا... ﴾.	29	93
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ... ﴾.	30	137
﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ... ﴾.	33	73، 111، 112
﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ... ﴾.	34	73، 100، 122
﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ... ﴾.	35	73
﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ... ﴾.	36	37، 50، 111
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ... ﴾.	37	93، 96
﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ... ﴾.	38	37، 43، 139، 141، 287، 288
﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ... ﴾.	39	41، 120
﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ... ﴾.	40	40، 87
﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ... ﴾.	41	40، 87، 100
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ... ﴾.	42	100، 119، 200
﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا... ﴾.	43	60، 113، 119، 200
﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا... ﴾.	44	113، 200

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ﴾.	45	48، 49، 65ن 200
﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ... ﴾.	46	192، 195
﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ... ﴾.	47	192
﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ... ﴾.	48	68، 100
﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا... ﴾.	49	100
﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ... ﴾.	50	33، 74
﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا... ﴾.	51	37، 61، 74، 320
﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ... ﴾.	52	74، 114
﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ... ﴾.	54	39، 68، 75
﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ... ﴾.	56	52، 61، 74، 97
﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي... ﴾.	57	49، 52، 63، 74، 98
﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ... ﴾.	58	32، 74
﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا... ﴾.	59	32، 43، 137
﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ... ﴾.	60	32، 37، 41، 43، 50، 188
﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ... ﴾.	61	29، 34، 41، 42، 43، 201، 202
﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ... ﴾.	62	29، 43
﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ... ﴾.	63	33، 39، 45، 54، 60، 200
﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا... ﴾.	64	33، 45، 60، 200
﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ... ﴾.	65	33، 321
﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ... ﴾.	66	95
﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ... ﴾.	67	95
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ... ﴾.	68	96
﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ... ﴾.	70	27، 99
﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا... ﴾.	71	49، 61، 65
﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ... ﴾.	72	37، 65، 222

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾.	73	30، 32، 34، 35، 37، 83، 136، 137، 140، 141
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ...﴾.	74	71، 87، 166
﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾.	75	71
﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا...﴾.	76	71، 149
﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا...﴾.	77	71، 132
﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً...﴾.	78	132
﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ...﴾.	79	71، 88، 132
﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي...﴾.	80	32، 61، 71
﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ...﴾.	81	61، 71، 88
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ...﴾.	82	62، 71، 209، 216، 272
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ...﴾.	83	36، 47، 71، 72
﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾.	84	40، 41، 46، 71، 72، 216
﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى...﴾.	85	72
﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا...﴾.	86	47، 72
﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ...﴾.	87	41، 47، 72
﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ...﴾.	88	41، 72، 272، 319
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ...﴾.	89	72
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ...﴾.	90	41، 102
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾.	91	50، 93، 111
﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾.	92	50، 52، 66، 75
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾.	93	50، 97، 108
﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى...﴾.	94	136
﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى...﴾.	95	30، 42، 138
﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا...﴾.	96	30،32،34، 139، 141، 146، 148

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ... ﴾.	97	30، 41، 139، 141، 158
﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ... ﴾.	98	30، 149، 166، 167
﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... ﴾.	99	31، 139، 143، 151، 158، 173، 174، 284
﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ... ﴾.	100	24، 30، 53، 92، 136
﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾.	101	24، 26، 30، 32، 38، 92، 135، 136، 141
﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... ﴾.	102	24، 26، 30، 45، 52، 54، 55، 131، 141
﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ... ﴾.	103	25، 26، 27، 36، 46، 141، 155، 156
﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ... ﴾.	104	59
﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ... ﴾.	105	108
﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... ﴾.	106	59، 96، 258
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا... ﴾.	107	258
﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ... ﴾.	108	38، 100، 117، 258
﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ... ﴾.	109	97
﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ... ﴾.	110	195
﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ... ﴾.	111	115، 116
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا... ﴾.	112	108، 109، 115، 119، 197
﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾.	113	115، 195
﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا... ﴾.	114	49، 51، 63، 74، 98، 265
﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا... ﴾.	115	35، 63، 166، 265
﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ... ﴾.	116	59، 102، 110، 111
﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ... ﴾.	118	59

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا... ﴾.	119	59، 110
﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ... ﴾.	120	62
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ... ﴾.	121	98
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ... ﴾.	123	97، 113، 269
﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ... ﴾.	124	51، 113
﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ... ﴾.	125	96، 111، 195
﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا... ﴾.	126	45، 59، 63، 75
﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ﴾.	127	45، 75
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ... ﴾.	128	37
﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ... ﴾.	131	259
﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا... ﴾.	132	69، 259، 268
﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ... ﴾.	133	39، 327
﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ... ﴾.	135	68
﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ... ﴾.	136	98
﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ... ﴾.	138	99
﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ... ﴾.	139	37، 99، 239، 287، 290
﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا... ﴾.	140	110، 239
﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ... ﴾.	141	31، 66، 139، 158، 190، 289، 312
﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا... ﴾.	142	18، 31، 139، 141، 190، 287
﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ... ﴾.	143	110، 287
﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ... ﴾.	144	18، 110، 187
﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا... ﴾.	145	187
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا... ﴾.	146	48، 106
﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ... ﴾.	148	23، 27، 78، 106، 110
﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ... ﴾.	150	110

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ...﴾.	151	63، 104، 224، 238، 242
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ...﴾.	152	63، 218، 234، 235، 260، 262، 263، 309
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا...﴾.	153	63، 266
﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾.	155	222
﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ...﴾.	157	48
﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾.	158	108
﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ...﴾.	159	63، 321
﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ...﴾.	160	89، 213، 238
﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي...﴾.	161	63، 66، 70، 74، 89
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي...﴾.	162	66، 74، 89
﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ...﴾.	163	66، 74، 89
﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا...﴾.	164	74، 89
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾.	165	39، 43، 47، 89، 213، 267، 308، 325، 327، 328
-الأعراف-		
﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي...﴾.	16	117، 118
﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ...﴾.	17	117
﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ...﴾.	24	172
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ...﴾.	25	172
﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ...﴾	26	167
﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ...﴾	27	167
﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾	28	107
﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾	29	107
﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ...﴾	30	107،

﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ...﴾	31	191
﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ...﴾	35	91، 120
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾	36	91، 120
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾	54	145
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا...﴾	57	152
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ...﴾	74	265
﴿...أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا...﴾	80	265
﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً...﴾	81	265
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾	85	265
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...﴾	86	264، 265
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا...﴾	96	245
﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ...﴾	100	112
﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا...﴾	101	112
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾	172	92، 120
﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا...﴾	173	120
﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ...﴾	174	120
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾	175	103، 120
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا...﴾	176	103، 120
﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ...﴾	177	120
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي...﴾	178	120
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي...﴾	179	101، 102، 120، 195، 198
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ...﴾	180	28، 79، 80، 81
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾	189	135، 173، 175
-الأنفال-		
﴿...وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾	1	57
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ...﴾	2	58

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ...﴾	3	58
﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾	4	58
﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى...﴾	10	320
﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ...﴾	17	320
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	22	102، 103
﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ...﴾	29	291
﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾	65	223
-التوبة-		
﴿...فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ...﴾	13	57
﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا...﴾	31	94
﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾	32	94
﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ...﴾	62	57
﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ...﴾	86	112
﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ...﴾	87	112
-يونس-		
﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾	6	145
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾	7	102
﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ...﴾	8	102
﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	24	159
﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ...﴾	32	29
﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ...﴾	96	324
﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ...﴾	97	324
﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ...﴾	98	324
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾	99	58

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾	101	102
-هود-		
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾	7	95
-الرعد-		
﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ...﴾	3	145
﴿...إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...﴾	11	317
-إبراهيم-		
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ...﴾	7	322
-الحجر-		
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ...﴾	16	158
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ...﴾	26	169
﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ...﴾	27	169
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ...﴾	28	170
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ...﴾	29	170
-النحل-		
﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ...﴾	2	181
﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ...﴾	5	155، 161
﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ...﴾	6	161
﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ...﴾	7	161، 162
﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ...﴾	8	162
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾	12	103، 151
﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ...﴾	13	103
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ...﴾	36	55
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ...﴾	70	184
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا...﴾	97	238
﴿...لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ...﴾	103	79، 80

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ...﴾	106	57، 195، 196
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا...﴾	128	291
-الإسراء-		
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً...﴾	16	213
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾	36	101، 178، 194، 277
﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ...﴾	44	288
﴿...تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ...﴾	59	126
﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ...﴾	66	200
﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ...﴾	67	200
﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ...﴾	68	200
﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ...﴾	69	200
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾	85	180
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى...﴾	101	126
-الكهف-		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ...﴾	1	199
﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا...﴾	2	199
﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا...﴾	3	199
﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾	4	199
﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ...﴾	5	199
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ...﴾	7	285
﴿...مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾	27	79، 80
﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	45	159
﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ...﴾	51	128، 133، 166
-مريم-		
﴿...وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ...﴾	9	167
﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ...﴾	67	161، 167

-طه-		
﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ...﴾	55	202
﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ...﴾	69	269
﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا...﴾	70	269
﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾	71	269
﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا...﴾	72	269
﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا...﴾	73	269
﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا...﴾	74	269
﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ...﴾	75	269
﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي...﴾	76	269
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾	110	27
-الأنبياء-		
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ...﴾	22	141، 150، 153
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً...﴾	24	26، 116
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾	25	26، 116
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا...﴾	26	26
﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ...﴾	27	26
﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	30	133، 134
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾	33	146
﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ...﴾	104	134
-الحج-		
﴿...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً...﴾	5	160، 169، 177، 182
﴿...وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ...﴾	25	79، 80
﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾	41	312
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾	46	102، 193
﴿...وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ...﴾	47	138

﴿ألم ترى أنّ الله أنزل من السّماء...﴾	63	159
﴿ألم ترى أنّ الله سخّر لكم...﴾	65	142
-المؤمنون-		
﴿قد أفلح المؤمنون﴾	1	69، 261
﴿الّذين هم في صلاتهم خاشعون﴾	2	69، 261
﴿والّذين هم عن اللّغو معرضون﴾	3	69، 261
﴿والّذين هم للزّكاة فاعلون﴾	4	69، 261
﴿والّذين هم لفروجهم حافظون﴾	5	69، 261
﴿إلّا على أزواجهم...﴾	6	69، 261
﴿فمن ابتغى وراء ذلك...﴾	7	69، 261
﴿والّذين هم لأماناتهم...﴾	8	69، 261
﴿والّذين هم على صلواتهم...﴾	9	69، 261
﴿أولئك هم الوارثون﴾	10	69، 261
﴿الّذين يرثون الفردوس...﴾	11	69، 261
﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة...﴾	12	178
﴿ثمّ جعلناه نطفة...﴾	13	178
﴿ثمّ خلقنا النّطفة علقة...﴾	14	155، 178
﴿ولو اتّبع الحقّ أهواءهم...﴾	71	109
﴿وهو الّذي أنشأ لكم السّمع...﴾	78	102
﴿وهو الّذي ذرأكم في الأرض...﴾	79	102
﴿وهو الّذي يحيي ويميت...﴾	80	102، 104، 145
﴿قل لمن الأرض ومن فيها...﴾	84	22
﴿سيقولون لله...﴾	85	22
﴿قل من ربّ السّماوات السّبع...﴾	86	22
﴿سيقولون لله...﴾	87	22

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾	88	22
﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ...﴾	89	22
﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ...﴾	91	26، 141
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ...﴾	115	83، 93
﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...﴾	116	83، 93
-النور-		
﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً...﴾	3	236
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ...﴾	40	148
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا...﴾	43	151
﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾	44	145، 151، 152
﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ...﴾	47	57
-الفرقان-		
﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾	2	144، 199
﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ...﴾	5	96
﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ...﴾	8	95
﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ...﴾	44	102، 103
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا...﴾	47	189
﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا...﴾	61	150، 158
-الشعراء-		
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾	69	71، 92
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ...﴾	70	71، 72، 92
﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا...﴾	71	72، 92
﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ...﴾	72	72
﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾	73	72
﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا...﴾	74	72
﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾	75	72

﴿أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾	76	72
﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾	77	72
﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾	78	72
﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾	79	72
﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾	80	72
﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾	81	72
﴿والذي أطمع أن يغفر لي...﴾	82	72
﴿رب هب لي حكما...﴾	83	72
﴿واجعل لي لسان صدق...﴾	84	72
﴿واجعلني من ورثة جنة...﴾	85	72
﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾	86	72
﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾	87	72
﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾	88	72
﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾	89	72
﴿كذبت عاد المرسلين﴾	123	291
﴿إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾	124	291
﴿إني لكم رسول أمين﴾	125	291
﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾	126	291
﴿وما أسألكم عليه من أجر...﴾	127	291
﴿أتبنون بكل ريع....﴾	128	291
﴿وتتخذون مصانع لعلكم...﴾	129	291
﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾	130	291
﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾	131	291
﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾	132	291 ،192
﴿أمدكم بأنعام وبنين﴾	133	291 ،162
﴿وجنات وعيون﴾	134	291 ،162

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ...﴾	135	291
﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾	151	265
﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي...﴾	152	265
﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	192	180
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾	193	180
﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾	194	180، 181
﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾	195	181
-النمل-		
﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ...﴾	17	289
﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ...﴾	18	289
﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا...﴾	19	289
﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ...﴾	20	289
﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا...﴾	21	289
﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ...﴾	22	289
﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ...﴾	23	289
﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ...﴾	24	289
﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ...﴾	25	289
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ...﴾	26	289
﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ...﴾	40	221، 222
﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾	60	160
﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾	61	143
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾	69	102
-القصص-		
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾	4	186، 187، 269
﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ...﴾	5	269
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ...﴾	71	146، 189

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...﴾	72	146، 189
﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ...﴾	73	146
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ...﴾	77	214، 218
-العنكبوت-		
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾	20	133، 135، 136
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ...﴾	63	22
-الروم-		
﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ...﴾	6	89
﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	7	89
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ...﴾	8	89
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ...﴾	20	170
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ...﴾	21	235، 241
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ...﴾	22	235
﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾	29	89
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾	30	88، 89، 115، 199
﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾	31	89
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾	41	110، 247
﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ...﴾	48	151
﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ...﴾	49	151
﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾	50	151
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ...﴾	54	183، 184
-لقمان-		
﴿...يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ...﴾	13	77
﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ...﴾	19	297
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾	34	152

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-السجدة-		
﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ...﴾	5	138
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾	7	165، 166، 169، 176، 178
﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ...﴾	8	165، 166، 176، 178، 179
﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ...﴾	9	165، 166، 178، 179
-الأحزاب-		
﴿...وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ...﴾	5	194
﴿...وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾	52	44
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ...﴾	72	261
-سبأ-		
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى...﴾	18	323
-فاطر-		
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾	11	175
﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...﴾	27	160
﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ...﴾	28	106، 192
-يس-		
﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ...﴾	37	144، 146
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ...﴾	38	144
﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ...﴾	39	144، 158
﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ...﴾	40	144، 148
﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ...﴾	60	167
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ...﴾	71	160
﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ...﴾	72	160
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا...﴾	82	182
-الصافات-		
﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ...﴾	6	156

﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾	7	156
﴿...إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾	11	69
-ص-		
﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...﴾	4	22
﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا...﴾	5	22
﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا...﴾	6	22
﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ...﴾	7	22
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾	71	170، 179
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ...﴾	72	170
﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ...﴾	76	118
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	82	119
﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾	83	119
﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ...﴾	84	119
﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ...﴾	85	119
-الزمر-		
﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾	3	22
﴿...يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ...﴾	5	146
﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾	6	179
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ...﴾	9	292
﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ...﴾	21	159
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ...﴾	38	22
-غافر-		
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾	67	177، 182، 183، 184
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ...﴾	79	160
﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ...﴾	80	160

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-فصلت-		
﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ...﴾	9	60، 143
﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ...﴾	10	143
﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ...﴾	11	134، 143، 277، 278
﴿...فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...﴾	12	143، 144
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	26	81، 107
﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ...﴾	34	222
﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا...﴾	35	222
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ...﴾	37	81
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا...﴾	40	79، 80
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ...﴾	53	125، 127، 163
-الشورى-		
﴿...أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾	13	253
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾	52	181
-الزخرف-		
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...﴾	12	182
﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ...﴾	13	182
﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾	14	182
﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ...﴾	20	116
﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا...﴾	21	116
﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا...﴾	22	116
﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ...﴾	23	116
﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى...﴾	24	116
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ...﴾	30	95
-الدخان-		
﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي...﴾	10	164

-الجاثية-		
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾	13	142
﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾	24	81، 82، 83
-الحجرات-		
﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾	3	83
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا...﴾	7	95
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا...﴾	15	182، 183
﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ...﴾	26	278، 279
-محمد-		
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾	16	112
-الفتح-		
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾	29	159
-الحجرات-		
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا...﴾	14	194
-ق-		
﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا...﴾	7	142
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى...﴾	37	194
-الذاريات-		
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾	20	125، 143
﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	21	125، 163، 165
﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا...﴾	48	142
﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ...﴾	49	273
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ...﴾	56	128
-النجم-		
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾	31	64
﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ...﴾	32	64

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-القمر-		
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾	49	144
-الرحمن-		
﴿الرَّحْمَانُ﴾	1	273
﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾	2	273
﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾	3	273
﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾	4	273
﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ...﴾	14	169
﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ...﴾	15	169
-الواقعة-		
﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾	63	192
﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ...﴾	64	192
﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا...﴾	65	192
﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾	66	192
﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾	67	192
﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾	68	192
﴿أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ...﴾	69	192
﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا...﴾	70	192
﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾	71	192
﴿أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا...﴾	72	192
﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً...﴾	73	192
﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾	74	192
﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ...﴾	75	151
﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾	76	151
-الحديد-		
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾	25	263

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-المجادلة-		
﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾	22	254
-الممتحنة-		
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾	4	73
﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	5	73
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾	6	73
-المنافقون-		
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا...﴾	3	112
-الملك-		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...﴾	1	93، 102، 182
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ...﴾	2	93، 102، 182، 254
﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...﴾	3	140
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا...﴾	5	156
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا...﴾	15	142
-المعارج-		
﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾	4	138
-نوح-		
﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ...﴾	9	152
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...﴾	10	152، 278
﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾	11	152، 278
﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ...﴾	12	152، 278
﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا...﴾	13	278
﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾	14	278
﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ...﴾	15	278
﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا...﴾	17	278
﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾	17	278

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا...﴾	18	278
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ...﴾	19	278
﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾	20	178
﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا...﴾	21	91
﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾	22	91
﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ...﴾	23	91
﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا...﴾	24	91
-الجن-		
﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ...﴾	8	157
﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا...﴾	9	157
﴿...وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾	22	79
-الإنسان-		
﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ...﴾	1	167، 176
-المرسلات-		
﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾	20	176، 177
﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾	21	177
﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾	22	177
-النازعات-		
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾	15	186
﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ...﴾	16	186
﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ...﴾	17	186
﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾	18	186
﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾	19	186
﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾	20	186
﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾	21	186
﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾	22	186

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾	23	186
﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾	24	186
-عبس-		
﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾	24	160، 192
﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾	25	160، 192
﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾	26	160، 161، 192
﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾	27	161، 192
﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾	28	161، 192
﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾	29	161، 192
﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾	30	161، 192
﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾	31	161، 192
﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾	32	161، 162
-الإنفطار-		
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ...﴾	6	165، 180، 186
﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ...﴾	7	165، 178، 180، 186
﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾	8	165، 178، 180، 186
-المطففين-		
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم...﴾	14	112، 198
- الطارق-		
﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾	5	176
﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾	6	176
﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾	7	176
-الشمس-		
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾	1	146
﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾	2	146

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾	3	146
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾	4	146
-الليل-		
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾	1	146
﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾	2	146
-التين-		
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ...﴾	4	69، 165، 178، 180، 185، 186
﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾	5	69
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	6	69
-العلق-		
﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾	5	273
﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ...﴾	15	197
﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾	16	197
-البينة-		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ...﴾	5	67
-العصر-		
﴿وَالْعَصْرِ﴾	1	69
﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾	2	69
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾	3	69

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة
«ما من مولود إلا يولد على الفطرة...»	90، 114
«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم...»	89، 90، 119
«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه...»	179
«إذا مر بالنطفة ثنتان...»	181
«النساء ناقصات عقل...»	181
«ألا وإن في الجسد مضغة...»	197، 198
«أنا أعلمكم بالله...»	198
«اللهم اجعل في قلبي نورا...»	198
«وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله...»	198
«اللهم لا مانع لما أعطيت...»	48
«أن تؤمن بالله وملائكته...»	54
«لا أحصي ثناء عليك...»	59
«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله...»	64
«بني الإسلام على خمس...»	64
«إنما الأعمال بالنيات...»	66، 67، 219
«...أن تعبد الله كأنك تراه...»	67
«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا...»	223
«لا يزني الزاني حين يزني...»	223، 234
«لم تظهر الفاحشة في قوم قط...»	225
«تنكح المرأة لأربع...»	236
«إذا جاءكم من ترضون دينه...»	236
«لعن المتشبهات من النساء ...»	238
«لعن الرجل يلبس لبسة المرأة...»	238
«إذا مات الإنسان انقطع عمله...»	244
«كلكم راع وكلكم مسؤول...»	250، 261

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

«...والناس بنو آدم...»	251
«ألا لا فضل لعربي على أعجمي...»	255
«المسلم أخو المسلم...»	255
«سبعة يظلهم الله...»	255، 256
«إن المقسطين عند الله...»	256
«لا إيمان لمن لا أمانة له...»	256
«والله لا يؤمن...»	256
«آية المنافق ثلاث...»	256
«ما من عبد يسترعيه الله...»	256، 257
«الإيمان معرفة بالقلب...»	257
«أكمل المؤمنين...»	257
« مثل المؤمنين في توادهم...»	262
«ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان...»	262
«ما من أمير يلي أمور...»	265
«على المرء المسلم السمع والطاعة...»	265، 266
«أنا وكافل اليتيم...»	268
«التاجر الأمين...»	268
«قرصت نملة نبيا...»	288
«اعملوا فكل ميسر...»	293
«ترى المؤمنين في تراحمهم...»	327

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص

1-الكتب:

1. الأشقر عمر سليمان: العقيدة في الله، دار النفائس، الأردن، ط15، 1423هـ-2004م.
2. الأصفهاني أبو القاسم بن محمد بن المفضل الراغب: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ-1998م.
3. الأصفهاني أبو القاسم بن محمد بن المفضل الراغب: المفردات في غريب القرآن، ضبط ومراجعة: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1998م.
4. أغروس روبرت م، وستانسيو جورج. ن: العلم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلايلي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، جمادى الآخرة، 1409هـ، فبراير، شباط، 1998.
5. الألباني محمد ناصر الدين: صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، المملكة العربية السعودية، ط3، 1408هـ-1988م.
6. الألوسي أبو الفضل شهاب الدين سيد محمود: روح المعاني، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
7. الألوسي أبو الفضل شهاب الدين سيد محمود: روح المعاني، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطية، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1414هـ-1993م.
8. بن أنس مالك: الموطأ، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م.
9. أنيس إبراهيم، عبد الحليم منصور وآخرون: المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف، مصر، ط2، 1393هـ-1973م.
10. إبراهيم صلاح عبد العليم: الإنسان في القرآن الكريم، المبدأ والمصير، مطبعة الفجر الجديد، دم، ط1، 1403هـ-1982م.
11. إدريس جعفر شيخ: الفيزياء ووجود الخالق، كتاب المنتدى، ط1، 1422هـ-2001م.

12. آملـــي آيـــة الله جوادي: التوحيد في القرآن، ترجمة: دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط1، 1415 هـــ-1994م.

13. بـــن بـــاديس عـــبد الحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1402هـــ-1982م.

14. الـــبخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار الفكر، دم، دط، 1401هـــ-1981م.

-المكتـــبة العصـــرية، صـــيدا، بيروت، دط، 1424هـــ-2003م.

-مكتبة زهران، مصر، دط، دت.

15. بـــدوي أحمد زكي: معجم المصطلحات الاقتصادية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، دت.

16. بـــرغوت الطيـــب: مـــنهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكـــية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1416هـــ-1996م.

17. الـــبرهان فـــوري علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1413هـــ-1993م.

18. البقاعي برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

19. البهي محمد: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، مكتبة وهبة، دط، دت.

20. بيصـــار محمـــد عـــبد الرحمـــن: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 1980.

21. البيهقـــي أبـــو بكـــر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـــ-1990م.

22. الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: السنن، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط2، 1403هـــ-1983م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

23. التفتازاني أبو الوفا الغنيمي: الإنسان والكون في القرآن، دار الثقافة، دط، 1995م.

24. الثلـيدي عـبد الله بـن عـبد القادر: دلائل التوحيد إنطلاقا من القرآن والكون، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.

25. الـتهانوي محمـد علـي: موسوعة كشاف إصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، ترجمة: عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996.

26. توفـيق محمد عز الدين: دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1418هـ-1998م.

27. التومـي محمـد: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986م.

28. ابن تيمية تقي الدين عبد الحليم: الإيمان الأوسط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان،ط1، 1425هـ-2004م.

29. ابـن تيمـية تقي الدين عبد الحليم: العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار المغني، ط4، 1425هـ-2004م.

30. ابـن تيمـية تقي الدين عبد الحليم: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، دط، دت.

31. ابـن تيمية تقي الدين عبد الحليم: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م.

32. الجرجانـي علي بن محمد السيد الشريف: التعريفات، ترجمة: عبد المنعم الحنفي، دار الرشد، القاهرة، دط، دت.

33. الجزائـري أبـو بكـر جابر: منهاج المسلم، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت.

34. الجزيري عبد الرحمن: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، دد، دم، دط، دت.

35. الجسـماني عـبد العلي: القرآن وعلم النفس، الدار العربي للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1417 هـ-1997م.

36. جلبي خالص: الطب محراب الإيمان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دت.

37. الجلنيد محمد السيد: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، مكتبة الزهراء، القاهرة، دط، 1410هـ-1990م.

38. الجوزو محمد علي: مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـ-1981م.

39. الجوزي أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ-1989م.

40. جيدل عمار: ماهية الإنسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية من خلال رسائل النور - دراسة تحليلية نقدية-، شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، اسطنبول، ط1، 1422هـ-2001م

41. حاج حمد أبو القاسم: منهجية القرآن المعرفية، دار الهادي، بيروت، ط1، 1424هـ-2003م.

42. حجازي محمد عبد الواحد: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1971م.

43. حجازي محمد عبد الواحد: القرآن ومنهج التفكير، الزهراء للإعلام العربي، دم، ط1، 1413 هـ-1993م.

44. حسنة عمر عبيد: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دت.

45. حسنة عمر عبيد: مقالات في التفكير المقصدي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ-1999م.

46. حسنين عبد النعيم:الإنسان والمال في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1407هـ-1986م

47. حسنين كريم: الخلق بين العنكبوتية الدروانية والحقيقة القرآنية، نهضة مصر، القاهرة، مصر، ط2، 2002.

48. الحسيني أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م.

49. الحليبي أحمد بن عبد العزيز بن محمد: المسؤولية الخلقية والجزاء عليها -دراسة مقارنة- مكتبة الرشد، شركة الرياض، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1996م.

50. بن حنبل أحمد: المسند، دار الفكر، دم، دط، دت.

51. أبو حيان الأندلسي محمد يوسف: البحر المحيط، دار الفكر، دم، ط2، 1403هـ-1993م.

52. خضر عبد العليم عبد الرحمن: الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، عالم المعرفة، دم، دط، دت.

53. خضر عبد العليم عبد الرحمن: الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، الدار السعودية، الرياض، ط2، 1405هـ-1985م.

54. خضر عبد العليم عبد الرحمن: المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية، الرياض، ط1، 1404هـ-1984م.

55. الخطيب عبد الكريم: التفسير القرآن للقرآن، دار الفكر العربي، دم، دط، دت.

56. خليفة محمد محمد: مع آيات الله في كتاب الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1403 هـ-1983م.

57. الدارمي أبو محمد عبد الله: السنن، تحقيق: سيد إبراهيم، علي محمد علي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1420هـ-2000م.

58. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: السنن، مراجعة وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، مكتبة الرياض الحديثة، دط، دت.

59. داود عبد الرحمن محمد: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1419هـ-1999م.

60. دروزة محمد عزة: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، دت.

61. دروزة محمد عزة: عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة، دار اليقضة العربية، بيروت، دط، 1484هـ-1964م.

62. دغيم سميح: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

63. دوبو رينيه: إنسانية الإنسان -نقد علمي للحضارة الغربية، تعريب: نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، سورية، ط2، 1404هـ-1984م.

64. الرازي فخر الدين: التفسير الكبير، دار الفكر، دم، ط1، 1401هـ-1981م.

65. رضـــا محمـــد رشيد: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت.

66. الزحيلـــي وهـــبة: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دط، دت.

67. زرزور عدنـــان محمـــد: فـــي الفكـــر والـــثقافة الإسلامية المدخل والأساس العقدي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1411هـــ-1991م.

68. الزنداني عبد المجيد: إنه الحق، دار وحي القلم، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

69. الزنـــيدي عـــبد الرحمن بن زيد: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، دراسة نقدية في ضـــوء الإســـلام، مكتـــبة المؤيد، المملكة العربية السعودية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1412هـــ-1992م.

70. سابق السيد: فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1403هـــ-1983م.

71. الســـبهاني عـــبد الجبار حميد عبيد: الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلام، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 1424هـــ، 2003م.

72. الســـعد نورة خالد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، الدار السعودية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـــ-1997م.

73. السعيد مصطفى كامل: مبادئ علم الاقتصاد، دار النهضة العربية، دم، دط، 1970.

74. ســـلمان نصر، سعاد سطحي: أحكام الخطبة والزواج -دراسة مقارنة مع قانون الأسرة-، دار السلام، دم، دط، دت.

75. السيوطي جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، عالم المعرفة، بيروت، لبنان، دط، 1973م.

76. الصابوني محمد علي: مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـــ-1981م.

77. صافي لؤي: إعمال العقل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـــ-1998م.

78. الصدر محمد باقر: اقتصادنا، دار التعارف، بيروت، دط، 1411هـــ-1991م.

79. الصدر محمد باقر: الإسلام يقود الحياة، دار التعارف، بيروت، لبنان، دط، 1410هـــ-1990م

80. الصدر محمد باقر: فلسفتنا، دار التعارف، بيروت، لبنان، ط15، 1410هـــ-1989م.

81. الطباطبائـــي محمـــد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـــ-1991م.

82. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، دم، دت.

83. الطـــبري أبـــو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن وبهامشه: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الفكر، بيروت، دط، 1398هـــ-1978م.

84. ابـــن عاشور محمد الطاهر: أصول النظام الاجتماعي، الشركة التونسية للتوزيع، الدار العربية للكتاب، تونس، دط، 1979م.

85. ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

86. ابن عاشور محمد الطاهر: مقاصد الشريعة، الشركة التونسية للتوزيع، دط، 1985م.

87. العاملـــي السيد الموسوي: نظرية القرآن حول معالم الحيوان، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـــ-2003م.

88. ابن عباس: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

89. عـــبد الباقـــي فـــؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المؤيد، بيروت، لبنان، ط4، 1418هـــ-1997م.

90. عبد الحميد علي عبد المنعم: العقيدة الإسلامية، دار القلم، الكويت، ط2، 1403هـــ-1983م.

91. العجمي أبو اليزيد: حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم، دد، دم، دط، دت.

92. العســـال أحمد محمد، فتحي أحمد عبد الكريم: النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه، مكتبة وهبة، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، ط3، ربيع الثاني 1400هـــ-مارس 1980م

93. ابـــن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقـــيق: عـــبد الســـلام عبد الحق محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـــ-1993م.

94. عطـــية جمـــال الديـــن: نحو تفعيل مقاصد الشريعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، رجب 1422هـــ-أيلول (سبتمبر) 2001م.

95. عفر محمد عبد المنعم: النظرية الاقتصادية بين الإسلام والفكر الاقتصادي المعاصر، قبرص، ط1، 1408هـــ-1988م.

96. عقلة محمد: نظام الإسلام العبادة والعقوبة، دم، ط1، 1406هـ-1986م.

97. العلوانـــي طه جابر: التوحيد والتزكية والعمران، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.

98. العلواني طه جابر: مقاصد الشريعة، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2001م.

99. عمارة محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1413هـ-1993م.

100. عمـــر إبراهيم أحمد: فلسفة التنمية رؤية إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1413هـ-1992م.

101. الغزالـــي محمـــد: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار الصحوة، دار القاهرة، ط7، 1407 هـ-1987م.

102. الغزالـــي محمـــد: نحو تفسر موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1416هـ-1995م.

103. الفنجري محمد شوقي: الوجيز في الاقتصاد الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1414 هـ-1994م.

104. الفـــنجري محمد شوقي: المذهب الاقتصادي في الإسلامي، شركة مكتبات عكاظ، الرياض، ط1، 1401هـ-1981م.

105. الفيومـــي أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير، المكتب العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1417هـ-1996م.

106. القرطبـــي أبـــو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، ضبط وتعليق: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، دط، 1416هـ-1996م.

107. قطب سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط26، 1418هـ-1997م.

108. كـــاريل ألكســـيس: الإنســـان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت، لبنان، ط1 مجددة، 1423هـ-2003م.

109. ابـــن كثـــير الدمشـــقي أبـــو الفداء إسماعيل: مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1402هـ-1981م.

110. ابن ماجه أبو عبد الله بن يزيد القزويني: السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، دم، دط، دت.

111. المبارك محمد: نظام الإسلام الاقتصاد مبادئ وقواعد، دار الفكر، دم، ط3، دت.

112. المبارك محمد: نظام الإسلام العقيدة والعبادة، دار الفكر، دط، 1401هـ-1981م.

113. محمد يسري السيد: بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ-1993م.

114. مسلم أبو الحسين بن الحجاز بن مسلم القشيري النيسبوري: صحيح مسلم، دار الفكر، دم، دط، 1403هـ-1983م.

- دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415هـ-1994م.

- تحقيق: عصام الصبابطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1415هـ-1994م.

- دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م.

115. المطرودي عبد الرحمن إبراهيم: الإنسان وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط1، 1410هـ-1990م.

116. مكرم عبد العال سالم: الفكر الإسلامي بين العقل والوحي، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1، 1402هـ-1982م.

117. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، دط، 1119هـ.

118. المودودي أبو الأعلى: المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب: كاظم سباق، دار القلم، الكويت، ط9، 1405هـ-1984م.

119. موسى رشاد عبد العزيز: إحسان خليل الآغا وآخرون: علم النفس الديني، دار عالم المعرفة، القاهرة، مصر، دط، 1413هـ-1993م.

120. مونسماجون كلوفر: الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط4، 1486م.

121. الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة: براهين وأدلة إيمانية، دار القلم، دمشق، بيروت، ط1، 1408هـ-1987م.

122. الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة: العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط8، 1418هـ-1997م.

123. النابلسي محمد راتب: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -آيات الله في الإنسان-، دار المكتبي، سوريا، دمشق، ط1، 1425هـ-2004م.

124. بن نبي مالك: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، دت.

125. النجار عبد المجيد: الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م.

126. النجار عبد المجيد: العقل والسلوك في البنية الإسلامية، مطبعة الجنوب، مدنين، تونس، دط، 1400هـ-1980م.

127. النجار عبد المجيد: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1413هـ-1992م.

128. النجار عبد المجيد: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

129. النجار عبد المجيد: قضايا البيئة من منظور إسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1420هـ-1999م.

130. النجار عبد المجيد: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

131. النجار عبد المجيد: قيمة الإنسان، دار الزيتونة، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 1417هـ-1996م.

132. النجار عبد المجيد: مبدأ الإنسان، دار الزيتونة، الرباط، المملكة المغربية، ط1، 1417هـ-1996م.

133. نجاتي محمد عثمان: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ط5، 1414هـ-1993م.

134. النجار زغلول راغب محمد: السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ-2004م.

135. الندوي أبو الحسن علي الحسني: العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، دار القلم، الكويت، ط3، 1406هـ-1986م.

136. النسائي عبد الرحمن: سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.

137. النعيمي حميد مجول: الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم، الدار العربية للعلوم، مكتبة الرائد، بيروت، الأردن، ط1، 1421هـ-2000م.

138. النورسي بديع الزمان سعيد: كليات رسائل النور -الكلمات-، دار سوزلر للنشر، فرع القاهرة، مصر، ط2، 1992م.

139. الهاشمي عبد الحميد محمد: لمحات نفسية في القرآن الكريم، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، دت.

140. ابن هشام أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دط، دت.

141. هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، المجلس الأعلى العالمي للمساجد، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، دط، دت.

142. الواحدي أبو الحسين علي بن أحمد النيسابوري: أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1411هـ-1991م.

143. ياسين محمد نعيم: الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـ-1993م.

144. يالجن مقداد: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام -دراسة مقارنة-، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1392هـ-1973م.

145. أبو يحيى محمد حسن: اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة، دار عمار، عمان، دط، دت.

146. يوسف أحمد: أحكام الزكاة وأثرها المالي والاقتصادي، دار العلوم، جامعة القاهرة، دار الثقافة، دط، 1990.

147. يونس عبد الله مختار: دور الملكية الإسلامية في الاقتصاد الإسلامي، دد، دم، دط، دت.

2-الدوريات

-الرسائل الجامعية

148. جحيش كمال: معرفة الآفاق وأثرها في تحقيق الاستخلاف، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم: العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1426-1427هـ/2005-2006م.

149. المطرودي عبد الرحمن بن إبراهيم: الإنسان وجوده وخلافاته في ضوء القرآن الكريم، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط1، 1410هـ-1990م.

150. نعمان صالح: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1424-1425هـ/2003-2004م.

-المجلات

151. خليل عماد الدين: "حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية"، مجلة التجديد، س4، ع8، جمادى الأولى 1421هـ أغسطس 2000م.

152. الرشدان محمد عادل: "حول النظام المعرفي في القرآن الكريم"، مجلة إسلامية المعرفة، تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س3، ع10، خريف 1418هـ-1997م.

153. العمري أكرم ضياء: "قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي"، كتاب الأمة، سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ع39، ط1، رمضان 1414هـ.

154. الفاروقي إسماعيل: "جوهر الحضارة الإسلامية"، مجلة المسلم المعاصر، تصدرها مؤسسة المسلم المعاصر، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع27، شعبان-رمضان-شوال1401هـ- يوليو - أغسطس- سبتمبر 1981.

155. الفاروق إسماعيل: "نظرية الفن الإسلامي"، مجلة المسلم المعاصر، ع25، ربيع الأول - ربيع الثاني 1401هـ/ يناير -فبراير -مارس 1981م.

156. المرزوقي أبو يعرب: "العولمة الكونية"، مجلة التجديد، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، س2، ع4، ربيع الثاني 1419هـ-أغسطس 1989.

157. نعمـــان صـــالح: "أبعاد التوحيد وفاعليته عند محمد عبده"، مجلة المعيار، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع2، ربيع الأول 1423هـ- جوان 2005.

158. نعمـــان صـــالح: "الاستنســـاخ البشري وأثاره على الأسرة"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلـــوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ع4، ربيع الثاني 1422 هـــ، جويلية 2001م.

159. نعمـــان صـــالح: دور العلوم الكونية في تجسيد المقاصد الشرعية والمحافظة عليها -الطب الوقائي نموذجا-"، مجلة مخبر الدراسات الشرعية، يصدرها مخبر الدراسات الشرعية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ع4، صفر 1426هـــ-مارس 2005م.

160. نعمـــان صـــالح: "تحديات المرأة المسلمة -مؤتمرات وملتقيات-"، محاضرة ألقيت في ندوة بعنوان "المرأة المسلمة وتحديات العصر"، يوم 22 مارس 2004، قاعدة المحاضرات الكبرى: عـــبد الحمـــيد بـــن باديس، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، نظمتها الهيئة الطلابية "الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين"، فرع جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المكتب الولائي بقسنطينة، الجزائر.

161. نفـــس ماجد عبد السلام إبراهيم: "ظاهرة الإلحاد الخلفية التاريخية والرؤية الإسلامية"، مجلة حولـــية كلية الدعوة الإسلامية، قسم مقارنة الأديان والمذاهب، جامعة الأزهر، القاهرة، ع16، 1422هـــ-2001-2002م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقدمة..... أ
مدخل..... 14
أولا: القرآن المكي..... 15
ثانيا: سورة الأنعام..... 17

الفصل الأول: حقيقة التوحيد وحمل الإنسان لها من خلال سورة الأنعام

التمهيد..... 21
المبحث الأول: حقيقة التوحيد ومقتضياته من خلال سورة الأنعام..... 22
المطلب الأول: مقتضيات التوحيد المتعلقة بالتصور..... 24
أولا: توحيد الله في ذاته..... 25
ثانيا: توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته..... 27
ثالثا: توحيد الله تعالى في العبادة..... 51
المطلب الثاني: مقتضيات التوحيد المتعلقة بالسلوك..... 54
المبحث الثاني: حمل الإنسان لأمانة التوحيد..... 70
المطلب الأول: نماذج الالتزام بالتوحيد كما تبينها سورة الأنعام..... 70
المطلب الثاني: حقيقة الانحراف عن التوحيد..... 75
أولا: انحرافات الإنسان التصورية..... 76
1-أهم مصطلحات الانحراف في القرآن الكريم..... 76
-الكفر..... 76
المعنى اللغوي للكفر..... 76
المعنى الاصطلاحي للكفر..... 76
-الشرك..... 77
المعنى اللغوي للشرك..... 77
المعنى الاصطلاحي للشرك..... 77
-الإلحاد..... 79
المعنى اللغوي للإلحاد..... 79
المعنى الاصطلاحي للإلحاد..... 80
2-صور من الانحرافات التصورية كما وردت في سورة الأنعام..... 86
ثانيا: انحرافات الإنسان السلوكية..... 93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-حقيقة انحرافات الإنسان الاعتقادية في القرآن الكريم..... 93
2-صور من انحرافات الإنسان السلوكية كما بينتها سورة الأنعام..... 94
المطلب الثالث: أسباب الانحراف عن التوحيد..... 101
أولا: الإعمال السلبي أو السيء لوسائل المعرفة..... 101
ثانيا: اتباع الهوى..... 109
ثالثا: الاستكبار والحسد..... 113
رابعا: التنشئة الاجتماعية..... 114
خامسا: الشيطان..... 117

الفصل الثاني: دلائل وحدانية الله تعالى من خلال سورة الأنعام

التمهيد..... 123
المبحث الأول: دلائل الآفاق على وحدانية الله تعالى..... 127
المطلب الأول: مفهوم الآفاق..... 127
المطلب الثاني: دلائل الخلق..... 128
المطلب الثالث: دلائل النظام والتسخير..... 140
أولا: الأرض..... 142
ثانيا: الشمس والقمر..... 144
ثالثا: النجوم والكواكب..... 149
رابعا: المطر أو الماء النازل من السماء..... 151
المطلب الرابع: دلائل الجمال الكوني..... 153
أولا: جمال السماء..... 155
ثانيا: جمال النبات..... 158
ثالثا: جمال الأنعام..... 160
المبحث الثاني: دلائل الأنفس على وحدانية الله تعالى..... 163
المطلب الأول: مفهوم الأنفس..... 163
المطلب الثاني: دلائل الخلق..... 166
أولا: الخلق الأول "آدم عليه السلام"..... 167
ثانيا: دليل الحس والمشاهدة "سلالة آدم عليه السلام"..... 173
أ-حقيقة الحياة الجنينية..... 175
ب-حقيقة الحياة الإنسانية بعد الولادة..... 182
المطلب الثالث: دليل ضعف الحاجة..... 186

أولا: النوم..... 188
ثانيا: الطعام..... 190
ثالثا: السمع والبصر والقلب..... 192
رابعا: الشدائد والابتلاءات وعذاب الاستئصال..... 199
خامسا: الموت..... 201

الفصل الثالث: تأثير التوحيد في الحياة

التمهيد..... 205
المبحث الأول: تأثير التوحيد في الحياة الفردية والاجتماعية 209
المطلب الأول: تأثير التوحيد في الحياة الفردية 209
أولا: تصحيح الفكر..... 215
ثانيا: تحقيق استقامة السلوك..... 217
1-النية..... 219
2-الصلاة..... 220
3-الصوم..... 221
4-التزام التحليل والتحريم الذي جاء به التشريع..... 224
أ-الزنا..... 225
ب-الخمر..... 226
المطلب الثاني: تأثير التوحيد في حياة الأسرة..... 228
أولا: مفهوم الأسرة وأسس بنائها..... 234
ثانيا: أهداف بناء الأسرة..... 241
1-المودة والرحمة والسكن النفسي..... 241
2-الذرية والنسل..... 242
3-الالتزام بالمسؤولية..... 244
4-تنشئة الأبناء وحفظ كرامتهم وحريتهم..... 248
المطلب الثالث: تأثير التوحيد في حياة المجتمع..... 249
أولا: أسس بناء العلاقات الاجتماعية..... 250
1-وحدة الخلق..... 251
2-وحدة الغاية..... 252

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3-وحدة المصير..... 254
ثانيا: مبادئ العلاقات الاجتماعية..... 255
1-تقرير مبدأ الحرية..... 257
2-حفظ الأمانة..... 260
3-العدل والقسط..... 262
4-الوفاء بالعهد..... 263
ثالثا: أهداف إقامة مبادئ العلاقات الاجتماعية..... 266
المبحث الثاني: تأثير التوحيد في التعامل الكوني الاقتصادي 270
المطلب الأول: التعامل الكوني..... 270
أولا: أسس التعامل مع الكون..... 272
ثانيا: توجيه الفكر..... 274
ثالثا: توجيه السلوك..... 281
1-توجيه الانتفاع الروحي..... 281
أ-الانتفاع المعرفي..... 282
ب-الانتفاع الجمالي..... 283
2-توجيه الانتفاع المادي..... 286
أ-توجيه الانتفاع من الحيوان..... 287
ب-توجيه الانتفاع من نبات الأرض..... 289
جـ-ضوابط الانتفاع..... 290
رابعا: أهداف توجيه التعامل الكوني..... 282
1-العلم..... 292
2-قوة الإرادة..... 292
3-التوكل والذكر والإطمئنان إلى الرزق..... 293
4-المسؤولية..... 294
المطلب الثاني: توجيه الاقتصاد..... 295
أولا: مفهوم الاقتصاد..... 296
1-المفهوم اللغوي..... 296
2-المفهوم الاصطلاحي..... 297

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ-مفهوم علم الاقتصاد..... 298
ب-مفهوم المذهب الاقتصادي..... 299
جـ-مفهوم الاقتصاد الإسلامي..... 302
ثانيا: أسس النظام الاقتصادي..... 303
ثالثا: مميزات الاقتصاد الإسلامي..... 307
رابعا: أهداف الاقتصاد الإسلامي..... 314
المطلب الثالث: عوامل الاستمرارية ودوام التمكين..... 316
أولا: قوة الفكرة التي يكونها التوحيد..... 317
ثانيا: قوة الضوابط..... 318
ثالثا: وحدة العمل والسلوك..... 320
رابعا: شكر النعمة..... 321
خامسا: التوبة..... 326
سادسا: الوسطية والاعتدال..... 325
خاتمة..... 329
الفهارس..... 337
أولا: فهرس الآيات 338
ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية 367
قائمة المصادر والمراجع 369
فهرس الموضوعات 382

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية